الجهاد والاجتهاد

تأملاتٌ في المنهج

عمر محمود أبو عمر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله،نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: قال تعالى: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) [التوبة : 122]

قال القرطبي: "فيها أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية إذ لو نفر الكل لضاع من ورائهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع" . التفسير (8/293).

وقد جعل الله سبحانه الناس في هذه الآية قسمين: مجاهد ومجتهد ولا خير فيمن سواهم، والمجاهد مجتهد والمجتهد مجاهد، فإن الجهاد والاجتهاد مشتقان لغة إما من الجَهد بفتح الجيم وهو " التعب والمشقة" أو من الجُهد بالضم وهو " الوسع والطاقة ".

قال سيد قطب رحمه الله عقب الآية: " إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة، والذين يعكفون على الكتب والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاما فقهية " يجددون" بها الفقه الإسلامي أو " يطورونه " وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية لله وحده بتحكيم شريعة الله وحدها وطرد شرائع الطواغيت.. هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين، ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين".[1]

واعلم أن الغاية من الجهاد والاجتهاد هي: « تعبيد الناس لله وحده وإخراجهم من العبودية للعباد وإزالة الطواغيت كلها من الأرض وإخلاء العالم من الفساد ».[2] وقد فقه هذا الدين سلف الأمة وخيرها وتمثلوه حتى أصبح هيئة راسخة في نفوسهم، ووصفا لازما ففاضوا على العالم وعيا وعلما بالرسالة. قال الطبري: "أرسل سعد بن أبى وقاص ربعي بن عامر قِبَل القادسية إلى رستم قائد جيش فارس بناء على طلبه، فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلي خلقه لندعوهم إليه. فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا. ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلي موعود الله! قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي".[3]

---

[1] - الظلال (1735).
[2] - هذا الدين (ص 15).
[3] - التاريخ (1 / 2271).

ثم طال الأمد على الأمة فرجعت القهقرى ونسيت العهد، وكأن الزمـان قد استدار كهيئته يوم بدأ، فعـاد الـدين إلى غربته الأولى كما في الحـديث: "**بدأ الإسلام غريبا وسعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء**".[1]

"وكأنما نـادى لسـان الكـون على العـالم بـالخمول والانقبـاض فبـادر بالإجابـة". كما قـال ابن خلـدون. وأفـول العمـران يحتـاج إلى التجديـد، والتجديد إنما يكـون بعد الـدروس الـذي هو غربة الإسـلام وذلك بالجهـاد والاجتهاد. بتجديد النظرة الشـاملة إلى العـالم على المسـتوى المعـرفي و المجتمعي والقيمي، الذي أصيب بالعطب في هذه الأعصر المتأخر ة.

لقد أخذ الأخ الصـــديق عمر أبو عمر بمقتضـــيات التجديد في معالجة قضايا الجهاد والاجتهاد، وذلك بتوسيع هذه المفاهيم وتجديدها لتأخذ مكانتها اللائقة في مجتمعاتنا المعاصـرة، فقد أخذ بـالنظرة الشـمولية والتكامليـة، وليس بالنظرة التجزيئية والتفاضلية، فجاءت تأملاته على اقتضابها وكثافتها كالوابل الصيب، فأيقظت نفوسنا وأحيت أرواحنا من غفلتها ودعتها.

إن الربط المحكم الذي جاء به المؤلف بين الجهاد والاجتهـاد، والعبودية والتوحيـد، يعيد إلى الـدين جدتـه، ويجعله غضا طريا كما كـان عليه عند التنـــزيل قبل أن تطاله يد التأويل والتبـديل. والتميـيز الـذي أتى به بين الخلق والأمر والكوني والشرعي جعل التواصل مع الشـريعة أمـرا ممكنـا، إن الفضل يعود إلى شـيخ الإسـلام ابن تيمية - رحمه الله - في بيـان هـذه المفـاهيم، ولكن الغفلة الـتي أصـابت الأمة أدت إلى انـدراس الشـريعة، وغموض المفاهيم، واشتباه الحقائق.

يقـول ابن تيميـة: "حكم الله نوعـان: خلق وأمـر". وقـال: " وكثـير من النـاس تشـتبه عليهم الحقـائق الأمرية الدينية الإيمانية بالحقـائق الخلقية القدرية الكونية، فان الله سبحانه له الخلق والأمر، كما قال تعالى: {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين}. فهو سبحانه خالق كل شـيء وربه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل ما في الوجود من حركة وسكون بإرادته وقـدره ومشـيئته وقدرته وخلقـه، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله، ونهى عن معصيته ومعصية رسـله. أمر بالتوحيد والإخلاص ونهى عن الإشراك بالله".[2]

ومما ينبغي التنبيه عليه أن هم المؤلف هو أن يعيد لمفهـــومي الجهـــاد والاجتهاد إنتاجيتهما في مجتمعاتنا المعاصرة، بعد أن عطلا زمنا طويلا، وقد تيسر له ذلك بربط الجهـاد والاجتهـاد بالقـدرة والاسـتطاعة بعد أن أنيطا ردحا من الزمن بالإمام. فالجهـاد هو الـذي يمثل القـوة في أكمل معانيهـا، والاجتهاد هو الذي يمثل المعرفة بأشمل معانيها، ولا يخفى على اللـبيب أن شـبكة علاقـات القـوة بالمعرفة هي الـتي تشـكل السـلطة بمعناها الكامل والشامل.

يقول ابن تيمية في الجهاد والقدرة: " ولما كان الجهـاد من تمـام ذلك - أي الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر - كـان الجهـاد أيضا كـذلك فـإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرتـه، إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته".[3]

---

[1] - رواه مسلم.
[2] - الفرقان (ص 53).
[3] - الفتاوى (28/126).

ويقـول في الاجتهـاد والقـدرة: "وكـذلك العـامي إذا أمكنه الاجتهـاد في بعض المســائل جــاز له الاجتهــاد، فــان الاجتهــاد منصب يقبل التجـــزؤ والانقسـام، فـالعبرة بالقـدرة والعجـز، وقد يكـون الرجل قـادرا في بعض عاجزا في بعض".[1]

أود أن أنبه أن أصل هـذا الكتـاب عبـارة عن مقـالات متفرقـة، ينتظمها سلك الجهاد والاجتهـاد، فـإن وجد القـارئ الكـريم تفككا في الـتركيب فلن يعدم تماسكا في المعنى والمضمون، وإثم ذلك على جامعه لا مؤلفه.

أســأل الله العلي القــدير أن يوفقنا لما يحب ويرضــى، وأن يجعلنا من أهل الجهاد والاجتهاد، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] - الفتاوى (5/203).

الفصل الأول

العبودية والصراع

" ما يصـنع أعـدائي بي، أنا جنـتي في قلبي، وبستاني في صـدري، أين رحت فهي معي لا تفــــــارقني، أنا حبسي خلـوة، وقتلي شـهادة، وإخـراجي من بلدي سياحة"

ابن تيمية

حقيقة الصراع

كيف صور القرآن الكريم معركة الحق مع الباطـل؟ يعـتري هـذا البحث تصورات ومفاهيم تحتاج إلى تجلية وبيـان، إلا أنه ما يلزمنا هنا أن نسـتطلع الحق القرآني ليرشدنا في كشف (المنهزمين) أمـام الباطـل، وكيف دخل في روعهم روع الباطل فاسـتحكم تلبيسه عليهم فظنـوه شـيئا يسـتحق الخـوف والتقـوى، فصـار كل جهـدهم قـائم في ترضـية الباطل وطلب الرخصة منه في مزاولة حقهم - إن كان لديهم حق -، وصـاروا يـرددون مع أهل الجاهلية أن كافة أوراق القضية في يد البيت الأبيض حينـا، وفي أدراج قصر الإليزيه حينا آخر، وفي أروقة السياسة الإنجليزية حينا آخر، فهم على الـدوام كرويبضة الأرض؟ لا يقر قرارها في السـعي المكـوكي عند هـؤلاء الطواغيت وغيرهم ليشرحوا لهم صورة (إسلام) الاستسـلام، وديمقراطية الإسلام، وسلامة الإسلام من أن يفكر بالعـداء لهم، أو التحـرش بهم، ولعل المـراقب (ضـعيف النظـر) يسـتطيع أن يلاحظ هـذا الكم من النـدوات والمؤتمرات التي تعقد في بلاد الردة، وفي بلاد الغرب تحت عنوان "علاقة الإسلام بالغرب". وهذه الندوات كلها تدور في فلك الفتوى العصـرية الـتي يسعى من أجلها الغرب في ترويض الإسلام، وإزالة عـوارض وموانع الغـزو الحضـاري الغـربي بأبعـاده الفكرية الكـافرة، وبما تحمل من حِمل أخلاقي يـــدعو إلى الحرية والإباحيـــة، وكــذلك من حمل سياسي في تـــرويج الديمقراطية المزعومة، هذه الندوات واللقـاءات والمـؤتمرات شـهد بعض الاخـوة صـورها في بريطانيا تحت عنـوان "علاقة الإسـلام بـالغرب. علاقة تعاون أم تصادم؟". أو قريباً من هـذا العنـوان. كـان شـعار المـؤتمر يحمل مضمونه، حين دمج الشعار صـورة المئذنة (الإسـلامية المزعومـة) ودولاب حركة التقدم الفيزيائي (الغربي)، وهو شعار يثـير في النفس مجموعة من التساؤلات والملاحظـات المصـاحبة للغضـب، وأبـرز هـذه الملاحظـات تلك الانحرافات التي نحن بصددها، وهي حالة الانهزام الكبرى التي يعيشها تيار (الإسـلام الغـربي المنحـرف)، فهم لا يـرون في الإسـلام إلا قيما روحية (بالمفهوم الكنسي)، وأما عجلة الحياة فالذي يفرزها الغرب (الحضـاري!!) فحق الإسـلام في عقـول هـؤلاء القـوم هو المسـجد، ولقيصر بعد ذلك كل شيء، وقد يستغرب بعض الاخوة من هذا الاتهـام الـذي نوجهه لهـذا التيـار الإسلامي الضال، ولكن المنصف يستطيع أن يدرك هـذا من رؤيته السـقف الأعلى من المطالب التي يريدها هذا التيار المنحرف.

إن هذا التيار المنحرف، يحصر دوره في الإصلاح الاجتماعي فقط، فهو بما يحمل من مفاهيم (الكنيسة = إسلامية) قادر على منع الجريمة في المجتمعات، ويقضي على مظاهر الفساد فيها، وكل هذا حق، لكنه يطرح هذه البرامج من خلال مظلة الجاهلية الحاكمة، فقد سقطت من أذهان هذا التيار المقولة المكذوبة أننا نريد أن نصل إلى الحكم لنعيد الحق إلى صاحبه (الله) سبحانه وتعالى، وصار عامة ما يردد هذا التيار المنحرف الطلب من الجاهلية أن تأذن له ليقضي على ما يعيق التنمية تحت مظلة الجاهلية.

ومن نازعنا في هذه الأحكام فهو بلا شك ليس ضعيف النظر في المراقبة، بل أعمى البصيرة مع فقدان قوة الإدراك كذلك.

وأما المسألة الأخرى التي تستوقفنا في هذا المؤتمر، فهو ما قاله أحد رواد هذا التيار المنحرف راشد الغنوشي عند دعوته إلى انخراط الشباب المسلم في أوربا في داخل المجتمعات، وعدم وضع الفواصل المعارضة لهذا الاندماج، بل ذهب أكثر من هذا، حين صور الغرب صورة حضارية إنسانية سامقة، وجعلها الحاملة لمشعل التفكير العلمي المتألق، وأما شبابنا الإسلامي في أوروبا، فما زالت عالقة في ذهنه قيم الانحطاط التي يحملها، إرثا تاريخيا ضربة لازب.

وإن شئت المزيد فانظر إلى بعض شباب هذا التيار المنحرف وعملهم في مؤسسة مقرها بريطانيا شعارها "مؤسسة نشر الديمقراطية في العالم ". أو قريبا من هذا العنوان، ترى القائمين عليه من الشباب من العالم الإسلامي هم شباب "الإخوان المسلمين" ومن هؤلاء بعض الشباب الذي تجرأ في نقد حركة الإخوان المسلمين (وهو منها) بأنها ما زالت معوقة في دخولها في الفهم الديمقراطي، واعتبر أن سبب هذه الإعاقة كونها متأثرة بفكر سيد قطب (المتكلس) أي (المتجمد)، فهذا التيار بما فيه من عوامل الانهزامية وصلت الدعوات فيه إلى تسمية القيود الشرعية: بالعوائق التي تمنع تقدم مسيرة الحركة بأن تصبح حزبا سياسيا كحزب الخضر (حزب يدعو فقط إلى الحفاظ على البيئة من التلوث والتخريب)، وذهب هؤلاء الشباب إلى تبني إمامة حسن الترابي (إمام هذا التيار - أو كما يحلو أن يسمى نفسه "ليبرالي حر").

وصورة أخرى من ممارسات هذا التيار: هناك محاولة إسلامية !! قامت في أوروبا بإخراج مجلة تطرح التفكير الإسلامي الأصولي!! بثوب إنساني عصري متطور، وإذا أردت أن تعرف ما تحمل من أفكار انهزامية فانظر إلى عنوانها "الإنسان " ومن أبحاثها الأولى في عددها الأول: محاولة لقراءة تجربة محمد علي الألباني. الذي حكم مصر في بداية القرن الماضي، والذي أجمع أهل العقول الإسلامية أنه رائد الكفر العصري في الدول الإسلامية، إذ أنه أول "من دفع أهل الإسلام إلى حضن الجاهلية عن طريق الابتعاث، واستيراد النظم الدستورية الأوروبية (اقرأ ملزما: "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" لمحمود شاكر، وهي في صدر كتابه ""المتنبي")، هذا الكاتب في مجلة "الإنسان" يجعل تجربة محمد على تجربة إسلامية حضارية لم تأخذ أبعادها.

جذور الصراع وأدواته:

صـــــراع الحق مع الباطل تمتد جــــذوره منذ أن وحد البشر على وجه الأرض، فهو من سـنن الله القدرية الـتي فطر الخلق عليهـا، ولأن الشـرع الحكيم قام على الحق، وقام ليعالج ما فطر عليه البشر من نوازع ورغبات ليقيمها على ما فيه صلاحها، فقد شرع الله للمسلمين أن يشرعوا ويبـدءوا في إزالة الباطل واجتثاثه من جذوره، حتى لا تقوى أصوله، ولا تتجذر أثاره في حياة الناس والخلق، ولذلك شرع الله الجهاد لعباده، وكـان شـعار هـذا الجهاد هو: إقامة دين الله تعالى وإماتة الشرك... {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}.

وقد كشف الله مسيرة الصـراع بعبـارات رائعة تحمل في طياتها طبيعة الحق، وتكشف حقيقة الباطل، والمنهج القـرآني هو منهج الحق والصـواب وضده منهج السحرة والخرافيين.

منهج السحرة تزوير الواقع، وإلباسه لبوس الخداع والتمويـه، فالسـاحر هو الـذي يقلب لك في نظـرك العصا حيـة، وبزيف لك صـورة الأشـياء فلا تراها على ما هي عليه. ومدار التاريخ الإنساني كان طواغيت البشر (الآلهة الكاذبـة) يسـتخدمون السـحرة في تأليه النـاس (أي تعبيد النـاس) لهم. والسحر حسب النص القرآني والحديث النبوي يطلق على أمرين:

الأمر الأول: هو الذي يغير صور الأشياء في أعين النظـارة دون تغيـير لحقيقتها لأنه لا يسـتطيع أن يخلق إلا اللـه، فالعصا تتحـول إلى أفعى في أعين الناس لا في حقيقتها. قال تعالى: {**قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكـون نحن الملقين، قـال ألقـوا فلما ألقـوا سـحروا أعين النـاس واسـترهبوهم وجـاءوا بسـحر عظيم، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصـاك فـإذا هي تلقف ما يـأفكون، فوقع الحق وبطل ما كـانوا يعملـون، فغلبـوا هنالك وانقلبـوا صـاغرين**} الأعـراف، وقـال تعـالى: {**فـإذا حبـالهم وعصـيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**} طه.

الأمر الثـاني: هو الـذي يغـير الحقـائق في أذهـان النـاس عن طريق الخـداع البيـاني والقـدرة اللفظيـة، قـال صـلى الله عليه وسـلم: (**إن من البيان لسـحرا**) حـديث صـحيح، وقـال تعـالى: {**وإذ قـال عيسى بن مـريم يا بـنى إسـرائيل إني رسـول الله إليكم مصـدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يـأتي من بعـدي اسـمه أحمـد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هـذا سـحر مـبين**} الصـف، والآية تـدل على أن الناس كانوا يطلقون على البيان البليغ سحرا.

وكلا الأمرين يجتمعان في:

1 - تزوير الحقائق بتمويهها في البصر أو في البصيرة.

2 - لا يقع السـحر على المسـحور إلا باسـتخدام الإرهـاب، "فاسترهبوهم".

3 - اكتشـاف الحقيقة تبطل السـحر، قـال تعـالى: {**ولو أنزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هـذا إلا سحر مبين**} الأنعام، والآية تدل على أن المرء إذا أبصر الحق بطريق صحيح (كاللمس بالأيدي) لا يعذر بسحر الساحر له، بل هو كذاب مفتر.

صور الصراع في القران:

والآن كيف صور القرآن صراع الحق والباطل (السحر):

1 - قال تعالى: {**بل نقذف بالحق على الباطل ليدمغه فـإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون**}.

فالحق قذيفة، ولا يكون إلا كذلك، لأن فيه من عوامل القوة الذاتية التي أودعها الله فيه ما يجعله كـذلك. وكـذلك قوله تعـالى: {وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى} طه.

2 - قال تعالى: {**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كـان زهوقا**} الإسراء.

ففي هذه الآية بين الرحمن سبحانه وتعالى حال الحق حين يظهر أمـره بعبـارة "جـاء الحـق" وهي عبـارة تلقي في النفس ظلال الحركة الحقيقية الـــتي لا تحمل جهـــدا عظيمـــا، ولا تكلف عملا شـــاقا، بل هي مســـيرة طبيعيـة."جـاء" على الـرغم أن الآية الأولى بينت أن حركة الحق هي حركة (قذيفة)، وهي تجد مسـرعة في حركتها لتزيل الباطل وتـدمره. وليس بين الآيـتين تعـارض، بل كل حـرف في الأولى يشـهد لكل حـرف في الثانية ويشـبهه، وهـذا معـنى قوله تعـالى: {**الله نـزل أحسن الحـديث كتابا متشابها مثاني**} الزمر. لكن الباطل في الآيـتين (زاهـق، زهوقـا): وهي تعني خروج النفس والروح، واضمحلال أمره وخضـوعه لغـيره، وهي لفظة تثير في النفس حقيقة هذا الباطل، وأنه سـريع الـزوال لا روح له ولا دوام، قال ابن القيم: واعلم أن الشر بالذات هو عـدم ضـروريات الشـيء وعـدم منافعه مثل عدم الحياة وعدم البصر. ا. هـ، فهذا هو الباطل إذ يعني غيـاب الحـق، فـإذا جـاء الحق (على صـورة قذيفـة) فـإن الشر والباطل لا بد أن يـزول كما قـال تعـالى عن عصى موسى لما ظهـرت لحبـال السـحرة: {**فوقع الحق وبطل ما كـانوا يعملـون، فغلبـوا هنالك وانقلبـوا صاغرين**}. وهـذا كله نـراه في الحس والبصـر، فـإن الظلمة تعـني عـدم وجـود النـور، فـإذا غلب على النـاس الظلمة واستشـرى أمرها فهو واقع بحسب غياب النور والهدى.

ومما يخدمنا في هذا الباب الأمور التالية:

أن العلاقة بين الحق والباطل وبين الشر والخـــير، وبين السـحر وأمر الله، وبين النور الظلمـة، هي علاقة صـراع، لا يقع الواحد إلا ويغيب الآخـر، ولا يمكن أن يرضى أحدهما بوجود الآخر، ولو أراد أهل الحق التماس الإذن بوجودهم من الباطل - ولو أدى هذا الالتماس إلى إفــراغ الحق من طبيعته (أي بكونه قذيفـــة) - فـــإن الباطل لن يـــأذن ولن يســـمح، وصـــورة الإذن الوحيـدة هي: {**تلقف ما يأفكون**}، و{**نقـذف بـالحق على الباطل فيدمغه**} و{**جــاء الحق وزهق الباطل**}، أي بــأن يقتلع الحق الباطل من جـذوره ويخـرج روحه منه بيـده، وليس عن طريق انتظـار أن تخـرج روحه منه بنفسه.

وعلى هذا فإن كثيرا من الجماعات الإسلامية التي تنكر الجهاد في هـذا العصر أو تدعو إلى (تأجيله) تتهم المجاهدين بأنهم يعطـون المـبرر للباطل بـأن يضـربهم ويقتلهم، وهـؤلاء جد واهمـون، لأنهم جهلـوا طبيعة الباطـل، وجهلوا أن ذات الحق (دون حركته) لا يرضى عنه ولا بوجوده الكفر بحال.

وبين أيدينا مئات الأمثلة منها:

صراع لوط عليه السلام مع قومه، فلماذا عاداه أهل الفاحشة؟ هل لأنه حمل عليهم؟ أو كر عليهم بليـل؟ كل هـذا لم يحـدث، إنما علة محاربتـه: {**اخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**} الأعراف.

وانظـروا إلى هـذا الحـديث العجيب بين نـبي الله شـعيب عليه السـلام وبين قومه، وتفكـروا في عـرض شـعيب على قومه ومـاذا قـال لهم: قـال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: {**وإن كـان طائفة منكم آمنـوا بالذي أرسـلت به وطائفة لم يؤمنـوا فاصـبروا حـتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين**} الأعراف (87). رجل يقول لقومــه: أنتم في حالكم ونحن في حالنا، طائفة آمنوا وطائفة لم يؤمنوا، فيا أيها الكافرون لا تعتـدوا علينا ولا نعتـدي عليكم حـتى يقع أمر قـدري لا بأيـدينا ولا بأيـديكم فيكون هو الفصل بين الطائفتين.

الصراع: معنى الحق وحقيقة الباطل

فماذا تتوقع أن يكون الجواب؟ الجواب؛ هو جواب كل طاغوت: {قـال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والـذين آمنـوا معك من قريتنا أو لتعـودن في ملتنـا} الأعـراف (88)، نعم هـذا هو جـواب قومه (الطـاغوت) وهو جـواب لا يمكن أن يتخلى عنه الباطل أبـدا. فـأي ضـلال وأي انحـــــراف لرحل علم طبيعة الباطل ثم هو يطلب الإذن منه أن يعمل في نشر حقه؟.

إذا قلنا إن الباطل ليس له حقيقة في نفســه، بل هو غيـــاب الحق كما قال ابن القيم رحمه الله، فسيكون السؤال في الأذهـان: ما معـنى ظهـور الباطل على الحق في جـولات كثـيرة نحسـها في عين الزمـان، ونراها في واقعنـا؟ والجـواب على هـذا التسـاؤل يتشـعب إلى عـدة نقـاط نمر على بعضها إن شاء الله تعالى:

البيان الأول: اعلم أن الله قد قـرر في كتابه أن الحق لا يهـزم أبـدا، وقرر سـبحانه وتعـالى أنه لن يجعل للكـافرين على المؤمـنين سـبيلا، قـال تعالى: {**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سـبيلا**} النسـاء. والجاهل يظن أن هذه الآية تنخرم بعض الأحيان لما يـرى من ظهـور الكفر على الإسلام حينا، وهذا جهل عظيم في دين الله تعالى.

قال الإمام الشاطبي في الموافقـات في قوله سـبحانه وتعـالى: {**ولن يجعل الله للكـــافرين على المؤمـــنين ســـبيلا**} إن حمل على أنه إخبار، لم يستمر مخبره، لوقوع سبيل الكـافر على المـؤمن كثـيراً بأسـره وإذلاله، فلا يمكن أن يكون المعنى إلا على ما يصدقه الواقع ويطـرد عليـه، وهو تقرير الحكم الشرعي. فعليه يجب أن يحمل. ا.هـ. (1/100 - 101).

قلت: وهذه لفتة عظيمة من هـذا الإمـام ينبغي الالتفـات لها منذ زمـان بعيد، لأن ما نعيش فيه هذه الأيام يـدل على أننا ابتعـدنا كثـيرا عن مفـاهيم الكتاب والسنة، بسبب تلك الأفكار الدخيلة الـتي شـوهت مفـاهيم الإسـلام العظيم.

ولتفســـير كلام الشـــاطبي نقـــول: إن الآية فيها أمر من الله تعـــالى للمؤمــنين أن لا يقبلـــوا الدنية في دينهم، وأن عليهم أن يبـــذلوا أقصى طاقاتهم لمنع حصول الذل، فإن حصل ظهور للكفـرة عليهم فهو دال على أنهم قصـروا في تطـبيق أمر اللــه، فهنا في الآية على الصـحيح أمر إلهي

ووعد إلهي؟ أما الأمر: فهو أن يكونوا مؤمنين، والإيمان هنا يعـني المدافعة والقتال وطلب الظهور والعزة، وهذا راجع إلى مفهوم أهل السنة لمسـمى الإيمـان، وقد وقع المعلق على كتـاب الشـاطبي وهو الأسـتاذ الفاضل عبد الله دراز في خطأ حين ظن أن الآية بعريّها عن قوله: وعملـوا الصـالحات، تحمل على معنى آخر، وذلك لظنه أن الإيمـان هنا هو الحكم وليس الدرجة والمرتبة، والصحيح أن قوله سبحانه وتعالى في هذه الآية (المؤمـنين) هي قيامهم بواجب الإيمان وهو واحب الـدفع والمدافعـة، ومثل هـذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم : (**إذا تبايعتم بالعينـة، واتبعتم أذنـاب البقـر، وتركتم الجهاد في سبيل الله سـلط الله عليكم ذلا لا يرفعه إلا أن تعودوا لدينكم**) حديث حسن، فمعنى الدين هنا هو معنى الإيمان في الآية السـابقة، وهو الجهـاد. فـإن الـذل لا يرفع بالصـلاة، ولا بالزكـاة، ولا بالحج، ولا بالذكر، وكلها دين وتساعد في رفع الذل، ولكن الـذل لا يرفع إلا برفع السبب الذي حصل به الذل وهو تـرك الجهـاد في سـبيل الله تعـالى. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (**ما تـرك قـوم الجهـاد إلا ذلـوا**). وعليك أخي المسلم أن تتنبه إلى التنكير الموجود في قوله صلى الله عليه وسلم : (قوم)، لأن ترك القتال من قبل قوم (أي قوم) يـؤدي إلى الذلـة، ومثله قوله صـلى الله عليه وسـلم: (**ما غـزي قـوم قط في عقر دارهم إلا ذلـوا**). وعلى هـذا فـإن الآية تطلب من المؤمـنين أن يكونـوا مؤمنين أي مجاهدين، كقوله تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا آمنوا**}) ومثل قوله تعـالى: {**يا أيها الذين آمنـوا خـذوا حـذركم فـانفروا ثبـات**} وكقوله: {**يا أيها الذين آمنوا اصـبروا وصـابروا ورابطـوا**} وغيرها كثـيرا من الآيـات العظيمـة، ولا يظنن ظـان أن قولـه: {**خذوا حـذركم**} وقولـه: (اصـبروا) أمر زائد عن مسـمى الإيمـان فـإن هـذا من غلط أهل البدع وفسادهم، لأنهم يقولون: إن الإيمان قول القلب فقط وبعضـهم يزيد للدلالة على قول القلب قول اللسـان. ولما انتشـرت هـذه البدعة المبـيرة في الناس وهو قولهم: إن الإيمان في القلب. ذهبوا في تفسير هذه الآيات مـذاهب شـتى وكلها باطلـة، فحملـوا قوله تعـالى: {**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**} على مفهوم الوعد فقط فقـالوا: إذا حصل إيمـان القلب (أي تصـديقه) فـإن الله سـيدافع عنهم بقدرته دون أفعالهم (لأنها لم تذكر في الآية). فنسـبوا إلى قـول الله الخلف في وعـده لما يرونه من الواقع الذي يكذبهم.

أما أنها وعد: فنعم، ولكن على المفهوم الذي تقدم، فإذا قـام عبـاد الله بواجب الدفع والمدافعة، وشرعوا بالجهـاد، واسـتكملت لهم أدواتـه، فلا بد أن يقع الوعد الإلهي لأن السـبب والأثر - في حيـاة المـؤمن - لابد من تلازمها، والتلازم مطلق في باب الوعد، بخلاف باب الوعيـد، فـالتلازم غـير مطلق.

والنتيجـة: إذا تخلف الوعد دل لزوما على تخلف الأمر في نفس المكلف.

فهل بعد هـذا يقـول قائل ما معـنى ظهـور الباطـل؟ إن ظهـور الباطل مازال يعني غياب الحـق. والحق هو الأمر وامتثالـه. وظهـور الحق هو وعد ترتب على اكتمال الحق وتمامه.

البيـان الثـاني: إن ظهـور الباطل حينا هو مظهر من مظـاهر الحكمة الربانيـة. فإنه لا يقع شـيء في الكـون إلا لحكمـة، وقصد إلهي عظيم ولو ذهبنا نستكشف الحكم الإلهية لضاق بنا المقام، ولكن لنسوق بعضها:

الحكمة الأولى: - وهي أعظمها وأجلهـا- قـال تعـالى: {**حـتى إذا أخـذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قـادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصـيدا كـأن لم تغن بـالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**} يونس.

واعلم أن من أجل أسماء الله تعالى وأعظمها: المتكبر. قال صـلى الله عليه وسـلم في الحـديث القدسي عن ربـه: ((**العـزة إزاري والكبريـاء ردائي، فمن نـازعني فيهما عذبته**)) رواه مسـلم. فقد سـمى الله أشرف صفاته (الكبرياء)، وهذا الاسم هو عنـوان ربوبية الـرب، وعلى هـذا فإن من مظاهر هذا الاسم في هـذا الكـون أن يأخذ أعـداءه لحظة القـدرة الكاملة لهم، وهذا من تمام ألوهية الإلهية الحقيقية، ومن تمام كبريـاء الله تعالى، ومن تمام خداع الله تعالى للكـافرين. قـال تعـالى: {وأملي لهم إن كيـدي مـتين} الأعـراف والقلم. فـإذا تمكن الكـافر واسـتعلى في الأرض، وادعى لنفسه الربوبية فـإن هـذا من تمـام حكمة الله فيه ليأخـذه أخـذا شـديدا، لتعظم المصـيبة فيـه، وتظهر قـدرة الله (الـرب الحقيقي) لعبـاده المؤمنين.

وأعظم مثال على ذلك هو فرعون، قال تعالى: {**إن فرعـون علا لي الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يـذبح أبنـاءهم ويستحيي نسـاءهم إنه كـان من المفسـدين**}. وفرعـون هو الـذي قـال: {**ما علمت لكم من إله غـيري**} وهو الـذي قـال: {**أنا ربكم الأعلى**} فهذه خصومة بين رب حقيقي، له صفات الكمال المطلق، وبين رب مزيف كذاب {استخف قومه فأطاعوه}.

فما هي النتيجـة؟ إنها مظهر من مظـاهر ربوبية الـرب الحقيقي الدالة على كبريائه وعظمته وعلوه فوق خلقه.

قال سبحانه وتعـالى: {**ولقد فتنا قبلهم قـوم فرعـون وجـاءهم رسول أمين، وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين**... إلى قوله تعـالى.. **فما بكت عليهم السـماء والأرض وما كـانوا منظرين**} الدخان.

الحكمة الثانية: قال تعالى: {**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**} الملك. فإن الله خلق عباده للابتلاء والامتحان، وأشد النـاس بلاء وامتحانا هم المؤمنـون. قـال صلى الله عليه وسـلم: ((**يبتلى الرجل على قـدر دينه**)) رواه الترمـذي. فمن ابتلاء الله المؤمـنين أن يمتحنهم بغلبة الكـافرين وبظهـورهم عليهم، ليعلم الـرب من آمن به حق اليقين، وممن في قلبه شك ودخن. وهذا من تمـام حكمته وعظمتـه، فـإن الرب لا يرضى من العبد إلا أن يخلص له فلا يكـون في قلب العبد إلا اللـه. وعلى هذا اقرأ قصة قارون وعلوه في الأرض في سورة القصـص، وكيف كـان كـثرة ماله فتنة للنـاس، وثبت فيها أهل العلم بالله تعـالى ثم عقب عليها بقوله: {**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علـوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**}.

الحكمة الثالثة: ومن ابتلاء الله للمؤمنين بعلو الكفر حينا عليهم، ذلك ليرى من يطيعه بقتالهم ومنابذتهم ثقة بوعد الله تعالى، ممن يستكين للكفر ويذل له، كما حدث للصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في حركة الردة، فكان الصحابة هم أهل الإيمان واليقين وهم أحق به وأهله.

فارتفاع الكفر حينا هو فرصة ذهبية للمؤمن ليظهر صدق دعواه في تعلقه بعبودية الرب الحق قال تعالى: {**ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض**} محمد، وقال الله تعالى لنبيه في الحديث القدسي: ((**إنما بعثتك لأبتليك وابتلي بك**... إلى قوله... **استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك وأنفق عليهم فسننفق عليك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك**)) رواه مسلم.

سنن إهلاك الكفار:

يكثر الحديث الشيق في القرآن الكريم عن سنة إهلاك الله تعالى الكافرين، وهو حديث يرطب قلب المؤمن في صحراء الغربة القاحلة، فالمؤمن في زمن الضياع، وزمن قلة الإخوان والخلان، ونضوب القيم والفضائل، واستعلاء الباطل وغطرسته، وتبجحه أنه صاحب الأمر والشأن، وأنه لا راد لأمره، ولا فناء لملكه، في هذا الزمن يكون الحديث القرآني حادي حق، وصادح أمل للنفوس العطشى، المرتقبة أمر السماء العلوي بحصول القضاء الإلهي العاجل بين المستضعفين وأعدائهم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعالجات النفسية للمستضعفين في غير موطن فيه، ومنها قوله عن لوط عليه السلام لحظة استعلاء فجور قومه عليه ومراودتهم لضيوفه قال سبحانه وتعالى: {**ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب، وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات، قال هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد، قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم، إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**} هود.

فتمعن في عبارات لوط عليه السلام وما تحمل من آلام نفسية، وما تضمر من مخبآت تبين عن هذه الغربة التي يعيشها نبي الله لوط عليه السلام.

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى عنه: {وضاق بهم ذرعا}.

نعم لقد ضاقت نفسه، وذهب انبساطها، والعرب تقول: ضاق بالأمر ذرعا: أي لم يطقه ولم يقو عليه.

هل رأيتم نبيا عظيما يصل إلى هذه المرحلة وإلى هذه الصورة في استقبال ضيوفه؟، والأنبياء هم الأنبياء، خلقا ودينا، كرما وشجاعة، لكنه

عليه السلام: لم يطق ضيوفه، و لم يفـرح لقـدومهم، بل قـال: {هـذا يـوم عصيب}.

ثم تابع الحدث حكايته، وتزداد الأزمة حبكتها بين طرفين:

الأول : يملك الحق {**قوم يتطهرون**} ولكنه غـريب بحقـه، ضـعيف بأدوات مصارعته.

والثاني: الباطل بكل صـلفه وخبثـه، يتحـدث حـديث الفجـور باسـتعلاء وإعلان: {**لقد علمت مالنا في بناتك من حق**}.

باطل يتحدث عن الحقوق، ويراعيهـا، وينبه خصه إلى قواعد الشـرعية الدسـتورية، ويلبس مسـوح الحكمـاء {**لقد علمت مالنا في بناتك من حق**} انظـــروا إلى طريقته في الحـــديث، واعجبـــوا كيف صـــدرت كلمة "الحــق" منــه، وإلى طريقة تقرير القـانون {**لقد علمت**}، هم أصـحاب الحق والقانون، والخصم، لـوط عليه السـلام، نسي قواعد الحـق، والباطل يذكره بها،!!

ثم تواصل القصة تأزمها.

هؤلاء قوم: ليس فيهم رجل رشيد، إنهم يتحدثون عن أمـور لا رشد فيها ولا عقل ومع ذلك يقولون عن كل هـذا الطيش الـذي يخـرج من رؤوسـهم حقا، هل هؤلاء القـوم تـردهم الكلمـة؟ أو تزجـرهم الموعظـة؟ أو تهـديهم النصيحة؟.

هنا في هذه اللحظة تخرج كلمات الأسى والغضب، تخرج هذه الكلمـات كأنها الجمر تريد أن تحرق من أمامها، تخرج هذه الكلمات من فم نبي من أنبيـاء الله تعـالى: {**لو أن لي بكم قـوة**} مـاذا سـتفعل بهـذه القـوة يا لوط؟ هل تصلح لهم لما بها بنياتهم؟ هل تصـلح بها اقتصـادهم؟ هل تـدافع ما عن أعداء قومك؟ لا، بل لو أن لي بكم قوة لأدوس لما رؤوسكم، لو أن لي بكم قوة لأريكم العذاب ألوانا، لو أن لي بكم قوة لصنعت بكم ما صــنع خـاتم الأنبيـاء ب "عكل " و"عرينـة"، قطع أيـديهم وأرجلهم وجـدع أنـوفهم وقطع آذانهم ثم أحمى الحديد على النار حتى احمر ثم كحل عيـونهم به ثم رماهم في الحرة يستسـقون المـاء ولا يسـقون، هـؤلاء قـوم لا تنفع معهم الحكمة، بل من تمام الحكمة معهم أن تبيد خضراءهم وأن تقتلع رؤوسهم، وعلى هـذا فـإن الـذين يظنـون أن الحق لا يحتـاج إلى قــوة تحميه وتبيد أعداءه هم أصحاب عقول سخيفة لم تفهم سياسة الدنيا والدين.

{**لو أن لي بكم قـــوة أو آوي إلى ركن شـــديد**} إن لوطا عليه السلام نسي. والأنبيـاء ينسـون كما ينسى النـاس وآدم من قبل قد نسـي. أقول إنه عليه السلام نسي أنه هو في ركن شديد، قال ابن كثير: (ورد في الحـــديث من طريق محمد بن عمـــرو بن علقمة عن أبي ســـلمة عن أبي هريـرة أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: "**رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد** - يعني الله عز وجل - **فما بعث الله بعده من نبي إلا وفي ثروة من قومه**"). ا. هـ.

إن هذه العبارات التي خرجت من فم نبي الله لـوط عليه السـلام تـدل على حالة هي أشد ما يلقى الإنســـان من القهر والظلم، ولكن هل انتهى المشـهد أم أن هـذه بداية النهايـة؟. قـال تعـالى: {**حـتى إذا اسـتيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا**} يوسف.

في تلك اللحظة أتصور المشـهد بالصـورة التاليـة: لـوط عليه السـلام يقف أمـام البـاب وهو ينظر إلى تلك الحيوانـات البهيمية من قومـه، لـوط يرتجف غضبا، وحبات العرق النقية تنساب على جبهته، يـداه ترتفعـان حينا بالتهديد وبالإنذار، وحينا بالرجـاء {**هـؤلاء بنـاتي هن أطهر لكم**}، وأما تلك الحيوانـات الإنسـية فـإن منظرها لن يكـون إلا على الصـورة التاليـة: سـكرى يتمـايلون باسـتهزاء وسـخرية، ويهرشـون أبـدانهم القـذرة ارتقابا بعاجل الشـهوة، وليس بعيـدا أنهم يحملـون معهم بعض الأوراق كتب عليها "الدستور لقرية سدوم" (قرية نبي الله لوط عليه السلام)، وهـذا الدسـتور مكتـوب فيـه: "قـرر الشـعب أن يختـار حرية الجنس بين المتمـاثلين"، في هذه اللحظات التي امتدت في نفس لـوط إلى ملايين السـنين، ونسي كل شيء وغابت عنه أعظم الحقائق. وهو كونه يأوي إلى ركن شـديد. في تلك اللحظة التي بلغت فيها الأزمة ذروتها يخرج ضيف كأنه البدر ويضـرب كنف لـوط قـائلا لـه: {**إنا رسل ربك**}، أي نحن ملائكة العـذاب. يا اللـه! جـاء الفرج، جاء الفرج، وهنا أملأ مخيلتك بمشهد لوط عليه السـلام: تخيل مـاذا قال؟ وتخيل ماذا فعل؟ نعم في البداية جحظت عينـاه من هـول المفاجـأة ولم يصـدق ما سـمع، لكنه جزما رأى ابتسـامة على وجه الملك ردت إليه روح الأمل فصـرخ: مـاذا؟ ملائكة اللـه؟ ملائكة العـذاب؟: هيا عـذبوهم، اقتلـوهم، أروني بهم ما يسر نفسي ويفـرح قلـبي. أرجـوكم الآن لأشـفي قلـبي منهم. لكن الجـواب: {**إن موعدهم الصـبح**} هـذا جـوابهم. قـال لـوط: مـاذا؟ الصـبح! الصـبح بعيـد، وكـان الـوقت عصـرا - كما قـال أهل التفسير- أريد أن أشفى قلبي منهم الآن! قال الملائكة: بل انتظـر، الصـبح قـريب. نعم فكـان ما كـان: {**فلما جـاء أمرنا جعلنا عاليها سـافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود** (أي مصنوعة في السماء) مسـومة (أي مختومة بختم الصـنع وإما بأسـماء أصـحابها) **عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد**}، وانتهى المشـهد بكل حركته وبكل عظمتـه، وظهر أمر الله وهم كارهون.

في هذا الحديث القرآني عدة فوائد منها:

أولا: أن الباطل لابد إلى زوال، وأن فيه عوامل الفنــاء والفســاد، وأنه مهما طال الليل فلابد من الصبح.

وقد جعل الله الصبح علامة مباركة لأمور عدة أهمها:

أن الصبح هو ميقـات حركة الخيل المجاهـدة، قـال تعـالى: {والعاديـات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا} العاديات.

قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في فتح خيـبر: ((**الله أكـبر خربت خيبر إذا نزلنا ساحة قـوم فسـاء صـباح المنـذرين**)). وكما قال الله تعالى: {أفبعذابنا يستعجلون، فإذا نـزل بسـاحتهم **فساء صـباح المنذرين**}. فعلى الاخوة أن لا ييأسوا، ولا يستبطئوا النصر فإن لكل أجل كتاب، والصبح يأتي في موعده، ولن يطفئ نوره شيء.

ثانيا: أن الهلاك القــدري بالســنن الكونية كما كــان يقع في الأقــوام الكافرة السابقة قد توقف، وأن الله يعذب الكافرين الآن بأيدي المؤمـنين، فإذا أراد الله بقوم عذابا أغرى بهم عباده المؤمنين، فنـزلوا بساحتهم. قال تعــالى: {**ولقد أتينا موسى الكتــاب من بعد ما أهلكنا القــرون الأولى بصائر للنـاس وهـدى ورحمة لعلهم يتـذكرون**} القصص .

قـال ابن كثـير في تفسـيرها: (يعـني أنه بعد إنـزال التـوراة لم يعـذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا المشركين) ا.هـ. فعلى هذا فإن البــديل عن ملائكة العـذاب لقـوم لـوط هم أولئك الفتية صـبح الوجـوه. يضـربون وجــوه الكفــرة بأيد من حديد يتشــبهون بالملائكــة، فالملائكــة: {**غلاظ شـداد**} التوبـة، والفتية {**يا أيها النـبي جاهد الكفـار والمنـافقين واغلظ عليهم**}التوبـة، وهم {**وليجـدوا فيكم غلظة**} التوبـة، وهم {**أشداء على الكفـار**}. ورحم الله من لم يـرحم الكـافرين، ولا رحم الله من كان في قلبه رحمة للكافرين.

العبودية والشرك:

البيان القرآني لحركة الأنبياء في أقوامهم يقدمهم على أساس مشـترك بينهم جميعـا، وهو الحـديث الـدال على أن معركة الأنبيـاء وصـراعهم مع النـاس هو من أجل تحقيق عبودية الله فيهم، ولما كـان لفظ العبـادة لفظا يحمل معان كثيرة فإن التحديد هو الذي نحتاجه في هذا الوقت:

إن أعظم ما يصيب النـاس في مسـرة التـاريخ هو الشـرك، وهو أعظم ظلم يقع فى هـذه الحيـاة، قـال تعـالى: {**إن الشـرك لظلم عظيم**}، وصـراع الأنبيـاء مع هـذا الاعوجـاج لتقويمه ورده إلى الجـادة؛ أي رده إلى التوحيد، ولأن الأنبياء هم رسل الله وعبيده فهم يقومون أول ما يقومون به إقامة التوحيد في الأرض، ويكشـفون للنـاس ما وقعـوا فيه من ظلم لهـذا الحقن ومع أن هذا الظلم يـؤدي إلى مظـالم أخـرى؛ كالمظـالم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إلا أن إصلاح هذا كله لا يمكن أن يكون بمعزل عن إقامة الحق الأول، وهو حق الله على عبــاده، وتجــاوز هــذا الغــرز يبعد المسلم عن العبودية التي ينبغي أن يكون عليها، أي أن يكـون ممثلا لرسل الله في دعوتهم، وللتصريح فـإن المسـلم إذا قـدم نفسه مصـلحا اجتماعيا لمفسدة اجتماعية، أو إذا قدم نفسه مصـلحا سياسـيا للمفاسد السياسـية، أو تدم نفسه مصلحا اقتصـاديا للمصـالح الاقتصـادية تفقـده هـذه الصـورة الكثير من معالم الصورة الرئيسية لحركة الأنبياء في القـرآن، وعلى ضـوء هذه المقدمة نستطيع أن نتـبين الصـورة الحقيقية لكل جماعة تنتسب إلى الإسلام في قربها أو بعـدها عن الصـورة المختزنة في القـرآن الكـريم عن أنبياء الله تعالى. ولنتذكر أن معركة الأنبياء مع أقوامهم هي معركة التوحيد مقابل الشرك، أي هي معركة تحت راية التوحيد.

وقد يكون هذا العرض لهذه القضـية دافعا لمجموعة من قاصـري النظر لرده قائلين: وهل قضية الجماعات الإسلامية مع أقوامهم المسلمين اليـوم هي قضية إيمان وتوحيد مقابل شـرك وكفـر؟. وقد يكـون السـؤال أصـرح وأوضح: هل وقعت أمة الإسلام في الشرك والكفر؟. وفورا سيقفز للـذهن التهم التقليدية نحو أهل التوحيـد: خــوارج، جماعــات الغلــو، المــارقين... وغيرها إلى آخر هــذه القائمة الســوداء أما أن أمة محمد صــلى الله عليه وسلم يصيبها ما أصاب الأمم السابقة من الشرك والكفر فنعم، والقــائلون ببراءة الأمة المنتسبة للإسلام من الشرك هم جـاهلون بحقيقة التوحيـد، لا يعرفون منه إلا لفظه: ولبيان هذا الأمر لما فيه من خطورة، لابد أن نسوق بعض الأحاديث المعصومة الدالة على ما قـدمنا وأن طوائف من أمة محمد صـلى الله عليه وسـلم سـتلحق بالمشـركين والكفـار: فقد روى ابن ماجة

وأبو داود بسند صحيح عن ثوبان مولى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: ((**وإن مما أتخـوف على أمتي أئمة مضلين، وستعبد قبائل من أمتي الأوثـان، وسـتلحق قبائل من أمتي بالمشركين**)) ا. هـ.

فهذا حديث عظيم الفوائد، والرسول صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم، وقد فـرق صـلى الله عليه وسـلم بين أمـرين من الشـرك وهما من الأكبر، أما **الأول**: فهو قوله: ((**ستعبد قبائل من أمتي الأوثان**)) وأما **الثاني**: ((**ستلحق قبائل من أمـتي بالمشـركين**))، ومع أن نتيجتهما واحــدة وهي الكفر والشــرك، إلا أن الطريقة الموصــلة إلى هــذه النتيجة مختلفة، وليس من العبث التفصيل في بيان هاتين الصـورتين، فلنسر معـاً قليلاً في تجلية الفرق بين الحالتين لما فيهما من الفوائد العظيمـة، والـتي تكشف للمسلم طوائف الكفر في العصر الذي يعيش فيه:

الشرك الأول: وهو شرك عبادة الأوثـان، والأوثـان هي الأصـنام، قـال مجاهد : الصنم ما كان منحوتا على صورة، والـوثن ما كـان موضـوعا على غير ذلك. ا.هـ.

وعبادة الأصنام والأوثان هو صنيع من مال إلى التدين الفاسد في زماننا من صـوفية وقبوريـة، فالشـيطان قد نصب على طريق هـؤلاء صـورا من الشرك فتن بها الناس، ولذلك تـرى الكثـير من المتـدينين مشـركين بهـذه الأوثان والمعابد، حتى جزيرة العـرب الـتي جاهد فيها شـيخ الإسـلام محمد بن عبد الوهاب لإزالة هذه الأوثان منها، قد عادت إليهـا، والدولة المزعومة هنـاك لم تر بـديلا في إماتة دعـوة الشـيخ هنـاك، سـوى غض الطـرف عن الطرق الصوفية والمجالس الشركية الـتي تعقد في مكة والمدينة من قبل طوائف الصوفية هناك.

قال صـاحب قـرة الموحـدين: وقد وقع فيه - أي الشـرك - الأذكيـاء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة فاتخـذت الأصـنام وعبـدت... وصـرفت لها العبادات بأنواعها واتخذت ذلك ديناً.ا.هـ.

والعجب أن زعيم جماعة إســـلامية كـــبرى، وهي جماعة "الإخـــوان المسلمين"، المحـامي عمر التلمسـاني يعتـبر أن عبـادة القبـور، والالتجـاء إليهـا، والنـذر عنـدها، والطـواف حولها مسـألة ذوقيـة، وهـذا مقـدار فهمه للتوحيد الذي بعث به الأنبياء، ومع هـذا فـإن المستشـار القـانوني!! سـالم البهنسـاوي قـرر في كتابه "شـبهات حـول الفكر الإسـلامي المعاصـر" أن التوحيد في أذهـان المسـلمين أوضح من نـور الشـمس في رابعة النهـار، ويرفع النكـير على من قـال إن الأمة جهلت التوحيد ومقتضـياته، ونحن لو طفقنا نجمع كلام الأئمة قديما وحديثا على جهل النـاس بالتوحيـد، لضـاقت بنا المجلدات، ويكفي أن نردد مع الإمـام عبد الـرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب حين قال: (فلا يـأمن الوقـوع في الشـرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه.ا.هـ. من فتح المجيد.

الشرك الثـاني: وهو شـرك اللحـوق بالمشـركين وله صـور متعـددة تتجدد في كل زمان وتلائم شرك المشركين ق ذلك الزمـان، والمشـركون في زماننا هذا قد تميزوا بنوع من الشـرك، وهـذا الشـرك هو الـذي دخلت فيه كثير من الطوائف المنتسبة للإسلام، وهو شرك القضاء والتحاكم، فإن الكثـير من المنتسـبة للإسـلام لم يلحق شـرك الغـرب من جهة أنه صـار

نصرانيا أو يهوديا، وهو - بلا شك - شرك وكفـر، ولكن ما هو الشـرك الـذي دخلت فيه الطوائف هـذه الأيـام؟ إنه بلا شك شـرك الدسـاتير والقـوانين الوثنية.

وقد لحقت طوائف من أمتنا بهـــذا الشـــرك والكفـــر، ودخلت فيه إلى أعناقها، وهذا شرك الناس هذه الأيام وأغلبه، وإذا كان شرك الناس الــذين يميلـون إلى التـدين هو شـرك عبـادة الأوثـان، وهو شـرك المتعبـدين من صوفية وقبورية وخرافية، فإن شرك البقية الباقية ممن أعرض عن التـدين والعبادة، هو شرك اللحوق بمناهج ونظم وقوانين المشركين، والدخول في طـــوائفهم، كـــاللحوق بالشـــيوعية والعلمانية والبعثية والوطنية والقومية وغيرها من صور الشرك والكفر الأكبر، وهذا النوع من الشرك قد كثر هذه الأيام وتعاظم أكثر من غيره من صور الشرك الأخرى، وهو بلا شك صـورة جديدة بهذه الكثرة لم تعهدها أمتنا من قبل على هذه الشـاكلة من الكـثرة والوضوح، ولأن كثيرا من الناس قد مات لديهم الإبداع في اكتشـاف صـور الشرك وتجدده في حياة الناس، فإنهم ما زالـوا يحـاربون الشـرك بصـوره التي حاربها الأوائل من عبادة قبور وغيرها، وأما ما أحدث الناس من شرك جديد وهو شـرك الطاعة والتحـاكم لغـير الله فهم لا يقيمـون له وزنـا، ولا يقيمون له شأناً.

وإذا كان هناك من الجماعات الإسلامية ممن لم تكتشف شرك القبـــور، بل دخل بعض أفرادها فيه، فإن هناك طوائف من الجماعات الإســلامية لم تكتشف شرك القصور بل دخل بعض أفرادها فيه، وصـار طوائف من هـذه الجماعات جـزءاً من الطوائف الـتي لحقت بالمشـركين، فلو قيل لسـلفي مزعوم مازال يحلم بمصارعة طواحين الهواء القديمة: لمـاذا أنت في هـذا الجهاز الكافر لطائفة من طوائف الشرك؟ لحار جوابـاً ولم يـدر ما يقـول، وإلا فما هو عذر هؤلاء القوم من المنتسبين للتوحيد في تأييدهم للطـاغوت حينا، أو لدخول زعيم من زعمائهم في طائفة الكفر: بأن يكـون مستشـارا للطاغوت.

مثل هؤلاء القوم يقيمون النكير تلو النكير على شـرك القبـور - مع أنهم تخلوا عن الكثير من وضـوحه وجلائه - وأما شـرك القـوانين والدسـاتير فلا يهتمون به، وهذا يدل على أن التوحيد الذي بعث به الأنبياء قد أصابه الكثير من التشويه في أذهان المسلمين هذه الأيام.

نخلص من هذا إلى النتائج التالية:

1 - أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يصيبها ما أصاب الأمم السابقة من الشرك والكفر، والممتنع هو: اجتماع الأمة على هذا الكفر والشرك.

2 - أن الشرك الواقع في هذه الأيام له صورتان:

أ- شرك القبور: وهذا وتعت فيه طوائف المتعبدين.

ب - شـــرك القصـــور: وهـــذا وقعت فيه طوائف العلمـــانيين (الـــذين لا يقيمون للدين وزنا).

3 - أن الجماعات المهتدية هي التي تـبرأ من الشـركين، لا من أحـدهما ثم تقع في الآخر.

4 - أن معركة الجماعة المهتدية هي معركة توحيد ضد كفر، وإيمان ضد شـــرك، وليس معركة اقتصـــادية ولا سياســـية ولا اجتماعيـــة، وليست هي

كـذلك معركة حنبلي ضد حنفي أو شـافعي ضد مـالكي، أو لنصـرة مـذهب على مذهب أو قول فقهي على قول فقهي آخر.

العبودية والتمكين:

في كثير من الآيات القرآنية العظيمة، يكشف المسـلم توافقا عجيبا بين أمــور قد تبــدو لأول وهلة غريبــة، ولكن بإعمــال النظر يظهر للمســلم التساوق العجيب والارتباط الوثيق بينهما.

هناك قاعدة، نستمدها من مجموع بعض الآيات والأحـاديث في موضـوع تحقيق عبودية الله في النفس الإنسانية، هذه القاعدة هي: لا عبودية بغــير تمكين. ولا مغفرة من غير فتح. ولا فتح بلا شهادة.

1 - **لا عبودية بغير تمكين**: استقر في أذهـان المسـلمين في هـذه الأيام أن عبوديتهم لله تتحقق بمثل ما يقومون به من أعمال تعبدية فردية، فهم يصـلون ويصـومون ويحجـون، ويـذكرون الله كثـيرا، وإذا حـدثتهم عن مهمة الإسـلام العظمى وهي بسط سـلطان الله في الأرض، وتمكين دين الله في الوجود، عـدوا ذلك من نافلة القـول في موضـوع العبوديـة، بل قد وصل الأمر ببعض (الأذكياء) أن يعد الحـديث عن هـذا الأمر (أي الحاكميـة) هو حــديث البــاحثين عن الشــهوة في الحكم، فهــذا سـلفي مزعــوم وهو الدكتور ربيع المدخلي في كتابه "منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله"، يقــرر أن الإمامة ليست من قواعد أهل السنة والجماعـة، وهو بسـوق حديثه ضد بعض الجماعــات المســلمة الــتي تتكلم عن موضــوع تحكيم الشــريعة الإسلامية وأنه مهمة عظمى، وساق هذا الرجل الواهم كلاما لشيخ الإسلام ابن تيمية في موضـوع الإمامة في رده على الشـيعة الـروافض وعقيـدتهم في الإمامــة، والأمر بينهما جد مختلف ويبصــره صــغار الطلبة وأنصــاف المتعلمين، لكن هـذا الرجل (ربيع المـدخلي) يكفيه أن يعلن أنه سـلفي!! ليكــون إماما لبعض الصـبية الأغــرار ممن تغـرهم الشـعارات والعبـارات البراقـة. الإمامة في دين الله مطلب شـرعي، ولا تتحقق عبودية المسـلم في الأرض إلا إذا صـــار إمامـــا، ونقصد هنا بالإمامة والإمـــام هو التمكين بالغلبة والقـوة. فكلما زاد تمكين المسـلم في الأرض كلما زادت عبوديتـه، وكلما نقص تمكين المسلم في الأرض كلما نقصت عبوديته.

وهذا الفهم له أدلة كثيرة منها:

أولا: قـال تعـالى: {**إنا لننصر رسلنا والـذين آمنـوا في الحيـاة الدنيا ويـوم يقـوم الأشـهاد**} غـافر، وقـال تعـالى: {**ولقد سـبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون**} الصافات، وقـال تعـالى: (**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الـذكر أن الأرض يرثها عبـادي الصـالحون**} الأنبيـاء، وقـال تعـالى: {**وعد الله الـذين آمنـوا منكم وعملـوا الصـالحات ليسـتخلفنهم في الأرض كما استخلف الـذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم**}. هذه الآيات وغيرها الكثير تربط بين صـدق الـدعوى وصدق الوعد.

أما الدعوى فهي الإيمان وهي أعلى مراتب تحقيق العبودية.

وأما الوعد فهو التمكين، فـإذا وجـدت الـدعوى فلا بد أن يتحقق الوعـد، وتخلف الوعد يدل لزوما على تخلف الدعوى، وللتـذكير فـإن هـذه القواعد

القرآنية هي قواعد الجماعة ولا تعمل إلا من خلال الجماعــة، وإذا تــأملت في الآيات السالفة بعين نظر رأيت صفة الجمع للدعوى: {**الذين آمنـوا**} و{**جندنا**} و{**عبـادي الصـالحون**} فإنها تتكلم عن جماعة لا عن أفـراد، وهذه قاعدة سنتكلم عليها إن شاء الله في مقام قادم.

فالتمكين الذي هو النصر والغلبة مظهر من مظاهر عبودية المسـلم في الأرض، وطلب التمكين في الأرض أمر إلهي واجب، على قاعـــــــدة أن الوعود الإلهية هي أوامر لتحقيق أسبابها والسعي في إدراكها، فـأي جماعة لا تعمل في أسـباب التمكين في الأرض بالغلبة والقـوة لا تسـتحق أن تلج باب العبودية لـرب الأربـاب، والتمكين لا يتم إلا بـالفتح كما أن الفتح لا يتم إلا بشهادة.

وأما قـول بعضـهم من جماعـات الـوهم السـاذج، أو جماعـات الفكر العرفـاني - وهم الـذين لا يـرون الارتبـاط بين السـبب الكـوني والنتيجة القدرية - أن التمكين يتم عن طريق البلاغ فقــط، أو عن طريق التصــفية والتربية (بـالمفهوم الصـوفي الجديد تحت دعـوى السـلفية) أو عن طريق صندوق العجائب، فهؤلاء قوم حادوا عن جادة الصواب.

ثانيا: إن الكثير من الآيـات الربانيـة، والأوامر النبوية لا يمكن أن يعملها المسلم إلا في زمن التمكين، وذلك لعجزه عنها، والعجز سبب من أسـباب عدم تحقق تطبيق الأمر الإلهي الـذي هو في النتيجة تخلف كمـال العبودية لله، الحدود والاستعلاء على الكافرين وغيرها من الأوامر لا يمكن أن يقـدر عليها المسلم إلا بتمكين.

2 - **لا مغفرة من غير فتح**: بتمـام العبودية لـرب العبـاد يمن الله على عبـاده بـالغفران، فالعبودية تسـاوي التمكين، والتمكين يكـون بالنصر والغلبة وهما يعنيــان الفتح؛ قــال تعــالى: {**إذا جــاء نصر الله والفتح، ورأيت النـاس يـدخلون في دين الله أفواجـا، فسـبح بحمد ربك وسبحه إنه كان توابا**}، فانظر حفظك الله ورعـاك إلى التلازم بين فتح الله لنبيه (وهو ظهـور دين الله تعـالى على كل الأديـان بالسـيف والسـنان كما ظهر بالحجة والبيان) وبين الله منه أن يستغفر ربه، وقال تعـالى: {**إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا**} الفتح.

انظر إلى الجمع بين الفتح والمغفرة، إنا فتحنا تساوي ليغفر مضافا إلى ينصــر. فـالفتح نتيجة المغفــرة والنصــر، لأن الفتح لا يقع إلا بتوبة وجهــاد. فــالمغفرة لا تقع إلا باسـتغفار، والنصر لا يقع إلا بقتــال، فــالفتح لا يقع إلا باسـتغفار وجهـاد، وغيـاب الفتح عن العبيد دال على أن المغفـرة لن تقـع، وقد أدرك الصالحون من عباد الله هـذا الأمـر؛ قـال تعـالى: {**وكأين من نبي قاتل معه ربيـون كثـير فما وهنـوا لما أصـابهم في سـبيل الله وما ضـعفوا وما اسـتكانوا والله يحب الصـابرين، وما كـان قــولهم إلا أن قــالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإســرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فآتاهم الله ثـواب الـدنيا وحسن ثـواب الآخـرة والله يحب المحسـنين**} آل عمـران.

هــذه الآيــات العظيمــة، نــزلت بعد موقعة أحــد، حيث امتنع فيها الفتح، فأرشـدهم الله إلى صـنيع الأوائـل، وكيف هي سـنته سـبحانه وتعـالى في

وقوع الفتح، حيث عبر عنه في هذه الآية بقوله {**ثواب الدنيا**}. فـإذا آتى الله عباده {**ثواب الدنيا**}دل هذا على وقوع المغفرة، وتـأخر النصر يـدل على تخلف المغفرة.

3 - **لا فتح إلا بشهادة**: في قراءة مشهورة للآية السابقة {**وكـأين من نبي**...} تقرأ: {**وكـأين من نـبي قتل** (بـدل قاتل **) معه ربيـون كثير**...} الآيات . فالآية بهذه القراءة وبالقراءة السـابقة كـذلك تـدلنا على سـنة الله مع أوليائه أن يتخـذهم شـهداء، قـال تعـالى: {هـذا بيـان للنـاس وهـــدى وموعظة للمتقين، ولا تهنـــوا ولا تحزنـــوا وأنتم الأعلـــون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيـام نـداولها بين النـــاس وليعلم الله الـــذين آمنـــوا ويتخذ منكم شـــهداء والله لا يحب الظالمين} آل عمران. فمن مقاصد الرب سبحانه وتعالى وقوع البلاء الذي هو مقدمة النصر والتمكين، كما سئل الإمـام الشـافعي: أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقــال: لا يمكن حـــتى يبتلى.ا.هــ. الفوائد لابن القيم. قلت: من مقاصد الرب سبحانه وتعالى في وقوع البلاء هو اتخاذ الشـهداء، وعلى هـذا فيحب على الجماعة المهتدية أن تنشئ في نفـوس أتباعها حب الشـــهادة وطلبها والســعي لها لأنها مقصد إلهي ولأنها الطريق نحو النصر والتمكين، ولهذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسـلم بـايع أصـحابه على الموت، وكانوا رضي الله عنهم يطلبون المـوت مظانه لما علمـوا من حب الله تعالى لاتخاذ الشهداء، قال تعالى: {**من المؤمـنين رجـال صـدقوا ما عاهـــدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**}.

وعلى هذا فإنا نخلص إلى النتائج التالية:

أ - الجماعة المهتدية هي الـتي تسـعى إلى تحقيق عبودية الله تعـالى في الأرض بتمكين دين الله، وببسط سلطان الله في الناس.

ب - الجماعة المهتدية علمت أن هذه العبودية لا تتم إلا بالفتح وأن أسباب الفتح هو القتل والقتال.

ج - الجماعة المهتدية هي الـــتي يجتبيها الله بـــأن يتخذ منها شـــهداء، أما جماعات الانحراف والـتزوير فهم الـذين يفـرزون سـوء الـرأي بأخذ جـانب السـلامة فيسـتبدلون القتل والقتـال بالبرلمـان حينا وبـالبلاغ حينا وبتحقيق كتب الـتراث حينا وبالتربية الموهومة حينا وكل هـذه - الطـرق تـؤدى إلى الذلة والهوان إذا اتخذت سبيلا للتمكين، والله الهادي سواء السبيل.

الفصل الثاني

الجماعة والإمامة

"لا تـزال طائفة من أمـتي يقـاتلون على الحق ظاهرين إلى يـوم القيامـة"
حديث نبوي رواه مسلم
"الجماعة ما وافق الشـــرع وإن كنت وحدك"
ابن مسعود

الجماعة والحزب:

بعد أن سقطت الخلافة الإسـلامية، وانفـرط عقد الجماعـة، دخل أهل السنة في إشكالية ما تزال تعتـبر معوقا لهم عن بلـوغ أهـدافهم أو التقـدم نحوها، هذه الإشكالية هي معضلة الجماعة وشرعيتها، وما هي قوة الإلـزام في انضمام المرء لها.

كـان أهل السـنة يعتـبرون أنه بمجـرد وجـودهم تحت راية إمـام ممكن، يـدينون له بالطاعة والـولاء، ويمتثلـون أمـره هم داخلـون تحت مسـمى الجماعة، فلم يكونوا بحاجة إلى بحث هذا الإشكال إلى مسـتوى أوسع مما هي عليه، ولضيق هـذا الفهم وعـدم شـموليته، ولبعـده عن الفهم الصـحيح عن مفهـوم الجماعة كما هو معـروض بالشـرع وكما فهمه السـلف، فإنه بمجرد سقوط هـذا الرابط العـام (الخلافـة) حـار أهل السـنة في حل هـذا الإشكال وما زالوا في حيرة إلى لآن.

في هـذا الـوقت الـذي يـدرك فيه البشر جميعا أن التفـرق ضـعف، وأن الذاتية مهلكة وأن الـــدول لا تســـتطيع أن تحافظ على كيانها وتحصل طموحاتها إلا بوجودها في داخل تحالفـات وتجمعـات، والعـالم الآن يـرقب ميلاد تجمع واسع ليحافظ على مكتسباته، هـذا التجمع هو أوروبا الموحـدة، ومع أن أسباب التفرق والتنازع بين هذه الدول هي من أعظم ما يوجد بين بشر من اختلافـات، إلا أنهم بطريقة سـننية يحثـون الخطى لتجـاوز هـذه المعوقـات وتـذليلها للوصـول إلى لحظة الوحـدة على شـكل ما وطريقة مقبولة لديهم.

أقول في هذا الوقت الذي يدرك فيه البشر هذه السـنن وأهميتها ويوجد بين المسلمين من يقول ببدعية التنظيم، وأن الانضمام إلى جماعة مسلمة عاملة هو بدعة وضلالة، وأن سنة السلف لم يكن فيها هذه الصـور الحادثة من التجمعـات والتنظيمـات، وهـؤلاء هم الأعلى صـوتاً داخل المجتمعـات الإسلامية، وهم كعـادتهم يضـربون بسـيف السـلف، وبشـعار ملك الحقيقة والدليل.

ومع أن قضـية الجماعة لم تكن مطروحة إلا بشـكل هزيل قبل حـدوث هذه الأفكار، أي أن على صورة أن الانضـمام في جماعة هو أمر مسـتحب ومرغوب، وهو أمر موسمي حسب الظروف والحاجة، فإذا ما تعـارض أمر الجماعة والانضمام إليها مع بعض الأهواء أو الواجبات الذاتية انصـرف عنها المسلم وهو لا يشعر بأدنى نوع من أنـواع النـدم والشـعور بالـذنب، إلا أن

وجـود مثل هـذه الفتـاوى القائلة ببدعية التنظيم والتجمع وعـدم شـرعيته أحدثت هزة داخل الفرد الذي يسيره الـدليل، أو الـذي يملكه الشـعار، حق أن بعض التيارات الإسلامية بدأت تطرح نفسها على شكل جماعة وتنظيم، فيه بعض مقومـات التنظيم البسـيطة والأبجديـة، إلا أنها تحت ضـغط هـذه الأفكـار اضـطرت إلى تحليل نفسـها، وتنـازلت عن بعض المقومـات حـتى صارت تطرح نفسها على شكل تيار فكري ما، دوره فقط نشر الأفكـار، أو بعض التوجهات دون حصول دعـوة التجمع والتنظيم، وهـذه الصـورة، وهي صورة نشر الأفكار على شكل نثـار لا رابط تنظيمي يجمع بينه تلاقي قبـولا شـديدا لـدى المسـلم المتخلف فكـرا وإرادة، فهو أمر يسـقط عنه تبعية المسـاءلة أو التكـاليف، ثم هو لا يضـطر في بعض المواقف أن يـدافع عن الجماعة كمفهوم ولا عن الجماعة كوجود حقيقي ينتمي إليه، وهذه الصورة السلبية كذلك - وهو طرح الفكر كتيار جامع لا تنظيم فيه - لا تعتبر شرعية في نظر تيـار التخلـف، لأنه هو صـورة من صـور التنظيم البدعية عنـدهم كذلك، ولذلك لم يحصل له الرضا والموافقـة، فهو معـرض للهجـوم دومـا، وللتبديع في كل وقت، ولعل البعض ما زال يـرتكس في شـهواته وأهوائـه، فهو حين يطرح التنظيم يطرحه كأمر منفر غير مقبول.

ومن الشعارات التي صارت مألوفة لدى المسلم السـني المتخلـف، أن الإسـلام لا حزبية فيـه، أو أن الحزبية شـر، ثم يبـدأ يعـدد مضـار الحزبية وشرورها، حتى يهيأ للقارئ أن الحزبية هي شر بذاتها ولا خير فيها، وأنها لا تنشئ إلا البدعة والضلال، وهم يظنون أن التنظيم والتحزب لا بد أن ينشئ هذه الأخطاء، ولا خروج منها إلا بـأن يسـلم الرحل بنفسـه، وينفـرد بالعمل والتفكير، مع أن هذه الأخطاء الـتي تنشأ في التجمعـات، هي الـتي تكسب الإسـلام وتصـبغه صـبغة العملية والموضـوعية، فصـلاة الجماعة مثلاً هي تجمع وتحزب، فيها أمير، وبينه وبين الأتباع عقد، وقوة الإلزام فيه الوجوب والفريضة، حتى أن التابع يجب عليه أن يقلد ويسير بسـير القائد حـتى في ضـعفه وخطئه (إلى حد بينه الشـارع) فلو أن الإمـام صـلى قاعـدا لعجز أصابه، والمأموم قادر على أن يصلي قائما، وجب على المـأموم أن يصـلي جالسا، ولو الإمام لم يجلس الجلسة الوسطى وتركها فعلى المأموم وجوبا أن يتابعه ولا يتخلف عنه، وهي أمور لو فعلها المـرء منفـردا لكـان مقصـرا آثما وربما تبطل عملـه، فلو صـلى المـرء منفـردا وصـلى جالسا وهو قـادر على القيـام في صـلاة الفريضة فـإن صـلاته عند جمع من الأئمة حكمها البطلان لتركه ركنا من أركانها، كذلك هو آثم لو ترك الجلوس الأوسط في الصـلاة الرباعية والثلاثية على الصـحيح، ولكن وجـود المصـلي في جماعة غـير الحكم، وأوجد فقها جديـداً، ولم يقل أحد من العقلاء أنه بسـبب هـذا الفقه الجديد الـذي أحدثته الجماعة في صـلاتها يجعل صـلاة الجماعة شـرا وأن الصلاة المنفـردة هي الأفضل والأولى، بل بقيت صـلاة الجماعة واجبة من واجبات الشريعة، وشعيرة من شعائرها الظاهرة.

وقد يجد المرء في نفسه قوة وهو منفـرد بـدون جماعة وهو وهم وظن وتلبيس شيطاني لأن الشيطان كالذئب يأكل من الغنم القاصية.

ثم إن الجماعة تفـرض على المـرء صـورة جديـدة لحياته تجعله أسـلم بضـعفه مع الجماعة من قوته وهو منفـرد، ومسـيره معها مثل صـلاة الجماعة، فإن الرجل حين يصلي في جماعة، فـإن على الإمـام أن لا يطيل

في الصـلاة، بل عليه أن يخفف لأن وراءه المـريض والكبـير وذو الحاجـة، فالجماعة تجمع الطريق ففيها القـوي الجلد كـذلك، فلو صـلى هـذا الجلد منفردا لأطـال وأكـثر في القيـام والقنـوت، ولكن حين يصـلى مع الجماعة فإنه مقيد بطـول صـلاة الإمـام وقصـرها، وهي فضـيلة في حقه لكونه في جماعة، لأنها مقصد من مقاصد الشارع تهون بعض الأمـور إلى جانبهـا، ولا ينظر إلى تلك الأمور التي يظنها بعضهم فوائد للانفراد والذاتية.

قبل أن نـدخل في موضـوع شـرعية الجماعة والتحـزب والتنظيم فإننا مدعوين لهاتين النقطتين اللتين لابد منهما:

هنـاك فـرق بين العصـبية الحزبية وبين الحزبية والتحـزب، وليس بينهما ترابط ولا علاقـة، كـون الرجل متعصـبا لفكـرة وهو غـير متحـزب، ولا في حـزب، وقد يكـون الرجل في حـزب وتنظيم وهو غـير متعصـب، بل إن الجماعة والتنظيم إن قـامت على سـوق صـحيحة تقتل في الرجل أنانيته وتعصـبه لأنها تجـبره دوما على التنـازل عن آرائه الـتي يراها ذهبية عظيمة مقابل ما اسـتقر عليه رأي الجماعـة، والانفرادية والذاتية تجـذّر في المـرء حب رأيه وتعصـبه له والمدافعة عنه بحق وباطـل، وهـذه العصـبية المقيتة في التجمعـات هي من الوراثة النكـدة للفردية الذاتيـة، ولكن الكثـير من الناس يظن أن المرء حين يدافع عن فكرة ما وينافح عنها، هو بسبب تبـني حزبه لهـا، وهـذا خطأ فالنـاس يـدافعون عن أفكـارهم هم، ولتبـنيهم تلك الأفكار، لأنها أفكار حـزبهم وتنظيمهم، لكن بعض النـاس مـرتبتهم التقليـد، وبعضـهم مرتبته الاتبـاع، وبعضـهم مرتبته الاجتهـاد، وكل مرتبة من هـذه المراتب هي مراتب ومنازل ودرجات كذلك، قد يكون الرجل هو في نفسه مقلـداً فيـدافع عن تلك الأفكـار مدافعة المقلـد، بغض النظر عن كونه في حـزب أو في غـير حـزب، فعلينا أن ننظر إلى النـاس في نقاشـنا معهم باعتبارهم أفرادا مسـتقلين لا باعتبـارهم أفـرادا في جماعـات، فيعامل كل امـرئ بحسـبه ودرجته مع التنبيه أن المقلد قد نبه أئمتنا على عـدم جـدوى نقاشه ومناقشـته، لكن حظه من الأمر النصـيحة والتـذكير، لا المنـاظرة والمجادلة.

زعم بعضـهم أن التحـزب تفـرق، وأن التنظيمـات وزعت الأمة أوزاعا وفرقـا، وهـذا خطأ بين، فـإن التفـرق في الأمة حـادث بسـبب أنـانيتهم وفرديتهم، والفردية هي التي صنعت في الأمة أمراضها، وأفرزت شرورها.

ثم تعـالوا لـنرى، هل الأولى أن تتجمع الأمة في ألف تنظيم وحـزب، أو يكـون كل امـرئ على هـواه وشخصـه، حيث يكـون فيها ألف شـخص، كل على رأسه وهـواه، ثم هل زاد دعـاة هـدم التنظيمـات والأحـزاب إلا أن أوجدوا في داخل أنفسهم أحزابا جديدة، وتنظيمات متعددة؟ هذا أمر يـراه كل أحد ويحس به كل إنسان.

تكلمنا عن إشـكالية الجماعة داخل صف أهل السـنة والجماعة في هـذا العصـر، وقلنا إن أهل السـنة الآن مضـطربون في تحديد الحكم الشـرعي للتحزب، والانضواء تحت جماعة إسـلامية، وقد بلغ اضـطرابهم أن بعضـهم يرى أن التنظيم بدعة، وآخرون يرون وجوبها، وبينهما من التيارات من يرى أحكاما تتراوح بين هذين الخطين، وهو اضطراب غير مقبول، أفـرز مفاسد وأمراضا، ومنع أهل السـنة من تحقيق أهـدافهم أو التقـدم نحوهـا، والكلام عن الجماعة يحتاج إلى بحوث جادة، واسـتنفار عـام لأن موضـوع الجماعة

هو اللبنة الأولى لتحقيق الفكرة واقعا ووجـودا، وبـدون الجماعة لن تتحقق أي فكـرة وجـودا وبقـاء، ولعلنا نتـذكر كلمة الإمـام العظيم محمد إدريس الشافعي - رحمه الله - حين دخل مصر ورأى فقه الليث بن سعد، وعلمـه، وروايته فقـال كلمته المشـهورة: "الليث بن سـعد أفقه من مالـك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به" سير أعلام النبلاء (8/156).

وهذه الكلمة تدل على عظم أمر الجماعة في بقاء الأمر ودوامـه، وقبل ذلك نشره وبثه، فبدون وجود جماعة وتحزب وتنظيم لا يكون للأفكار وجود ولا بقاء.

إذا فهمنا هـذا، ثم تفكرنا قليلا في سـيرة المصـطفى صـلى الله عليه وسلم وبحثنا برؤية جادة عن بداية دعوته وظهور أمره، وإلى أي شيء دعا الناس، لأبصرنا تمام البصر أن أول شئ دعا إليه الرسـول صـلى الله عليه وسلم هو التوحيد والجماعة.

فكان الرجل إذا استجاب لرسول الله صلى الله عليه وسـلم ودخل في التوحيد، قطع علائقه الأولى، وخرج خروجاً نفسـيا ووجوديا من أي ارتبـاط سـابق، كرابطة العائلة أو القبيلة أو غيرهما وانضـوى تحت الجماعة الجديدة، وارتبط بها ارتباط كليا، ولاء، ونصـرة، وامتثـالا لأمرهـا، وإحساسا بهـا، وعطفا عليهـا، وتمثل هـذا بقوله صـلى الله عليه وسـلم: ((**المسلم للمسلم كالجسد الواحد، إذا اشـتكى منه عضو تـداعى له سـائر الجسد بالحمى والسهر**)). وعلى هذا فليس من غريب الأمر أن يكـون شعار المسلم الصادق هو الانضـواء تحت شـعار أهل السـنة والجماعة وقد كـثر حـديث الأوائل عن المفـاهيم السـنية التصـورية في مسـائل العقائـد، فألفوا فيها ما يسمى بكتب العقائد، وذلك لتجلية مسائل السـنة التصـورية كما هي، والرد على المخـالفين من أصـحاب العقائد الـتي زعمها الآخـرون أنها من دين الله تعـالى كعقائد المعتزلة والجبرية والرافضة والخـوارج وغيرهم، لكن بقي موضوع الجماعة على غير تفصـيل في هـذه الكتب لأن الجماعة التي كانت تحتاج إلى بيان في عصرهم هو موضوع الإمام الممكن ومدى شرعية الخـروج عليه ببغي أو بفسـق، وكـذلك مـدى شـرعية إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وغيرها من المسائل الشرعية التي تبحث في هـذا المضـمار، ومع أن فقه أهل السـنة لا يوجد فيه إجمـاع على هـذه المسائل إلا أنه استقرت بعض المعـالم وخاصة تلك الآراء الـتي تبناها وبثها الإمـام أحمد بن حنبل - رحمه الله - في حادثة فتنة خلق القـرآن، لكن لو رجعنا إلى عبـارات الأئمة في تفسـير معـنى الجماعة لرأينا لها مفهـومين اثنين، وليس مفهوما واحدا وهما:

المفهوم الأول: المسلمون المنضوون تحت راية إمـام ممكن سـواء كان هذا إمام عامة أو غير ذلك، وهذا هو الـذي كـثر الحـديث فيه في كتب السياسة الشرعية وكتب العقائد كقولهم: ولا نرى الخـروج، أو: نقاتل تحت راية البر أو الفاجر، وغير ذلك من القواعد السنية.

المفهوم الثاني: أهل الحق، وهذا المفهوم دائرته أضيق من الـدائرة الأولى، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنـه: "الجماعة ما وافق الشـرع وإن كنت وحدك".

وهـذا المفهـوم يتحـدث عن جماعة صـغرى في داخل الجماعة الكـبرى (الدولة والخلافـة)، وهي لا تنـدثر ولا تـزول لا بوجـود الجماعة الكـبرى ولا

بزوالها، بل بقاؤها الشرعي القـدري فريضة وضـرورة، وانفـراط أمرها هو المصيبة الكـبرى، والطامة العظمى، بل إن أمر الجماعة الكـبرى (الدولـة) مرهون وجوده بوجود هذه الجماعة، فالجماعة الكـبرى (الدولـة) قد تـزول وتسقط، فمن الذي يعيد بناءها ووجودهـا؟ إنهم بلا شك جماعة الحق وأهل الهدى، وهذا كله داخل في قوله تعالى: {**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخـير ويـأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**}، قال القاضي عياض: فلو طرأ عليه كفـر- أي حـاكم الدولـة- وتغيـير للشـرع أو بدعة خـرج عن حكم الولايـة، وسـقطت طاعتـه، ووجب على المسلمين القيـام عليه وخلعـه، ونصب إمـام عـادل إن أمكنهم ذلـك، فـإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيـام بخلع الكـافر.ا.هـ. شـرح مسلم (12/229).

وأما إذا كـانت الجماعة الصـغرى (أهل الحق) لا وجـود لها فـإن عـودة الدولة هو أمر لا يتصور وقوعه أبدا.

ثم إن الجماعة الكـبرى (الدولـة) قد يصـيبها بعض الـوهن والضـعف، فتقصر في تطـبيق الأحكـام، لبعض العـوارض، وقد تفشو في الدولة المنكرات، ويغلب عليها إرادة الفساق، أو الـذين لا خلاق لهم، أو قد تتبـنى الدولة بعض البـدع الفاسـدة، وتـدعو النـاس إليهـا، فمن الـذين يقومـون بمعالجة ذلك كله؟ بلا شك أنها جماعة الحق (الصغرى).

وهـذا كله كما قلنا سـابقا داخل في الآيـة: {**ولتكن منكم أمة ...**} وهـذه الآية عامة لا تخصـيص لهـا، سـواء بوجـود الإمـام الممكّن أو بعـدم وجوده.

وقد وجد في تاريخنا الإسلامي المجيد هذه الصورة التي أحاول رسـمها، وهي وجود الجماعة الصـغرى بكل ما يعـني لفظ الجماعة من معـنى، مثل معنى التحزب أو التنظيم، مع وجود القـوة الرابطة الجامعة لهـذه الجماعة والحزب، فكانت بينهم العهود والبيعات على الحـق، وكـان منهم من يختـار الأمير والقائد، وهكذا تقوم بكل ما التقت عليه وتبايعت لحفظه أو لإعادته.

ولعل أوضح صـورة بينت أهمية هـذا التكتل والتجمع النـاتج عن ضـعف الدولة واهتزازها هو ما حصل زمن الحروب الصليبية، ففي زمنها كـان أمر الخلافة صوريا لا حقيقة له، وهي كما قيل:

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

وتوزعت الولايات الإسـلامية مشـتتة موزعـة، لا خيط يجمعهـا، بل صـار بينها من التناحر والتخاصم ما وصل إلى درجة الحروب والاقتتال، وفي هذا الظرف العصيب من التفرق والتنازع، قـدم على المسـلمين وافد من وراء البحار، حمل معه شهوة القتل والاستئصال، ومعه أمل الاستيطان والبقـاء، يحمل راية الصليب، تغذى بوري الكبـد، وتعـاليم الخرافـة، وقد استطاعوا أن ينتصروا في المعركة الأولى، أو المعارك الأولى، واستقروا في كثير من المـدن والجيـوب الإسـلامية، وكن على ذكر أنه لم يكن للمسـلمين ولاية عامة، ولا تجمع واحد، هذه الصورة كيف عالجها أهل الإسلام؟.

أغلب من تكلم في هذه الفترة الزمنية عالجها من جهة بعض الأشخاص الذين أحدثوا أثراً تجميعيا للجهود المتفرقة السابقة لأعمـالهم، فـنرى كاتبا يعالجها من جهة القائد نـور الـدين زنكي أو من جهة القائد صـلاح الـدين

الأيوبي، وهكذا، فيظن القـارئ على غـير دراية أن هـذا الجـزء من التـاريخ الإســـــلامي في معالجة الصـــــليبيين تم عن طريق الدولة الجامعة لأمر المسلمين وهذا خطا بين، فالقـارئ المتمعن لتلك الفـترة الزمنية يـرى أن المسلمين عالجوا أمر الصـليبيين عن طريق تجمعـات صـغيرة، وتنظيمـات متوزعة متفرقـــة، فهـــذه قلعة حكمتها عائلة من العـــائلات، جمعت تحت إمرتها طائفة من الناس، وهذه قرية ارتضوا حكم قائد عالم منهم وجاهدوا معـه، وهـذا عـالم انتظم معه جماعة من تلاميـذه وارتضـوا إمامته وهكـذا، ولعل خير يشرح لنا هذه الأوضاع على حقيقتها هو كتاب "الاعتبـار" للأمـير "أسامة بن منقذ"، وأسامة هذا من قلعة شيزر، وعائلته آل منقذ هم حكام هذه القلعة، ولهم دور مشهود في الحروب الصليبية، وأسامة شـاهد عيـان لحروب المسلمين ضد الصليبيين.

وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى، فمن المهم التنبيه على أن دور القـادة الكبار أمثال آل زنكي والأيوبـيين هو تجميع هـذه التكتلات والتنظيمـات في تجمع واحد وتنظيم واحد، ومع ذلك فقد بقي هو الدور الأكبر لتلك التكتلات الصغيرة القائمة على الحق في معالجة الحروب الصليبية.

الجماعة والإمامة والدولة:

أنزل الله هذا الدين العظيم ليحقق مقاصد ومآلات، فمن هذه المقاصد ما يختص بـالفرد ومنه ما يختص بالأسـرة، ومنه ما يختص بـالمجتمع، ومنه ما يختص بـالأرض كلهـا، وبمقـدار فهم المـرء لهـذه المقاصد يكـون إدراكه لقيمة الجماعة وضرورتها، وبعضهم فهمه من دين الله تعـالى بمقـدار فهم أهل الضلالة من أديانهم، وهو النظر إلى ما يسـتطيع أن يقـوم به المسـلم من أعمال إسلامية منفردا وبدون جماعة، فهو يقول: أنا أستطيع أن أصلي بدون حزب، وأصوم بدون حزب، وأحج بدون حزب، وهكذا يبدأ يعد أعمــال الإسلام التي ينجزها دون وجوده في جماعة وتنظيم وحــزب، وقد رأينا من هؤلاء القوم الجهلة تطورا خطيرا لهذه النظـرة، وهي أنهم أخـذوا ينظـرون إلى دولة الإســلام (الجماعة الكــبرى) كشــيء لا أهمية له ولا قيمة للبحث فيه، وسمعنا عجبا وهو قولهم: إن البحث في مسألة الإمامة والاهتمــام بها هو من شـأن المعتزلة والشـيعة، أي أن البـاحثين عن تحقيق دولة الإسـلام فيهم شــبه اعتزالية وشــيعية، وهــؤلاء القـــوم قد علت أصـــواتهم وملأت الفضاء، وتلبسوا لبوس العلم والحكمة والسلفية، وأخيرا قـام رجل جهـول ظلـوم ق إحـدى المراكز الإسـلامية في أوروبا وأفـرغ قيح فكـره، وصـديد جهله حين أعلن للناس أن شأن دولة الإسلام ليس بهذه الأهمية التي ينظر إليها بعضهم، بل هي - إن وسـعنا الأفق وأكثرنا القـول - لا يعـدو أن يكـون أمرها مستحبا، إن وجدت فبها ونعمت وإلا فغيابها لا يضرنا شيئا، وكان هذا المنفلت من المصحة العقلية يرى نفسه يستطيع أن يقوم بأعمال الإسلام، وفرائضه وأحكامه دون أن يستظل بدولة إسـلامية، والغـريب أن مثل هـذه العاهـات هي الـتي تنشر في النـاس فكـرة أن لا جهـاد إلا تحت راية إمـام ممكن، وأن -أمر الجهاد لا يعقـده إلا إمـام العامـة، وخليفة المسـلمين، ولا نـدري كيف نسـتطيع أن نفهم مثل هـذه الأحـاجي الغريبة الـتي تطل علينا برأسها مـرة بعد مـرة، وكأننا أمـام سـرك مهـرجين لا قـادة فكر ولا حملة رايـة، وقد نقم علينا بعض ممن لهم موقع الحب في القلـوب أن لم نخفف

العبارة، ونلطف الردود، ولكن -والله - لا نستطيع أن نناقش هؤلاء النــوكى مناقشة العقلاء، ولا نباحثهم مباحثة الدارسين، لأنهم أشبه بالمهرجين منهم بأهل العقل والدرايـــة، فهم دائـــرون - يقينا - بين غرضـــين: إما النفـــاق والعمالة والجاسوسية، وإما الجهل والغباء والبلاهة، فـإن نثبت لهم الصـفة الثانية فهو أخف وأيسر؟ أليس كذلك؟.

وهـؤلاء البعض رأيت لهم بعض الكتابـات الـتي تجعل جماعـات الإسـلام السياسي وجماعـات الجهـاد - والـتي يجمع بينهما دعوتهما لإحيـاء الخلافة ووجوب إقامة الإمامة العظمى- تأخذ أهمية الإمامة من الشيعة الــروافض، ذلك لأنهم وقعوا على كلام لشيخ الإسلام لشـيخ الإسـلام ابن تيمية - رحمه الله - في بداية كتابه "منهـــاج الســـنة النبويـــة"، في رده على "الحلّي"، صـاحب كتـاب: "منهج الكرامـة"، وجعل الإمامة هي ركن الإسـلام العظيم على فهم لمعنى الإمامة، ومهمته الـتي لا يصح بـدونها شـيء، فجعل شـيخ الإسلام على هذه العقيدة البدعية، ويبين زيف أمرها، فظن من لا خـبرة له أن الإمامة الــتي يناقشـــها شـــيخ الإســـلام هي الإمامة العظمى والخلافة الإسلامية، وهذا خطأ قـبيح، فـإن الإمامة عند الشـيعة هي على نحو معين، وفهم خـــاص، لا تقـــرب في شـــيء منها من الإمامة عند أهل الســـنة والجماعــة، فأصل الإمامة عند الــروافض هو قرنها بعلي وأولاده وأحفــاده رضي الله عنهم حـتى تصل إلى الغـائب في السـرداب "محمد بن الحسن العسكري" (نسبة لمدينة العسكر وهي سـامراء) فهم يجعلـون إمامة علي رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صـلى الله عليه وسـلم جـزءا من دين الله تعالى، ومن لم يؤمن بإمامته فهو كـافر بـركن من أركـان الـدين، وهم يجعلون للإمام حق التشريع وإصدار الأحكام الدينية ابتداء، ثم هم يعتقدون فيهم العصمة، وينسبون لهم صـفات لا تليق بالبشـر، هـذه هي الإمامة عند الشيعة، فكون شيخ الإسلام يـرد على "الحلي" الشـيعي: بقوله إن الإمامة ليست من دين اللــه، أو أنها ليست مهمة قــام الرســول صــلى الله عليه وسـلم بتبليغها للنـاس، لا يعـني من كلامه أبـدا الإمامة الـتي هي عند أهل السنة والجماعة.

ثم هل زاد هـؤلاء سـوى أن رددوا كلام العلمـانيين والمستشـرقين، وهو أن الإسلام لا يحمل في داخله مفهوم الدولة، أو حسب مفهومهم الجاهلي: الإسلام دين لا دولة.

إن أمر الدولة في دين الله تعـالى عظيم، شـأنه مهم، فـإن الإسـلام لا يستقيم أمـره، ولا تظهر حسـناته إلا حين تكـون له دولة تقـوم عليـه، عملا وحماية ونشرا.

قد يسأل سائل: وهل ينبغي علينا أن ننشغل بهذا الأمر في هذا الظرف أم أن هناك من الأمور ما هي أكثر أهمية وضرورة؟.

والجواب على هـذا التسـاؤل يفـرز لنا مجموعة من الأمـور الـتي ينبغي التنبيه عليها:

أولا: من ظن أنه يمكن للإسـلام أن يأخذ بعـده الحقيقي من غـير دولة تقــوم عليه فهو جد واهم، لأن الدولة حين تكــون على غــير الإســلام فإنها سـتعمل جاهـدة لإزالة موانع بقائهـا، وستنشر أفكارها ومناهجهـا، والأعظم من ذلك أنها ستفرض على النـاس دينا ومنهاجا وقضـاء يتلاءم مع تصـورها للكـــون والحيـــاة، فمن ظن أنه يمكن له أن ينشر الإســـلام ويعلم النـــاس

الــدين، ويكسب الأمة إلى صـفه ودينه أمـام طوفـان هـذه الدولة الجاهلية فهو مخطئ ولابد، فلو نظـرت إلى عـدد المسـلمين الـذين دخلـوا في دين الله تعــالى في زمن دعـــوة الرســـول صـــلى الله عليه وســـلم في مكة المكرمة لرأيته عددا قليلا جـدا، وأما من آمن برسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في المدينة المنـورة وزمن عـزة الإسـلام فسـتجد الآلاف منهم قد التحقـوا بقافلة الإسـلام، ولـذلك من الله تعـالى على رسـوله بهـذا الفتح وقال: {**إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**} فقد قرن الله تعالى نصره وفتحه مع دخول الناس في دين الله تعالى لأنه إن لم يتم النصر والفتح فلن يتم دخــول النــاس في دين الله تعــالى، بل إن علماءنا الأوائل بفهمهم، وثــاقب فكــرهم، جعلــوا انتشــار الفكــرة منوطا بــالقوة والشـوكة، كقـول ابن خلـدون: "إن المغلـوب مولع بتقليد الغـالب" فجعل ظاهرة التلقي مقيدة بالقوة والغلبة.

وأما ابن حزم - رحمه الله تعالى - فقد جعل انتشار لغة مـا، وسـيطرتها منوطا بقوة أصحابها وظهـور أمـرهم. قـال في كتابه "الإحكـام في أصـول الأحكـام": "إن اللغة يسـقط أكثرها ويبطل بسـقوط دولة أهلهـا، ودخـول غــرهم عليهم في مســاكنهم، أو بنقلهم عن ديــارهم واختلاطهم بغــيرهم، فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها، ونشاط أهلها وفــراغهم، وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عــدوهم، واشــتغلوا بــالخوف والحاجة والذل وخدمة أعـدائهم، فمضـمون منهم مـوت الخـواطر، وربما كـان ذلك سـببا لـذهاب لغتهم، ونسـيان أنسـابهم وأخبـارهم وعلـومهم، هـذا موجـود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة" (1 /32). فـانظر - حفظك الله - إلى عظم أمر الشـوكة والقــوة، وهما لا يتم أمرهما إلا بدولة وسـلطان. وعلى هـذا فـان الإسـلام لن يبقى له وجـود حقيقي إلا إذا تسـارع أهله في إحيـاء الدولة.

ثانيا: كثـيرا ما يضع البعض أمـورا متعـددة بصـورة متعارضـة، وهي لا تعارض بينها أبـدا، بل قد تكـون مكملة له ومتممة لأمـره، وذلك مثل قـول بعضــهم: هل الأولى طلب العلم أم الجهــاد؟ وهــذا ســؤال خطــأ، فانه لا تعارض بينهما، فالمسلم يجاهد ويتعلم.

وكذلك في مثل هـذا الأمـر، يسـأل البعض: هل الأولى أن ننشـغل بـأمر العقيدة أم بأمر إحياء الدولة والدعوة لها؟ وهما في الحقيقة لا يتصور فهم أحــدهما إلا بفهم الآخــر، فدولة الإســلام هي من تمــام فهم التوحيــد، لأنها تعني الـبراءة من الكفر وأهلـه، ثم هي تعـني مـوالاة المؤمـنين ونصـرتهم، وعلى هذا فـأغلب الـذين لا يفهمـون حقيقة التوحيد لا يهتمـون كثـيرا بـأمر الجماعة الكبرى والإمامة العظمى، وترى عامة حديثهم في غير الأصل.

روى الإمام النسـائي وغـيره بسـند صـحيح عن سـلمة بن نفيل الكنـدي (من قبيلة كندة) رضي الله عنه قال: كنت جالسـاً، فقـال رجـل: يا رسـول اللـه؛ أذال النـاس الخيـل، ووضـعوا السـلاح، وقـالوا: لا جهـاد، قد وضـعت الحـرب أوزارهـا، فأقبل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بوجهه وقـال: (كذبوا، الآن جاء دور القتال، ولا يـزال من أمـتي أمَّةٌ يقـاتلون على الحـق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل معقود في نواصيها الخـير إلى يـوم القيامـة، وإنه يـوحى

إليّ أني مقبوض غير ملَبَّث، وأنتم تتبعونني أفناداً، يضرب بعضكم رقاب بعض، وعقر دار المؤمنين بالشام).

هذا الحديث جليل القدر عظيم الفائدة، فهو يدعو المسلم للخروج من هوى النفس، وتضارب الآراء، وخاصة ق هذا الزمان الذي خاض فيه الناس بآرائهم، ورموا أفكارهم أمام أتباعهم ليقتاتوا منها، ظانين أن ما يقولونه صوابا وحقا، وظن من لا خبرة له بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يطلع عليه حق الاطلاع والمعرفة أن المرء في هذا الزمان بحاجة إلى جهد عقلي شاق لاكتشاف الحق من بين المطروح على الساحة الإسلامية من أفكار وأحزاب وتجمعات، فهو متردد ومتحير، وخاصة أن العارضين أفكارهم يملكون سحر البيان، ويتفننون في تزيين أفكارهم ومناهجهم، ولكن هل فكر هذا المتحير والمتردد أن يعود إلى السنة النبوية الصحيحة فيأخذ منها زاده؟ أو ليعرف منها الحق والهدى؟ هذا هو الواجب الشرعي.

وهذا الذي نقوله ليس قولا من الأقوال أو هو يحتمل قول المخالف، لا والله بل غيره هوى وظن.

الجماعة والطائفة المنصورة:

تكلمنا عن وجوب دخول المرء في جماعة وحزب، وهذه ضرورة شرعية وعقلية، وقد يسأل المرء الآن ما هي صفات الجماعة والحزب الذي يملك الحق، وهو الذي يجب على المسلم أن ينتسب إليه ويدخل تحت لوائه؟:

الجماعة المطلوبة والحزب الشرعي لا بد أن يكون حاملا لمواصفات الطائفة المنصورة التي مدحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تكون جماعة حق وحزب هدى، وكلما اقتربت الجماعة من هذه الصفات كان وجوب طاعتها ألزم وأوجب، وكلما كان الانتماء إليها أصوب وأهدى، والطائفة المنصورة التي مدحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث لم يتركها صلى الله عليه وسلم هملا من غير بيان وشرح، بل كشفها بأشد بيان وأفضل تفصيل، فما هي صفات الطائفة المنصورة من نص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.

هذا الحديث المتقدم يكشف لك صفتين من صفات الطائفة المنصورة، ويجليهما لك أجلى بيان وأوضحه.

الصفة الأولى: لو أمعنت النظر في الحديث المتقدم - حديث سلمة رضي الله عنه - لرأيت سبب ورود الحديث هو أن جماعة أعلنوا توقف الجهاد، فأذالوا الخيل (أي تركوها من غير عناية ولا تدريب) ووضعوا السلاح وقالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها. فسبب ورود الحديث هو إعلان توقف القتال، وجاء الرد حاسماً وقاطعاً لا يحتمل تأويلا، فقد رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: ((**كذبوا، الآن جاء دور القتال**))، إذ القتال لم يتوقف، وليس هناك سبب موجب لتوقفه، أو إعلان انتهائه، وكيف ينتهي، وفي الأرض أقوام " زاغت قلوبهم؟.

ثم مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم أقواماً أوفياء للقتال، و لم يذيلوا الخيل، ولم يضعوا السلاح بل هم مقاتلون دوماً ومحاربون في كل حين: ((**ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق**)). هكذا وصف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائفة المنصورة، وهكذا بين لأمته،

وإذا جاء نهر الله ذهب نهر معقل، فإذا جاء نص رسول الله صلى الله عليه وسلم فماذا بقى لغيره؟ وماذا عساه (أي غيره) أن يقول؟ إنه لن يقول إلا باطلا، كائنا من كان هذا الغير، سـواء كـان هـذا الغـير ممن ظن أن تجـارة الــورق بحــديث رســول الله صــلى الله عليه وســلم تدخله في الطائفة المنصورة، أو كان هذا الغير يرى أن جعجعات المنـبر تشـفع له فتجعله من جماعة الحق والهدى.

نعم إن الطائفة المنصورة سبب ورود حديثها هو إعلان توقف القتال، أو قول بعضهم في كل زمـان وفي كل آن (إلا ما يـأتي من زمن عيسى عليه السلام مع يأجوج ومأجوج) أن هذا الـزمن لا قتـال فيه ولا جهـاد، أو كقـول بعضهم هذا الزمن: كفوا أيديكم وأقيموا الصـلاة، أو كقـول بعضـهم: كونـوا أحلاس بيوتكم. وكلها كلمات حق تنـزل على معان باطلة، ومعان فاسدة.

إن أمر القتال هو أمر إلهي ليس لأحد أن يبطله، وإن رام أحد أن يزوره أو يماحكه فيكفيه ابتداء أنه لم يتشـرف بموقع له في الطائفة المنصـورة، بل هو مخذول ومن طائفة الخذلان، وسيبقى شاعرا أبد الدهر أنه مخـذول ومهزوم، وأن الباطل بغطرسته أقوى من الحق والإسلام الذي يملكه.

إن طائفة الحق والنصر هي طائفة تستشعر العـزة مع ضـعفها، وتمتلك غنى القلب مع فقرهـا، قد تكـون رثة الثيـاب، قليلة المتـاع، فقـرة الحـال، لكنها وهي ترتفق أسلحتها، وتناجي خيولها هي منصورة بفضل الله وقوتـه، وهذه الطائفة (لا تزال) ولن تزول، ولا تتوقف، ولن تتوقف، إذ أن المـرء لا يتوقف عن القتال وعن مناجاة الحرب وسجالها إلا من سلبت منه رجولته، بعد أن سلبت منه معـاني العـزة بهـذا الـدين العظيم، والطائفة المنصـورة ليست كذلك بإذن الله تعالى.

هذه هي الصفة الأولى للطائفة المنصورة، رضي من رضي وسخط من سـخط، ومن سـخط فليسـخط على حـديث رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، والحق لن يضيره أن يعرض عنه أكثر الناس.

الصـفة الثانية: في الحـديث المتقـدم بين لنا الـرحيم بأمته الشـفيق علينا موارد الاقتصاد والطعـام والغـذاء والمـال للطائفة المنصـورة: يقـول صلى الله عليه وسلم: ((ويزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويـرزقهم منهم حـتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله)).

إن مما يؤسف له أن عامة التنظيمــات والجماعــات الإســلامية، حــتى الجهادية منها عندما يفكرون بالمورد المالي، فإنهم لا يخرجـون عن تفكـير أهل الباطل، أو أصـحاب الـدنيا، فهم إما أن يبحثـوا عن متـبرع محسـن، أو يفرغوا بعض أفرادها للتجارة والكسـب، وهم بهـذا جعلـوا لأعـدائهم عليهم سبيلا، لأن هذه المنافذ لا يتقنها المسلم وخاصة المجاهد، وعلى الخصـوص في هذا الزمان، حيث سيطر الكفر على هذه المنافذ، واحتاط منها حـتى لا يؤتى من قبلها، قد يستكثر علينا البعض طـرح مثل هـذا الموضـوع، مع أنه جد مهم وحيوي، فالمال عصب الحياة، وقوام الحياة بـه، قـال تعـالى: {ولا تؤتوا السـفهاء أمـوالكم الـتي جعل الله لكم قيامـا}، فقد جعل الله المـال للبشر قواما لهم، إذ بدونه لا قــوام لهم، وليس من المســتغرب أبــدا أن يرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم لهـذا الأمـر، وفي هـذا المـوطن الخطـير، إذ أنه يقـول للطائفة المنصـورة: إيـاكم ثم إيـاكم أن تخجلـوا من الحق الـذي تعلمونـه، وإيـاكم ثم إيـاكم أن تضـعفوا أمـام إرجـاف النـاس

عليكم: سيسميكم الناس لصوصا، كما سيسمون جهادكم قتلا وتخريبا، فلو أطعتموهم سيكون للكافرين عليكم قدرة وسبيلا.

وأنا أستغرب من أولئك الذين يدعون الناس للجهاد والقتال في سبيل الله، ثم يطلبون منهم أن يكتسبوا عيشهم من الوظيفة (وهي عبودية ورق القرن العشرين كما سماها العقاد)، أو يطلبون منهم أن يكتسبوا عيشهم بالتجارة التي ستأخذ جل وعامة وقتهم.

على المسلم أن لا يخجل من الحق الذي يملكه أمام ضغط الباطل وتشويهه للحقائق. أيها الاخوة المجاهدون: ظن بعض الجهلة أن قانون الغنيمة والفيء قد تغير هذه الأيام، وهؤلاء كذابون جهلة، فقانون الغنيمة - حيث يسلب العدو من عدوه - مازال قائما وإلى الآن، وإلا فخبرونا عن هذا الشيء الذي تسمعونه في الخليج؟ ماذا تسمونه؟ هل هو كما يسمونه أجرة ومقايضة؟، حيث يدفع للجندي الغربي أكثر من ثلاثين دولارا في الساعة الواحدة، أجرة بدون طعامه وشرابه، وتنعمه وفراشه، وبدون ثمن الآلات والمعدات، وبدون الوقود وما شابه ذلك؟ هذا الشيء الذي ترونه في البوسنة والهرسك ماذا يسمى؟.

خبرونا إن كان بقي في وجوه أصحاب التقوى الباردة بقية حياء أهذا كله مشروع، ولكن ما يفعله المجاهد في الجزائر جريمة وشنار؟.

ثم عرفونا يا أصحاب المعرفة أي طريق يعيش المسلم اليوم ليكتسب رزقه ولا يصيب مالاً حراما؟ وهل هناك طعام أزكى ومال أطيب من مال الغنيمة و الفيء ؟!.

إن من العار أن نخجل من حقنا، وغيرنا في باطله يتغطرس ويتبجح، وليعلم الجميع أن من صفات الطائفة المنصورة أنها تأكل من مال من أزاغهم الله تعالى، شاء من شاء أو أبى من أبى والله الموفق.

الطائفة المنصورة هم أهل الحديث:

إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي له الحق فقط أن يكشف عن صفات الطائفة المنصورة، وقد تبين لنا أن سبب ورود الحديث - حديث الطائفة - هو الرد على معطلي الجهاد، ومن هنا يظهر أن الطائفة المقصودة شرطها اللازم هو القتال. وهناك أحاديث أخرى غير حديث سلمة بن نفيل الكندي تؤيد هذا الأمر وتؤكد عليه، ومنها حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة**)) رواه مسلم.

ومنها حديث جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصبة من المسلمين حتى تقوم الساعة**)) رواه مسلم.

وأحاديث أخرى غيرها، كلها تشير إلى هذا الأمر وتؤكده، وتنفي أي فهم آخر لهذا الحديث العظيم.

وقد وجد بعض القوم ممن يتشبث بكلام بعض الأئمة في تفسير هذا الحديث، حيث أن جماعة من الأئمة الهداة أمثال عبد الله بن المبارك،

وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخـاري، ومسـلم بن الحجـاج سـئلوا عن المـراد بهـذه الطائفة فأجـابوا بالجزم أنهم أهل الحديث. فهل ما قالوه حقا، أم أنهم أخطأوا (والخطأ في حقهم جائز)؟ فإذا أصابوا فما المقصود بقولهم: أهل الحديث؟.

إنــني أعتقد جازما أن ما قــالوه هو الحق والصــواب، وألهم هــدوا إلى معرفة المـراد بــهذا الحـديث، فأهل الحـديث هم خـير أهل الأرض في كل زمان، وأهل الحديث هم على الجادة التي يتم بها وعليها النجـاة، بهم حفظ الله تعالى دينه، ومناهجهم هي الأهدى والأتبع لمنهج خير القرون المشـهود لها بالخيرية حيث قال النبي صلى الله عليه وسـلم: (خـير النـاس قـرني). وحيث تبين لنا هذا فلماذا قال هذا الجمع من الأئمة أنهم: أهل الحديث؟.

وما المقصود بهذا المصطلح؟.

وقبل أن أخوض في كشف المـراد من هـذا المصـطلح فلا بد أن أعـرج ولو قليلا على بعض الأفهــام الســقيمة، والطــروح العليلة في تفسر هــذا المصطلح.

ظن بعض الأغمار وبعض الصـبية أن المقصـود بهـذا الحـديث هم الـذين يشـتغلون بفن علم الحـديث، دراسة وتحقيقا وتخريجـا، وعلى هـذا فـإنهم قصروه على أولئك الكتبة، وبعض تجـار الـورق الـذين اشـتغلوا بهـذا الفن، وهذا العمل وهذا الـذي قـالوه بين الخطأ والانحـراف، وخطأ هـذا التفسـير ظاهر من عدة جوانب، ويكفينا أن نشـير إلى الواقع العملي لهـؤلاء ليتـبين لنا بوضوح خطأ ما قالوه.

فنقــول: لو أن كل واحد اشــتغل بعلم الحــديث جمعا ودراسة وتحقيقا وتخريجا هو من أهل الحـديث، أي داخلا في مسـمى هـذا المصـطلح الـذي أطلقه أولئك الأئمة لكانت طامة وباقعة، فمن أشهر القوم الـذين اشـتغلوا بهـذا الفن ممن عـرفهم القاصي والـداني، رُئي منهم شـرك وكفـر، وقرأنا لهم بعض الكتابـات الـتي تحسّـن عبـادة غـير الله تعـالى، كعبـادة القبـور والجن، وقد رأينا كبــار من اشــتغل بهــذا الفن من هو من أئمة التصــوف، الذين صرحوا بأعظم البدع والمنكرات. فممّن اشـتهر بهـذا الفن الحـديثي الشيخ يوسف النبهـاني وهو الـذي ضم زيـادة الجـامع الصـغير إلى الجـامع الصـغير (وكلاهما للسـيوطي) وسـماه "الفتح الكبـير في ضم الزيـادة إلى الجــامع الصــغير" ورتبه ترتيبا رائعــا، وأزال منه المكــرر، وجعل له مقدمة تشتمل على ست فوائد، وكلها مرقومة في "صحيح الجامع الصغير وزيادته "الفتح الكبير"، وهذا الرجل له من الكتب العديدة الـتي تحسن عبـادة غـير الله تعـالى كـالقبور والاسـتغاثة بـالأموات، وله كتـاب جمع فيه - ما زعم - كرامــات للأوليــاء ســماه "جــامع كرامــات الأوليــاء"، فيه من الطامــات العظيمة، والمصائب التي يستحي المرء من ذكرها، وكان الرجل عاملا في المحاكم المدنية التي تحكم بالياسق العصري - حسب تعبير محمود شــاكر - في لبنــان، وجهــوده في ذم الموحــدين، والــبراءة منهم، والطعن فيهم أشهر من نـار على علم، فهل يقـول قائل له مسـكة من عقـل: إن يوسف النبهاني من أهل الحديث فهو من الطائفة المنصورة؟!.

وهناك غير يوسف النبهـاني وأشـهر منـه، وهم الغمـاريون، أمثـال أحمد صديق الغماري، وإخوته عبد الله (وقد توفي) وأخوهم عبد العزيز الغمـاري

(وهو لا يـزال حيـا)[1]. فهـؤلاء لهم من الجهـود العظيمة في خدمة السـنة النبوية ما لا نستطيع أن نحصيه في هـذه الورقـات ولا مئـات أمثالهـا، وقد اشـتغلوا في الحـديث تحقيقا وتخريجا ما يفـوق عمل غـيرهم، ولكنهم لمغـربيتهم (نسـبة للمغـرب الإسـلامي) لم يكن لهم شـهرة كشـهرة المشـرقيين، ولكنهم - أي المشـرقيين - ما زالـوا يأخـذون من كتبهم، ويسـتفيدون من بحـوثهم دون الإشـارة إليهم، وهو مما قيل فيه إنه من السرقة التي لا يجب فيها القطـع، فأحمد بن الصـديق الغمـاري (وهو أكـبر الاخـوة) له من الجهـود الحديثية الكبـيرة أمثـال: "هداية الرشد في تخـريج أحاديث ابن رشد" في مجلدين، وله مسـتخرج على مسـند الشـهاب حققه أحد المشـارقة، وله مسـتخرج كـذلك على الشـمائل المحمديـة، وهو رجل فطحل ولا شك في هذا الباب، إلا أنه كان من غلاة الصوفية، إذ كان يصرح بوحدة الوجود (أي أنه لا يرى فرقا بين الخالق والمخلـوق)، وألف في ذلك رسالة، وكان رافضيا خبيثا وينـبز أهل السـنة بـأقبح الأوصـاف، مع أنه كـان مجتهدا فى مسـائل الفـروع ولا يتقيد بمـذهب، فهل هو داخل في مسـمى أهل الحديث، وهو بالتالي من الطائفة المنصورة؟.

الجواب: لا شك أن هذا الفهم أعوج سقيم.

وكـذلك أخـوه عبد الله بن الصـديق الغمـاري له في علم الحـديث بـاع طويل - ولكن ليس كأحمد -، وله جهـود في علم الرجـال مثل جمعه للرجال الذين قال عنهم "الحافظ الهيثمي" في "مجمع الزوائد": لم أعرفه أو لم أجد له ترجمة، وقد اكتشف صحابيا لم يـذكره من كتب في الصـحابة قبله، وهو ممن يحسن اتخاذ المساجد على القبور ويرى ذلك قربة وعبادة.

ومن هؤلاء القـوم الـذين اشـتغلوا بعلم الحـديث جمعا وتحقيقا وتخريجا الشيخ "محمد زاهد الكوثري"، وهذا الرجل كان له إلمـام بهـذا الفن يفـوق التصور، وله معرفة بالمخطوطات تدل

على براعة وذكاء وإحاطة فائقة، حـتى قيـل: إنه كـان عنـده القـدرة أن يعـرف المخطـوط ومن كاتبه وفي أي سـنة كتب، ولو لم يوجد على طرته ذلك!!، ومع هذه الإحاطة وهذا العمل، إلا أنه لا يدخل أبدا في مسمى أهل الحديث، لأنه كان عدوا للسنة ودعاتها، فكرس قلمه في طعن الموحـدين، حـتى وصل به الأمـر- أي حقـده على السـنة والتوحيد - أن طعن في كبـار الأئمة الثقات أمثال: الشـافعي، وأحمـد، وابنه عبد اللـه، والبخـاري، وكثـير غيرهم، بل إن بعض الصـحابة لم يسـلم من طعنه ولمـزه أمثـال: أنس بن مالك رضي الله عنـه، وكل هـذا بسـبب تعصـبه لمذهبه وحقـده على أهل السنة والتوحيد.

هـذه الأمثلة وكثـير غيرهـا، وهي أمثلة واقعـة، تـبين لطـالب الحق أن الاشـتغال بالحـديث وفنونه لا يـدخل الرجل في مسـمى أهل الحـديث، وبالتالي ليس المقصود بعبارة الأئمة الهداة، أن الطائفة المنصورة هم أهل الحـديث هو المشـتغل بعلم الحـديث. بل لها معـنى آخر لابد من اكتشـافه ومعرفته.

وعلى هـذا فـإن الرجل أو الجماعة لا يكـون من أهل الحـديث، ولا من الطائفة المنصورة، وهم يعملون أجراء عند الطـواغيت، وليسـوا هم الـذين يبذلون أشد البذل في المنافحة عنهم وإصباغ الشرعية عليهم، وليسـوا هم

---

[1] - وقد توفي هو أيضا، والمقال كتب قبل وفاته. (الأسوة الحسنة)

تجار الورق بحديث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، وليسـوا هم صـبية المكاتب الـذين يتجسسـون على الـدعاة إلى الله تعـالى، ويكشـفون سـتر المسلمين لأعداء الملة والدين، بل أهل الحديث غـيرهم، وأحمد بن حنبـل، والبخـــاري، ومســـلم، بـــرآء من هـــؤلاء، ووالله إنه لمن الظلم أن نجعل المجرمين كأهل الحديث.

من هم أهل الحديث؟

في هذا الـزمن المتـأخر وفي زمن تضـارب المنـاهج في فهم الإسـلام، وكلما قرأ المرء الكتابات التي تفرزها عقول وأهواء البشـر، فـإن المسـلم السني يشعر بقيمة منهج أهل الحديث وطريقة فهمهم لدين الله تعالى.

بعد أن دخلت العجمة على أمتنـــا، وولج فيها من لم يتشـــرب حقيقة الإسلام، وبقي فيه شيء من جاهلية تراثه وقومه، تكلم هؤلاء في دين الله تعـــالى، تكلمـــوا في تصـــورهم للألوهية وعلاقة البشر بها، وتكلمـــوا في الرسالة المحمدية وعقائدها، وتكلموا في الفقه والتشريع .

ففي التوحيد ومســـائل التصـــور والألوهية انشق النـــاس إلى معتزلة ومتكلمين، وفي الفقه والتشـــريع افـــترق النـــاس إلى ظاهرية وأهل رأي، وفي السلوك والتربية صار الناس إلى صوفية وزنادقة.

وتعـددت المـذاهب كالشـيعة والخـوارج، تختلط فيها الأقـوال العقائدية بالتصورات السياسية، كل هذا الخليط المتنوع والمتضـارب، جعل المجتمع الإسلامي نهباً لهذه الكثرة الداعية ببليغ القول إلى دينها وطريقها، في ذلك كله بقي أهل الحق على ما هم عليه من وضـــوح التصـــورات، وســـلامة المنهج، والهدي الأول الذي عاشه الصحابة رضي الله عنهم، هؤلاء الأوفيـاء تميزوا عن غيرهم بأنهم أهل تسليم لما جاء به النص، فلا يعارضونه بشـيء من عقولهم وقواعدهم، وإذا أرادوا معرفة شيء غاب عنهم حكمه وإدراكه عادوا إلى النص، فاستناروا به، فكان لهم كما أرادوا، هؤلاء القـوم هم أهل الحديث.

أهل الحـديث في الفقه هم مقابل أهل الـرأي والظاهريـة. وأهل الـرأي على درجـات متفاوتة في بعـدهم عن الحـديث وهديـه، والظاهرية كـذلك. فأهل الرأي عمـدوا إلى بعض النصـوص الـتي صـحت لـديهم، أو إلى بعض القواعد التي تكونت من مجموعة نصوص متسـاوقة المـراد، فجعلوها أصلا ومنهجا لـيردوا عامة النصـوص الأخـرى عليهـا: وسأضـرب على ذلك مثلا تاريخيا لأهل الـرأي ومثلا معاصـرا، ليتـبين لنا الطريقة الـتي يتعامل معها الرأي في رد أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

المثل التاريخي: اسـتقر لـدى أهل الـرأي أن الإسـلام جـاء لتعظيم البشر عن بقيـــة المخلوقـــات، فالإنســـان أعظم من الحيـــوان مهما زادت منفعة الحيوان وقيمته، وهي قاعدة صحيحة في مثل هذا الطرح، وقد جـاء الحـــديث أن الغنيمة تقسم بين الراجـــل والـــراكب كالتـــالي: أن الراجل له سهم، والراكب له ثلاثة أسهم، وهي قسمة تدل في الظاهر على أن فـارق السهمين هي للحصان، جاء أهل الرأي وردوا هذا الحـــديث لمخالفته قواعد الشريعة حسب ظنهم، وقـالوا: هـذه قسـمة غـير صـحيحة، فأقل ما ينبغي للـــراكب هو ســـهمين لأنه لا ينبغي أن يعطى الحصان أكـــثر من الإنســـان، ونحن هنا لا نريد أن نناقش هـذا القـول من وجهة نظر قياسـية عقلية لأنه

متهافت من جهتها، لكن يكفي أن يقال أن هذا قياس على خلاف النص فلا يلتفت إليه.

فالحق أن الأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتفاوتة في تعاملها مع الحـديث والسنة، ونحن لا نشير هنا إلى طائفة معينة كـأن يقـول قائـل: إن الكـاتب يقصد مـذهب الحنفية حين يقـول: أهل الـرأي، فهـذا خطـأ، مع أن الحنفية بمناهجهم صاروا علما على هـذا المصـطلح، وهم بحق كـذلك، لكن غـيرهم كان له نصيب من هـذا الاسـم، فبعض المالكية يـردون حـديث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لأنه على خلاف مـذهب أهل المدينة، وهـذا كله هو إعمال للرأي مقابل النص.

ولكن نشـأ من رد الشـريعة على وجه من وجـوه الزندقة لا على وجه التأويل المعذور، أمثال "ابن الراوندي" الزنديق المشـهور، ولا يظنن ظـان أن وضع هؤلاء جميعا في مسمى أهل الرأي يجعلهم على مرتبة واحدة، كلا فإن هذا من الفهم السقيم الضال.

المثل المعاصر: يكـثر المعاصـرون قـولهم في مسـائل الخلاف والترجيح، أن هذا القول ملائم للواقع، أو أنه الأليق بأصول الشريعة، أو أن هذا القول أقرب إلى روح الشـريعة، وهي مرجحـات يراها السـني تخـالف النص الصحيح الخاص بالمسألة بكل وضوح وجلاء، فالفقيه الذي يقول بـأن القول بأن زكاة الخضروات هو الصواب لأن هذا يلائم الواقـع، أو لأنه الأنفع للغير حسب تعبيرهم، وهو يعلم أن زكاة الخضروات قد صح فيها الحـديث، ولكنه لا يلتفت للنص ولا يعول عليه في ترجيح قـول على آخـر، ويـزعم أو يظن أنه بمجرد وجود الخلاف السابق في المسألة يجعل للمسـلم والفقيه حرية الاختيار بين الأقوال المعروضة دون حرج في مخالفة النص الصـحيح، ولعل كتـاب الشـيخ محمد الغـزالي "السـنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " هو خير مثال على ما يقع في اتهام أهل الحـديث بـأنهم الأضـيق فكرا ونظرا من قبل أهل الرأي المعاصرين.

الصور المعاصرة لأهل الرأي كثيرة جـدا، وحـديثنا هنا عن منـاهج الفهم والتحليل لا عن الكشف عن الأقـوال الفرعية الضـعيفة، لأنه لا يعـني أبـدا صواب المنهج في الفهم والتحليل أن يؤدي بصاحبه إلى الصواب المطلـق، وفي المقابل قد يصدق الكـذوب، وعلى الجملة فـإن عامة المنتسـبين إلى الفقه في جماعة الإخوان المسلمين هم أرائيـون، أي أنهم لم يهتـدوا بنـور الحديث والسنة، وعامة أفراد الجماعة لا يعولون على الأحاديث والنصوص، لكنهم يربون أفـرادهم على ما يسـمونه النظـرة الشـمولية للإسـلام، وهي تعـني التعامل مع القواعد العامة دون الحكم الخاص المعـني بالمسـألة، وهذه الصـورة تكـون أسـيرة للعمومـات، وتتعامل معهـا، بل وتحفظها عن ظهر قلب، وتنشئ في أذهانهم مجموعة من الأحكـام لكل حادثـة، فمثلا لو سئل فقيه من هؤلاء الآرائيين عن حكم الله تعالى في مسألة قتل المسلم بالكافر مثلا لأجاب بالإيجاب، والدليل عنده هو أن الله تعـالى قـد قـرر في كتابـه: أن النفس بـالنفس، والكـافر نفس، فلا بد من القصاص من قاتلها كائنا من كان هذا القاتـل، مع أن العمـوم يـرد على هـذا العمـوم، فلو احتج فقيه آخر بقوله تعـالى: {**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمـنين سبيلا**}، لكـان قوله مناهضا للقـول الأول، ولكن على الجملة فاحتجـاج الفقيهين بهـذه العمومـات ليس هو منهج أهل الحـديث، إذ أن المنهج

الصواب هو البحث في حكم المسألة الخاص في النص ابتداء، حـتى إذا لم يهتد الفقيه إلى هذا النص لجأ إلى العمومات.

فأهل الحـديث في هـذا البـاب هم مقابل أهل الـرأي، وهو حـديث عن منهج علمي في التعامل مع النصـــــــوص فهما وتحليلا، ولكن لتعلق أهل الحديث بالنصوص واهتمامهم بها جعلهم يفرغـون الكثـير من جهـودهم في الجمع والتحصـيل لهـا، فتمـيزوا بهـذا اللقب والاسـم، مع أن الكثـير من المنتسـبين لأهل الحـديث لم يكن له اهتمـام خـاص بهـذا الفن من علـوم الشـريعة (أقصد علم الحـديث) بل كـان ضـعيفا متمـيز الضـعف في هـذا الباب، وخير مثال على هذا النوع من الرجـال هو ابن قتيبة الـدينوري، فإنه يســمى خطيب أهل الســنة، مقابلة للجاحظ الــذي كــان يلقب بخطيب المعتزلة، وابن قتيبة علم من أعلام أهل السـنة، ورجل من رجالاتهـا إلا أنه لم يكن يمـيز ضـعيف الحـديث وصـحيحه ولم ينشـغل بـه، لكنه في الفهم والإدراك والتعامل مع النصوص على منهج أهل الحديث.

وفى المقابل فإن كثيرا ممن اشتغل بالحـديث رواية وجمعا كـان بـدعيا في منهجه وإدارة سلوكه ومن أمثال هؤلاء "عمــران بن حطـان " فهو كما هو معلـوم من الخـوارج بل من غلاتهم، وقد روى له البخـاري في صـحيحه كرواية صــدق وعــدل في الحــديث، لكن هــذا لا يدخله في مســمى أهل الحـــديث أي الطائفة المنصـــورة، لأن الإطلاق يقصد به المنهج في الفهم والتحليل.

قبل أن ننتهي من تجلية المراد بأهل الحديث في الفقه والأحكام، فلا بد من دوام الـدعاء لإمـام أهل الحـديث في عصـره وكل عصر أعـني الإمـام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي، الذي كان أهل السـنة والحـديث قبله لا يصمدون أمام أهل الرأي في مناظرتهم معهم، خاصة لقـوة الآخرين في المنطق العقلي والحجاج، فجاء هـذا الإمـام فنصر السـنة حـتى كـان يلقب هـــذا اللقب، هو "ناصر الســـنة" أو ناصر الحـــديث، وكـــان كتابه العظيم "الرسـالة" هو اللبنـة الأولى في رد قيمة النص وإلى ضـرورة التعامل معه ومن خلاله، وليس بعيدا عنه، ولكن الشـافعية المتأخرين لم يكونـوا أوفيـاء لإمــــامهم حين قبلـــوا أولا أن تســـمى طريقتهم في الأصـــول: بطريقة المتكلمين، وثانيــا: حين ســمحوا لرجل شــافعي في الفقه وهو محمد بن محمد الغزالي (أبو حامـــد) المتـــوفى ســـنة 505هــــ) أن يجعل المنطق الآرسطي هو أحد أعمدة الفهم لـدين الله تعـالى كما سـطر ذلك في كتابه "المستصـــفى في علم الأصـــول" وهو أحد أركـــان كتب الأصـــول عند المتكلمين، أو كما يسمونها ظلما طريقة الشافعي.

معالم المنهج عند أهل الحديث:

إن عماد هذا المنهج قائم على مطلق التسليم للنص المعصوم، ثم هـو منهج مستقل في الفهم والتحليل، ووعدنا أن نتكلم هنـا عن أهـل الحـديث وطريقتهم في المفاهيم والتصورات، وأنا أحاول جهدي أن أهرب من لفـظ "العقيدة"، لأن هذا اللفظ ليس أثريا، وثانيا: لأنني أعتبر أن هذا اللفـظ هـو انتصار لمذهب المتكلمين في الفهم والتصور، وسبب ذلـك أن هـذا اللفـظ يدل فقط على قضايا التصور التي ليس لهـا إفـراز في الحركـة والحياة، أو لنقل هكـذا يفهمـه أصـحاب هـذا اللفـظ، وهـو يقابـل لفـظ الفكـر بـإطلاق

المعاصـــرين لــه، والبــديل الشــرعي لهــذا اللفــظ هــو لفــظ "الإيمــان" و"التوحيد"ـ وهما لفظان يجمعان ق داخلهما أو في داخل كل واحـد منهمـا قضايا التصور والتصديق، ومسائل الحركة والحياة، ولفظ العقيـدة لا يقـوم بهذا المطلوب، بل هو يدل فقط على مفاهيم التصديق فقـط، وهـذا أفـرز في المسـلمين أحكامـا جديـدة بدعيـة لم تكن عنـد الأوائـل، وأهم هـذه الإفرازات هو: تضخيم جانب التصديق على جانب السلوك والحركة، وصـار معيـار النـاس في الحكم على بعضـهم البعض هـو بمقـدار معرفتـه، وليس بمقدار هداه، والمعرفة في دين الله تعـالى لا قيمـة لهـا إلا لكونهـا طريقـا لكشف الطريق للسـالك، لا لتبجح القاعـد الكسـول، ولكن لفـظ "الهـدى" يحمل جانب المعرفـة وجانب العمـل والسـلوك المطـابق لهـذه المعرفـة، فالنـاس يقولـون الآن عن فلان: إن عقيدته صـحيحة، ويقصـدون: إقراراتـه في مسائل التصديق والمعرفة، وهم بهذا لا يهتمون بما هـو عليه من هـدى أو ضلال في السـلوك والعمـل، والأصـل الـذي علمنـا إيـاه القـرآن، ونبهت السنة عليه كثيرا هو أن الرجل لا يكون مهتديا بعلم خاص لا يفرز عملا، ولا بعمل لم يسبقه العلم الصـحيح، فكـون "الرجـل عقيدتـه صـحيحة" لا يفهم منها أن هذا الرجل على هدى وصواب، وكذلك قـول بعضـهم: هـذا أفكـاره مستنيرة، وهي عند الصوفية: تساوي لفظ العارف، ويقصـد بهـا أن الرجـل عرف ربه بالفهم الصوفي، وهذا اللفظ ليس من ألفاظ المـدح، لأن إبليس من أكابر العـارفين، لكنـه لم يهتـد بهـذه المعرفـة، وكـذلك إبليس عقيدتـه صحيحة، وإبليس كذلك أفكاره مستنيرة، ولكنه ليس موحدا ولا مؤمنا.

أهل الحــديث وبدعة الإرجــاء: (الكفر والجحــود والاستحلال)

أهل الحــديث في مســائل التوحيد والإيمــان هم مقابل أهل البدعة في هذا الباب، وأهم الفرق في هذا الباب هم الخوارج والمرجئة، والخوارج قد كثر حديث المعاصرين عنهم، مع أن أغلب هؤلاء المتحدثين لم يفهمــوا من الخوارج شيئا سوى أنهم المتشددون في كل باب، فكلما رأى أحــدهم رجلا متشددا في باب من الأبواب اتهمه بالخارجية، ولو أننا قارنا ما فعل الإرجاء في أمتنا بمقدار ما أحدثته عقائد الخوارج لوجدنا أن الخوارج يهون أمــرهم ولا يعدون شيئا أمام إفرازات عقائد المرجئة، فالكل قد سل سـيفه وحربه في الخـوارج المعاصـرين - جماعة التكفـير والهجـرة - حـتى من لا يحسن قــراءة كتب العقائد والفــرق، ولكن غلبة مــذهب المرجئة وسـيطرته على عقــول النــاس هــذه الأيــام، هو الــذي جعل اكتشــاف أمر الخــوارج سـهلا ميسورا، جماعة التكفير والهجرة محدودة العدد، محصورة التأثير، ولم يبق من آثارها إلا بقايا وشم يلــوح ولا يظهــر، ولكن هــؤلاء الــذين يتبجحــون بانتسابهم إلى المرجئة تحت دعوى: "لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله " فمن الذي يتحدث عنهم ؟ ومن الـذي يجـرؤ أن يقـترب منهم ولو في المنام ؟.

قـــولهم: لا نكفـــر أحـــدا من أهـــل القبلـــة بـــذنب مـــا لم يســـتحله.

1 - قال الخلال - جامع علم الإمـام أحمد بن حنبل (ولم يدركـه) -: أنبانا محمد بن أبى هـارون أن إسـحاق بن إبـراهيم حـدثهم قـال: حضـرت رجلا

ســأل أبا عبد الله - أي أحمد بق حنبل - فقــال: يا أبا عبد اللــه، إجمــاع المسلمين على الإيمان بالقدر خيره وشره؟، قال أبو عبد اللـه: نعم. قـال: ولا نكفر أحدا بذنب؟ فقال أبو عبد الله: اسكت، من ترك الصلاة فقد كفر، ومن قال "القرآن مخلـوق" فقد كفـر. ا. هــ. مسـند أحمد (1/79). تحقيق أحمد شاكر..

قلت: إســناده صــحيح. وفي المطبوعة محمد بن هــارون، وهو خطــأ. والصحيح ما أثبتناه.

2 - قال الخلال في السـنة: قـال أبو عبد الله - أحمد بن حنبل -: بلغـني أن أبا خالد وموسى بن منصور وغيرهما يجلسون في ذلك الجانب فيعيبون قولنـا، ويـدعون أن هـذا القـول: أنه لا يقـال (أي القـرآن) مخلـوق وغـير مخلوق، ويعيبون من يكفر، ويقولون: إنا نقول بقول الخوارج. ثم تبسم أبو عبد الله كالمغتــاظ. ا. هـــ. الفتــاوى الكــبرى (6/479) بتحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا/ طبعة دار الكتب العلمية.

جعلت هذين الأثرين في المقدمة، إذ إن شيوع هذه القاعدة بين النــاس قد جعلها في مقـام النصـوص المعصـومة، وردها أو محاولة التنبيه على ما فيها من عمــوم مرفــوض، ســيكون متهما بالخارجيــة، تلك التهمة الــتي لا يحسن الجهلة ســواها، فكلما ســمع الجاهل أمــرا جديــدا عليــه، يبــادر إلى إنكــاره والتنفــير منــه، والنــاس لا يتصــورون حــدوث الــردة في المســلم، ويستبعدون وقوعه أو الحكم به، مع أن الفقهاء قد ذكروا الردة في أبــواب الفقه المتعددة: فقد ذكروا الـردة في بـاب الوضـوء وأنها من نواقضـه، بل ذكر بعض أهل العلم الـردة في حـالات لا يتصـور حـدوثها. قـال ابن قدامة المقدسي في المغني: والـردة تبطل الأذان إن وجـدت في أثنائـه. المغـني مع الشرح الكبير (1/438). فهل يتصور المرجئ أن يرتد المؤذن في أثنــاء أذانه؟ ولهذا قال حامد الفقي في تعليقه على فتح المجيد: كثير من أدعيـاء العلم يجهلـون: لا إله إلا اللـه، فيحكمــون على كل من تلفظ بها بالإســلام، ولو كــان مجــاهرا بــالكفر الصــراح، كعبــادة القبــور والمــوتى والأوثــان، واستحلال الحرمات المعلوم تحريمها من الـدين ضـرورة، والحكم بغـير ما أنزل الله، واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله. ا. هـ.

وإذا أردت أن تعرف مقدار علم قادة المسلمين بالتوحيد، فانظر إلى ما كتبه سالم البهنساوي في كتابه "الحكم وقضية تكفير المسلم" (ص 171) يقول: إن الذين يستعينون بالصالحين من الأمـوات بنـدائهم أو التوسل بهم إلى الله لقضاء الحاجات لا يعتقـدون قـدرة الأمـوات على تصـريف الأمــر، وبالتالي فالحكم بكفرهم هو انحراف عن فهم حكم الإسلام. اهـ.

وسالم البهنساوي بكتابه هذا يمثل قمة الـوعي والفهم لجماعة الإخـوان المسلمين في فهمهم للتوحيد. فهل يرجى من هـؤلاء خـير؟ أو هل يـرتقب منهم تجديد لما انهدم من بناء الإسلام العظيم؟.

وأغرب من هــؤلاء هو من يعتقد أن فكر حسن البنا هو الفكر التجديــدي لهذه الأمة في هــذا العصــر، وهو ينتسب للســلف والســلفية، ويرفع شـعار أهل السنة والجماعة.

بل أغــرب منهم كله من يــزعم حمل فكر الجهـاد وهو يعتقد أن الفـارق بين جماعة الإخوان المسلمين وبين جماعـات الجهـاد كالفـارق بين صـحيح البخاري وصحيح مسلم، ولهذا فهم لا يستنكفون أبــدا من الاتحــاد معهم، لا

ضد المرتـدين، ولكن ضد الموحـدين من إخـوانهم، بل ويسـتخدمون مطية لهؤلاء المبتدعة في شتم إخوانهم وتسميتهم بالمكفراتية.

على كل حــال إن اتهمنا بأننا خــوارج، فقد اتهم أئمتنا بهــذه التهمة من قبـل، فكما رأيت في الأثر الثـاني أن الإمـام أحمد اتهم بأنه من الخـوارج، وكذلك اتهم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وأما اتهام محمد بن عبد الوهـاب فأشهر من أن يذكر في هذه العجالة.

نعــود إلى شــرح عبــارة: لا نكفر أحــدا من أهل القبلة بــذنب ما لم يستحله. وأنا أقسم البحث إلى نقاط ليسهل فهم المراد.

الأمر الأول: إن كثيرا من القواعد الأصولية والعقائدية - كهذه القاعدة - تكـون تد نشـات في ظـروف خاصـة، لمعالجة هـذه الظـروف، ولا ينبغي للمسلم الفقيه أن يتعامل مع هذه القواعد كما يتعامل مع النص المعصوم، بل على الفقيه أن لا ينسى الأحكــــام الخاصة المتعلقة بالحادثة المعروضة أمامـه، وقد بين الإمـام الشـاطبي في كتابه "الموافقـات" شـيئا من هـذا، حيث نبه على أن الكليات لا تغني عن الجزئيات.

الأمر الثـاني: كـون هـذه القاعـدة نشـأت في ظـروف خاصة فهـذا معروف، إذ أنها قبلت كقاعدة استقرائية في الرد على الخوارج، والخـوارج بينهم وبين أهل السنة عموم وخصـوص، واتفـاق وافـتراق، فالقـدر الجـامع بين أهل السنة والخوارج هو التكفير بالإشراك، وبالأعمـال المكفـرة، فأهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل، وكذلك الكفر قـول وعمـل، فكما يكفر المـرء بعمل القلب وقولـه، فكـذلك يكفر بعمل الجـوارح وقـول اللسـان، فـالردة في تعريف الفقهـاء هي: قطع الإسـلام بقـول أو كفر أو اعتقـاد أو شك، تال الحصني الشافعي: الردة في الشـرع: الرجـوع عن الإسـلام إلى الكفر وقطع الإسلام، ويحصل تارة بالقول، وتارة بالفعل، وتـارة بالاعتقـاد، وكل واحد من هـذه الأنـواع الثلاثة فيه مسـائل لا تكـاد تحصـر. ا.هــ. كفاية الأخيار-(2/123)، وكذلك قال الشيخ "مرعي الكرمي" في "دليل الطالب لنيل المطالب": ويحصل الكفر بأحد أربعة أمور: بالقول وبالفعل وبالاعتقاد وبالشك. ا. هـ. منار السبيل (2/256،257).

وهذا الجانب من التكفير يلتقي فيه الخـوارج مع أهل السـنة، أما جـانب الافـتراق: فأهل السـنة لا يـرون المعاصي على مرتبة واحـدة، بل هي كما ذكرها الله تعـالى في كتابه بقولــه: {**وكــره إليكم الكفر والفســوق والعصيان**} فهناك من المعاصي (القولية والعمليــة) ما هي كفر ومنها ما هو فسق ومنها ما هو عصــيان، فمن أتى المكفر فهو كــافر، والخــوارج لا يـرون المعاصي إلا درجه واحـدة، وأنها كلها كفر بلا تفصـيل، فحكم سـاب النــبي أو الســاجد لصــنم أو لابس الصــليب هو كحكم الــزاني والســارق وشارب الخمر.

الأمر الثــالث: أهل السـنة يعتقـدون أن المعاصي غـير المكفـرة قد ترتقي إلى درجة المكفرة بأمرين:

1 – باعتقاد حل المعصية (وهو الاستحلال)، فإذا علم المرء أن الزنا قد حرمه اللـه، وهو يقـول بحله فهو كـافر بهـذا الاعتقـاد لا بفعل الزنـا، فعل المعصية أو لم يفعلها، لأنه بهذا رد حكم الله تعالى وهو كفر ولا شك.

2 - بطاعة المشرك في حكمه: قال تعالى: {**ولا تكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشــــياطين ليوحـــــون إلى**

أوليـائهم ليجـادلوكم وإن أطعتمـوهم إنكم لمشـركون} الأنعـام 121، قـال ابن كثـير في تفسر قوله تعـالى: {**وإن أطعتمـوهم إنكم لمشركون**}: أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشـرعه إلى قـول غـيره، فهذا هو الشرك كقوله تعـالى: {اتخـذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابا من دون اللـه}ا.هــ. التفسـير (2/171) وقوله تعـالى: {**يا أيها الـذين آمنـوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم خاسرين**} آل عمـران 149. قال ابن جرير الطبري: إن تطيعوا الذين كفروا يعـني الـذين جحـدوا نبـوة نـبيكم محمد صـلى الله عليه وسـلم من اليهـود والنصـارى، فيما يأمرونكم به، وفيما ينهونكم عنه، فتقبلوا رأيهم في ذلك، وتنتصـحوهم فيما تزعمـون أنهم لكم فيه ناصـحون. {يـردوكم **على أعقـابكم**} يقـول: يحملـونكم على الـردة بعد الإيمـان، والكفر بالله وآياته وبرسـوله بعد الإسلام. ا.هـ. جامع البيان (4/ 122).

الأمر الرابع: إذا اشتراط الاسـتحلال في المعاصي لتكـون كفـرا ليس في أي معصـية بل في المعاصي الـتي لا تكـون كفـرا، وأما المعاصي المكفـرة بـذاتها فإنها تنقض أصل الإيمـان سـواء اسـتحلها المـرء أم لم يسـتحلها، أي حـتى لو اعتقد أن الله حرمها فإنه يكفر ولا شـك. قـال أبو البقاء في كلياتـه: والكفر قد يحصل بـالقول تـارة وبالفعل أخـرى، والقـول المـوجب للكفر إنكـار مجمع عليه فيه نص، ولا فـرق بين أن يصـدر عن اعتقاد أو عن عناد أو استهزاء. ا.هـ إكفار الملحدين (ص 86).

الأمر الخامس: الذين يعتقدون أن شرط الاستحلال هو لجميع الذنوب - المكفرة وغيرهما - هم فرقة مبتدعة؛ وهم المرجئة، ولذلك يطلقون هذه القاعدة: لا نكفر أحدا من أهل القبلة بـذنب ما لم يسـتحله، ولا يقيـدونها لا عقيـدة ولا عملا، وهم - أي المرجئة - لم يقلـون شـرا عن الخـوارج، والمرجئة يلتقون مع أهل السنة باشتراط الاستحلال في غير المكفرات.

ولغلبة الإرجـاء فقد صـارت هـذه القاعـدة " لا نكفر أحـدا من أهـل..." تعمل في جميع الذنوب المكفرة وغير المكفرة، وقد نبه العلمـاء على هـذا الأمر، ولم يطلقوا هذه القاعدة، فقد رأينا الإمام أحمد كيف ردهـا، وقد نبه ابن أبى العز الحنفي في شرحه على الطحاوية على هذا الأمر قائلا: ولهـذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نكفر أحدا بـذنب، بل يقـال لا نكفـرهم بكل ذنب كما تفعله الخـوارج، وفـرق بين النفي العـام ونفي العمـوم. والـواجب إنما هو نفى العمـوم. ا.هـــ. شـرح الطحاوية (ص 293،294).

هل الجحـود هو الاسـتحلال؟ وهل عبـارة الإمـام الطحـاوي في متن عقيدتـه: "ولا يخـرج العبد من الإيمـان إلا بجحـود ما أدخله فيـه"، هل هي عبـارة صـحيحة أم لا؟، نقـول وبالله التوفيـق: بعض أهل العلم يسـوي بين الجحود والاسـتحلال، ويجعلها بمعـنى واحـد، وهـذا القـول مقبـول من وجه جعل الاستحلال جحودا، إذ أن المستحل (أي اعتقـاد الحل لما هو محـرم) هو جحـود لحكم الله تعـالى، ورد لـه، أما أن يكـون الجحـود هو عين الاسـتحلال فلا يسـتقيم من جهة اللغة والحـال، فـالجحود هو الـرد لعـدم الإقرار وهذا يدخل فيه تحليل الحرام كما فيه تحريم الحلال، كما فيه كذلك رد الأخبار وعدم تصديقها، وعلى هـذا فـالجحود هو أشـمل من الاسـتحلال، والجحـود في عبـارات السـلف لا يتقيد بالعمل القلـبي فقط كما هو أمر

الاستحلال، بل هو شامل للعمل مطلقـا، ظـاهرا وباطنـا، فقد يجحد الرحل بقلبه، وقد يجحد بعمله، وقد يجحد بلسانه، وقد يجحد باجتمـاع اثـنين منهما أو بهم جميعا، قـال ابن حـزم في تعريف الكفـر: وهو في الـدين صـفة من جحد شيئا مما افترض الله تعالى الإيمـان بـه، بعد قيـام الحجة عليه ببلـوغ الحق إليه بقلبه دون لســانه، أو بلســانه دون قلبــه، أو بهما معــا، أو عمل عملا جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان. ا.هـ. انظر الأحكــام (1/45) وأما قــول الـراغب الأصـفهاني في مفرداته (ص 122) في تعريف الجحد لغــة: "إنكــارك بلســانك ما تسـتيقنه نفســك"، فهو تعريف قاصــر. فالتكذيب المنافي للتصديق، والامتنـاع والإبـاء المنـافي للانقيـاد كلاهما في لفظ الأوائل يدخلان في مسمى الجحد.

أما الجواب في تحقيق عبارة: "ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحــود ما أدخله فيه" فهو:

أ - إن كثيرا من المسلمين يخلط بين سبب الكفر ونوع الكفـر، فسـبب الكفر هو العلة التي يناط بها التكفـير، أما نـوع الكفر فهو الـدافع لحصـول هــذا الكفــر، فــالواجب على المســلم أن يعلق حكم التكفــير - وهو حكم شــرعي، مـورده الشـرع، ولا مجـال للعقل فيه - على سـببه لا على نوعه وشرح هذا الكلام كالتالي:

ذكر أهل العلم أنواع الكفر فقالوا: إن الكفر أنواع، فمنه كفر الإباء ومنه كفر الإعـــــراض، ومنه كفر الجحـــــود، ومنه كفر التكــــذيب، ومنه كفر الاستهزاء... وهكذا، فهذه وأمثالها مما ذكرها أهل السنة تبين سبب حصول الكفر من فاعلــه، ولا تــبين لنا الفعل والعمل الــذي كفر به فاعلــه، فقاتل النبي كافر بإجماع أهل الملة، وهذا سـبب الكفـر، ولكن لو أردنا أن نعـرف ما هو الدافع للقتل لاختلفت من إنسـان لآخـر، فهـذا قتله لتكذيبه أنه نـبي، وهذا قتله حسداً له مع تصديقه لــه، وهـذا قتله لاسـتكباره عن قـول الحق الذي بعث به، فكما نرى أن الأنواع تختلف، ولكن السبب متحـد، فهل نكفر الرجل بالنوع أم للسـبب؟ الجـواب هو التكفـير يعلق على السـبب المكفر بغض النظر عن بحثنا عن النوع الدافع لهذا السبب.

ومثال آخر: رجل داس المصحف برجلــه، فهـذا سـبب الكفـر، ولو ذهبنا نبحث عن نوع الكفر لاختلفت في الناس كما هو حال قتل النبي، فالمسلم مطلوب منه أن يعلق حكم التكفير على السـبب لا على النـوع، وإن كـانت الأسباب المكفـرة مهما تعـددت وتشـعبت وعجز المـرء عن حصـرها، فإنها داخلة جميعها في أنواع الكفـر، ولكن الحكم بـالتكفير راجع إلى السـبب لا النوع.

ب - أنــواع الكفر عند أهل الســنة والجماعة متعــددة كما هو معلــوم، وليست قاصرة، على نوع واحد، لأن الإيمـان عنـدهم هو التصـديق الملازم للإقرار والمتابعة، والكفر هو ضد التصديق وضد الإقرار، فضد التصـديق هو الكــذب والجحــود والاســتحلال والشــك، وضد الإقــرار والمتابعة يــدخل الإعراض والاستهزاء، والإبـاء والاسـتكبار وغيرهـا. ولما كـانت بعض الفـرق البدعية وهم المرجئة يقصرون الإيمان على معنى التصديق فـإنهم يقيـدون الكفر بضده، وهو التكـذيب والجحـود القلـبي والاسـتحلال والشـك، فـإنهم يشترطون في العمل المكفر (الـذي سـماه الله كفـرا) أن يكـون مصـاحبا لهذه الأنواع المذكورة (وهى الجحود والاستحلال والشـك)، ولـذلك عنـدهم

لابد من تحقق وجـود التكـذيب أو الجحـود القلـبي أو الاسـتحلال أو الشك المصـاحب للفعـل، وشـرح ذلـك: لو أن رجلا قتل نبيا فإنه عند أهل السـنة كافر بغض النظر عن أمر قلبه، فقتل النبي كفر، سواء قتله لعدم تصـديقه أو لعـدم متابعته مع تصـديقه، وأما المرجئـة، فـإن قتل النـبي ليس عملا مكفرا بذاتـه، فلا بد من النظر إلى الـدافع، فـإن قتله لتكذيبه أو لجحـده أو لشكه بنبوته فهو كافر، وأما إن قتله وهو معتقد بنبوته، مصدق لما جاء بـه، فـالأمر عنـدهم حينئذ مختلـف، فبعضـهم لا يحكم بكفـره مطلقا (وهـؤلاء كفرهم أهل السنة) وبعضـهم يحكم بكفـره ظـاهرا، مع اعتقـاده إيمانه في الباطن والآخرة، وبعضهم سماه كفرا لقوله: إنه لا يتصور قاتل النبي صـلى الله عليه وسلم إلا مكذبا لنبوته، إذ يمتنع تصديقه بنبوته وقتله إياه، فهـؤلاء هم فـرق المرجئـة، وطبقـاتهم في الأعمـال المكفـرة (انظر أقـوالهم في "شـرح العقائد النسـفية" لسـعد الـدين التفتـازاني، وفي "شـرح جـوهرة التوحيد" لإبراهيم الباجوري)، وأما أهل السـنة فيقـول إمـامهم أبو يعقـوب إسحاق بن إبراهيم بن راهويـه: ومما أجمع على تكفـيره وحكمـوا عليه كما حكموا على الجاحد، المؤمن الذي آمن بالله تعالى، وبما جاء من عنده، ثم قتل نبيا، أو أعان على قتلـه، ويقـول قتل الأنبيـاء محـرم، فهو كـافر. ا.هــ. تعظيم قدر الصلاة للمروزي (2/930).

ومن الأمثلة كذلك المـوالاة فقد سـمى الله مـوالاة الكفـار كفـرا، قـال تعـــالى: {**ومن يتـــولهم منكم فإنه منهم**}، وقد ذكر ابن حـــزم أن الإجماع منعقد على إجراء الآية على ظاهرهـا، أي أن من تـولى الكفـار هو كافر مثلهم.

ومن الأمثلة على ذلك من دعا غير الله تعالى من الأمـوات والشـياطين فـإن هـذا الفعل كفر وشـرك، وأهل السـنة يحكمـون على فاعله بالشـرك بغض النظر عن اعتقــاده، أي الــدافع لهــذا الفعــل، وأما المرجئة فــإنهم يشترطون الاعتقاد بربوبية المدعو من قبل الداعي ليحكم بكفره وشـركه، ولهذا رد عليهم ابن الـوزير في كتابه "إيثـار الحق على الخلـق" (ص 419) قائلا: "وعلى هذا لا يكون شيء من الأفعال والأقوال كفرا إلا مع الاعتقــاد، حتى قتل الأنبياء، والاعتقـاد من السـرائر المحجوبـة، فلا يتحقق كفر كـافر قط إلا بالنص الخاص في شخص شخص". ا.هـ.

ج - كلامنا المتقدم هو في الأعمال والأقوال المكفرة، وهي التي سماها الله كفرا، أو أجمع العلماء على تكفير صاحبها، أما الأعمـال غـير المكفـرة بذاتها، فإنها لا بد لها من مصـاحب يحكم على صـاحبها بـالكفر والمصـاحب هو الـذي يسـمى بالاعتقـاد، سـواء كـان جحـودا أو اسـتحلالا. فـالبحث عن الجحـود القلـبي ليحكم على صـاحبه بـالكفر هو في الأعمـال الـتي لا يكفر صاحبها بها، أي بمجرد عملها أو قولها.

وعلى هذا فإننا نخلص إلى النتيجة التالية، أن قول القائل: لا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه هي على معنى صحيح في وجــه، وخطأ على معنيين آخرين:

أولا: المعنى الصحيح: أن شـرط الجحـود القلـبي للتكفـير هو للأعمـال والأقوال التي لم يحكم الله تعـالى بكفر صـاحبها بمجـرد اقترافهـا، بل هي الأعمال والأقوال النازلة عن درجة الكفر الأكبر.

ثانيا: أما الخطأ فحملها على معنيين اثنين:

1 - تفسير الأعمال المكفرة، وأنها لا تقع أبدا من صاحبها إلا بجحود، فصاحب الفعل المكفر هو كافر لأن عمله يدل على الجحود لزوما، وهذه الفرقة كما تقدم أنها من فرق الإرجاء، ولكنه يسمى عند العلماء إرجاء الفقهاء فهم يسمون ما سماه الله كفرا، ولكنهم يقولون عنه كفرا لدلالته على الجحود لزوما، وهؤلاء هم الذين قال عنهم أهل السنة أن الخلاف معهم لفظي، ويقصدون أنهم يلتقون مع أهل السنة في تسمية الكفر كفرا، ولكنهم يختلفون معهم في تفسيرهم له.

2 - في التحقق من وجود شرط الجحود القلبي لتسمية الكفر كفرا، فإذا وجد الجحود فهو كفر، وإن لم يوجد فلا يحكم عليه بالكفر، ولا يسمى صاحبه كافرا، وهؤلاء من غلاة المرجئة، وهم الذين ملئوا الآن الأرض شرقا وغربا.

ومن أصرح الأمثلة على ذلك هو موالاة أعداء الله تعالى، فقد سمى الله موالاة الكفار كفرا، قال تعالى: {**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**}، وقد ذكر ابن حزم أن الإجماع منعقد على إجراء الآية على ظاهرها كما تقدم، أي أن من تولى الكفار هو كافر مثلهم، فهذا فعل كفر- أي الموالاة الظاهرة بالقتال معهم أو نصرتهم - وهو سبب من أسباب الكفر، سواء فعله المرء باعتقاد أو بغيره، سواء كان الدافع له هو حب المال أو السلطان أو مجرد النصرة والتأييد، وأما المرجئة فهم كما تقدم:

فرقة تكفر من تولى الكفار لأنه يدل على جحد الحق لزوما، وهؤلاء مرجئة الفقهاء، وفرقة تشترط العمل القلبي للتكفير. والعمل القلبي عندهم بتفسيرات متعددة، حيث يقولون إن الموالاة المكفرة هي موالاة الكفار على عقيدتهم ودينهم فقط، وبعضهم يفسرها بشرط المحبة القلبية.

وقد تبين لنا أن أمر الفرقة الأولى يهون أمرها، لأنها تلتقي مع أهل السنة بتسمية الكفر كفرا. ولكن المصيبة تكون مع الفرقة الثانية، التي لا تكفر حتى يتحقق أمر الموالاة الباطنة. وهي قضية غيبية تتعلق بأمر لا يطلع عليه البشر، فحينئذ لن يكفر أحد عندهم بموالاة الكفار أبداً حتى يعلن بلسانه ما أضمر في قلبه ولن يكون.

ولكن هاهنا أمر ينبغي التنبه له في موضوع الموالاة، وهو أن بعض الأعمال تدخل في الموالاة تبعا لا أصالة، فهي تحتاج إلى القرينة المكفرة.

الخلق والأمر والكون والشرع:

هناك من الأعمال ما هي داخلة في أصل المسمى وهي من أركانه (أي لا يصح المسمى إلا بها)، وهناك أعمال من واجباته، وهناك أعمال من مستحباته:

هذه قاعدة تسري على كل الكونيات التي خلقها الله تعالى من أعمال وأشياء، وهي تدل على أن أفراد الشيء أو العمل ليس على مرتبة واحدة، بل هي مراتب متعددة، ونحن في هذا الباب يخصنا ما هو شرعي، مع أن الكوني مهم وضروري، وتجليته مهمة من مهمات التجديد التي يجب على المسلمين بحثها والنظر فيها نظرة جديدة، أي أن تعيد الأمر على ما كان عليه وهو جديد في العصور الأولى، لأن تلك العصور هي عصور النموذج المحتذى، والصورة المثلى، (نبوة وخلافة راشدة) لحركة المسلمين في الحياة، ولا بأس هنا في هذه العجالة أن نعرج على ما هو كوني لبيان

عظيم الفساد الذي دخل على أمتنا من هذا الباب، ثم لبيان أن الفساد في فهم الكـوني، هو فسـاد في فهم ما هو شـرعي، سـواء بسـواء، والعكس صـحيح، لأن ما هو كـوني صـادر من الشـرعي {**ألا له الخلق والأمر**} والتطابق بينهما حاصل لزوما، لأنهما من مصدر واحـد، بل إن الشـرعي لم يعـــرف صـــوابه من ذوي العقـــول إلا بعد فهم المهتـــدي لما هو كـــوني، والمهتدي يدرك ويعقل ويعتقد أن للكون خالقا وربـا، وأن نـواميس الكـون والحياة هي من وضع قدير، قوي، قـدوس،... {**ولئن سـألتهم من خلق السموات والأرض ليقـولن الله**} فقبل عـرض الشـرعي من الأنبيـاء على أصـحاب العقـول، كـان هـؤلاء قد أدركـوا الأمـور الكونية على ما هي عليها، فلما جاءهم الشـرعي علمـوا أنه الحـق، والحق هو مطابقة الشـيء لحقيقة الواقـع، أي أنهم أدركـوا أن بـاعث هـذا (الشـرعي) هو واضع هـذا (الكوني): فشهدوا حينئذ شهادة الحـق، ومن هنا فـإن أولئك المهتـدين من الصدر الأول، هم أعظم الناس فهما للكون والحياة ونواميسها (حسب رتبة زمانهم)، وهم أعظم الناس فهما للـدين والتشـريع (حسب جميع الأزمنـة). وهـذا الفـارق الـذي أحسه بين من أخذ بالشـرعي في الصـدر الأول، وبين المتدينين في هـذا الزمـان المتـأخر، فالأوائل اهتـدوا هداية صـحيحة، حيث علموا الحق في الأمرين (على ما هما عليه) - الكوني والشرعي- فسـارت خطاهم سليمة، سـديدة، مهتديـة، ووصـلوا إلى قيـادة الـدنيا والـدين، وأما الأواخر فمما أحس به وأشـعره، هو أن أغلب المتـدينين في هـذا الزمـان تـدينهم تـدين غنوصي عرفـاني، وبمعـنى أوضح تـدين الهـارب من الحيـاة، المنكر لسـننها، تـدين المتـوهم بـأن حركة الوجـود مربوطة بحركة الغيب كارتباط ألعاب الدمى بحبـال حركتهـا، ولا دور للإرادة البشـرية فيهـا، ومن معالم هذه النكسات العقلية عند المتأخرين نفيهم ارتباط الأسباب بالنتائج، فحيث ساروا في طريق ما ثم وصلوا إلى غـير المطلـوب والمـراد، عـادوا لهذه القاعدة الخبيثة ليبرروا بها فشلهم الـذريع وسـقوطهم المريـع، حـتى يصرفوا عن أنفسهم مساءلة القواعد التابعة لهم، والغريب من هـؤلاء أنهم يرددون ليل نهـار أن المـؤمن عنـده أمر زائد عن الأخذ بالسـنة الصـحيحة، وهو التوفيق الإلهي، فالكـافر يأخذ بالسـنن دون التوفيـق، ومع ذلك يصل للنتائج المرجوة، والمسلم (هكذا يتوهم نفسـه) أنه أخذ بالسـنة والتوفيـق، ومع ذلك لا يحصل على شـيء من النتـائج الكونيـة، وأنا هنا لا أتكلم عن الأجر الغيبي، ولكنى أخصص الحديث عن النتائج السـننية المطلوبة للحركة الإسلامية وللعاملين للإسلام في هذه الحياة.

هذه صورة قبيحة لعـدم فهم الأمر الكـوني، وهي تـبرز لنا أهمية البحث الـواعي لقضـية الأمر الكـوني، كما تـبرز لنا أهمية الـوعي لما هو شـرعي، وحيث انتكس أحدهما في نفس المرء فلابد أن يصاحبه انتكاس في القسم المشـترك معـه، وإذ الأمر كـذلك، فإحيـاء الأمة لا بد له من إعـادة تجديد (وأكـــرر أي إعادته لما كـــان عليه الأمر وهو جديد في صـــورته الأولى) لتوحيدي الشرع والقدر.

لو عرجت قليلا في هذه العجالة على انتكـاس مفهـوم توحيد القـدر في أذهـان المسـلمي فربما يـبرز شـيئا من الانهيـار الواضح لما تعيشه الأمة الإسـلامية، وشـيئا من أبعـاد هـذا الانهيـار: لو رجعنا قليلا إلى القاعـدة المتقدمة وهي قولنـا: هنـاك أعمـال داخلة في مسـمى الشـيء وهي من

أركانـه، وهنـاك أعمـال من واجباتـه، وهنـاك أعمـال من مسـتحباته: فكيف تفهم هذه القاعدة لتفسير ما هو كوني وقدري؟.

بكل وضـــوح وجلاء إن ما نبحث عنه هو التغـــير الجـــذري، والانقلاب الشـامل، وهو في عـرف المعاصـرين، ما يسـمى بـالثورة، وبكل وضـوح وجلاء: نحن لا نقر شـــيئا مما هو موجـــود، إذ إنه إما شر مطلق وإما شر مختلط، وإما بعض الخـير، فرفضـنا للشر بقسـميه واضح سـببه، وهو كونه شرا، وأما للخير الموجود (أي على مستوى الجماعة لا مستوى الفرد) فهو لارتكازه على منطلقات ورؤى جاهليـة، أو اعتمـاده على مبـادئ ليست من الإسـلام في شـيء، هـذا التغيـير الجـذري والانقلاب الشـامل نـدرك تمـام الإدراك أنها من أعقد ما يجابه الإنسان في حياته، وأنها من أصعب وأعوص ما يعـتري البشر في حركة حيـاتهم، فحركة التغيـير هي حركة تختلط فيها الحياة بأسرها، وتتقاطع بدايتها حتى يخيل للمرء أنه في دوامة من الأمواج لا يحسن تمييزها أو الفصل بينها، وهي بحق كذلك، فألوان الطيف متداخلة مع أنها متباينـة، وفي هـذا الخضم المتلاطم يتسـاءل المـرء من أين يبـدأ؟ ويتساءل كذلك عن نهاية البداية؟ وما هو الرابط بين السبب (الحبـل) وبين هذه النتيجـة؟ هـذا عن فهمك لطبيعة التغيـير أو لفهمك عن سـبل التغيـير، ويبقى أمر يتعلق بهـذا الشـخص الـذي يقـوم بعملية التغيـير، ومـدى امتلاء نفسيته للحق الذي يملكه، وللباطل الذي يجابهه.

لو أردنا أن نعيد تلك الأعمـال المتعـددة (أركـان وواجبـات ومسـتحبات) لعملية التغيير (المسـمى) فهل نسـتطيع أن نتـبين التفريق بين ما هو ركن وواجب ومستحب، دون تحديدنا لكلية تعيد هذا المتعدد إلى واحد؟.

إن مما أدركه الأوائل (وهو إدراك فطـري سـنني معقد مع سـهولته) أن القضـية الـتي لا يمكن تنـازل المـرء عنهـا، وهي الـتي تحمل المـرء على الرفض الكلي للخصم هو ارتبـاط الخصـومة بما يسـمى بالعقيـدة والـدين، فكل الخصومات يرجى برؤها وشفاء المرء منها إلا من خاصمك في الـدين والعقيدة، وهي قضـية واضـحة المعـالم، فالخصـومة على المـال قد تنتهي إلى الصلح، وعلى المتاع كذلك، وعلى أي شيء، وفي التاريخ عبر لتوضـيح هـذا الأمر تعجز هـذه الورقـات عن سـردها أو اسـتيعابها، ولكن هل رأيتم قوما ساوموا أو اصطلحوا على التنازل عن عقائدهم؟ الجواب بكل وضوح: النفي. فقضية الفكر والعقيدة لا يساوم المرء عليها، نعم قد يقتنع بضـدها، ولكن ليست هي من معروضات الشراء والـبيع، فـإذا اقتنع المـرء بصـواب فكرته وأنها الحـق، فلا بد أن يتحـرك باتجـاه الخصم ليغـيره وليبدله إليـه، وتتأزم الخصومة، بل وتؤتي أكلها إذا كـان صـاحب الفكـرة مقتنعا بالضلال الكلي لخصـمه، وإذا أردنا أن نفسر هـذه القضـية السـهلة بما هو مفهـوم للشباب المسلم فنقول: لو أن رجلا كـان يعتقد أن ما هو عليه هو الإسـلام الصـحيح، وكـان يعتقد في خصـمه أنه مسـلم ولكن ليس تـام الإيمـان بل مقصر ببعض الشيء، فما هي درجة مجابهة هذا المسلم لخصمه المقصر؟ الجواب واضح، وهو أن هـذه المجابهة لن تكـون شرسـة، بل سـيكون فيها نـــوع مهادنـــة، وســـتكون في وسط الطريق أنصـــاف الحلـــول الســـلمية والمصـــالحة، لكن إذا اعتقد المســـلم أن من يجابهه هو كـــافر مرتد وأنه مشـرك باللـه، وليس هنـاك من شـيء عنـده مما هو في تقييمه أنه حسن

وجميل، فسيكون الصراع على أشده وتكون المجابهة في أعلى درجاتها، وهذا الصراع الذي يؤتي أكله، ويجني ثماره.

وجماعات الجهاد في العالم الإسلامي حيث طرحت نفسها بهذا الطرح، وهو أنها تسعى للتغيير الجذري والانقلاب الشامل، فلا يمكن لأفرادها الصمود إلا إذا اعتقدوا بدليل الشرع والقدر أن هذه الحكومات هي حكومات شرك وردة، وأن التخلي عن هذا التصور السليم سيرفع عن المقاتل سنة النصر القدرية بامتلاء النفس وثقتها، وسيرفع عنهم التوفيق الإلهي الحاصل بامتثال الأمر الشرعي، وسيصيبنا قوله تعالى: {**إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا**}.

إن الجماعة التي تطلب من أفرادها حمل السلاح ثم تحمل نتائج هذا المشروع، ولم تقنع أفرادها، أو لن تتبنى هي أن الخصم الذي تقاتله هو كافر، وأن المشروع سينتهي بأحد أمرين – تقاتلونهم أو يسلمون- كما قال تعالى في سورة الفتح، هي جماعة ستقنع في النهاية بأنصاف الحلول، ثم الجلوس على موائد المفاوضات الهزيلة، وحينها تحصل الهزيمة.

والمسألة ليست مصالح لتحقيق النصر بقدر ما هي أوامر إلهية -شرعية وقدرية- لابد من فهمها والاعتقاد بها. هذه مقدمة ضرورية لبحث كفر الحاكمين بغير شريعة الرحمن وردتهم.

الجماعات المعاصرة والإرجاء:

المسلم دوما يقوده الحكم الشرعي، وليس له موقف في قضية ما إلا بعد أن يطلع على حكم الله تعالى فيها، والأحكام الشرعية هي التي تعصم المرء من الأخطاء الذهنية والتصورية، وهي كذلك تمنع الكثير من الاختلافات بين البشر لأنه إذا ترك البشر وما هم عليه من رؤى وأفكار لكان لكل واحد فكر ورأي، ولتشعب الناس حول كل معضلة إلى فرق يصعب حصرها أو توقيفها، ومن هنا فإن الداعين إلى الوحدة بين الطوائف والفرق والجماعات، لا بد لهم من مراعاة الحبل الذي يدعون إليه، والوحدة ليست مقصودة لذاتها، وإنما المقصود هو الجامع الذي يلتقون حوله، وهو حبل الله تعالى كما قال سبحانه: {**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**}. فمقصود الآية هو ليس مجرد الاعتصام وعدم التفرق، بل مقصود الآية: هو الاعتصام بحبل الله، وحبل الله هو دينه وشريعته.

وعامة الجماعات الإسلامية اليوم تخاف من الخطاب الشرعي المحدد، وتشعر بالثقل من تحديد الرؤى والمواقف بألفاظ شرعية واضحة، فهي تخاف من لفظي: الكفر والردة، وتخاف من لفظي: البدعة والضلال، وتخاف من لفظي: الفسوق والمعصية، لأن هذه الألفاظ هي ألفاظ محددة، وإذا أطلتها المرء فإنها تحمل في داخلها موقفا سلوكيا لابد أن يتبع هذا اللفظ (الحكم) ويسايره، وترك الحكم الشرعي يصبغ المرء والجماعة بميوعة فكرية وسلوكية، وهي بالتالي تتفرق وتتنافر، فجماعات التكفير والهجرة خرجت من عباءة الإخوان المسلمين شاءت الجماعة أن تعترف أم لا وجمد موقف الخوارج الجدد بفكر الإرجاء المنحرف، واضطربت القاعدة التنظيمية في تمييز نفسها إلى أي جهة تميل، وجمد بعض الأفراد من العمل التنظيمي في صفوف الإخوان المسلمين في

بعض الظـــروف لأنهم لا يكفـــرون الحـــاكم الفلاني، فهم لا يرونه مســـلما فاسقا، ثم دارت الدائرة وقد جمدوا من العمل التنظيمي مرة أخـرى لأنهم يعتقدون كفره، ولذلك من أصعب الأمور على الباحث في هذه الجماعة أن يعرف خيطا جامعا لحكم هذه الجماعة على الواقع، ومثلهم تلك الجماعات الـتي ما زالت تـدور في فلك الإخـوان المسـلمين مع شـيء من التجميل والتزين، فالأستاذ محمد سرور زين العابـدين وإلى اليـوم يشـتد غضـبه إذا طلب منه الحكم الشـرعي في الحكـام، فـيرد عليك بـأنهم مجرمـون، وإذا أعيد السؤال مع التنبيه على ضرورة بيان الحكم الشرعي - مسـلم، كـافر- فلا تجد منه إلا الغضب، وقد يبرر هذا الغضب منه أو من غيره، بأن الشـيخ يخاف أن يكون السؤال من المخابرات والجواسيس، وكـأن هـذا الأمر مما يجـوز للمسـلم كتمـه، أو هو من الأمـور الـتي تـدخل في دائـرة السـرية للجماعـات المسـلمة، مع أن مبـدأ الجماعة الأم "الإخـوان المسـلمين" هو علنية الدعوة وسرية التنظيم، مع الاحـترام والتقـدير لمعـنى هـذه الألفـاظ في المعاجم، ومشايخ السلفية المعاصرة لتفـرغهم لبعض القضـايا، وعـدم اهتمامهم بالواقع الجديد، أو لنقل بكل صراحة لأنهم ما زالوا أسرى لقضايا لا تمت إلى زمانهم بصلة، فإن عباءة السـلفية صـارت حاوية على مـذاهب بدعية منحرفـة، فهـذا محمد بن إبـراهيم شـقرة - تلميذ الألبـاني - ذكر في كتاب له بعنـوان " مجتمعنا المعاصر بين التكفـير الجـائر والإيمـان الحـائر" طباعة المكتبة الإسلامية في الأردن، وبعد أن تعـالم على عبـاد الله تعـالى بقولـــه: وإذا أفـــردت الكتابة بهـــذا الموضـــوع المهم الخطـــير، فلتعريف المسلمين على مختلف طرائقهم ومستوياتهم واتجاهـاتهم بـالمنهج العلمي الحق في دراسة المسائل، وحل المشاكل، وبخاصة في مثل هذه المسائل الشائكة. ا. هـ، يقول هذا السـلفي المـرجئ بعد هـذا التعـالم: الإنسـان إذا نطق بالشهادة، وصـدق بما قلبـه، واعتقـدها جازمـا، وآمن بحقها كلـه، فهو مـؤمن وإن اجـترح المعاصي كلهـا، ما ظهر منها وما بطن ما لم يصـاحبها جحود أو نكران. ا.هـ. (ص 37). وهـذا القـول هو مـذهب غلاة المرجئة في الإيمـان والتكفـير، فكأنه يقـول لا يضر مع الإيمـان معصـية، ولأنه يشـترط الجحد في التكفير لجميع الذنوب، سواء كانت مكفرة أو غير مكفرة.

وفي كتاب آخر لتلميذ آخر، بل لتلميذين اثنين، سـارا على درب الإرجـاء المقيت في هذا البـاب، همـا: مؤلف الكتـاب مـراد شـكري، ومراجعه علي حسن عبد الحميد الحلبي الأثري، هـذا الكتـاب هو "إحكـام التقرير لأحكـام مسألة التكفير" طبع دار العصيمي الرياض، حيث يقرر الكـاتب والمراجـع: أنه لا يوجد في الـــدنيا إلا كفر التكـــذيب لجميع الـــذنوب المكفـــرة وغـــير المكفرة، حيث يقولان: لا يكفر المسلم إلا إذا كذب النـبي صـلى الله عليه وسـلم فيما جـاء به وأخـبر، سـواء أكـان التكـذيب جحـودا كجحـود إبليس وفرعون، أم تكذيبا بمعنى التكذيب.ا.هـ. (ص 13).

وهـذا القـــول هو قـــول غلاة المرجئة كـــذلك إذ أنهما لا يعرفـــان إلا كفر التكـذيب والجحـود، والغـريب في الأمر أنهما يستشـهدان بكلام لابن تيمية في "درء تعارض العقل والنقل" (1/242) حيث يقول: "وإنما الكفر يكـــون بتكذيب الرسول فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه مثل كفر فرعـــون واليهـــود". ا.هـــ. فكيف فهما من كلام ابن تيمية ما قـــررا في الكتـاب؟ الجـواب: لا نـدري، سـوى أن نقـول إنها المتابعة المقيتة للهـوى

وقلب الأمور لتوافق الاعتقاد الباطل، فابن تيمية يجعل الكفر كفـرين: كفر التكذيب- وهو ما يتعلق بالأخبار-، وكفر الإعـراض أو العنـاد - وهو ما يتعلق بالطاعة والانقيـاد. وهما يحصـران هـذين الأمـرين بالتكـذيب فقط ومع أن الكتاب "أحكام التقرير" من أجهل وأفسد ما وضع في هذا الباب، (موضوع التكفير)، إلا أن الشيء الجديد في هذا الاتجاه السلفي المنحـرف هو تـرك الكتب السلفية في موضوع الإيمان والكفر، وعدم الاحتجـاج بهـا، والإقبـال على الكتب الخلفية المنحرفة في موضـوع الإيمـان، فمـراد شـكري وعلي الحلبي الأثري (الكاتب والمراجع)، لا يخجلان أبدا من الاستشهاد بأبي حامد الغـــزالي، ولا بمحمد بخيت المطيعي ولا بالعلامة عضد الـــدين الأيجي في "العقائد العضدية" وشارحها الدواني، وصغار الطلبة يعلمـون أن هـؤلاء إما أشاعرة أو ماتريدية، والفرقتان من فرق الإرجاء في باب الإيمـان والكفـر، وهكـذا يكـون اللعب على الحبـال، ولو احتج أحد هـؤلاء في بـاب الأسـماء والصفات لردوا عليه قائلين: هؤلاء ليسوا على مذهب أهل السـنة في هـذا الباب، فكيف علموا هذا وجهلوا ذاك أم أنه كما قال الشاعر:

يوما بحزوى، ويوما بالعقيق، وبالـــعذيب يوما، ويوما بالخليصـاء

وتارة تنتــحي نجدا، وآونـة شعب الــغوير، وطورا قصر تيمــاء

بل الأعجب من ذلك كله هو أنهما ختما الكتـــــاب بكلمة لأبى حيـــــان التوحيـدي في كتابه "الإمتـاع والمؤانسـة"، وأبو حيـان هـذا - يا قـوم - من زنادقة الإسلام كما قال ابن الجـوزي: زنادقة الإسـلام ثلاثـة: ابن الراونـدي والتوحيـدي وأبو العلاء المعـري، وشـرهم على الإسـلام التوحيـدي، لأنهما صرحا ولم يصرح. ا.هـ. وكان على رأي المعتزلـة، سـخيف اللسـان، وكـان كما قيــل: الـــذم شـــأنه، والثلب دكانه (انظر ترجمته في "معجم الأدبـــاء" لياقوت و"بغية الدعاة"، وفي "لسان المـيزان"). فـأي سـلفية هـذه؟! وأي شـيء بقي عند هـؤلاء ليصح انتسـابهم للسـلف الصـالح، أم أنها الـدعاوى الفجة، والشعارات المكذوبة.

والشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على "العقيدة الطحاويـة"، تحت قول الطحاوي: ولا نكفر أحـدا من أهل القبلة بـذنب ما لم يسـتحله. يقـول الألبـاني: "إن شـارح العقيد الطحاوية نقل عن أهل السـنة القـائلين بـأن الإيمان قول وعمل، يزيد، وينقص، أن الذنب أي ذنب كان هو كفر عملي لا اعتقادي، وأن الكفر عندهم على مـراتب، كفر دون كفر كالإيمـان عنـدهم. (ص 40، 41).

وشـــارح الطحاوية لم يقل هــذا الــذي قاله الألبــاني، فقد ذكرنا ســابقا تعليق ابن أبي العز الحنفي على هـــذه العبـــارة، وأن الشـــارح فـــرق بين الذنوب المكفرة والذنوب غير المكفـرة، فقل الألبـاني: إن الـذنب أي ذنب كان هو كفر عملي، هو قول مخالف لما قرره الشـارح بكل وضـوح، وهـذه العقيدة الـتي يقولها الألبـاني هي عقيـدة المرجئـة، بل غلاة المرجئـة. وقد صرح بهذا في كتاب الشيباني "حيـاة الألبـاني وآثـاره" حيث قـال الألبـاني: ولكني أقول إن القضاء على الذين يحكمون بغير ما أنـزل الله سـواء كـان حكمهم يـــؤدي بهم إلى الكفر الكلي أو العملي، لا يهمنا في كثـــير أو قليل هـذا الفصل بين الأمـرين، الآن من ناحية العقيـدة، من الـذي لم يكفر عند

الله؟ هو الذي ينكر ما شرع الله. ا.هـ. (ص 518/ج 2). وهـذا الـذي قـال الألباني خطير جدا، حيث جعل أمر تكفير الحكـام أو عـدم تكفـيرهم أمر لا يهمه في كثير أو قليل، وأنا يأخذني العجب من هذا القـول الخطـير، وكـأن أمر التكفير وعدمه أمر لا قيمة له في نفس الألباني، ونفوس تلاميذه، وأما قوله: إن الذي يكفر هو الذي ينكر ما شرع الله تعالى. فينبغي تقييـدها في المعاصي غير المكفرة، أما المكفرة فقد بينا سابقا أن اشتراط الجحد فيها للتكفـير هي عقيـدة أهل الإرجـاء. هـذه هي مجمل تصـورات الجماعـات والتجمعـات الإسـلامية للواقع المعاصـر، وهـذه هي طـرائقهم في البحث والنظر.

الفصل الثالث

الجهاد والتغيير

"نجائب النجاة مهيأة للمراد، وأقدام المطـــــرود موثوقة بـــــالقيود: هبت عواصف الأقــدار في بيــداء الأكــوان، فتقلب الوجـــــود ونجم الخـــــير، فلما ركـدت الـريح إذا أبو طـالب غريق في لجة الهلاك، وســــلمان على ســــاحل السلامة " ابن القيم

"سـئل الشـافعي أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقـــــال: لا يمكن حتى يبتلى"

حركات الجهاد في العـالم الإسـلامي (سـلفية الرؤية والمنهج):

حين نتحدث عن حركـات الجهـاد في العـالم الإسـلامي، فإننا نقصد تلك التجمعـات والتنظيمـات الـتي قـامت من أجل إسـقاط الأنظمة الطاغوتية الكافرة في بلاد الردة، وإحيـاء الحكومة الإسـلامية الـتي تقـوم على تجميع الأمة تحت راية الخلافة الإسلامية، وبعيدا مؤقتا عن الحديث عن التوصـيف الشـرعي للواقع الـذي تعيشه دار الـردة الـتي قـامت على أنقـاض دولة الخلافة، فإننا نبدأ ببيان قرب بعض الجماعات من هذه الجماعات الجهادية، حيث نرى تجمعات وتنظيمات لا نستطيع أن ندخلها في الحـديث عن حركة الجهاد بهذا المفهوم الذي تقدم، لأن هذه التجمعات يغلب عليها طابع عمل الحسبة، فهي تزاول أعمـال الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر في داخل المجتمعـات، وليس لها من تطلع واضح كما يظهر من أدبيـات الجماعـات في إقامة دولة الخلافة، وطبيعة عمل الحسـبة يقـوم على الاهتمـام بما هو داخل المجتمعـات من معاصـي، فهـذا رجل يشـرب الخمـر، وهـذه امـرأة سافرة، وصور أخرى كثرت في مجتمعاتنا، فتقوم هـذه الجماعـات بـواجب الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكر من التغيــير باليــد، وعلى ضــوء هــذا العمل الشرعي تسارع الدولة المرتدة في ملاحقة هذه التجمعـات، وإقامة القوانين الوضعية عليهم، وحينئذ قد يتأزم الصراع بين الدولة وهذا التجمـع، فتبدو للناظر من بعيد كصورة تغير شامل لهذه الدولة، لكن قد يظهر عـدم الوضـوح عند هـذه الجماعة حين تبـدأ عملية شد الحبل بينهم وبين الدولـة، فقد يعلن بعض قيــادات هــذه الجماعــات بأنه لو فتحت لهم الدولة العمل داخل المساجد، أو سمحت لهم بالعمل الـدعوي فقد يخففـون الوطـأة في صراعهم مع هذه الدولة، وللأسف كثيرا جدا ما نـرى بعض المنـاظرات بين ممثل الدولة المرتـــدة وبين هـــذه الجماعـــات تقـــوم على الخلاف في مشروعية التغيـير باليد لآحـاد الرعيـة، وهـذا الأمر يكـون خطابا وخلافا بين دولة مسلمة ورعاياها من المسلمين، وليس بين دولة كـافرة مرتـدة وبين جماعة تسعى لقلبها وتغييرها، ولكن هذا لا يمنع هذه الحركـات من التقـدم إلى موضع أمامي في هذا الصـراع، وهو الموضـوع المطلـوب وذلك بتـبين

حقيقة الصـراع بين الحركة الجهادية الـتي تقـدم وصـفها وبين هـذه الدولة المرتدة، وهذا التقدم يتم عـادة باحتكاكها خلال مسـيرتها بتجمعـات جهادية واضـحة المعـالم أو بسـبب ظـروف خاصة فتقـترب هـذه الجماعـات من مفهـوم حركة الجهـاد الصـحيح، ومما ينبغي التأكيد عليه وهو مهم جـدا الاهتمام به وعدم نسيانه أو تغافله وهو أن حركات الجهاد ليست هي الـتي تحمل السلاح أو هي التي تؤمن بحمل السـلاح فقط فهـذا خطا منتشر بين كثـير من الشـباب الجهـادي لأن حركة الجهـاد هي الحركة الشـمولية الحضـارية، المنبثقة من مفهـوم التوحيد الصـحيح بشـقيه توحيد العبـادة وتوحيد الاتبـاع، وهي الـتي تحمل بعـدا تاريخيا في فهمها بكبـوات أمتنا الفكرية والنفسية وتملك الرؤية المستقبلية لعالم يسوده الإسـلام بشـمول عطائـه، الظـاهري والبـاطني، وباسـتغراق أحكامه الكبـيرة والعامة ولـذلك ليس من المقبـول أبـدا من حركـات الجهـاد (الأمل) أن لا تهتم بجـانب التوحيد من جميع جوانبه لأننا نـرى حركـات جهادية نشـأت في واقع فيه شرك النسك من عبادة القبور والقباب، و لم يظهر شيء من أدبيـات هـذه الجماعة يشـير إلى هـذا الشـرك من قـريب أو بعيـد، وكـأن هـذا الأمر لا يعنيهم، كذلك تكـون هـذه الجماعـات قد نشـأت في مجتمعـات غلب عليها التعصب المذهبي المقيت للمذاهب والطرق، فلا ترفع لهـذه الأمـور رأسـا، وكأن هذه الحركات هي حركات سياسية لكنها اتخذت حمل السلاح وسيلة من وسائل العمل السياسي.

إن هذه الطروحات في معالجة الإرث التـاريخي السـيئ لأمتنا ومجتمعنا ضرورية جدا لحركـات الجهـاد، لأنها تصـبغ هـذه الحركـات بالبعد الشـرعي الذي يقربها من جيل الصحابة رضي الله عنهم.

إن الحركة الجهادية الأمل حركة سلفية التصور والـرؤى، سـلفية المنهج والطريــق، بريئة كل الــبراءة من الإرث المنحــرف في فكر الأشــاعرة، والماتريدية، سليمة كل السلامة من آثار المنهج الصوفي الضال، لا تنتسب إلى أي مذهب وطريق إلا طريق الكتاب والسنة، بصيرة بحال أهل زمانهـا، تصـبغ أعمالها بالبعد التعبـدي لحركة الصـحابي الأول في الأرض، إذا عرفنا هـذا تـبين لنا أن حركـات الجهـاد في العـالم الإسـلامي لم تصل إلى الأمل المنشود ولكنها إن شاء الله تشد الخطى نحوه، وقد رأينا إذا طـال الـزمن في مسيرة الحركات أن تتبين المثـالب والأخطـاء أكـثر، فالحركة الجهادية في سوريا كانت مليئة بمثالب وأخطاء الإخوان المسلمين وقد حاول قادتها - رحمهم الله - أن يصححوا المسيرة خلال الأزمة فلم يدركهم الـوقت، بل إنهم وقعوا في حفـرة الارتبـاط بجماعة الإخـوان المسـلمين، فلم يخرجـوا عن شعارهم بل تسموا باسم الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، وبـرروا ذلك أن هذا وفاء للرجـال الـذين أنـاروا لهم الطريق بـدمائهم أمثـال سـيد قطب وعبد القادر عودة ومحمد فرغلي وغيرهم، لكن ليس هــذا الأمر مما يمكن أن يقع لولا عدم الوضوح بهذه الأمور التي سـبق ذكرها من شـروط حركة الجهاد الأمل.

نعم إن الحركة الجهادية تتنــــامى بفكرها ومنهجها (فقد كــــانت بعض الجماعات تطلق على العمل السري أنه بدعة معاصرة)، وتكتسب كل يوم مواقع جديدة، وخلال الطريق سيتساقط الذين يصرون على الوقوف بدون تقدم، كما توقفت الحركات الإسلامية عموما في التقدم نحو الأفضل، ومن

الأمثلة الصريحة على ذلك صنيع الإخوان المسلمين، فقد كـان سـيد قطب رحمه الله تعالى هو النتيجة الجيدة، والموقع المتقدم بعد حسن البنـا، لكن الجماعة بقادتها الجدد كانت أصـغر من هـذا الموقـع، فـأبت التنـامي معـه، ووقفت حيث هي، والحركة السـلفية كـذلك، فها هو سـفر الحـوالي ومعه سلمان العودة يمثلان الموقع المتقدم لحركة الإحياء في الجزيـرة العربيـة، ولكن الكثـير من مشـايخ حركة الإحيـاء الأولى يـأبون الإقـدام الصـحيح، وتشدهم مواقعهم الأولى، ومما يؤسف له أن القبـول لهـذا الإقـدام يكـون في أغلبه من خارج هذه الحركات، مع استجابة الكثـيرين الـذين لا يكونـون حول المركز في هذه الجماعات، وحركـات التصـادم مع الطـواغيت سـيقع فيها ما وقع في هذه الحركات، فسيصبح دور هؤلاء القـدماء هو البحث عن الأدلة في تمرير قول المتقدمين، وهي نفس الحفرة التي وقعت فيها أمتنا من أتباع الأئمة، بالقيام بدور الشارح لكلام الإمام، ثم اختصـار الشـرح، ثم التعليق والتهميش وهكذا تبقى الدائرة حـول مركز الشـيخ، أو حـول دائـرة المؤسس.

وبقى أمر آخر بالنسبة لهذه الحركات (الجهادية)، وهو أن هذه الحركات كما تعتمد على شمولية الموضوع والنظرة، فينبغي لها وجوبا أن تنظر إلى شمولية المكان واتساعه، وأقصد بهذا أنه قد تفتح أماكن جديدة للجهاد في غير بلدها، وهذا المكان إما أن يكون وصـفه مكـان إعـداد فقـط، أو يكـون الأمل فيه بتحقيق الهـــدف المرجو أكـــبر من غـــيره، حينئذ على الحركة الجهادية أن تنظر لنفسها كوحدة واحـدة، ولأن طبيعة الصـراع هو معركـة، فالقائد هو الـذي اسـتطاع أن يحقق هـذه المكاسـب، أو أن يسـتفيد من الظرف الذي وقع له، وعلى الآخر إن كان قديما في وجوده أن يلتحق بهذا الأمل الجديـد، وأن يسـانده، بل إذا امتد الأمر وأخذ بعـده المطلـوب وجب عليه أن يكون جنديا لهذا القائد الجديد، وعليه أن لا يأتي ليقول للنـاس: أنا الأول، أنا السابق، فالمسالة ليست للسابق بمقـدار حصـول الفضل الإلهي لأحد حصل له مقدمات مساعدة لم تحصل لغيره.

ومن هنا يتـــبين لنا أن الحركـــات الجهادية كما أنها هي المتقدمة عن غيرها في فهمها لـدين الله تعـالى، وهي الأمل إن شـاء الله تعـالى، إلا أن سنة الله تعالى لا تحـابي أحـدا، فحيث حصل الإيمـان حصل النصـر، وحيث تخلف الإيمان الواجب فليس لأحد أن يلوم إلا نفسه.

الجهادية السلفية والأغيار:

إن أي حركة انتقالية أو تغييرية تحتــاج في الوصــول إلى أهــدافها إلى مجموعة من العوامل الذاتيــة، وكلما كــان صــاحب الحركة جامعا لهــذه العوامل كلما كــان أسـرع وأقـوى في الوصـول إلى النتـائج والأهـداف، والعكس صحيح، وقد قفـزت الحركة الإسـلامية السـلفية المجاهـدة بفضل الله تعـالى خطـوة عظمى في إدراك قيمة العوامل الذاتيـة، والإكثـار من التنبيه عليها على خلاف ما جرت عليه أخلاق المسلمين وحركاتهم في هـذا العصر من الحـديث عن كـثرة العوائق من الأعـداء والمخـالفين، في الصد والدفع لأهداف هذه الحركات، والفرق بين حركة ترى أن نصـرها وهزيمتها مردها إلى (ما بأنفسـها) وبين حركة تـرى أن العلة هو (ما بغيرهـا) يفـرز

سلوكيات متباينة بين الفريقين نـرى بعض صـورها على أرضـية الواقع عند الحركات الإسلامية ننبه إلى بعضها:

1 - الحركة السلفية المجاهدة لا تصبغ على الواقع الشـرعية تحت حجة (ليس في الإمكان أبدع مما كان) بل تسعى لتغيـيره ليصـبح في المسـتوى المطلوب في حكم الشرع، فهي تصـارع وتـدافع وتجاهـد، ومن خلال هـذه المدافعة والمجاهـدة تسـعى إلى الوصـول إلى المرتبة الـتي تسـتحق بها النصر والتمكين، فهـذه الجماعة المتمـردة على واقعهـا، تسـعى إلى هـدم الباطل فيه وإعلاء شأن الحق، دون مواربة أو تقيـة، أما الأخـرى: فهي تقر المسلمين على ما هم عليه، ولا تسعى إلى رفع شـأنهم، وإذا كلفتهم فإنما تكلفهم مع حادي الشهوة، وتدفع لهم الأجور العظيمة مقابل: لا شيء.

ومن أوضح هـذه الشـعارات الدالة على فقد الهـدى والرشد عند هـذه الجماعـات وعـدم الاهتمـام برفع مسـتوى الحق عند المسـلمين قـولهم: (طريقك إلى الجنة عـبر ورقة في صـندوق الاقـتراع)، فـانظر حفظك الله إلى عظيم ما تطلب الحركة المجاهدة لتكون راشـدا مقابل ما تطلب هـذه الجماعة المنحرفة.

2 - الجماعة المنحرفة الـتي تقـدم وصـفها تسـعى جاهـدة إلى إرضـاء الكفر واستعطافه في بلوغ المراد، فهي ترى أنها لا تستطيع أن تقدم أكـثر مما هي عليه الآن، والمانع في الوصول حسب قولهم هـو: الباطـل، فالحل لذلك هو أخذ الإجازة والإشـارة البيضـاء من الكفر للوصـول إلى الأهـداف، فهي على حال واحد في طلب الترخيص من الباطل لتمارس عملها، وعلى هذا جـرى أمر كثـير من الحركـات الإسـلامية المنحرفـة؟ انظر إلى جماعة "الإخـوان المسـلمين" في مصـر، وإلى طـول المـدة الزمنية الـتي مكثت ومازالت ملقية نفسها على أعتـاب الطـاغوت ليرضى عنهـا، ليعطيها الإذن بممارسة العمل السياسي هناك، وانظر كذلك إلى تلك الـرحلات المكوكية التي يقوم بها زعماء هـذه الجماعـات إلى أمريكا وفرنسا وبريطانيا ليثبتـوا أنهم ألين من الحمــل، وأنهم ديمقراطيــون أكـثر من حكومــاتهم ودولهم، وانظر في المقابل إلى هؤلاء الشـباب (الفتيـة) في تصـديهم للكفر وعـدم الركون إليه، ومنابذته على كل الأصعدة، مع علمهم الأكيد بما هم عليه من الضعف والعجز، وقلة ذات اليد وغيرها من جدب المـوارد وقلة الناصـرين، إلا أنهم مع هـذا أدركـوا أن الباطل لا شـيء، وما كـان ولا صـار إلا بغيـاب الحق أو ضعفه، فلا استرضاء للباطل ولا استعطاف له لبلوغ الهدف، ولكن بإزالة عوامل الضعف والعجز من داخلنا نبلغ أهدافنا.

3 - الجماعة المنحرفة تفرز من داخلها مجموعة من الفتاوى التي تلائم الحالة المزرية التي يعيشونها، فهم ضعفاء والطـاغوت قـوي لا يقـاوم، فما هو الفقه الملائم لهذا الوضع؟، إنهم يشغلون أنفسهم بـالتنقيب في طيـات الكتب ليتصيدوا فتوى فيها الأخذ برخصة لتكون منهجا لهذه الجماعة.

والرخصة في الفقه الإسلامي هي حالة استثناء وليست أصلا، لكن هـذه الجماعات تصنع من هذا الاستثناء قاعـدة، وتجعله دينا يفـرض على الأتبـاع التزامه، والخروج عليه شذوذ، فانظر إلى تلك الدراسات الـتي أفرزها هـذا الاتجـاه الـتي تجـيز لهم الـدخول في الـوزارات الكـافرة، ومع ما في هـذه الأدلة من هشاشة إلا أنها أكـثر ما تصـلح أن يقـال إنها اسـتثناء من الأصل

والقاعـدة، لكن هـذا الاسـتثناء هو المنهج عند هـذه الجماعـات، والقاعـدة شذوذ.

وانظر كـذلك إلى فقه الاستضـعاف في مسـألة كف الأيـدي، فـإن كتب الفقه مليئة بـالقول أن الجهـاد يشـترط لوجوبه القـدرة (وانتبه لكلمة الوجـوب، وليس الجـواز)، ففي حالة الاستضـعاف وعـدم القـدرة ثم عـدم القدرة على الإعداد، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها فقد صارت القاعدة (وهي وجوب الجهاد) عند هذه الجماعات انحرافا وشذوذا، وكف الأيدي مع الصبر الجميل هو الأصل والقاعدة.

أما الجماعات المجاهدة فهي أهدى سبيلا وأقوم قيلا، فإن منهجها الـتي تبني أفرادها عليـه، وتجتمع من أجله وتنشـره بين النـاس هو الأصـل، وهي مع ذلك لا تلغي الاسـتثناء ولا تتجـاوزه، لأن الاستضـعاف حالة اسـتثناء، وفقهه هو فقه الاستثناء لا فقه الأصل والقاعدة.

الحركات الجهاديـة السـلفية أحـق بوصـف الطائفـة المنصـورة:

جذور حركات الجهاد السلفية في العـالم الإسـلامي متشـعبة ومتعـددة، ولا تعـود إلى جهة واحـدة، وليس هنـاك من أحد يسـتطيع أن يـزعم أنه صاحبها، ومن قدر الله تعـالى الحسن لهـذه الأمة المحمدية أن البلاد الـتي حكمها الإسلام قلما تجد بلدا يخلو من وجـود حركة جهادية قـامت من أجل قتال الطواغيت المرتـدين منذ عشـرات السـنين، ولكن عـدم التواصل بين هـذه الحركـات، ثم ما يعقب عـدم التواصل من عـدم اسـتفادة الواحد من الآخر، هو الذي يجعل الحركات الإسـلامية وكأنها تعيش مرحلة طفولية في كل أدوارها.

الأسـس الشـرعية للعمل داخل المجتمعـات الإسلامية:

المجتمـع بين الإسـلام والكفـر(الـردة)

وجود هذه الحركـات الجهادية القتالية المنبثقة من تصـورات ومفـاهيم السلف الصالح يجعلها أحق النـاس دخـولا في مفهـوم الطائفة المنصـورة، لأن من شروط هذه الطائفة التواصل وعدم الانقطـاع (لا تـزال طائفة من أمتي...) وإذا أردنا - وهو مطلوب واجب - أن نبحث عن الأسس الشـرعية التي تدفع هذه الحركات للنشوء والعمل في داخل مجتمعات الإسـلام قبل غيرها، لوجدنا أن هذه الحركات تعتمد على القواعد التالية:

القاعـدة الأولى:

أن الديار الـتي يعيشـها المسـلمون، وكـانت قبل دار إسـلام وأمـان، قد انقلبت إلى دار كفر وردة، لأنها حكمت من قبل المرتـدين، ولأن الكفر قد بسط سلطانه عليها من خلال أحكامه ودساتيره، وأدلة كفر هـذه الطوائف وردتها هو الذي سـنبحث عنه فيما يـأتي من مقـالات، ومما ينبغي الإشـارة إليه لأهميته في هذا الموطن هو:

1 - حين نقـول عن الـديار هي ديـار كفر وردة، فليس يعـني هـذا من قريب أو بعيد حكما على أهلها، فلسنا نقول بقول بعض فرق الخـوارج: إذا

كفر الحاكم كفرت الرعية، نعوذ بالله من الضلال، وأما أقسام الناس في هذه الديار فهم:

أ - مسلمون، وهؤلاء من علم إسلامه واشتهر، أو من قام بأعمال الإسلام الدالة عليه كتشهده أو صلاته أو تسميته على الذبيحة، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((**من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذاكم المسلم الذي له ذمة الله، وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته**)) رواه البخاري عن أنس. وهذا كله بشرط عدم الإتيان بناقض من نواقض التوحيد.

ب - كفار أصليون، أو مرتدون، فالأصليون كالنصارى واليهود والمجوس وغيرهم، والمرتدون من دان من المسلمين بغير دين الإسلام كالبعثية والعلمانية والشيوعية وغيرها، أو من أتى بناقض من نواقض التوحيد، كسب الله أو سب الرسول أو ترك الصلاة على الصحيح من قولي أهل العلم، ومن هذا الباب لا يقال للكافر الأصلي من يهود ونصارى أهل ذمة، لأن أهل الذمة في مصطلح أهل الفقه والدين هم الكفار الذين دخلوا بأمان المسلمين في دار الإسلام، وأما إذا عدمت دار الإسلام فليس لهم ذمة وعهد، بل هم كفار حربيون.

ج - أما مستور الحال من المسلمين، وهو من علم إسلامه بنسك من نسك المسلمين الدال عليه كما تقدم، ولم يعلم إنكاره لحكم المرتدين، فهذا مسلم صحيح الإسلام ولا يتوقف في شأنه، لأن من درجات الإنكار التي رضيها الشارع للمسلم هو الإنكار بالقلب لحديث: ((من رأى منكم منكرا فلغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)) رواه مسلم عن أبى سعيد. فاحتمال وجود الإنكار في القلب، وعدم متابعة الكافرين والرضا عنهم يوجب على المسلم أن يحكم بإسلامه للدليل الدال عليه، وللبراءة الأصلية واستصحاب الحال، وهذا فارق بين أهل السنة وبين جماعات التوقف والتبين، فإن هؤلاء يحكمون على مستور الحال بالتوقف في أمره حتى يتبين لهم حاله، وعلى هذا فلا يتوقف في أئمة المساجد والمصلين إلا إذا اشتهر إمام مسجد ما، بالشرك مثل عبادة القبور وموالاة المرتدين وغيرها من النواقض. أما مجهول الحال ممن لم يعرف منه شيء يدل على إسلامه، ولم يعرفه الشخص الذي يريد أن يتعامل معه كأن يناكحه، فالأولى حينئذ سؤاله عن دينه، وسؤال الآخرين عنه ليتوثق من كونه مسلما، لئلا يكون كافرا أصليا أو مرتدا.

2 - حين نقول عن الطوائف الحاكمة أنها طوائف كفر وردة، فهذا يستدعي منا أن نعرف الطائفة من هي؟.

معرفة الطائفة يعرف من خلال معرفتنا علة الردة الحاصلة، فالردة سببها هو توسيد حق الألوهية والحاكمية لغير صاحبها الحق، وهو رب العالمين، فهذه هي علة الردة في هذه الطوائف، مع أن كثيرا من الطوائف في هذه المجتمعات قد ارتدت لغير هذا السبب، كالشيوعيين والعلمانيين وتاركي الصلاة، وعباد القبور، ولكننا هنا نتكلم عن الطائفة المالكة للشوكة والقوة والمنعة، فعلة كفر هؤلاء الذي اجتمعوا من أجله وتمالؤوا عليه هو التشريع، فالمشرع للباطل ومقنن هذا التشريع والحاكم به وحاميه، والداعي له ومزينه هم الذين نطلق عليهم "طائفة الردة".

3 - هل حكمنا على الطائفة أنها طائفة ردة يســـــتلزم كفر وردة جميع أفرادها عينــا، ثم الحكم عليهم بــالخلود في جهنم؟. بحث هــذه المســألة متشعب والأدلة فيه تحتاج إلى توقف ودراسة، ومن المعيب حقا اتهـام من قال بكفرهم عينا أنهم أهل غلو وبدعة أو اتهام الذين يتوقفـون في أعيانهم أنهم أهل إرجاء وبدعة، فهذه المسألة من مسائل التصـور، ومن المســائل الــتي يحتمل فيها الخلاف، وهي تعـود إلى مســألة إعمــال الموانــع، موانع التكفير في الطائفة الممتنعة. لا إلى مسـألة أن المـوالاة الظـاهرة لا تكفر حتى نتحقق من وجود الموالاة الباطنـة، فصـاحب هـذا القـول هو من غلاة المرجئة كما تقدم. ولكن هــذا لا يمنعنا من الحكم على الكثـير من أفرادها بالكفر والردة لتحققنا من امتنــاع وجــود هـذه الموانع فيهم، فهـؤلاء الـذين يتخصصـون بالتعامل مع الجماعات الإســلامية من قـوى الأمن في طوائف الردة، حيث يدرسون الشريعة دراسة مستوعبة ثم يحفظون منها أكثر من الــذين يتخرجــون من المعاهد العلمية كــالأزهر أو كليــات الشــريعة، وهم يفعلون ذلك من أجل مناظرة الاخــوة خلال التحقيق معهم، فلا أدري ما هو المانع الذي يمنع إلحاق وصف الكفر بهم عينا، وقد يتحقق البيــان وينتشــر، فتتمايز الصفوف، فيعلم كل جندي أنما هو يدافع عن أنظمة الكفر ضد جند الإســلام، فــالقول بعـدم تكفـير أعيـان الجند هي مماحكـة، وقد يـدخل أمر مكفر آخر في الطائفة غــير ما تقــدم من علة اجتماعها مثل انتشــار سب الله والرســول في هــذه الطائفــة، فبعض البلاد قد غلب على جنـدها سب الله أو الرسول أو دين الإسلام، فهؤلاء كفار عينا ولا كرامة.

القاعـــــــــــــــــــــدة الثانيـــــــــــــــــــــــة:

وجوب جهاد هذه الطوائف، وعدم موالاتهــا أو نصرتها، فــإذا تــبين لنا أن هــــذه الطوائف هي طوائف ردة وكفــــر، وجب على المســـلمين جميعا - وجــوب جهــاد الـدفع - أن يقـاتلوا هـذه الطوائف حـتى تـزول أو تعـود إلى الإسلام، وحكم قتال هذه الطوائف هو حكم قتال الــدفع، وهو فــرض عين، ولا شرط لوجوبه سوى القدرة، فإذا عـدمت القـدرة وجب الإعـداد، فليس هناك من حال تجيز للمسلم أن يخرج عن هذه الأحكـام - جهـاد الطائفة أو الإعـداد لهـذا الجهـاد - مع التنبيه أن القـدرة هي شـرط وجـوب لا شـرط صحة، فمن قاتلهم وقد أيقن بهلاكه وعدم حصول الغلبة فهو مجاهد مأجور غير مـأزور، فـإن عـدمت القـدرة على الإعـداد وجبت الهجـرة، فـإن عـدم القـدرة عليها وجبت العزلـة، وحينها يكـون الأمر النبـوي الماثل في حـديث حذيفة - أمين سر النبي صلى الله عليه وسلم - هو الواجب اتباعه.

هبات حركة الردة على أمتنا ليست جديدة في هذا العصـر، وليست هي أول مرة بل هي قديمة قدم الإسلام، ومعالجات الأمة من علماء وقـادة لها واضحة المعالم، دقيقة التفاصيل، ولكن الشيء الجديد لهـذه الظـاهرة في العصر الحــديث هو حالة الهــروب من المواجهــة، ومحاولة التهــوين من شأنها، والتقليل من خطرها، على الرغم أن هـذه الهبة الجديـدة هي أخطر مواجهة أصيب بهـا الإسـلام، ومع وضـوح وجلاء هـذه الهبة الجديـدة إلا أن غلبة فكر الإرجاء المنحـرف منع مشـايخنا من اكتشافها أو استبصـارها كما هي بكل أبعادها وجذورها، ثم غلبة فكر الجبر المنحرف منعت من اكتشف شيـئا منها أن يقوم لها كما ينبغي لها في دين الله تعالى وشرعه، وكما في سنته سبحانه وتعالى في كونه.

إن تسمية طوائف الردة بهذا الاسم، أو انقلاب الدار من دار إسـلام إلى دار ردة مبسـوط في كتب الفقه بكل جـرأة ووضـوح، فلمـاذا الهـروب من المواجهــة؟ ولمــاذا يتصــور البعض أن ما تقوله حركــات الجهــاد القتــالي السلفية ضد طوائف الردة بدع من القول وزور؟.

إن الإرهاب الذي يمارسه مشايخ السلطان، ثم مشـايخ الإرجـاء، فعـوام المسلمين الذين ينعقون كالببغاوات، هي التي تجعل الكثير يمــارس عملية دفن الرأس في الرمل، مخافة الاتهام بعقيدة الخوارج، أو الغلو والتطرف، حتى صـارت أعظم المكفـرات يوجد لها عند هـؤلاء تخـريج أنها لا تسـتلزم كفر المعين، فهـؤلاء الـذين يسـبون الله والرسـول والإسـلام في كـثر من المجتمعات، ثم يوجد من يقول: إنه لا بد من استحلال الساب حـتى يكفـر، أو يقـول لعله جاهل بحكم السـب!!.. إلى آخر هـذه القائمـة، وكـأن هـؤلاء المؤولة لا يرون كفرا ينشأ من ردة وتغـير دين!!، فكيف يتصـور من هـؤلاء أن يبصروا ما تقوله حركات الجهاد القتالي السلفية؟!.

وإن من آخر ما تفتقت عنه ذهنية هــؤلاء المبتدعة نبذ من يقــول بكفر الحكام المبدلين لشريعة الرحمن وطوائفهم بجماعات التكفير، فحيث ذكر فلان من هـؤلاء يقـال: هـذا تكفـيري، أو كقـول بعضـهم بلهجته العاميـة: المكفراتيـة، وأنت لو رحت تسـأل هـذا الجاهل عن معـنى هـذا اللفظ لما درى بماذا يجيب، ولم يدر هؤلاء الجهلة أن التكفير هو شق الإسلام الذي لا يصح إسلام المرء إلا به، إذ أن المسلم يبدأ إسـلامه بكلمة التوحيد لا إله إلا الله وشق هذه الكلمة لا إله كفر بكل الآلهة الباطلـة، وكفر بعابـديها، وكفر بأوليائها، كما قـال سـبحانه وتعـالى: {**فمن يكفر بالطـاغوت ويـؤمن بالله فقد استمسك بـــالعروة الـــوثقى**}، فهل الإســـلام إلا كفر بالطاغوت وإيمان بالله؟ ثم ألا يعلم هؤلاء أن عدم تكفير الكافر كفــر بالله تعالى، وقد وصل الأمر بحال هؤلاء أن يتوقفـوا في كفر اليهـود والنصـارى، ويزعمـون أنهم جهلـة، فسـبحان من قسم العقـول فأضل أقوامـا، وهـدى آخرين.

قلنا إن هبات حركات الـردة على أمتنا ليسـت بجديـدة، ففي آخر حيـاة النـبي صـلى الله عليه وسـلم أطل مسـيلمة برأسـه، وزعم نـزول الـوحي عليه، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسـلم: مسـيلمة الكـذاب، وظهر كـذلك مرتد آخر في حيـاة النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وغلب على أهل اليمن وهو الأسود العنسي، قام لـه رجل صالح يسـمى فـيروز الديلمي مع جماعة من جند الإسلام فقتلوه في حركة عسكرية انقلابية، وأعـادوا اليمن إلى حظيرة الإسلام، أما أمر مسيلمة فقد امتد أمره، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وشاعت حركة الـردة حـتى عم شـرها الجزيـرة العربيـة، فزعم قـوم النبـوة، فتنبـأت سـجاح بنت الحـارث، ولقيط بن مالك الأزدي، وكذلك طليحة (وقيل إن طلحة ارتد في زمن النبي صـلى الله عليه وسـلم فوجه النـبي صـلى الله عليه وسـلم ضـرار بن الأزور إلى عماله على بـني أسد في ذلك، وأمـرهم بالقيـام في ذلك على كل من ارتـد)، وعـاد النـاس إلى ما كـانوا عليه من أمر الجاهلية فتحللـوا من فـروض الشـريعة، فمنهم من تركها جميعـا، ومنهم من أنكر الزكـاة، وزعم أنها تجب للرسـول صـلى الله عليه وســـلم فقـــط، وليس لأبي بكر حق فيهـــا، ومنهم من أعلن أنه سيؤديها بنفسه، ولن يؤديها إلى أبي بكر الصديق، وظن ضعاف الإيمان أن

سيف الإسـلام قد نبت شـفرته بوفـاة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، فـاغتنموا الفرصة للخـروج من هـذا الـدين، وغلبت الـردة على الجزيـرة العربيـــة، و لم يبق على الإســلام إلا مكة والطـــائف وجـــواثى بـــالبحرين والمدينـة، فعمت الـردة القبائل والقـرى والتجمعـات، فقـام لها أصـحاب الرسول صـلى الله عليه وسـلم حق القيـام، ونشـطوا في صـدها ومنعهـا، ورفعوا لها رأس الجد والجهاد، ورؤي من أبي بكر رضي الله عنه صلابة لم تعهد فيه من قبل، حتى أن الرسل كانت تأتيه بالأخبار السيئة الـتي يـرهب منها الرجال فما كان منه إلا أن يأمر بالمزيد من الحرب والنار، حـتى قـال ضـرار بن الأزور: فما رأيت أحـدا ليس رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أملأ بحرب شعواء من أبي بكر، فجعلنا نخـبره - أي أخبـار الشر عن الـردة وعظمها - ولكأنما نخبره بما له لا عليـه. وكـانت وصـاياه للجند تـدور حـول جز الرقاب بلا هوادة أو تباطؤ، حتى أنه رضـي الله عنه حـرق رجلا يسـمى إياس بن عبد الله بن عبد يا ليل ويلقب بالفجاءة، لما خدعه في أخذ أموال لجهـاد المرتـدين، ثم لحق بهم، أو على الصـحيح، صـار بهـا قـاطع طريـق، ودارت رحى الحـــرب شــاملة كل الجزيـــرة، ولم يجـــزع أحد من أصــحاب رسول الله منها، بل كـانوا رجالها وأهلهـا، حـتى عـادت الجزيـرة إلى حكم الإسلام وسلطانه.

كذاك الدهردولته سجال فيوم من مساءة أو سـرور
لبث قليلا تأتك الحلائب يحملن آسادا عليها القاشب
كتائب يتبعها كتائب

وفي غفلة من أهل الحق وضـــعفهم غلب قـــوم من المرتـــدين على المغرب، ثم على مصر، وهم الاسماعيليون العبيديون، فقد تأسست الدولة العبيدية في المغرب، وقوي شأنها، فبدلوا الشريعة، وغيروا الأحكام، فقـام لها جهابذة الإسـلام في المغـرب من علمـاء المالكية الأفـذاذ، فقاتلوهم بلا تردد، وعنـدما قـام أبو يزيد الخـارجي، وكـان على مـذهب الإباضـية، تـردد بعض الناس في قتـال المرتـدين تحت راية الخـوارج، فكـان نـداء الأئمة العلمـاء يـوم ذاك: نقاتل تحت رايـة من آمن بالله ضد راية من كفر بالله، نعم قاتلوا تحت راية الخوارج، ضد المرتدين الزنادقة، ولبس الإمام الجهبذ - حية الوادي - المصحف في عنقه، وخرج مقاتلا للمرتدين حـتى استشـهد، وفي تلك الفـترة أفـرز علمـاء المالكية أصـحاب سـحنون من الفتـاوى العظيمة ما تعد غـرة في تـاريخ أهل العلم من أمتنـا، وعلم المرتـدون أن أرض المغـرب ليست بـأرض اسـتقرار وهنـاء، فوجهـوا هـاديهم إلى مصر فغلبوا عليها، واستقر لهم الحكم في مصر بمساعدة الصوفية الخبيثة الـتي مهدت لهم الطريق، حتى أنهم دخلوا الفسطاط بغير حـرب وسـيف، وبقي أمرهم في مصر إلى ثلاثـة عشر متخلفا (كما قـال السـيوطي)، حـتى جـاء صــلاح الـدين الأيــوبي، وأنقذ مصر من العبيــديين، وأعادها إلى ســلطان الإسلام، وكان من جرأة علماء المغرب، وصلابتهم في الحق أن كفـروا كل خطيب خرج على المنبر يخطب لبني عبيد، أو يوهم الناس أنهم مسلمون، وهي فتـوى عظيمة الشـأن جليلة القـدر، أجمع عليها أهل زمانهـا، ومـدحها القاضي عياض المالكي، وأشار إليها باحترام الإمـام شمس الـدين الـذهبي في "سير أعلام النبلاء"، وقد قمت بتحقيق هـذه الفتـوى، ودراسة ظرفهـا،

والـرد على الشـبه الـتي سـيثيرها الجهلة حولهـا، والفتـوى قد طبعت في ورقات مستقلة.

وحركـــات الـــردة لا تفتأ تطل برأســـها وتنشئ لها دولا ومعــــاقلا، فالإسماعليون أقاموا لأنفسـهم دولة في اليمن، قضى عليها صـلاح الـدين، وأقــاموا لهم معقلا خطــيرا في قلعة آل مـــوت، وقد اشـــتهروا باسم الحشاشـين أو الفداويـة، وبقيت مصـدر إزعـاج وقلق للمسـلمين، وكـانوا يمارســـون طريقة الاغتيـــال ضد خصـــومهم، فاغتـــالوا بعض أهل العلم، واستطاعوا أن يقضوا على خليفة من خلفاء بني العبـاس، وحـاولوا اغتيـال صلاح الدين فلم يفلحوا، وبقي أمرهم يشتد وقلعتهم جد منيعة حـتى قضى عليها التتار خلال هجـومهم على العـالم الإسـلامي. وليس هـذا فحسب بل حركـات الـردة الـتي غـزت أمتنا تحتـاج إلى دراسة شـاملة، تهيئ قبـول المسـلم لهـذه الظـاهرة، وأنها ليست بالجديـدة، وأن معالجـات أهل العلم لهذه الظاهرة ليست بالأمر المحدث الجديد.

قوى العلمنة (الردة) وفكر الإرجاء :

إن هـذه الـردة المعاصـرة هي من أخطر ما واجهت الأمـة، وهي عميقة الجــذور، متشــعبة الوجــود، ومع شدتها وخطورتهــا، إلا أن القليل من أهل البصيرة أدركها حق إدراكهـا، أو رفع لها رأس الجهـاد والاستشهاد، وسـبب هـذا الجهل بحقيقة هـذه الـردة أنهـا جـاءت على فـترة من الجهل بحقيقة التوحيد، وبحقيقة العبودية لـرب العـالمين، فخلال عقـود طويلة سـرت في الأمة جرثومة الإرجاء الخبيثة، وأختها جرثومة الجبر، وكان معهما الصــوفية تغذيهما بقيح الفكر وصـديده، وهي مع ذلـك ترتكز عليهما في بث تصـورها الرذيل عن الكـون والحياة، حـتى صـارت هـذه الأمـراض وكأنها جـزء من طريقة تفكير المسلم لا تنفك عنه، ولا يعيش إلا بها.

والآن كيف استثمرت العلمانية (الردة) فكر الإرجاء وارتكزت عليه؟.

طبقات المرجئة:

على الـرغم من أن طبقـات المرجئة ليست على نسق واحـد، وطريقة واحـدة، إلا أنها تلتقي جميعا في عـدم إدخـال الأعمـال البدنية في مسـمى الإيمان، فبعضهم يرى أن الإيمان هو القول، وبعضـهم يـرى أن الإيمـان هو التصديق القلبي، وآخرون يرون أن الإيمان قـول اللسـان وتصـديق القلب، إلا أنها جميعا لا تعــترف أن الأعمــال البدنية داخلة في مســمى الإيمــان، وتـرتب على ذلك إرجـاء في التكفـير، فهنـاك إرجـاء في مسـمى الإيمـان، وإرجـاء في التكفـير، وقد ذكرنا طبقـات المرجئـة، في التكفـير، وقلنا إنها ثلاث طبقات في التكفـير بالأعمـال المكفـرة، فهنـاك طبقة لا تطلق الكفر على من سماه الله كافرا لعمل من الأعمال أو قـول من الأقـوال مطلقـا، وهـؤلاء كفـرهم أهل العلم، وهنـاك طبقة لا تكفر بالعمل المكفر أو القـول المكفر حتى تتحقق من وجود الاستحلال والجحد، وهؤلاء كفرهم بعض أهل العلم كالإمـام أحمد - رحمه الله تعـالى - كما ذكر شـيخ الإسـلام في كتابه "الإيمــان الكبــير"، وهنــاك الثالثــة: وهي تكفر من كفــره الله تعــالى من الأعمـال المكفـرة، وتفسر كفـره بسـبب الجحد أو الاسـتحلال، وتقـول إنه لعلم الله تعالى أن هذه الأفعال لا تقع إلا من مسـتحل أو جاهل فقد كفـره

الله تعــالى، وواقع المــذاهب المتــأخرة الــتي غلبت على الأمــة، أنها تبنت القــول الأول والثاني، وقليل من يقــول بــالقول الثالث، فــأغلب المــدارس المذهبية على القول الأول والثــاني، فالإرجــاء لا يعلق أحكــام الإيمــان على الأعمال، فالناس مسلمون بغض النظر عن أعمالهم، والحكم على الإيمــان متعلق بمســائل التصــديق والتصــور، وما من دين على ظهر الأرض ســواء كان ســماوي الأصل والوضــع، أو أرضــي النشــوء، إلا وهو يحمل في داخله شقين فيما يتعلق بأتباعه وأصحابه: الأول: شق يتعلق بالتصــور والتصــديق. والثاني: شق يتعلق بالأحكـــام والتكاليف، فالنصـــرانية المحرفة مثلا، فيها شق يتعلق بالتصور والتصديق مثل عقيدة الخطيئة والفــداء والصــلب، وأما الأحكام فهنــاك بعض الأحكــام فيما يخص قــانون الحــرب! إذا ضــربك على خــدك الأيمن فــأدر له الخد الأيسر لكنها فيما يتعلق بحملة الأحكــام ترتكز على قاعدة "دع ما لله لله وما لقيصر لقيصــر"، وهي قاعــدة تجعل لقيصر الحق أن يفرض من الأحكــام ما يحب ويرضــى، وأما ما كــان لله من أمــور التصــور وبعض أعمــال النسك كالصــلاة فهي تعــود إليه لا لغيره، ولو أخــذنا الشـــيوعية كمثل آخـــر، فإنها تحمل في داخلها قضـــايا تتعلق بالتصـــور والتصــديق مثل نفي عــالم الغيب، ومنها قضــايا تتعلق بالأحكــام والأقضــية كالاشـــــتراكية في الاقتصـــــاد، والإباحية في الاجتمـــــاع، والدكتاتورية في السياسة والحكم، ولــذلك ففي دين الله تعــالى تســمى الشــيوعية دينــا، ولكنها دين باطل كافر، والنصرانية دين لكنها دين باطل كافر. ولفظ الدين قد يطلق على شق التصـــور والتصـــديق منفـــردا، كما يطلق على شق الأحكام والقضــاء منفــردا، لكن إن أطلق - أي لفظ الــدين - من غــير تقييد كان شاملا للطرفين. فالشيوعية دين، والاشــتراكية دين، والدكتاتورية دين، وهكـــذا.. وقد اكتشف مشـــايخنا، وكـــذلك أمتنا أن الشـــيوعية كفر وردة، وســـبب هـــذا الاكتشـــاف المبكر أن الشـــيوعية تعـــارض قضـــايا التصـــور والتصديق. وهو شق يعلق الإرجاء عليه أحكام الإيمان والكفــر. فلو ســألت سائلا: لماذا تكفر الشيوعية؟ لقال لك: لأنها لا تؤمن بالغيب. ومع ذلك: لما اكتشــفت الشـــيوعية أنها لم تثمر في الأمة الإســـلامية لمصـــادمتها قضـــايا التصور، فإنها الآن بدأت تتنازل عنها مقابل نشر قضايا الأحكــام والقضــاء - الاشتراكية والإباحية والدكتاتورية - ونجحت خطتهم، فقد توقف المسلمون ومنهم المشايخ تكفير الشيوعي، فهــذا عــدنان ســعد الــدين - من الإخــوان المســلمين الســوريين - في لقــاء معه مع إحــدى الصــحف يعــترف بوجــود الشـــيوعي المســـلم، وأنه لا يســـتطيع أن يكفر كل شـــيوعي، فبعض الشيوعيين يصــلون الصــلوات الخمس، وكــذلك الشــيخ الســلفي محمد بن إبراهيم شقرة - بعد زيارته لموسكو قبل سقوط الشيوعية - اعــترف أنه لا يســـتطيع أن يكفر الشـــيوعيين لأنه اكتشف أن بعض الشـــيوعيين الحمر يصلون.

قلنا: إنه من الســهل أن يعلق مشــايخنا أحكــام الكفر والــردة على شق التصور والتصديق (وهو ما يسمى بالاعتقاد)، لأنه هو الــذي يتعلق بمســمى الإيمــان عنــدهم، وعليه فقط يعلــق حكم الكفر كــذلك. وأما شق الأحكــام والقضاء، لما كان لا يدخل في مسمى الإيمان عند المرجئــة، ولا يعلق عليه حكم الكفر والــردة، فــإن من فــرض منهجا يتعلق بالأحكــام والقضــاء دون تدخل في التصور والتصديق فلن يكفره أحــد، أو يكتشف ردته إلا من بــرأه

الله تعـالى من جرثومة الإرجـاء الخبيثـة، وعلى هـذا لما جـاءت العلمانية - وهي دين - ولم تقترب من قريب أو بعيد في مسـائل التصـور والتصـديق، بل تركت للناس حرية اختيار هذا الشق، وربما دعمت اختيارك وسـاعدتك، فكونك تؤمن بالغيب أو لا تؤمن بالغيب، أو كون الرجل يصدق باليوم الآخر أو لا يصدق، يؤمن بعذاب القبر أو لا يؤمن، كل هذه الأمور وغيرها بدءا من وجود الله تعالى إلى أي قضية في مجال التصديق والتصور (الاعتقاد) فـإن العلمانية لا تعارضك في ذلك كلـه، ولكنها تتـدخل بقـوة فيما يتعلق بشق الأحكـام والقضـاء، فهي تفـرض دينها في السياسـة، وتطـرح دين الديموقراطيـة، وهي تفـرض دينها في الاجتمـاع، وتطـرح دين الحرية الاجتماعيـة، وهي تفـرض دينها في الاقتصـاد، وتطـرح دين الرأسمالية. فالعلمانية دين شامل لكل الحياة، كالشـيوعية والنصـرانية والبوذيـة... الخ. إلا أنها في مسـائل التصـور والتصـديق تـترك للنـاس حرية اختيـارهم (لعقائـدهم) مع شـيء من الهـامش لبعض أعمـال النسـك، إذا فهمنا هـذا أدركنا أن العلمانية اسـتطاعت تمرير نفسـها على أمتنا لعـدم مصـادمتها الشق الذي يعلق عليه المرجئة حكم الإيمان وحكم الكفر، وتبقى مسـألتها دائرة في دائرة المعصية فقط، إذ يمكن للرجل أن يكون علمانيا، ولا يقدح ذلك في شيء من إسلامه وعقيدته، وقد يكـون الرجل ديمقراطيا مسـلما، ورأسماليا مسلما،... الخ هذه القائمة السوداء. ولا يرى أن هنـاك مصـادمة في هذه الثنائية! فمن هو هذا الرجل الذي يسـتطيع أن يطلق وصف الكفر على رجل يصوم ويصلي ويؤمن بالغيب، ويصدق ببعثة الرسـول صـلى الله عليه وسلم ويـؤمن بـأن القـرآن كلام اللـه، ويبكي إذا ذكـرت النـار، ويفتح كلامه بالحمد له والصـلاة وغيرهـا، ولكنـه يمـارس العلمانية في شق من أحكامها وقضـاياها، ويتبناها منهج حيـاة، كالديمقراطية أو الرأسمالية أو الحرية الاجتماعيـة؟ بل من الـذي يستطيع أن يكفر رجلا يـؤمن بعلمانية الدولة على قاعدة اختيار الشعب لسلطاته الثلاث: التشـريعية، والقضـائية، والتنفيذية؟.

ومن هنا اسـتطاعت العلمانية (الـردة) أن تبسط سـلطانها على المسلمين دون أن تجد اعتراضا من مرجئة المسلمين، إلا اعتراضا بمقـدار تسمية ما يقوم به العلماني من أعمال أنه عاص لله فقـط، ولكنه لا يخـرج من دائرة أهل الإسلام، بل ربما يرد عليك المرجئ أن هذه المعاصي الـتي تقترفها الدولة لا تزيد عن كونهـا شـبيهة بمعاصـي الحجـاج بن يوسف الثقفي، أو بمعاصي دولة المماليك أو الدولة العثمانيـة. فـدولتنا فيها الخمر وفيها الربا وفيها الزنا وكذلك الدولة العباسية والمملوكية والعثمانية؛ ونحن نقر أنها معاصي وذنوب، ولكن أن يتعلق بهذه المعاصي كفر وإسلام، فهـذا لا يجوز، وهذا الحكم انحرافه كبير في فهم الدين أولا، وانحراف آخر يوازيه في فهم الواقع الذي أطلق عليه الحكم.

الخوارج والتكفير:

مما ينبغي تبيينه وتوضيحه، تلك الألفاظ التي شاعت على ألسنة الناس، يطلقونها نبزا لخصومهم، ويلوكونهـا بألسـنتهم دون إدراك واضح لمفاهيمها ومعانيها، من هذه الألفاظ لفظي: الخـوارج والتكفـير، فما هي حقيقة هـذه الألفاظ.

أما لفظ الخـوارج، فهو لفظ قـديم، وجد في حـديث رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، وقد شـاع كثـيرا هـذا اللفظ في كتب الفـرق والمـذاهب، وأغلب هذه الكتب تفسر هذا اللفظ على غير تفسيره، وتشـرحه على غـير حقيقته.

فالخوارج في أغلب كتب المـذاهب والفـرق المتـأخرة تعـني: من خـرج عن الإمام العدل وهذا خطأ لا صواب منه.

فإن مجرد الخروج عن الإمام العدل بتأويل يسمى بغيـا، وجمـاعتهم هم البغاة، وقد يكون البغـاة خوارجا ليس لخـروجهم عن الإمـام العـدل، ولكن لعقيدتهم في الناس.

وقد يكـون الرجل خارجيـا، والجماعة من الخـوارج، ومع ذلك لا يتم لهم الخروج عن الإمام المسلم العدل.

فالخوارج لهم مذهب محدد تجتمع فيه هذه الصفات:

1 - التكفير بمطلق الذنوب والمعاصي: فهم يرون جميع المعاصي على مرتبة واحــدة، هي مرتبة الكفر الأكـبر، مع اختلافهم في الصــغائر، فبعض الخوارج يـرى كفر فـاعلي الصـغائر، وبعضـهم لا يكفـره، وعلى ضـوء هـذا المـــذهب نشـــأت مجموعة من الفـــرق الخارجية تقـــترب منه أو تبتعـــد، فالإباضـية مثلا لا يسـمون فاعل الكبـيرة كـافرا باللـه، بل يسـمونه كـافرا بالنعمة، مع التقائهم مع بقية الخـوارج بـالحكم على آخـرة الرجل إن مـات على كبـيرة أنه خالد في جهنم وليس معرضا للمشيئة كما هو مـذهب أهل السنة.

2 - وانبثق عن هذه العقيـدة المغالية اسـتحلال دم المخـالف وتكفـيره، فتكفـيرهم صـاحب المعاصـي (الفاسق الملي) تـرتب عليه اسـتحلال دمه لكونه مرتدا عنـدهم، فالمخـالف لهم كـافر مبـاح الـدم، ومن لا يـدخل في إمرة إمامهم وجماعتهم هو كـذلك، لأنهم بعـدم دخـولهم - أي النـاس - في جماعتهم وفي طاعة أميرهم داخلون في إمرة فسطاط الكفـر، وبقائه في فسطاط الكفر (إمـرة غـيرهم من المسـلمين) يحكم عليه بـالكفر، وبهـذا الحكم يبيحون دمه وعرضه وماله.

3 - ومن عقائدهم وجوب الخروج على فسـطاط الكفر (إمـارة غـيرهم من المسـلمين)، فكـثر منهم إراقة دمـاء المسـلمين، وشن المعـارك ضد الدولة المسلمة، وبقي أمـرهم على هـذا الشأن حـتى طمس أمـرهم نـور العلم، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أمر الخلافـــة، أذن لهم بالـــدخول في أمصار المسلمين، ودخول المساجد، ومقابلة العلماء، ثم منـاظرتهم، حـتى تبين لهم الحق، فرجعوا عن ترك مواطن العلم ومظانه، وبهذا خف أمـرهم وبقيت لهم جيــوب صغيرة وهي موجــودة إلى اليــوم في بعض المنــاطق، وبقيتهم على مذهب الإباضية.

وقد استخدم لفظ الخـوارج بطريقة فجة من قبل السـلطات السياسـية في اتهام الخصوم، ووجد من يؤيدهم من بعض المشايخ، وسبب اســتخدام هذا اللفظ وجوده في حديث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، وتنفـيره صلى الله عليه وسلم من أصـحابه - أي الخـوارج -، ثم في هـذه الأحـاديث الحجة لدى هذه السلطات لقمع خصومها، حيث حث صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث على قتل هذا الصنف من المبتدعـة، ومما ينبغي معرفته

أن ذكر الخــوارج في الحــديث النبــوي ليس لأن الخــوارج أعظم الفــرق البدعية شرا وضلالا، بل لأنهم أول الفرق ظهورا في المجتمع الإسلامي.

وبسـبب ذلك ظن البعض أن أمر الخـوارج أعظم من غـيرهم فإننا نـرى بعض التجمعــات الإســلامية المعاصــرة تعلن الــبراءة -كل الــبراءة - من الخوارج، أو من اقترب من فكرهم، ومع ذلك لا يتورعون أبدا من الانضـواء تحت راية الشـيعة الرافضـة، وإذا حوججـوا أجـابوا بـأن الشـيعة الـروافض مسـلمون ومن أهل القبلـة، ولكن على فـرض قبـول قـولهم بـأن الشـيعة الروافض من أهل القبلة، فهل الخوارج - فيما تزعمون كثـيرون - من غــير أهل القبلة؟.

وهل شر الخوارج يصل إلى شر الشيعة الرافضة؟.

ثم يقال لهذه التجمعات المسـلمة: كيف قبلتم التحـالف مع الشـيوعيين والقوميين والبعثيين (وهم كفـرة مشـركون بلا جـدال) ثم أعلنتم الـبراءة - كل البراءة - من الخوارج - حسب زعمكم - ؟.

بل كيف دخلتم في مــوالاة من سب دين الله ونــبزه بالرجعيــة، وذبح المســلمين وهتــك أعراضــهم، ونشر الرذيلة وبــاع الأمــة، ووالى اليهــود والنصارى وأعداء المسلمين، ثم صببتم جل غضبكم على الخـوارج - حسب زعمكم وظنكم -؟.

كيف لعقولنا أن تقبل ما تفعله جماعة الإخـوان المسـلمين واضـطرابها فيما قلنا؟.

ثم كيف يريـدون منا أن نقبل ما يفعله سـلفيو (آخر زمن) من مـوالاتهم لصـدام البعثي الكـافر ضد الشـيعة الـروافض، يرفعـون صـدام وحزبـه إلى مقـام صـلاح الـدين، وحربه إلى قادسـية سـعد بن أبى وقـاص، ثم بسـبب غزوه للكويت يعود صدام إلى حظيرة بعثيته وكفره.

ومن الكلمات التي استخدمت شعارا لضـرب الخصـوم، ولتنفـير النـاس منهم لفظ التكفــير، وهو لفظ يلصق بــالمرء فيقــال: فلان من جماعة التكفير. وقد استخدم هذا اللفظ مق قبل أجهـزة المخـابرات بإطلاقه على جماعة شكري مصطفى الذي سمى جماعتـه: "جـماعة المسـلمين"، حيث كـان يـرى أنـه هو وجماعته هم المسـلمون فقـط، وغيهم كـافر أو متوقف فيه.

الخوارج والتكفير:

مما ينبغي تبيينه وتوضيحه، تلك الألفاظ التي شاعت على ألسنة الناس، يطلقونها نبزا لخصومهم، ويلوكونهـا بألسـنتهم دون إدراك واضح لمفاهيمها ومعانيها، من هذه الألفاظ لفظي: الخـوارج والتكفـير، فما هي حقيقة هـذه الألفاظ.

أما لفظ الخـوارج، فهو لفظ قـديم، وجد في حـديث رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، وقد شـاع كثـيرا هـذا اللفظ في كتب الفـرق والمـذاهب، وأغلب هذه الكتب تفسر هذا اللفظ على غير تفسيره، وتشـرحه على غـير حقيقته.

فالخوارج في أغلب كتب المـذاهب والفـرق المتـأخرة تعـني: من خـرج عن الإمام العدل وهذا خطأ لا صواب منه.

فإن مجرد الخروج عن الإمام العدل بتأويل يسمى بغيـا، وجمـاعتهم هم البغاة، وقد يكون البغـاة خوارجا ليس لخـروجهم عن الإمـام العـدل، ولكن لعقيدتهم في الناس.

وقد يكـون الرجل خارجيـا، والجماعة من الخـوارج، ومع ذلك لا يتم لهم الخروج عن الإمام المسلم العدل.

فالخوارج لهم مذهب محدد تجتمع فيه هذه الصفات:

1 - التكفير بمطلق الذنوب والمعاصي: فهم يرون جميع المعاصي على مرتبة واحــدة، هي مرتبة الكفر الأكــبر، مع اختلافهم في الصــغائر، فبعض الخوارج يـرى كفر فـاعلي الصـغائر، وبعضـهم لا يكفـره، وعلى ضـوء هـذا المــذهب نشــأت مجموعة من الفـــرق الخارجية تقــترب منه أو تبتعـــد، فالإباضـية مثلا لا يسـمون فاعل الكبـيرة كـافرا باللـه، بل يسـمونه كـافرا بالنعمة، مع التقائهم مع بقية الخـوارج بـالحكم على آخـرة الرجل إن مـات على كبـيرة أنه خالد في جهنم وليس معرضا للمشيئة كما هو مـذهب أهل السنة.

2 - وانبثق عن هذه العقيـدة المغالية اسـتحلال دم المخـالف وتكفـيره، فتكفـيرهم صـاحب المعاصـي (الفاسق الملي) تـرتب عليه اسـتحلال دمه لكونه مرتدا عنـدهم، فالمخـالف لهم كـافر مبـاح الـدم، ومن لا يـدخل في إمرة إمامهم وجماعتهم هو كـذلك، لأنهم بعـدم دخـولهم - أي النـاس - في جماعتهم وفي طاعة أميرهم داخلون في إمرة فسطاط الكفـر، وبقائه في فسطاط الكفر (إمـرة غـيرهم من المسـلمين) يحكم عليه بـالكفر، وبهـذا الحكم يبيحون دمه وعرضه وماله.

3 - ومن عقائدهم وجوب الخروج على فسـطاط الكفر (إمـارة غـيرهم من المسـلمين)، فكـثر منهم إراقة دمـاء المسـلمين، وشن المعـارك ضد الدولة المسلمة، وبقي أمـرهم على هـذا الشأن حـتى طمس أمـرهم نـور العلم، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أمر الخلافـــة، أذن لهم بالـــدخول في أمصار المسلمين، ودخول المساجد، ومقابلة العلماء، ثم منـاظرتهم، حـتى تبين لهم الحق، فرجعوا عن ترك مواطن العلم ومظانه، وبهذا خف أمـرهم وبقيت لهم جيــوب صغيرة وهي موجــودة إلى اليــوم في بعض المنــاطق، وبقيتهم على مذهب الإباضية.

وقد استخدم لفظ الخـوارج بطريقة فجة من قبل السـلطات السياسـية في اتهام الخصوم، ووجد من يؤيدهم من بعض المشايخ، وسبب اسـتخدام هذا اللفظ وجوده في حديث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، وتنفـيره صلى الله عليه وسلم من أصـحابه - أي الخـوارج -، ثم في هـذه الأحـاديث الحجة لدى هذه السلطات لقمع خصومها، حيث حث صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث على قتل هذا الصنف من المبتدعـة، ومما ينبغي معرفته أن ذكر الخـــوارج في الحــديث النبــوي ليس لأن الخـــوارج أعظم الفــرق البدعية شرا وضلالا، بل لأنهم أول الفرق ظهورا في المجتمع الإسلامي.

وبسـبب ذلك ظن البعض أن أمر الخـوارج أعظم من غـيرهم فإننا نـرى بعض التجمعــات الإســلامية المعاصــرة تعلن الــبراءة -كل الــبراءة - من الخوارج، أو من اقترب من فكرهم، ومع ذلك لا يتورعون أبدا من الانضـواء تحت راية الشـيعة الرافضـة، وإذا حوججـوا أجـابوا بـأن الشـيعة الـروافض

مسـلمون ومن أهل القبلـة، ولكن على فـرض قبـول قـولهم بـأن الشـيعة الروافض من أهل القبلة، فهل الخوارج - فيما تزعمون كثـيرون - من غـير أهل القبلة؟.

وهل شر الخوارج يصل إلى شر الشيعة الرافضة؟.

ثم يقال لهذه التجمعات المسـلمة: كيف قبلتم التحـالف مع الشـيوعيين والقوميين والبعثيين (وهم كفـرة مشـركون بلا جـدال) ثم أعلنتم الـبراءة - كل البراءة - من الخوارج - حسب زعمكم - ؟.

بل كيف دخلتم في مــوالاة من سب دين الله ونــبزه بالرجعيــة، وذبح المسـلمين وهتــك أعراضــهم، ونشر الرذيلة وبــاع الأمــة، ووالى اليهــود والنصارى وأعداء المسلمين، ثم صببتم جل غضبكم على الخـوارج - حسب زعمكم وظنكم -؟.

كيف لعقولنا أن تقبل ما تفعله جماعة الإخـوان المسـلمين واضـطرابها فيما قلنا؟.

ثم كيف يريـدون منا أن نقبل ما يفعله سـلفيو (آخر زمن) من مـوالاتهم لصـدام البعثي الكـافر ضد الشـيعة الـروافض، يرفعـون صـدام وحزبه إلى مقـام صـلاح الـدين، وحربه إلى قادسـية سـعد بن أبى وقـاص، ثم بسـبب غزوه للكويت يعود صدام إلى حظيرة بعثيته وكفره.

ومن الكلمات التي استخدمت شعارا لضـرب الخصـوم، ولتنفـير النـاس منهم لفظ التكفــير، وهو لفظ يلصق بــالمرء فيقــال: فلان من جماعة التكفير. وقد استخدم هذا اللفظ مق قبل أجهـزة المخـابرات بإطلاقه على جماعة شكري مصطفى الذي سمى جماعتـه: "جـماعة المسـلمين"، حيث كـان يـرى أنـه هو وجماعته هم المسـلمون فقـط، وغيهم كـافر أو متوقف فيه.

التكفير الذي ذمه السلف؟:

من المعلـوم أن التكفـير حكم شـرعي، إذ يجب على المسـلم أن يكفر من كفـره الله تعـالى، وهو مرتبة موجـودة ولا شـك، وإذا قلنا إن التكفـير حكم شرعي، فإنه لا دور لدليل العقل فيه البتة، فلا يجوز للمسلم أن يكفر أحدا إلا بدليل سـمعي، أو باجتهـاد، أي بقيـاس على الـدليل السـمعي، كما قال ابن القيم في نونيته:

الكفر حق الله ثم رســوله بالنص لا بقــول فلان
من كان رب العالمين وعبده قد كفراه فذاك ذو كفران

وقد ظن من لا خـبرة له أن التكفـير حكم في المطلـق، ولا يجـوز فيه التعيين، بمعنى: يجوز لك أن تقول: من فعل هذا الفعل أو قال هذا القول، أو اعتقد هذا الاعتقاد كـافر، لكن إن وقع هـذا الفعل أو القـول أو الاعتقـاد من هذا الشخص، أي من شخص معين، فلا يجوز لك أن تقول فلان كافر.

وهذا خطأ وشذوذ عن منهج السلف، فإن السلف كثيرا ما أطلقــوا لفظ التكفير في حق أعيان على وجه الخصوص، وإليك بعض الأمثلة:

1 - قال البخاري: دخلت على الحميدي (شيخ له) وأنا ابن ثمانية عشرة سـنة، وبينه وبين آخر اختلاف في حـديث، فلما بصر بي الحميدي قـال: قد

جاء من يفصل بيننا، فعرضا علي، فقضيت للحميدي على من يخالفه، ولو أن مخالفه أصر على خلافه، ثم مات على دعواه، لمات كافرا.[1] ا.هـ.

2- قال ابن تيمية: ولم يمدح "الحيرة" أحد من أهل العلم والإيمان، ولكن مدحها طائفة من الملاحدة، كصاحب "الفصوص" **ابن عربي** وأمثاله من الملاحدة الذين هم حيارى.. فخرج هؤلاء عن العقل والدين، دين المسلمين واليهود والنصارى. ا.هـ.[2]

3- قال **محمد بن عبد الوهاب** في رسالة له: نذكر لك أنك أنت وأباك مصرحون بالكفر والشرك والنفاق... وأنت وأبوك لا تفهمون شهادة أن لا إله إلا الله، أنا أشهد بهذا شهادة يسألني الله عنها يوم القيامة، إنك لا تعرفها إلى الآن ولا أبوك، ونكشف لك هذا كشفا بينا لعلك تتوب إلى الله، وتدخل في دين الإسلام إن هداك الله. ا.هـ.[3]

والأمثلة لا تكاد تحصر في تكفير الأئمة للمعينين.

ولكن مما ينبغي التنبيه إليه أن حكم التكفير هو كالحكم القضائي، فإنه لا يطلق إلا بعد تحقق شروط التكفير في المعين، وانتفاء الموانع الشرعية التي تمنع لحوق التكفير فيه.

والخطأ في التكفير يقع بأسباب منها:

1 - عدم ثبوت التهمة على المعين، فقد ينسب قول أو فعل أو اعتقاد مكفر لمعين، ولا يكون هذا المعين فاعلا لهذا المكفر.

2 - التكفير بالأفعال والأقوال المحتملة غير الصريحة، والتي تحتاج إلى معرفة قصد القائل والفاعل حتى يتبين المراد منها، ومنه التكفير باللوازم.

و أما التكفير المذموم، وهو الذي يقع من أقوام يستحقون الدخول في مسمى الخوارج، وهم بحق خوارج هذا العصر، وهم أهل ضلال وفتنة فهم:

1 - من يعتقد أن الأصل في الناس الكفر، وأن الأمة كلها عادت إلى الكفر والشرك، فهو يرى كفر عموم الناس من غير تفريق ولا توضيح.

قال **ابن عبد الوهاب** رحمه الله تعالى: ما ذكر لكم عني أني أكفر العموم فهذا من بهتان الأعداء. ا.هـ.

وشرح أبناؤه هذه العبارة بقولهم: كلام الشيخ في قوله أنا لا نكفر بالعموم، فالفرق بين العموم والخصوص ظاهر، فالتكفير بالعموم أن يكفر كلهم عالمهم وجاهلهم، ومن قامت عليه الحجة ومن لم تقم، وأما التكفير بالخصوص فهو أن لا يكفر إلا من قامت عليه الحجة بالرسالة التي يكفر من خالفها، وقد يحكم بأن أهل هذه القرية كفار، حكمهم حكم الكفار، ولا يحكم بأن كل فرد منها كافر بعينه لأنه يحتمل أن يكون منهم من هو على الإسلام، معذور في ترك الهجرة، أو يظهر دينه ولا يعلمه المسلمون. ا.هـ.

فالذين يعتقدون كفر الأمة تعميما، ويرون أن الأصل في الناس الكفر في هذا العصر، هم أهل بدعة وضلال، وهم الذين يستحقون الدخول في مسمى خوارج هذا العصر، أما من يكفر رجلا لتحقق التهمة فيه، ثم لعلمه بقيام الحجة عليه، ولأمر صريح لا يحتمل تأويلا ولا غموضا، فهو من المكفرات الواضحة التي لا تحتاج إلى تبين القصد منها، فهذا هو دين الإسلام وغيره بدعة وضلال.

---

[1] - سير أعلام النبلاء (12/401).
[2] - الفتاوى الكبرى (5/59) طبعة دار الكتب العلمية.
[3] - الدرر السنية - حكم المرتد (ص 61،62).

والتعميم شر كله، فإن الأمة ما وقعت في التخبط وعدم الفهم عن دين الله تعالى إلا بالشعارات العامة التي يحملها أهل الجهل على العموم دون فهم لمعانيها، أو دون تقييد لها، وهي كما قال ابن القيم:

فعليك بالتفصــيل والتبيين   فالإطلاق والإجمال دون بيان
قد أفسدا هذا الوجود وخبطا الأذهان والآراء كـل زمان

2 - من يكفر بمطلق الذنوب والمعاصي كما هو مـذهب الخـوارج، فإنه كما تقدم سـابقا أن الخـوارج يـرون جميع الـذنوب على مرتبة واحـدة، هي مرتبة الكفر الأكبر.

وهؤلاء كذلك مبتدعة ضلال، وردود أهل السنة عليهم تملأ الكتب.

3 - ومن الـداخلين في مسـمى خـوارج هـذا العصر " التكفـير" وهم مبتدعة ضلال، هؤلاء القوم الذين يكفرون المخالف لهم، والذين لا يدخلون في طاعتهم وجماعتهم، فهؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم جماعة المســلمين، دون سـواهم، والخـارج عنهم وكـذلك المخـالف لهم كـافر، هـؤلاء من شر أنواع أهل البدع، لأنهم حينئذ لا يتورعون عن قتل مخـالفيهم، بل يرون قتل المخالف أكثر قربة وأجرا من قربة قتل الكافر الأصلي أو المرتد.

ولقد رأينا قسـما من هـؤلاء فوجـدناهم من أرذل النـاس خلقـا، وأفسد النــاس نيــة، وعــامتهم يغلب عليهم التقيــة، إذ يقابلونك بوجه لا يعــبر عن شــيء من بــواطنهم، وهم يصــرحون ليل نهــار، أن الجماعــات الإســلامية وخاصة المجاهــدة هي حجر العــثرة الــتي تقف أمــام فكــرهم المبتــدع، وضلالتهم الخبيثة.

وعلى المــرء أن يتقى ربه في إطلاق الأوصـــاف المنفــرة، ولا يطلقها جزافا دون تبين وتحقق. وليعلم المسـلم أن أمر هـذا الـدين عظيم، وليس هو مما يمكن للمــرء أن يتخــذه وســيلة للانتصــار على خصــومه بــالهوى والظن، فإن الخصومة ينبغي أن تكون انتصارا لـدين الله تعـالى، مع تـذكر المرء ربه في كل ما يقول ويذر.

وإن العبد الــذي علم منهج أهل الســنة على ما هو عليــه، ودرسه حق دراســـته، وقـــام له في نفسه حق القيـــام، ثم علم مأخذ أهل البــــدع وضلالاتهم، ليأنف من أن تنسب له هذه الألقـاب البدعية الخبيثة كـالخوارج والتكفير، وإنا نعـوذ بالله أن نكفر النـاس بـالعموم أو بـالظن والهـوى، كما نعوذ بالله تعـالى أن نرضى مـذهب الخـوارج البـدعي، ولسـنا ممن يقتنص زلات أهل العلم ليشـهرها بين النـاس، ولكن حيث صـارت العمـائم طريقا لسـتر كفر الطـاغوت على النـاس، فلا يسع من هو أدنى مما نحن عليه أن يسـكت، فكيف يسع من علم شـيئا من الحق أن يسـكت عنه أو يسـتره؟ وهل فاعل ذلك إلا شيطان أخرس؟!!.

ثم إن ما نعتقـــده نقولـــه، ولا نزمزمه ولا نزخرفـــه، وحيث كفرنا بكل طـــواغيت الأرض، ولم نخف ذهـــاب وظيفة أو راتب، ثم لم نخف ســـحب جنسية أو جواز سفر، فلن نـرهب أحـدا إلا خالقنا ومولانـا، وهو الـذي بيـده مقاديرنا ونواصينا.

شــــــــرعية جماعــــــات الجهـــــــاد وآليــــــــة التغيـــــــير:

إن شرعية جماعات الجهاد في العالم قامت على عمد، كل واحـدة منها تكفي لوجــوب الاجتمــاع لإحيــاء الجهــاد والعمل به دون تــردد أو مواربــة،

وتجعل الخــارج عن هــذه الجماعــات المجاهــدة واقع لا شك في إثم ووزر لتقصيره في العمل على إدراك هذه العمد، والإعانة على إحيائها وتنميتها.

إن عقيدة الجهاد في دين الله تعــالى قد واجهت من قبل الكفر وأزلامه الهجــوم إثر الهجــوم، وقد علم أن الكفر بكل صــوره لا يمكن زلزلة أركانه وإزالته من مكانه إلا بالقتـــال، وأنه لا يمكن لدولة من الـــدول أن ترسخ أركانها وتثبت وجودها إلا بعد دماء وأشلاء، فلا يوجد دولة على ظهر الأرض اليوم وغدا وبالأمس، ذات اسـتقلال ومنعة إلا بعد حـروب وحـروب، وقتـال يأخذ من فلذات أكبادها، ودم شبابها ما تشيب له العثانين، وعلى الناظر أن لا يغتر بما يســمى بالديمقراطية في العـالم الغـربي، إذ حين يـرى بعضـهم سهولة ويسر تناوب الأحزاب على السـلطة، وتخلي الحكـام عن كراسـيهم يظن أنه بإمكان المسلمين أن يصـلوا إلى الحكم عن هـذا الطريــق، وهـذا خطــأ جســيم، إذ أن هــذه الأنظمة لم تســتقر على الحــال إلا بعد حــروب طاحنة بين حملة هذه الفكرة (الديمقراطية) وبين خصــومهم، وما من دولة تشكلت (وهي مستقلة) إلا بعد حروب مع خصومها.

فأمريكا زعيمة العـالم الـديمقراطي الحــر، الجامعة تحت رايتها ولايـات عدة، لم توجد على هذا الشكل من العقيدة السياسية والوجــود الجغــرافي الممتد إلا بعد حــروب أهلية طاحنة بين الشــمال والجنــوب، حــروب أكلت الأخضر واليـــابس، حـــتى تم غلبة أحد الفـــريقين على الآخـــر، فتواضع المنتصـرون على هـذا الشـكل من النظـام السياسـي، وهـذه الصـورة من الحياة.

وكـــذلك أوروبا وما اشـــتملت عليه من دول وحكومـــات، فـــإن هـــذه الحكومـــات لم تتشـــكل على هـــذا النسق إلا بعد حـــروب داخل القـــارة وخارجهـــا، قـــدم فيها كل فريق الغـــالي والنفيس، حـــتى خلصت إلى أحد الفريقين، فتواضع المنتصرون على هذا الشكل من الأنظمة وهذه الصـورة من الحياة.

ولو سألنا أنفسنا: لماذا يحق للغــرب أن ينشر عقيدته عن طريق القــوة والسلاح كما تصنع أمريكا وأوربا ولا يحق لخصومه ذلك؟.

هؤلاء الذين يريدون نشر الأفكار، ثم يريدون لهذه الأفكار أن تكــون في سدة الحكم والسلطان ثم لا يسيرون في ركاب حملة السلاح والمقــاتلين، هؤلاء أشبه بالفلاسفة السفسطائيين حيث تضيع صرخاتهم هباء.

مناهج التغيير في فكر الانحطاط:

إذا كــان أهل الإســلام قد اتفقــوا على إزالة طــاغوت مرتــد، فما هي الطريقة التي يمكن لهم فيها أن يزيلوا هذا الطاغوت عن كرسيه؟.

الــذين يطرحــون منهج تربية النــاس على الإســلام حــتى يكــثر عــدد الإسلاميين، فيتم التغلغل والسريان من غير تعليمهم فن القتــال والحــرب، بل جل همهم أن يكونــوا حملة أســفار أو أذكيــاء سياســة، أو صــوام نهــار وقــوام ليــل، وحفظة قــرآن وحــديث (وهــؤلاء مــراتبهم تمتد بين طــرفي النقيض من صــوفي إلى ســلفي وبينهما إخــواني)، فهل يعجز الطاغوت أن يوجد في ركابه مائة رجــل، بيــدهم الســلاح والقــوة، فيميلــون على زوامل العلوم فيبقرونها، وعلى أذكياء فن الممكن فيفسدون فنونهم، وعلى العباد فيقطعــون مســابحهم يخربــون مســاجدهم ؟. إنه لا يوجد عاقل على وجه

الأرض تحـرر من أوهـام، الخرافة وجبرية المبتدعـة، وغنوصـية الصـوفية، يطرح طريقا لإزالتهم غير طريقة الجهاد.

لكننا ما زلنا نشم رذائل فكر الانحطــاط الــذي ولج إلى أمتنا بعد خــير القرون تحت أسماء براقة، فإن لمشايخنا رأيا آخر في التغير نسوق بعضه:

1 - الشيخ السلفي أبو بكر الجزائري وطريقته الجنائزية:

للشيخ طريقة جديدة تستحق أن تدخل تحت باب الاكتشـافات الحديثـة. يقول عن طريقته البديعـة: إن أفضل طريقة لإصـلاح حكامنـا، هو أن نجمع أعدادا غفيرة من المطالبين بضرورة الإصلاح، ثم نشد رحالنا متوجهين إلى قصر ولي الأمـر. فنحط رحالنا ونـنيخ ركائبنا أمـام بيته - عفـوا قصـره - ثم نبـدأ بالنشـيج والبكـاء، فـإذا خـرج علينا ولي الأمر بطلعته البهيـة، ووجهه الوضـاء المشـرق، وسـألنا عن سـبب بكائنا قلنا لـه: والله لن نبـارح عتبة قصـرك حـتى تزيل المنكـرات وتحكم بشـريعة القرآن...، لا شك أن ولي الأمر قلبه رؤوف رحيم، بل هو رجل لا يرضى لشعبه الوفي أن يبكي (قال الشيخ باللفظ: هو قلب الحاكم حجر؟) النتيجة أن الحـاكم العـادل سيرضخ لمطالبنا ويستجيب لبكائنا وحينها سيحكم بالقرآن.

2 - أما نظرية البعض الآخر من مشــايخنا ومفكرينا فهي طريقة توصف باسم "صندوق العجائب" وصندوق العجـائب هـذا اكتشـفه النـاس مـؤخرا، تقول نظرية الصندوق:

يحكى أن حاكما يختلف عن جميع رؤسـاء العصـابات، فهو رجل يحـترم نفسه لكن العلة فيمن حولـه، فقد زورت عليه حاشـيته أن جميع الشـعب يريـده ويحبـه، ولا يرضى بـديلا عنـه، ومن دلائل صـدقه أنه في كل فـترة زمنية يعلن للنـاس أنه على اسـتعداد ليتخلى عن الكرسـي إذا أراد شـعبه ذلك، وحتى يعرف رأي الناس صنع صندوقا ليضع الناس فيه آراءهم.

تقــول الحكاية إن الــرواة اختلفــوا في النتيجــة، فبعضــهم يجــزم أن الصندوق كان عجيبـا، إذ أنه يستطيع أن يقلب جميع الحـروف على الـورق إلى كلمة واحدة فقط "نعم للرئيس".

وبعض الرواة لم نستطع سماع روايته لأنه كان في السجن.

3 - أما النظرية الثالثة فتقـول إن واقعنـا خـير واقع فليس في الإمكـان أبدع مما كان.

الحكم بغير ما أنزل الله:

الصورة والمفهوم في مجتمعات معاصرة

قـال رب العـزة: {ومن لم يحكم بما أنـزل الله فأولئك هم الكـافرون} المائدة.

ما رأيت من آية في هـذا العصر اختلف النـاس حولهـا، كما اختلفـوا في هـذه الآية الكريمـة، وكل فرقة من الفـرق المعاصـرة تبني على هـذه الآية المفاهيم التي تريد، والتأويلات التي تحب، فقائل يقول: إن الحكم بغـير ما أنــزل الله كفر عملي، والكفر العملي عنــده ليس له إلا معــنى واحد وهو الكفر الأصغر، وبالتالي فمن ترك حكم الله تعـالى فهو عـاص من العصـاة، ولا يخرجه هذا الفعل إلا باعتقاد الرد لحكم الله تعـالى، وزعم صـاحب هـذا

القول أن إخراج من ترك حكم الله تعالى من الإسلام هو مـذهب الخـوارج الذين يكفرون بمطلق المعاصي والذنوب.

وقائل يقول: إن هذه الآية ليست نازلة في المسلمين بل هي لليهـود أو لغـيرهم، فحملها على أهل الملة المحمدية حمل على غـير محملهـا، وآخر وآخر..، إلى غير هذه التأويلات المتضاربة والمختلفة، وحـتى تنجلي صـورة هذه الآية في أذهان المسلمين فإنني أقدم لها بمقدمات، عسى أن تقـرب المراد وتيسره، فأقول وبالله التوفيق:

1 - الآية تتكلم عن حكم من ترك الكتـاب والسـنة، ولا تتكلم عن حكم من حكم بغـير الكتـاب والسـنة، والتفريق بينهما جد مهم، فلو أن القاضي عرضت له مسـألة ليقضـي فيهـا، فـترك الحكم فيها مع علمه بحكم الله تعالى في النازلة، فهو المعني بهذه الآية، ولكن هـذا القاضـي لو حكم فيها بغير ما أنزل الله تعالى لكان جامعا لأمرين أولاهمـا: تـرك الحكم بما أنـزل الله، وثانيهما: الحكم بغير ما أنزل الله تعـالى. وهما مناطـان مختلفـان، إذ أن الثاني متضمن للأول، بخلاف الأول فهو ليس متضمنا للثاني.

2 - دلت السنة النبوية على وجود الكفر الأصغر، و لم يرد الكفر الأصغر في الكتاب العزيز، بل قال الإمام الشاطبي: إن أحكام القـرآن كلها غائيـة، وأما السـنة ففيها الغـائي والوسطي، فعلى هـذا: لا يوجد في القـرآن لفظ الكفر الـذي يحمل على الكفر الأصـغر، نعم: ورد الكفر في القـرآن على عـدة معـان، ذكر بعض أهل العلم أنها خمسة[1]. ولكن لا يوجد فيها ما يـدل على أن في القرآن لفظ الكفر المحمول على الكفر الأصغر.

3 - التفريق بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر الوارد في السنة النبوية له عدة طرق، من أهمها ما ذكره ابن تيمية في كتاب "الإيمان الكبـير": أنه لو ورد الكفر معرفا فإنه لا يحمل إلا على الكفر الأكـبر، وأما إذا جـاء الكفر منكرا، فحينئذ برجع إلى بقية الطرق لمعرفة المراد منه، هل هو كفر أكـبر أم أصغر ؟.ا.هـ.

الحكم بغير ما أنزل الله، فيه صور داخلة فيه دخـولا كليـا، وصـور داخلة فيه دخولا جزئيا، فمن الصور التي تدخل فيه دخولا كليا بإجماع الأمة هي:

أ - **التشريع**: قـال الشـاطبي في الاعتصـام (2/ـ 61): كل بدعة - وإن قلت - تشـريع زائد أو ناقص، أو تغيـير للأصل الصـحيح، وكل ذلك يكـون ملحقا بما هو مشروع، فيكون قادحا في المشروع، ولو فعل أحد مثل هـذا في نفيس الشريعة عامدا لكفر، إذ الزيادة والنقصان فيها أو التغيير. قل أو كثر كفر، فلا فرق بين ما قل منه أو كثر. ا.هـ. فالشـاطبي يقـرر أن مطلق التشريع كفر، ولا فرق بين القليل والكثير، لأن معـنى التشـريع هو رد لأمر الله تعالى وحكمه، وهذا كفر بإجماع الملة. قال ابن تيمية: "والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليـه، أو حـرم الحلال المجمع عليـه، أو بـدل الشـرع المجمع عليه كان مرتدا بالاتفاق".[2] ا.هـ. ويقول الشـنقيطي: "وأما النظـام الشرعي المخالف لتشريع خالق السـماوات والأرض، فتحكيمه كفر بخـالق السماوات والأرض"[3]. ا.هـ.

---

[1] - انظرها في "نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر" لابن الجوزي (2/119 - 120).

[2] - مجموع الفتاوى (3/267).

[3] - أضواء البيان (4/84).

ب - رد حكم الله تعالى إباء أو امتناعا من غير جحـود ولا تكـذيب: قـال الجصـاص: "إن من رد شـيئا من أوامر الله تعـالى، أو أوامر رسـول الله صلى الله عليه وسلم فهو خـارج من الإسلام، سـواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة القبول والامتناع عن التسليم".[1] ا.هـ.

ج - من التزم غير حكم الله تعالى: قال ابن تيمية: "ومن لم يلتزم حكم الله ورسـوله فهو كـافر، وقـال: فمن لم يلـتزم تحكيم الله ورسـوله فيما بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يـؤمن".[2] ا.هــ. وقـال محمد بن إبـراهيم آل الشيخ في رسالة تحكيم القوانين في أقسـام الكفر الأكـبر الـداخل في هذه الآيـة: وهو أعظمهـا، أو أشملها، وأظهرهـا: معانـدة الشـرع، ومكـابرة لأحكامـه، ومشاقة لله ورسـوله، ومضـاهاة بالمحـاكم الشـرعية، إعـدادا وإمـدادا، و إرصـادا، وتأصـيلا، وتفريعـا، وتشـكيلا وتنويعـا، وحكما وإلزاما ومراجع ومسـتندات، فكما أن للمحـاكم الشـرعية مراجع مسـتمدات، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلهذه المحـاكم مراجع هي القـانون الملفق من شـرائع شـتى، وقـوانين كثـيرة كالقانون الفرنسي، والقانون الأمـريكي، والقـانون البريطـاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة، وغير ذلـك، فهـذه المحـاكم الآن في كثـير من أمصـار الإسـلام مهيـأة مكملـة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم الكتـاب والسنة، من أحكام ذلك القانون، وتلزم به، وتقـرهم عليـه، وتحتمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة لشـهادة أن محمدا رسـول الله بعد هذه المناقضة. ا.هـ.

أما الحالات التي تدخل في الآية دخولا جزئيا فمنها:

أ - اقـتراف المعاصـي والـذنوب غـير المكفـرة، من غـير رد لحكم الله تعالى، أو استحلال للمعصـية، فهـذا داخل في مسـمى الحكم بغر ما أنـزل الله تعالى، ولكن دخوله في حكمها كدخوله في مسماها، ونعني أن دخوله في الآية من بـاب احتجـاج الأعلى على الأدنى، إذ أن الصـحابة رضـي الله عنهم كانوا يحتجـون بالآيـات النازلة في الكفـار على المسـلمين لا تكفـيرا لهم - والعيـاذ بالله - ولكن من بـاب دخـول هـذا الفعل المحـذور في هـذه الآية دخولا جزئيا، كما قال القرطبي: لا يستبعد أن ينتزع مما أنزل الله في المشـركين أحكـام تليق بالمسـلمين كمل فعل عمر رضـي الله عنه في احتجاجه على كـثرة النعم بين أيـدي الصـحابة في عصـره بآية {**أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا**} فهـذه الآية نص في الكفـار، ومع ذلك فهم عمر الزجر عما يناسب أحـوالهم بعض المناسـبة ولم ينكر عليه أحد من الصـحابة. وكـذلك قـال الشـاطبي في "الموافقـات" فـانظره وكـذا في "الاعتصام" وهذه المعاصي تسمى كفرا أصـغر أو تسـمى بريد الكفر وهي التي إذا كثرت ربما تنتج الغائي عند الموت وهو كفر المآل[3].

2 - جور الحاكم وطغيانه وظلمه، وهو كظلم الحكام المسلمين لرعيتهم بأخذ أمـوالهم المعصـومة على جهة السياسة من غـير حجة شـرعية، أو كظلمهم بجلد ظهـورهم وتحميلهم ما لا يقـدرون عليـه، فـإن هـذا الصـنف

---

[1] - أحكام القرآن (2/214).

[2] - منهاج السنة (5/131).

[3] - انظر الإيمان الأوسط لابن تيمية، فإنه مهم.

كسابقه، هو كفر أصغر، ومعصية من المعاصي، ويجوز الاحتجاج بالآية المتقدمة على هذه الأفعال لا تكفيرا لأصحابها، ولكن من باب دخول أصحابها دخولا جزئيا في مسمى هذه الآية، أي أنه كفر أصغر ومعصية من المعاصي المذمومة.

فهذه الآية كما ترى على ظاهرها، فمن دخل فيها دخولا كليا كان كافرا بالله تعالى، ومن دخل فيها دخولا جزئيا فيصيبه بمقدار ما اقترف.

والناس في هذه الآية طرفان ووسط:

أ - الطرف المغالي: وهم الخوارج. وهم الذين يرون أن المعاصي والذنوب على مرتبة واحدة، فكل من عصى الله تعالى فهو داخل في هذه الآية دخولا كليا فهو كافر ومشرك، وبذلك كفروا أصحاب الجمل وصفين، ومعسكر علي ومعسكر معاوية رضي الله عنهما، فهؤلاء كفروا القسم الثاني (الداخلين فيها دخولا جزئيا لا كليا)،وهذا القسم الثاني هو الذي قال في حقه ابن عباس رضي الله عنهما: كفر دون كفر، وليس من قبيل حمل الآية على معنى واحد وهو الكفر الأصغر إذ أن ظاهر الآية كما تقدم لا يمكن حمله إلا على الكفر الأكبر.

ب - طرف التفريط: وهم المرجئة. وهؤلاء لا يرون الحكم بغير ما أنزل الله على جميع وجوهه وحالاته إلا كفرا أصغرا، ولا يكفرون القسم الأول إلا بشروطهم الباطلة، كشرط الاستحلال والجحود والتكذيب، ويحتجون بجهل فاضح بقول حبر الأمة - ابن عباس رضي الله عنهما -: كفر دون كفر.

وهؤلاء كغيرهم من أصحاب القول الأول أهل بدعة وضلال.

قول وسط: وهو قول أهل السنة والجماعة، وهو أن الآية على ظاهرها، وبمقدار دخول الرجل في مسماها داخل في حكمها.

موجبات وجود حركات الجهاد في العالم (1):

جماعات الجهاد قامت على عمد كل عمود فيها كاف في جعل هذه الحركات واجبة الوجود والحدوث، وليعلم المسلمون أن الانضمام لهذه الجماعات ليس نافلة من القول، وليس هو موسمي الوقوع، بل هو واجب على كل مسلم، أي واجب أن يعمل المسلم في عمل جهادي، إما أن يدعو إلى الجهاد أو يعد له، أو يعمل به، ولا ينفك هذا الوجوب إلا بدليل شرعي خاص، أي كون الرجل من أصحاب الأعذار، الذي عذرهم الشرع الكريم، أي فكرة في الوجود لا يمكن أن تعمل نفسها في الحياة إلا من خلال جماعة، إذ أن الجماعة هي اللبنة الأولى لأي عمل أو مهمة.

فما هي موجبات حركات الجهاد في العالم الإسلامي؟.

نقصد بحركات الجهاد تلك الجماعات المجاهدة داخل دار الإسلام السليبة، وليس خارجها، وهي الجماعات المجاهدة العاملة لإعادة رأس المال، وليس هذا إنكارا لغيرها، ولكن حديثنا عن جهاد الدفع، وهو جهاد واجب على كل مسلم. أما موجبات حركات الجهاد في ديار الردة فهي:

1 - إعادة العقد الجامع لشتات المسلمين، أي دولة الخلافة الضائعة: فلما سقطت الخلافة انفرط عقد الأمة، فلم تعد تستحق اسم الأمة، نعم هناك مسلمون في أرض الشتات، وهناك عباد وقوام، وزوامل علم وحجاج، وذاكرون وذاكرات، ولكن كل هؤلاء لا يدخلون أبدا في مسمى الأمة، فلا يوجد هناك أمة إسلامية، لأن أول مقومات الأمة لا توجد بين هذه

الحبات المتناثرة بلا ضابط، ولا حبل جامع، ونعني بها وجـود الدولـة، فليس للمسلمين دولة ولا شوكة ممكنة، ولا منعة حافظة، وقد بذل الكفر جهـودا متتالية في دفع دولة الخلافة وإسقاطها، كر المرة تلو المرة، حتى كـان له ما أراد، ولكن والحق يقـال: إن العوامل الداخلية في دار الإسـلام، عوامل الهزيمة والانحطاط، هي السبب الرئيسي لإسـقاط هـذه الدولـة، فليس ما عمله الكفار بمعادل ما عملته الأمة بنفسـها، فلو نظرنا نظـرة فاحصة إلى صورة المجتمع الإسلامي في دار الإسلام قبل إزالتها، لوجدنا أن هذه الدار كانت تفيض بعوامل الانحطـاط والتخلـف، ومن أهم هـذه العوامـل: فسـاد التصور العقدي، إذ انتشرت في الأمة جرثومة الصوفية، التي ما دخلت في أمة من الأمم إلا جعلتها أثـرا بعد عين، الصـوفية الـتي شـغلت النـاس في الوصول إلى حالة العرفـان والجذبـة، فـأرهقت المـرء المسـلم في سـعيه لهذه الخيالات الجنونية، وعطلت المسلم عن البحث والنظر، لأن الصـوفي يظن أنه بمجرد وصوله لهذه المرتبة سيدرك حقائق الأشياء، وسر الكـون، فلا ضـرورة إذن للسعي والجد في اكتشـاف سـنن الكـون والحيـاة، لأن الصوفية تؤمن أنه بمجرد كـون الرجل وليا عارفا فإنه سـيملك ناصـية هـذا الكون، فيتحكم في سننه من أمـراض وظـواهر كونية من مـاء ونـار ومطر ورعد، وسيكون مالكا لإكسير الحيـاة وسر الأشـياء، وسيسـيطر على حجر الكيمياء، هذا الحجر الـذي يسـتطيع مالكه أن يغـير الأشـياء وحقائقهـا، فبه ينقلب الحديد ذهبـا، وبه تنقلب الميـاه جـواهر ودررا، فأفسـدت النظر إلى الكون والحياة. انتشرت الصوفية في الأمة وتغلغلت فيها إلى الصـميم، ولا يقولن قائل: إن الصوفية لم تكن شائعة، أو أنها كـانت محصـورة في بعض جوانب الحياة، فهذا خطأ شـنيع، لأن الصـوفية كـانوا قـادة الحيـاة، وسـادة المجتمعـات الإسـلامية، بل إن الصـوفية وإلى الآن هي التي تسـيطر على عقـول قادتنا ومشـايخنا، فهـذا سـعيد حـوى يريد أن يعيد إحيـاء الأمة عن طريق التربية الصــوفية، فيؤلف للنــاس كتابا في هــذه التربية الروحيــة، ويدعو الشباب إلى الدخول في مدارس إحياء الربانية، ويقصد بها السـلوك على يد مشايخ الصوفية، بل إن أكثر القادة تحـررا من القـديم بكل ما فيه من خير وشر، لم نسمع منه كلمة واحدة، ولا رأينا له مشـروعا في تحطيم هـذا المـرض الخـبيث، فهـذا حسن الـترابي يعيش في مجتمع تغلغلت فيه الصوفية إلى الصميم، ومع ذلك لم نسـمع منه كلمة واحـدة نحوهـا، بل ولا اهتم من قريب أو بعيد بجوانب الشرك التي تنتشر في مجتمعه.

إن البعد الداخلي في الإنسان المسـلم، وفي الجماعة المسـلمة، ما لم يتحرر من هذه المخلفات النتنة فلن نخطو الخطوة الصحيحة إلى أهـدافنا، وهـــذا يجعلنا نكـــرر المـــرة تلو المـــرة أن جماعـــات الجهاد ليست تلك الجماعات التي تحمل السلاح فقط، بل هي جماعـات التجديد لمـا انـدرس من معالم هذا الدين، وهي جماعات التجديد أي إعادة صـورة الإسـلام إلى الحالة التي كان عليها وهو جديد في أول أمره.

إن طرح الجهاد كمشروع وحيد لإحياء الأمة هو الـواجب، لأن الجهـاد هو الإطار الذي يحرر المسـلم من أهـواء نفسه ومن مخلفـات مجتمعـه، ومن انحرافات مذاهب البـدع، لأن الجهـاد هو الحامل لـروح التمـرد على كل ما هو فاسد في داخلنا، فالمجاهد اليوم لن يكون كـذلك إلا بعد أن يتحـرر من سـلطة الكهنــوت القابعة على صــدر الأمة باسم العلم والعلمــاء، هــذه

السلطة التي تضرب بسيف الـدين كل من حـاول أن يسـتخدم عقله الـذي طال الزمن عليه بالتغير والإقصاء، هذا الكهنوت الـذي لم يخـرم غـرزا مما عند النصارى برهبانهم واليهود بأحبارهم، إن هذا الصـنف من البشر وأقصد بهم طبقة الكهنـوت هم من أرذل خلق الله، وهو الجـدار الأول الـذي يمنع المسـلم من اسـتعمال حقه في اسـتخدام عقله الـذي كرمه الله بـه، وهو الجـدار الأول الـذي يمنع المسـلم من تحرير إرادته في أن يتقـدم الخطوة الأولى نحو أهداف الإسلام الصحيحة، نعم لو قدر لرجل مسلم يحترم عقله أن يرى شيخ الأزهر وهو يتكلم في إحـدى محطـات التلفزيـون لأيقن أنه لا نهضة لأمتنا، ولا خروج من مأزقها حتى ترفع شعار: اقتلوا آخر حـاكم مرتد بأمعاء آخر قسيس خبيث.

كان دور العالم دوما اكتشاف الخطأ مبكـرا قبل غـيره، لأنـه الأقـدر بما أوتي من موهبة ربانية، وعطاء إلهي في أن يتقدم الصفوف في كل شـيء صـحيح، وكـان دوره دوما الرائد الذي لا يكـذب أهله في تضـحيته بنفسـه، ليكون وقودا لشعلة الصلاح في مجتمعاتنا، أما أن يكون دور العـالم إسـباغ الشـــرعية على الفســـاد، وإطلاق عبـــارات الشـــرع المدحية على الشر والضلال، فهذا تزوير وانحراف، وجريمة لا تعدلها جريمة، وهي أعظم جرما من الاتجـار بالمخـدرات، لأنه يسـوق الرذائل تحت أسماء جميلة حسـنة، وهـذه الجريمة هي أول جريمة بـدأها إبليس في التـاريخ الإنسـاني حين سمى شجرة المعصية شجرة الخلد وملك لا يبلى.

إن أمراض الأمة المشتتة بحاجة إلى جهود مضنية، وإلى قادة مخلصين، ليتم إحياء الأمـة على منهج صـحيح صـائب، لأننا اليـوم نعيش على مـرقب عال، نرقب مستقبلا يتناوشنا فيه العـدو من جـانب، هـذا المسـتقبل الـذي حـاول فيه العـدو أن يرسم معالمه ليكـون حسب سياسـته ومـراده، وهو يملك أدوات التطبيق، فهو الذي يملك المال والقوة، فعنده الآلة العسكرية الرهيبة، وعنده العديد من الاحتمالات التي يمكن أن يسـتعملها مـتى يريـد، وفوق ذلك في أمتنا التربة الصالحة لهـذه الاحتمـالات الكفرية الخبيثـة، أما عـدتنا نحن، فليس هنـاك من شـيء سـوى الحق إن جردنـاه عن شـوائب الأفكـار المنحرفـة، وعلمنـاه على حقيقته كما هو من غـير بـدع الإرجـاء والجبر، ومن غير هوى الآراء والأفكار، وعلينا أن نملك عقيدة الجهاد، وروح الجهاد، ونفس الجهاد، هذه العقيدة الـتي تهـون أمامها الصـعاب، وتتصـاغر في وجهها الجبال، هذه الروح التي تنطـوي على حب المـوت والرغبة فيما عند الله، والترفع عن الـدنايا والصـغائر، والزهد في الـدنيا، هـذا النفس إن ملكناه أو تملكناه كنا أعاصير لا تبقي للكفر أثرا، ولا للظلام وجودا.

الجهاد والدولة الإسلامية المقبلة:

الشوكة والتمكين

الدولة المنشودة التي سـتقوم عن طريق الجهـاد، هي الدولـة الوحيـدة التي تملك الشرعية، وهي الدولة التي ستعبر بحق عن حقيقة هـذا الـدين، وذلك للأسباب التالية:

كثـير من أهل العقل حينما يفكـرون بالدولة الإسـلامية المقبلـة، فـإنهم يصـورونها، أو يتصـورونها على شـكل الدولة المعاصـرة العلمانيـة، بكل ما

فيها من هياكل ومؤسســات، وإنما يجعلونهــا إســلامية ببث بعض الألــوان الباهتة على هـذه الهياكل ليتم صـبغها بصـبغة إسـلامية، وعلى ضـوء هـذا التفكـير فـإنهم يجابهون بمجموعة من الأسـئلة الحرجة عن صـورة الدولة الإسـلامية، هـذه الأسـئلة الـتي تـدفعهم لتقـديم التنـازلات الفقهيـة، وذلك بالبحث عن الآراء الشـاذة للفقهـاء لتلائم صـورة الدولة المعاصـرة، وهـذه المسائل تبدأ من عقيدة الدولة إلى أصغر شيء فيها:

يسـألونهم عن الديمقراطية والتعددية الحزبيـة: ومهما يحـاول مشـايخنا فإنهم ولا شك أمام خيارين: أولاهما: الخـروج من الإسـلام، وذلك بـالفتوى أن الدولة الإسلامية تجيز التعددية الحزبية، لأن التعددية الحزبية تعني جواز الأحزاب الكافرة والمرتـدة، هـذه الأحـزاب الـتي سيسـمح لها أن تمـارس نشاطات الدعوة إلى الكفر والشرك، وهي التي سيسمح لها كذلك بالبلوغ إلى الحكم، وحيث أجاز الشيخ هذا الفعل فإنه جدير بلفظ: كافر ومرتد.

والغـريب من هـؤلاء المشـايخ أنهم بلغـوا إلى حالة من الانهيـار الخلقي والفكري في توهم أدلة التعددية الحزبية إلى درجة لا يمكن أن تخطر على بـال مسـلم: فهـذا شـيخ يسـتدل على وجـود الأحـزاب الكـافرة في الدولة الإسـلامية بوجـود المنـافقين زمن دولة الرسـول صـلى الله عليه وسـلم، فهؤلاء المنافقون (وهم كفـار على الحقيقـة) كـانوا يمثلـون حزبا سياسـيا، ورســول الله صــلى الله عليه وســلم يعرفهم، فلم يمنعهم من ممارسة حقهم الحزبي.

وشـيخ آخر يقـول: بوجـود الخـوارج زمن علي بن أبي طـالب، وأن عليا رضي الله عنه لم يمنعهم من ممارسة حقهم الفكــــري، وإنما قــــاتلهم لحملهم السـلاح ضد المجتمع المسـلم، فـالخوارج بصـورتهم الحقيقية هم كصورة الحزب السياسي المعاصر.

وشيخ آخر يستدل بوجود المعتزلة والـروافض... الخ في داخل المجتمع الإسلامي، وهؤلاء أحزاب معارضة سياسية.

وأنا والله يأخذني العجب من هذه الآراء والدلائل، لا لضـعفها ولكن لقلة حياء أصحابها، ولا أدري عن هؤلاء المشايخ أينظرون إلى المرآة كل يوم أم لا؟ لأني أجـزم أن الـذي فـوق أكتـافهم ليس شـيئا يسمى العقـل، بل هو شيء آخر يوجد عند بعض خلق الله تعالى.

إن من حق الناس أن يسألوا جماعات الإسلام الديمقراطي (وهي ثنائية تعادل الإسلام المسيحي، والإسلام اليهـودي، والإسـلام البـوذي). أقـول إن من حق النـاس أن يسـألوا هـذه الجماعـات عن التعددية السياسـية في دولتهم بعد اسـتلامهم الحكم، ذلك لأنهم وصـلوا الحكم عن هـذا الطريـق، وبعد تـوقيعهم واعـترافهم على هـذا المبـدأ، فهل يجـوز لمن وصل بهـذا الطريق أن يلغيه أو يتجاوزه؟. وأما الخيار الثاني: فهو استخدام المعاريض.

سيسألون عن المـرأة وحريتها الشخصـية، وعن الأقليـات الدينيـة، وعن الموسيقى، وعن علاقة حسن الجوار مع الدول الأخرى، وعن بقـائهم تحت حكم الأمم المتحـدة، وأسـئلة أخـرى لا تنتهي، وهم في الحقيقة على حق في هذه الأسئلة، لأنهم يعرفـون ما معـنى دولة الإسـلام، فهي حاضـرة في أذهانهم كدولة بديلة لكل ما هو موجــود في هــذا العصــر، حاضــرة في أذهانهم أنها دولة القوة، ودولة الفضيلة، ودولة الدعوة والجهاد، ومن حقهم أن يروا هذه الدولة متناقضة مع كل ما يعيشـونه من رذائل ومفاسـد، لكن

مشايخنا لهم رأي آخر، فقد استطاعوا بكل ذكاء أن يلبسـوا الكفر إسـلاما، والرذائل فضائلا.

إذا قامت دولة الإسلام عن طريق الجهاد فهي قد اكتسبت شرعيتها من القوة التي يملكها أهلها، قوة وشوكة ومنعة وصـلت إلى حد التمكين، ومن حق القوي أن يفـرض ما يريـد، فهو الـذي يكتب التـاريخ، وهو الـذي يرسم معالم الحياة.

نعم إن القوة هي التي تكتب التاريخ والحيـاة، وأنا أعلم أن البعض ممن خدعتهم مظاهر الحياة سيقول غير هذا، ولكن هذا التاريخ أمامكم بماضــيه وحاضـره، اقـرؤوه، وعـوه، فهل تجـدون أمة من الأمم، ودولة من الـدول قامت من غير قوة، ثم حافظت على نفسها من غـير قـوة؟ لقد أنـزل الله الحديد فيه بأس شديد، والأفكار لا تحمى إلا بالبـأس والحديـد. فـإذا قـامت دولة الإسلام عن طريق الجهاد، ولن تقوم بالجهاد حتى تحــرق كل الرذائل في طريقهــا، فالجهــاد هو النــار الــتي ستقضي على كل بــذور الشر في مجتمعنــا، فــإذا قــامت الدولة بــالحرب والقتــال، فليس من حق أحد أن يطـالب في رسم معـالم دولتنا ومجتمعنـا، وحينئذ سـيحكم الإسـلام الـذي نعرفه، لا الإسلام الهجين الدخيل.

خلال مرحلة الجهاد: ستطهر الأرض من غربـان الشـر، وأبـوام الرذيلـة، ستلاحق هذه المسوخ التي تسمى كذبا وزورا بالمفكرين، وسيصـفى الرتل تلو الرتل: العلمانيون، والشيوعيون، والبعثيون، والقوميون، وتجـار الأفكـار الوافـدة، نعم نحن نعـرف أننا لن نصل حـتى نعبد الطريق بجمـاجم هـؤلاء النوكى، وليقل العـالم أننا برابـرة، فنحن كـذلك لأن الـبربر في عـرف هـذا العصر هم الــذين يــدافعون عن حقــوقهم، ويطــالبون بحقهم في الحيــاة (وللـذكر فإنه لا يجـوز للمسـلم أن ينـبز أخـاه بـالبربري، لأن الـبربر قبائل مسلمة، وهذا من التنابز بالألقاب، ومن أخلاق الجاهليـة). وسـيقولون عنـا: أنتم أعــداء الحضــارة. نعم نحن أعــداء حضـارة الشـيطان، وقتلة رموزها ورجالها. وسيقولون عنا: إرهابيون، نعم نحن كــذلك، لأن الشر لا يخنس إلا بالسيف والنار. أما هؤلاء المشـايخ الـذين يتحللـون من كل فضـيلة مخافـة الاتهـــام بـــالعنف والإرهـــاب والدكتاتوريـــة، فلن يرضى عنهم اليهـــود ولا النصارى، حتى يخلعوا اسم الإسلام كذلك.

هاهم يتسابقون في اكتشاف الأقـوال الشـاذة الفاسـدة، ليقـدموها إلى العالم أنها تمثل الإسلام الأصيل، فما الذي جنـوه؟ ملئـوا الـدنيا جعجعة إن الإسلام هو الديمقراطيـة، فهل سـمح لهم بتكـوين حـزب سياسـي؟، بكـوا على أعتاب بابه السنين والأيام فما جنوا غير الخزي والعار. إن أشد الدول ديمقراطيـة لن تسـتطيع أن تكـون بـديمقراطيتها كما يريد راشد الغنوشي في دولته الديمقراطيــة، فما الذي جنـاه هو وحركته من طـاغوت تـونس؟ راشد الغنوشي يتحدى أن يوجد في برنامجه السياسي بند تطبيق الشريعة الإسلامية، وليس همه حين يستلم الحكم أن يطبق الشـريعة، بل همه نشر الحرية، وتوفير فرص العمل، فهل بعد ذلك كله رضي له الكفر أن يمـارس حقه في أن يعيش؟!!.

خلال مرحلة الجهاد: ستقطف رؤوس الصحفيين المفسدين في الأرض، فنحن لسنا بحاجة إلى سحرة فرعون، وليسمنا الناس أعداء الفكر والرأي، فنحن رأينا من حرية قوانينهم ما تشيب منه العثانين.

نعم: لن أحــدثكم بهــذه الفضــائل الــتي جنيناها في زمن الديمقراطية والحرية والنظام العـالمي الجديـد، لكن يكفي أن نقنع أنفسـنا أننا في هـذا الـزمن المتقـدم والمتحضـر: قد أكلنا السـمن والعسـل، ونمنا في أوطاننا بــأمن واطمئنــان، وكنا سواســية كأســنان المشــط، فمن قــال لكم أيها المغفلون إن فلسـطين قد ضـاعت، فـاليهود أبنـاء عمومتنـا، ومن حق ابن العم أن يأكل من قصعة ابن عمه!

الطريق إلى الدولة كونا وشرعا:

الديمقراطية والشرعية

إن الدولة الوحيدة التي تملك الشرعية وتمثل صورة الإسـلام الصـحيح، وتنطوي على جوهره هي الدولة التي تقوم عن طريق الجهاد (القتال).

فلو سـأل سـائل: لو أنه قـدر لبعض التجـارب الديمقراطية أن توصل الإسلام إلى سدة الحكم، فهل يعني هذا أن الحكم لا يسمى إسلاميا؟.

وقبل الجـواب على هـذا التسـاؤل فإنه ينبغي أن يعلم أن دولة الإسـلام الضائعة لن تقوم بهذا الطريق الشـركي، وعلى الإسـلاميين الـديمقراطيين أن يكبحوا جماح أحلامهم في تحصـيل الخـير أو بعضه عن طريق البرلمـان والديمقراطية، مع أن أصـحاب هـذا المنهج تختلف تصـوراتهم في توصـيف أسباب دخولهم البرلمان: فلو أخذنا الديمقراطيين الإسلاميين من الإخــوان المسـلمين في الأردن وسـألناهم عن سـبب ولـوجهم هـذا الطريق لرأينا العجب العجـاب: فهـذا الـدكتور همام سـعيد يعلن: أننا لن نسـعى إلى أن نكــون الأغلبية في البرلمــان الأردني. ا.هــ. وهــذا شــيء يضــحك منه الديمقراطيون في العـالم أجمـع، لأن كل كتلة برلمانية في العـالم تسـعى إلى تكـوين الأغلبية للوصـول إلى الحكم، أما تعليل الـدكتور همام سـعيد - وهو من "الإخــوان المســلمين" - لعــدم السعي لتحصــيل الأغلبيــة في البرلمان فيقول: حتى لا نصبح مشـرعين، إذ أن التشـريع كفـر، وإنما نحن معارضة، نوصل كلمة الإسلام للبرلمان ولأصحاب الشـأن. ا.هــ. والصـحيح أن السبب الحقيقي هو: أن الأغلبية في البرلمان الأردني (مجلس النواب) لا قيمة لها، ولا أهمية لها في الثقل السياسي الأردني، لأن القانون الأردني لا يوجب على الدولة أن تقبل بالتنازل عن السلطة لشيء يسـمى الأغلبيـة البرلمانية، فلو فرضنا أن عدد الإخوان المسلمين بلغ في البرلمان الأردني 80/80 أي أنه يسيطر على جميع مقاعده، فلا يلزم أن للإخوان المسلمين الحق في تشكيل الحكومة الوزارية، بل هم سيبقون في عـداد المعارضـة، وتصــور الـدكتور همام ليس هو تصـور جميع الـديمقراطيين هنـاك، فـإن مراتب النظر إلى البرلمـان ودور حركة الإخـوان المسـلمين في البرلمـان تتفـاوت إلى درجة رهيبة تصل إلى أن بعضـهم ينظر إليه من حيث أنـه من خلال البرلمان يسـتطيع أن يقضي حـوائج عشـيرته لما يمثله البرلمـان من ثقل وجاهي عشائري.

وفي لقاء بين إخواني أردني وإخواني يمني رأى النـاس فارقا عجيبا بين نظرة كل واحد إلى البرلمــان ودور الحركة الإســلامية فيــه، فالبرلمــاني الأردني يرى كفر النظـام، وأن البرلمـان هو طريق للتغـير الشـمولي، وأنه سيسـاعد أو سـيقوم بذاته في عملية التغيـير الانقلابي للدولـة. الإخــواني

البرلمــاني اليمني انتفض لهــذه النظــرة، فهو يــرى أن أعضــاء الإخــوان المسلمين في البرلمان اليمني هم جـزء من تشـكيلة الدولة الشـرعية في اليمن، فكيف سينقلب الرجل على نفسه، فالإخوان جزء من الدولة فكيف سـيغيرون أنفسـهم، إذا فالبرلمـان جـزء من الدولة لترشـيدها ولأداء دور داخل الكيان لا خارجه ولا لقلبه.

جبهة الإنقـاذ الجزائرية كـان لها رؤية أخـرى للـدخول في المســار الديمقراطي الشركي (ونحن نصر ونؤكد أن هذا المسار شركي كفري لأن البرلمـان هو مالك السـيادة التشـريعية في النظم العلمانية وهو عنـدنا في دين الله تعــالى لله رب العــالمين، ومن لم يفقه هــذا لم يفقه شــيئا من الواقع أو الـــوحي)، وهي رؤية كــــانت بمجملها في لفظين "المطالبة وإلا المغالبة" أو حسب قول مسئول فيهم بقولـه: إذا قـالوا انتخـاب انتخبنا وإلا قاتلنا.

ومجمل قـــــولهم أنهم ســــيدخلون في اللعبة الديمقراطية لثقتهم أن الشعب سينتخبهم فيبلغوا إلى درجة تخـولهم أن يغـيروا الدسـتور، ومع أن الجبهة هي كاسمها: خليط غير متجانس، كل حسب رؤيته ومفهومـه، وفيها من عوامل الانهيــار الــذاتي مما يجعلها غــير قــادرة على الخــروج برؤية واضحة للأحداث والعقبات، ويـدل على ذلك أمـران: أولاهمـا: أزمة الخليج، وثانيهمـا: ضـرب الدولة وتشـتت الجبهة إلى ما هي عليه الآن، ولا أدري لم يجعل بعض الناس ممن يكفر بالديمقراطية جبهة الإنقاذ حالة خاصة تخـرج عن زمـــرة الـــديمقراطيين الإســـلاميين، فهم يتكلمـــون عن الإخـــوان وديمقـراطيتهم بكثـير من الحمـاس الناقـد، فـإذا اقـتربوا من جبهة الإنقـاذ كاعوا ورجفــــوا، وكأنها ليست على النسق والتســـاوي مع الآخـــرين من الديمقراطيين، ولعل الخطـاب الثـوري الـذي كـان يـردده علي بن حاج هو الذي جعل هؤلاء يخرجـون الجبهة عن هـذه الزمـرة، وهـذا خطـأ كبـير لأن العلة التي تلحق الجماعة بهذه الزمـرة متحققة في الجبهة كما هي متعلقة بغيرها من النهضة والإخـوان والجماعة الإسـلامية الباكسـتانية وغيرها من الجماعات السالكة طريق الديمقراطية.

هذا التغاير في الهدف، والتغاير في التوصيف للعمل الديمقراطي يجعل هؤلاء القوم من أبعد الناس عن تحصيل الهدف، وذلك لعدم تصورهم له أو معرفتهم بحقيقة الأسلوب لا من الوجهة الشرعية ولا من الوجهة الواقعية.

لكن لو افترضنا جدلا أن فرقة من الفـرق وصـلت إلى سـدة الحكم عن طريق الديمقراطية وحكمت الشــريعة فهل يكــون الحكم إســلاميا بهــذه الطريقة؟ الجواب بكل وضوح: لا، فكل قانون وإن كان يلتقي مع الشـريعة الإسلامية في حده ووصفه وفرض عن طريق البرلمـان وخيـار الشـعب لن يكون إسلاميا، بل هو قانون طاغوتي كفري.

لماذا هذا؟.

أي حكم حـتى يكــون شــرعيا إســلاميا لا بد من النظر إلى أركانه وأهم أركانه هو النظر إلى الحاكم ومن هو؟ فإن كان الحاكم (المشــرع) هو الله كـان الحكم إسـلاميا، وإن كـان الحـاكم (المشــرع) غـير الله كـان الحكم طاغوتيا كـافرا. ومن هنا فـإن الأخلاق الصـحيحة الـتي يـدعو إليها الــدين النصــراني لا تعتــبر إسـلامية، لأن الجهة الحاكمة (المشـرعة) لهـذا الحكم ليست الجهة الحاكمة للحكم الشرعي. فالحكم الشرعي يكتسب قوته لأنه

صادر ممن له الحق في إصدار هذا الأمر وهو رب العـالمين، وحـتى يكـون شرعيا لا بد أن يكون تكييفه شرعيا وإلا فلا. والحكم الصـادر عن البرلمـان يكتسب قوته من مالك السـيادة في النظـام الـديمقراطي، فقد يكـون الشـعب فقط وقد يكـون الشـعب والملك معه أو الأمـير وهكـذا، فلو صدر قانون منع الخمر من البرلمان فهو قـانون تكييفه الشـرعي قـانون كفـري طـاغوتي، وإذا قـال الحـاكم نحن حرمنا الخمر لأن الله أمرنا بهـذا لكـان قانونا مسـلما. وللتمثيل نقـول: ما الفـرق بين النكـاح والسـفاح من وجهة شرعية مع أنهما يعبران عن حقيقة واحدة؟ النكـاح جـائز لأنه بكلمة اللـه - كما قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: ((واسـتحللتم فـروجهن بكلمة الله)) وكلمة الله هنا معناها حكمه وليس العقد كما يقـــــــول البعض -، والسفاح تم بكلمة أخرى غير كلمة الله تعالى، فكان حراما وإثما.

فالقـانون الصـادر عن البرلمـان مصـدر بكلمـة: باسم الشـعب، أو قـرر مندوبو البرلمان، فهو قانون طاغوتي اكتسب قوته من إله باطل.

أما القانون الإسلامي فهو المصدر بكلمة باسم الله. فالذين يبحثون عن تحكيم الشـريعة الإسـلامية عن طريق البرلمـان عليهم أن يراجعـوا أركـان الحكم الشرعي، وكيف يكون إسلاميا، وكيف يكون الحكم طاغوتيا كافرا؟.

قلنا إن الحكم الصادر عن مجلس الشعب أو البرلمان لا يسمى إسلاميا وإن كان يلتقي مع الحكم الشرعي في صورته وظاهره، وعلى هذا فلو أن مجلس الشـعب قـرر تحـريم الخمر على الشـعب فـإن هـذا القـرار لا يعد إسلاميا وإن التقى مع الشريعة الإسلامية في صورة النهي وتحريم الخمـر، وسبب ذلك أن الحكم الشرعي لا يكون شرعيا إسـلاميا إلا إذا كـان تكييفه شرعيا إسلاميا.

حقيقة الحكم الشرعي:

إن أركـــان الحكم الشـــرعي داخلة في تعريفه حيث قـــال الفقهـــاء الأصوليون: إن الحكم الشرعي هو: خطاب الله تعالى للمكلفين بالوضع أو الاختيار أو الطلب، فأركانه أربعة وهي: الحاكم والمحكـوم عليه والمحكـوم فيه ونفس الحكم[1].ا.هـ. فإذا اختل ركن من هذه الأركان لا يسمى شـرعيا، والحاكم هنا هو الله تعالى، قال الغزالي: أما اسـتحقاق نفـوذ الحكم فليس إلا لمن له الخلق والأمـر، فإنما النافذ حكم المالك على مملوكـه، ولا مالك إلا الخالق[2].ا.هـ. قال الآمدي شـارحا هـذا الأمـر: الحكم الشـرعي ليس هو نفس الوصف المحكـوم عليه بالسـببية، بل حكم الشـرع عليه بالسـببية[3]. ا.هـ. وقال الغزالي: فالحكم الشرعي خطـاب الشـرع وليس وصـفا للحكم ولا حسن ولا قـبيح ولا مـدخل للعقل فيه ولا حكم قبل ورود الشـرع[4].ا.هـ. وقـول الغـزالي خطـأ من وجه وهو كـون الحكم الشـرعي لا يـدرك حسـنه وقبحه إلا بالشرع، بل الصحيح يدرك حسنه وقبحه بالعقل. وأما قولـه: "ولا حكم قبل ورود الشرع" فهو صواب خلافا للمعتزلة .

---

[1] - المستصفى (1/83).
[2] - (نفس المرجع السابق).
[3] - الإحكام (1/182).
[4] - المستصفى (1/8).

إذا الحكم الشـــرعي ليس فقط نفس الحكم أي صـــورة الحكم، بل هو خطـاب الشـارع بهـذا الحكم، فمن فعل فعلا لوجه من الوجـوه. غـير وجه امتثال الشريعة الإسلامية، فإن فعله لا يدخل في مسمى الحكم الشرعي، فبـــاذل المـــال للفقـــراء والمســـاكين لا يمكن إدخاله في قوله تعـــالى: {**ويطعمـون الطعـام على حبه مسكينا ويتيما وأسـيرا**}. لأن الله سبحانه وتعالى عقب بعدها قـائلا: {**إنما نطعمكم لوجه اللـه**} أي أنهم امتثلـوا هـذا الأمر لأنـه صـادر من الله تعـالى، وهم يفعلونه امتثـالا لأمـره، ورغبة فيما عنده، فهؤلاء هم منفذون للحكم الشـرعي، فـالحكم الشـرعي هو خطـاب الله تعـالى، وما لم يكن المحكوم منفـذا الحكم لأنـه أمر الله تعالى فليس من الناجين من عقوبة ترك الأمر أو اقتراف النهي. والشـــارع في دين الله هو السيد الحقيقي، أي من له حق السـيادة على البشـر، فهو الخالق لهم وهو الحاكم عليهم، ولذلك من أسـماء الله تعـالى السـيد - كما جاء في الحديث الصحيح - وهو يسمى كذلك حق التأليه، فالإله هو السـيد، ولا يكون السيد مطلقا حتى يكون إلها حقيقيا، ولذلك من مـبررات اعتقادنا أن سيدنا وإلهنا هو الله، اعتقادنا أننا ملك له، ولولا هــذا الملك الحقيقي ما قبلنا سـيادته، ومن مقتضـيات هـذه الملكية التي بـررت السـيادة إصـدار الأوامر التكليفية التي ترتب عليها إثابة الطائع ومعاقبة المخالف.

حقيقة البرلمان:

المنظومة الديمقراطية على اختلاف صـــورها تقـــوم على إســـناد حق السيادة لغير الله، وهذه المنظومة منبعثة من العقيدة العلمانية الـتي تـرى أن النـــاس أحـــرار في إصـــدار التشـــريعات التي يرونها تناسب عقـــولهم ومعطيات حياتهم، وقد أفرزت العلمانية في الدول المرتدة في بلادنا قانونا أوجب سلوك هذا الطريق، فالشق السياسي من العقيدة العلمانية يفـرض اعتقاد وسلوك المنهج الديمقراطي الذي يرى إسناد حق السيادة للشـعب، ومعـنى السـيادة في المفهـوم الـديمقراطي هو نفس معـنى السـيادة في الدين الإسلامي، حيث يقول دهاقنة القـانون الوضعي إن السـيادة: سـلطة عليا مطلقة (لا سلطة فوقها) لها الحق في تقييم الأشياء والأفعال، وتقـييم الأشياء بتحسينها وتقبيحها وتقييم الأفعال بتحليلها وتحريمها.

والمنظومة العلمانية هي التي أعطت البرلمان حق إصدار التشـريعات، فأركان الحكم الـديمقراطي هي نفس أركـان الحكم الشـرعي أي الحـاكم والمحكوم عليه والمحكـوم فيه ونفس الحكم. والحـاكم هو السـلطة الـتي فوضها الشعب (كونه الحـاكم الأصـلي) في إصـدار القـوانين، فحين يصـدر قانون من البرلمان أو مجلس النواب أو مجلس الشـعب فإنه يكسب قوته بكونه صـادرا من السـيد الحـاكم، فهو حـاكم شعبي برلماني ديمقـراطي علماني، أي هو في دين الله تعالى حكم شركي طاغوتي.

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا هو أن الأحكـام الصـادرة من البرلمـان قد اكتسـبت قوتهـا من طرفين في البرلمـان وليس من طـرف واحـد، هـذان الطرفـان هما الأغلبية والمعارضـة، فالمعارضة وإن عارضت القـانون قبل صـدوره إلا أنها ملزمة به بعد إقـراره بالأغلبيـة، وهي قد أكسـبت القـانون قـوة بكونهـا جـزء في البرلمـان المشـرع، فعلاقة الأعضـاء في البرلمـان (أغلبية ومعارضــة) علاقــة تضــامنية، فلــولا وجــود المعارضة لما اكتسب

القـــانون قوته في المفهـــوم الـــديمقراطي، فالإســـلاميون وإن زعمـــوا المعارضة في البرلمان فهم جـزء من المشـرع، والقـانون يصـدر باسـمهم كما يصدر باسم الأغلبية المؤيدة، وهم شركاء في إصـدار القـرار وإكسـابه القوة الدستورية ليكون شرعيا دستوريا قانونيا، صادرا من الشعب صـاحب السيادة، فلو صـدر قـانون إباحة الخمر للنـاس فالإسـلاميون - المعارضة - وغيرهم هم أصـدروا هـذا القـانون كما أصـدره الأغلبية الموافقة لأن علاقة القانون بهم واحـدة بعد صـدور القـانون وإن اختلفت مواقفهما قبل إقـرار القانون.

ولو صدر قانون حرمة الخمر للنـاس فلا يجـوز أن يقـال إن الحكومة قد قررت تطبيق الحكم الشرعي، لفقده التكييف الشرعي كما قدمنا.

العلمـــانيون يفهمـــون هـــذه المعادلـــة، فهل حقا يجهلها المســـلمون الديمقراطيون؟.

إبعـاد الحكم الشـرعي في الحكم والقضـاء مر في مراحل متعـددة، ولا نســتطيع هنا أن نحيــط بهــا إحاطة تامة ولكن الملاحظ بوضــوح القضــية التالية:

كـــان الأوائل من دعـــاة العلمانية - فصل الـــدين الإســـلامي عن الحكم والقضــاء - يــؤطرون لنظــريتهم من خلال المصــادر الشــرعية، فعلي عبد الــرازق في كتابه "الإســلام وأصــول الحكم" اعتمد في رؤيته هــذا الفصل على مجموعة رؤى ذاتية أســقطها على الكتـــاب والســـنة والحقبة النبوية والفترة الراشـدة، فقد ادعى أن الإسـلام لا يوجد فيه سـلطة زمانية تتمثل بالخلافة والملك والسـلطان، واسـتدل على هـذا بالكتـاب والسـنة نفسـها، فعلى عبد الرازق ومجموعة أخرى تلته في هذا المضمار كـانت تقنن لهـذه الرؤية الكفرية من النصــوص الشــرعية، وفعلوا ذلك لعلمهم أن أي إحلال لغير حكم الله تعـالى في هـذه المسـألة في ذلك الـوقت لن يكون مقبـولا بحـال من الأحـوال، وعلى جميع المسـتويات، ولما صـار أمر هـذا الفصل حقيقة واقعة، وأينعت ثماره في المجتمعات المتحولة بدأ العلمانيون طـرح قضيتهم على صـيغتها الصـحيحة، هـذه الصـورة لا تبحث في إشـكالية فهم الإسلام بنصوصه لهذه القضية (علاقة الـدين بالدولة) ولكن صـار الإشـكال الآن مطروحا على صورة واضـحة وهي: لمن الحكم؟. أي من له الحق في إصـدار التشـريعات والقـوانين، الله أم الإنسـان؟ وفي آخر إصـدار لكبـار العلمانيين في المجتمعات المتحولة تم طرح هذه القضـية كمحـور مفصلي بين الإسلام والعلمانية. الإسلام مصدره الوضع الالهي، والعلمانية مصـدرها الوضع البشري. هذان الكتابان هما "العلمانية من مفهوم مختلف" للـدكتور عزيز العظمــة، والكتـاب من إصـدارات مركز دراسـات الوحـدة العربيـة. والكتاب الثاني هو "الأسس الفلسفية للعلمانية" للدكتور عـادل ضـاهر من إصــدارات دار الســاقي. لنــدن.. والكتابــان يمثلان عمــدة الفكر العلماني وفلسفته، وبنيا أركان المفارقة بين الإسلام والعلمانية على هذه القضية:

يقـول **عـادل ضـاهر**: فـإذا تـبين مثلا، أن المعـارف المطلوبة لتنظيم المجتمع لا يمكن حتى من حيث المبدأ اشـتقاقها من المعرفة الدينيـة، إذن على افـتراض أن هنـاك نصوصا قرآنية تؤيد هـذا القـول بوجـود علاقة بين الــدين والدولة في الإســلام فإنه ســيكون لزاما علينا في هــذه الحالة أن

نؤول هذه النصـوص على نحو يجعل هـذه العلاقـة، في أفضل حـال، علاقة تاريخية لا أكثر وإلا نقع في التناقض.[1] ا.هـ.

ويقول **عزيز العظمة**: ليس هنـاك مجـال وسط بين العلمانية والعـداء للعلمانية تقطن فيه الديمقراطية أو العقلانيـة، فهما لا ينفصـلان عن أسس العلمانية التي أكدها في معرض ذم أمر نقاد العلمانية: الدعوة إلى التحــرر من القيود الدينية على المعرفة، وافتراض الكـون مسـتقلا تفسـيره، قـواه وأنماط انتظامه الخاصة والحركة غير المنقطعة للطبيعة والمجتمع، ومقالة التطور المستمر الذي ينتفي معه ثبات القيم الأخلاقية والروحية[2].ا.هـ.

المجالس الشعبية والانتخابات:

الحكم الشــرعي على الــرغم من تفــاوت نيــات الــوالجين في العملية الانتخابية التشريعية، وعـدم وضـوح تصـوراتهم لهـا، واختلافاتهم في تحديد المراد منها، فإن هذه النيــات لا قيمة لها في تحديد الحكم الشــرعي لهـذه العملية الشركية.

إذا توضح التوصــيف الشــرعي لواقــع مجلس الشــعب (البرلمــان)، والتوصيف الشـرعي مبـني على أصـلين همـا: معرفة حقيقة البرلمـان كما يريــده أهلــه، وثانيهمــا: معرفة حكم الله تعــالى في أمثالــه، ثم عرفنــا أن البرلمــان مجلس شــركي طــاغوتي، لأن فيه إســناد حق التأليه لغــير الله تعالى، فهو المشرع في الديانة العلمانية، فهل يجوز للمسلم أن يدخله بنية أخـرى تخـالف حقيقتـه؟ وبمعـنى أوضـح: لو قـال رجل مسـلم: أنا أعـرف حقيقة البرلمــان والديمقراطيــة، وأنهما كفر وشــرك، ولكن لا أتعامل مع البرلمــان من وجهة نظر أهله له ولكن أتعامل معه من وجهة نظــري أنــا، فأنا لا أوافق على العلاقة التضـــامنية فيـــه؟ وأنا فقط أريد أن أبلغ كلمة الحق فيه وعلى منبره، وأريد أن أقلل الشر في التشريع الوضعي، وأريـد.. وأريد..؟ فهل لهذه الأقوال اعتبار؟ وبمعنى أكثر وضوحا: هل فتـوى بن بـاز في جـواز الـدخول في البرلمـان إذا كـانت نية الـداخل في الإصـلاح وتبليغ الشريعة صحيحة أم باطلة؟.

نقــول: إن هــذه النيــات لا قيمة لهــا، ولا أهمية لها في تغيــير التوصـيف الشرعي لهذه العملية ولا للقائم بها وعليها.

وللتفصيل نقول:

1 - متى تعتبر المقاصد في الأفعال المكفرة؟. الأفعال المكفرة تنقسم إلى قسمين من جهة دلالتها على التكفير:

القسم الأول: صريح في دلالته.

القسم الثاني: احتمالي في دلالته.

أما القسم الأول فلا ينظر فيه إلى المقاصد والنيـــات، ومثاله من سب الله تعـالى أو رسـوله صـلى الله عليه وسـلم فهـذا فعل كفر وردة، بغض النظر عن قصده، لأن هذا الفعل لا يحتمل إلا معنى واحدا وهو الخروج من الإســـلام، فلو قـــال رجل أنا أسب الله ومع ذلك فأنا أعـــترف بألوهيته وربوبيته، فلا قيمة لقوله هـذا، لأن ذات السب نـاقض للتأليه في كل وجـه، ومما ذكره أهل العلم كـذلك للتفريق بين تبـيين القصد أو عـدم تبيينه سب

---

[1] - (ص 12).
[2] - (ص 310).

الصحابة رضي الله عنهم، فإن من سب أحدا من الصحابة فإنه لا يكفر (إلا من اتهم عائشة رضي الله عنها بالفاحشة فإنه يكفر لتكذيبه القـرآن)، لأن من سب أحـــدا من الصــحابة له وجه وهو عـــدم التكفــير، كما كــان بعض الصــحابة يســب بعضــهم بعضا لأمر اجتهــادي أو لأمر دنيوي، أما من سب جميع الصــحابة فإنه لا وجه لســبه إلا أنه مبغض للإســلام وأهله ولا وجه له آخر يحتمله، وكذا قاتل النبي فلا يقال له: هل قتلته وأنت مكــذب بنبوته أم مصـــدق لها ولكنك لا تريد متابعتـــه؟. أم هل قتلته نفيا لنبوته أم لقضـــايا شخصية بينك وبينه؟ وسبب عدم النظر إلى المقصد أن الفعل لا يحتمل إلا معـــنى واحـــدا وهو الكفر والدلالة على الكفر (ولا نقصد هنا بقولنا الدلالة على الكفر أي على الكفر القلـــبي بمعـــنى نفي التصـــديق كما تقـــول المرجئة). فإذا كان الفعل لا يشـير إلا إلى اتجـاه واحد فلا قيمة للمقاصـد، أما إذا كان الفعل محتملا فلا بد من سـؤال الفاعل عن قصـده، ومثالـه: لو أن رجلا سب دين رجل مسلم فهل نكفره بمجرد سب الـدين؟ أم إننا لا بد أن نسأله عن مراده في كلمته هنا؟ فإن قصد دين الإسلام فهو كـافر، وإن قصد دينه (أي سـلوكه والعمل الـذي ينتهجـه) فلا يكفر لهـذا المعـنى، ومن الأمثلة القوية على هــذا الأمر حكم الجاســوس؟ فقد اختلف العلمــاء في حكم الجاســـوس المســـلم فبعض أهل العلم يرى أن هـــذا الفعل مكفر وفاعله مرتد، وحكمه حكم المرتد، وبعضـهم يـرى أن هـذا الفعل ليس من أفعال الـردة المكفـرة، فحكمه دائر بين قتله حـدا وبين تعزيـره، والأقـوال الثلاثة في مذهب أحمـد؟ والصـحيح أن الجاسـوس المسـلم دائر بين هـذه الأحكام، فقد يكون فعله دالا على الردة وقد يكون معصية من المعاصي لا تخــرج صــاحبها من الإســلام، وهنا للتميــيز بين الجاسوســين لابد من تــبين القصد، والقصد وإن كــان أمـرا قلبيا إلا أنه يمكن معرفته بـالقرائن، كقـول الفقهـاء في التميـيز بين القتل العمد وشـبه العمـد، إن الفـارق بينهما هو القصـد، فـإذا قصد الرجل القتل فهو عمـد، وإن لم يقصد فهو شـبه العمـد: وطريقة معرفة القصد هي الآلة المسـتخدمة في القتـل، فـإن كـانت الآلة مما يقتل بها عادة فهو قاصد، وإن كـانت الآلة لا يقتل بهـا عـادة، فهو غـير قاصد، فقد عرف القصد بالآلة أي بالقرينة، وكذلك الجاسوسـية فلا بـد من القرينة لنعـــرف فاعلها هل هو مرتد أم لا، إن فهمت هـــذه حل إشـــكال مسألة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ورسـالته إلى قـريش، فقـرائن الحال من سابقته في الإسلام وكونه من أهل بدر ثم صيغة الرسالة تــدلان على أن الفعل بقرائنه لا يفيد حكم الردة.

2 - هل لا بد من شرط نية الكفر ليكفر الرجل؟.

من المعلوم شرعا أن عدم القصد هو مانع من موانع التكفير بعد ثبــوت تهمة الفعل على الفاعــل، فما المقصــود بقــولهم: عــدم القصد مــانع من موانع التكفير؟.

إن المقصود من قولهم هذا: عدم قصد الفعل، وليس قصد الكفر، فمن فعل فعلا مكفــرا وهو قاصد له فهو كـافر سـواء قصد الكفر أو لم يقصـد، وأدلة اعتبار عدم القصد مانع من موانع التكفـير كثـيرة منهـا: حـديث فـرح الله تعالى بتوبة العبد، وقول الرجل: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، قال صــلى الله عليه وسلم: ((أخطأ من شدة الفرح)). فهذا الرجل قال قولا لم يرده، وأخطأ فيه، ومع أن قوله كفر إلا أنه لا يعود على قائله حكم القول لأنــه لم

يقصد هذا القـول وإنما أراد غـيره، فـذهل ذهنه عنه فـأتي بضـده وللتفريق بين قصد الفعل وقصد الكفر نضـرب هـذا المثـال: لو أن رجلا داس على المصحف وهو لا يدري؟ لكونه لا يراه كأن يكون في الظلمة، فهذا رجل لم يقصد الفعل فلا يقـال له كـافر لدوسه على المصـحف، لكن لو أن رجلا داس المصحف عالما بفعلـه، وأنـه يـدوس على المصـحف (كلام الله) فإنه يكفر سـواء أراد بفعله هـذا أن يعـبر عن خروجه عن الإسـلام أم لا، فربما يدوسه غضـبا من أحد لقراءته لـه، وربما يدوسه ذهـولا عن اعتقـاده فيـه، وربما يدوسه مع تصـديقه أنه كلام اللـه، تلهيا وتلعبـا، فهـذا الرجل وإن لم يقصد الكفـر، فإنه يكفر ولا شـك. ومما قـرره شـيخ الإسـلام ابن تيمية - رحمه الله - في "الصـارم المسـلول" أن القليل من البشر ممن ينـوي الكفر، بل أغلبهم حين كفره لا ينوي الخروج من الإسلام، ولكن هذا القصد لا يمنع خروجهم من الإسلام.

وعلى هذا فالنيات لا تنفع في رفع الحكم الشرعي وتغيير وصفه.

حكم المشاركة في الانتخابات التشريعية:

لكن هاهنا مسألة وهي: هل يعني الكلام المتقدم أن كل من شـارك في العملية الانتخابية التشريعية كافر ولا عذر له؟.

الذي أعتقده أن الجواب يأتي بالنفي، وسبب ذلك:

1 - أن واقع العملية الانتخابية التشـريعية كما هي في دسـتور أصـحابها لم تتضح لكثير من علية القوم من علماء ومشايخ وقادة، فهي لا زالت في عالم المجهول، فعذر الجهل واقـع لا شـك، وعلى الإخـوة الـذين تـبين لهم حقيقتها تمـام التـبين أن لا يعـاملوا النـاس على هـذا الأسـاس، فما "يزال الأمر يحتاج عند الآخـرين لكشف وتبـيين، وخاصة أن أمرها هو من الحداثة الجديدة الـتي لم يتكلم عليها السـلف حـتى تكـون واضـحة للأمـة، والجهل بالواقع مـانع من موانع لحـوق الحكم، فلو أن رجلا قـال كلمة يظنها مـدحا وهي في حقيقتها قدحا، فإنه لا يؤاخذ بها لجهله بحقيقتها كالعجمي في لغة العرب، والعربي في لغة العجم.

2 - إن الفتاوى الكثـيرة لمشـايخ ينظر إليهم النـاس كأمنـاء على منهج السـلف بجـواز الـدخول في العملية البرلمانية تجعل هـذه المسـألة من المشتبهات على الناس، فقد قامت جريـدة خاصة بحـزب الإصـلاح اليمـني بتجميع أقـوال المشـايخ الـذين أجـازوا هـذا الطريق الشـركي خلال حمى الانتخابات البرلمانية اليمنية مما أوحى للقارئ أن المسألة لا خلاف حولهـا، فهذا ناصر الدين الألباني (وقد قيل إنه غير رأيه) وهذا ابن باز وابن عثيمين وعبد الرحمن عبد الخالق، ويوسف القرضـاوي ومحمد الغـزالي.. وغـيرهم ممن لا تحصـيهم هـذه الورقـات كلهم أجـازوا لمن أراد الإصـلاح أن يرشح نفسه للبرلمان، وأوجبوا على الناس (وجوبا) أن ينتخبوا الأصلح، مما يجعل هذه المسألة من المشتبهات، وقد تـبين من كلام السـلف وخاصة من كلام ابن تيمية أن مثل هذه المسائل التي تدق أو تخفى يعذر بها المرء.

ولكن لا تمنع هذه الأعـذار لحـوق حكم الكفر بـالبعض لإبائه واسـتكباره بعد علم الأمر ووضوحه.

ثم هناك مسألة وهي: هل الحكم القضائي يعامل الناس باعتقـاداتهم أم باعتقاد القاضي والحاكم؟.

أهل السنة والجماعة لا يعاملون المخالفين بعقائدهم الباطلة، ولا بالتزاماتهم البدعية، فالخارجي وإن كان يكفر مخالفيه بالذنوب غير المكفرة، فإنه لا يجوز للسني أن يحكم على الخارجي بالكفر إذا اقترف كبيرة من الكبائر، بحجة أن هذا الرجل قد كفر حسب مقتضى عقيدته، فهذا خطأ، فإن السني يعامل الناس باعتقاده هو لا باعتقادات الناس الباطلة البدعية.

والقاضي يحكم على المذنب باعتقاده هو لا باعتقاد المذنب: فلو أن رجلا ترك الصلاة بحجة أن تارك الصلاة في بعض مذاهب العلماء لا يكفر، ثم رفع هذا الرجل إلى القاضي وكان القاضي يرى كفر تارك الصلاة، فإن القاضي يحكم بكفره، ولا ينظر إلى اعتقاد المرء في ترك الصلاة، ثم لو كان هذا الرجل حنفيا مثلا وهو لا يعتقد أن تارك الصلاة حكمه القتل، فإن القاضي يحكم بقتله ردة، ولا عبرة باعتقاد المذنب، فنحن لا نعامل الناس بمذاهبهم الباطلة، ولا بموازينهم الردية، بل عند أهل السنة من الحق ما يكفيهم ويغنيهم عن أخذ باطل الآخرين وأقوالهم الضعيفة.

الدولة الإسلامية بين الحلم والحقيقة:

يتهمنا خصومنا أننا أصحاب أوهام وأحلام، وأننا حين نتحدث عن دولة الإسلام القادمة، وأنها دولة هجرة وعزة أننا نتحدث عن أضغاث أحلام، لكننا بفضل الله تعالى الأقدر على فهم سنة الله تعالى في الحياة، والذين أتعبتهم رقابهم وهي تنظر إلى حضارة الكفر بانبهار وانهزام هم الذين لا يفهمون سنة الله تعالى في الحضارات وسقوطها، وإذا أردنا أن نستشرف المستقبل الذي نرتقبه لهذه التركيبة لحضارة الشيطان، ومن خلال معطيات أولية، وحتى نحضر أنفسنا لهذا المستقبل، فإن هذه المعطيات الحقيقية تقول لنا التالي:

1 - قوة أي دولة تكمن في مركزيتها، والعالم بلا شك الآن يمثل قرية صغيرة، عاصمتها حضارة الشيطان في الغرب، وعلى الخصوص في هذا الوقت أمريكا، واستناد كافة الولايات في العالم قائم على المركز، منه يستمد قوته، ومنه يكتسب هيبته، مع التنبيه على أن بعض أطراف هذه الدولة العالمية ضعيفة الصلة بهذا المركز، ومن خلال هذا الضعف تكتسب حركات الجهاد مواقعها وتحافظ على نفسها من الانتهاء والتلاشي، وهذه البور الضعيفة تمد هذه الولايات المهمة عصارة الحق ببقاء صوت الإسلام والتوحيد والجهاد مدويا وحاضرا في نفوس مادة الجهاد وهم الشعوب، هذا المركز العالمي عوامل الفناء الحضاري قائمة فيه وبقوة، وحديث القرآن عن سبب الفناء الحضاري هو بسبب ما بالأنفس من فساد عقدي، وانهيار خلقي، ومظالم اجتماعية، وهي نفس صرخات العقلاء في هذه الحضارة ك"توينبي" حين يصرخ في بني قومه أن مجتمعاتهم إلى زوال، ولا بد من التنبيه إلى نقطة مهمة بها تفترق هذه الحضارة في هذا الزمان عن بقية الحضارات وهي تسارع الدورة الاجتماعية من المبتدأ إلى السقوط - وهو داخل في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسارع الزمن - فما كان يحتاج من الوجهة الاجتماعية إلى سنة صار يحتاج إلى أقل منها بكثير، وهذا بسبب اكتشاف السنن الكونية التي أعانت حركة الإنسان، وجعلت تحقيق إرادات قلبه ممكنة الحصول وبسرعة فائقة، ثم لعل هذا قريب

الشبه بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم على علامات الساعة وأنها في آخر الزمان تتسارع كحبات العقد منفلتة من عقالها وحبلها، وهذا يفيدنا أن السقوط سيكون مفاجئا حتى لأكثر الناس إساءة ظن بهذه الحضارة، {فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) ولعل انفجار أوكلاهوما كشف لنا شيئا عن التيارات الخفية المتنامية داخل هذه المجتمعات، والتي ستكون البدائل الحقيقية لهذه المركزية الصارمة، لأن الروابط بين المركز وغيره تتزايد ضعفا وهشاشة، وقبل انفجار أوكلاهوما ما حصل في لوس أنجلوس من ثورة فجرها الرجل الأسود ضد الظلم والقهر المفروض عليه في مجتمعه وأهل بلده، أما في أوروبا فالكلام عليها يطول من كشف هذه التيارات الخفية، ويكفي أن نعلم أن تيارات التعصب الديني والعرقي قد أوجدت لها مقاعد داخل السلطات التشريعية في البرلمان وغيره، بل إن بعضها قد صار أمل وصوله إلى الحكم وشيك الوقوع.

2 - عند سقوط هذه الدول من مركز وولايات ما هو البديل؟ وبعيدا عن الأوهام والأحلام نقول لن تسقط ولاية كاملة بيد بديل واحد سواء كان إسلاميا أو كفريا، فالبديل هو التوحش، وسبب هذا الجزم أنه لا يوجد تجمع واحد قادر أن يحتوي هذه الثمرة الناضجة إلى جرينه، والذين يتصورون أن الإسلام هو البديل الوحيد لهذه الحضارة الشيطانية، واهمون، وسبب وهمهم أنه لا يوجد مقدمة موضوعية لهذا الأمل، وليس هذا حديثا عن الإسلام وقدرته، ولكنه حديث عن المسلمين وعجزهم، وحتى تكون الصورة أقرب إلى الأذهان فبين يدي الباحث عدة أمثلة تبين لنا عجز الحركات الإسلامية عن تلقي الثمرة وهي ساقطة سقوطا حرا علاوة على عجزهم من قطفها بأنفسهم، هذه الأمثلة: هي أفغانستان، والولايات الإسلامية الخارجة من الحكم الروسي.

أما أفغانستان: قد شاركت الحركات الإسلامية في سقوطها، وقد سقطت، لكن هل كان المسلمون وعلى الخصوص أهل السنة والجماعة عندهم من المقدمات ما يؤهلهم لوراثة هذه الثمرة.. النظرة تكفي

أما الولايات الإسلامية الخارجة من الحكم الروسي: فقد سقطت مركزية الحضارة الشيوعية وتناثرت حباتها، فهل يوجد حبة واحدة من هذه الثمار وقعت بيد المسلمين؟ سوى طاجكستان، مع أن الفرحة لم تتم.

وفي هذا الوقت لو سقطت أي حلقة من حلقات الردة في العالم، هل يوجد عند الحركات الإسلامية القدرة على تلقي التساقط ليكون وارثا له؟، وهل تملك هذه الحركات المقدمات الموضوعية لهذه الوراثة؟.

لو تصورنا هذه اللحظة أن المملكة السعودية ضعفت مركزيتها الآن وانتهى حكم آل سود، فكيف هو التصور الموضوعي لهذا الإرث؟ الجواب: بكل وضوح لن يكون من الوارثين أحد يسمى (الوارث الإسلامي) بل ستكون بدائل جاهلية جديدة، كما هي البدائل الحاصلة في الصومال حين سقوط الدولة.

وأنا ضربت مثالا بالجزيرة العربية كون العلمنة فيها إلى الآن لم تصل إلى أهدافها داخل الشعوب، مع وجود مقدمات جاهلية خادمة لخصومنا مثل القبلية وغيرها، أما إن ضربت مثلا بتونس فالصورة قاتمة ولا شك، كون عرى الإسلام قد هدمت من أصولها في الشعوب علاوة على الحكم والقضاء.

3 - هـذا التـوحش الـذي سـيكون وارثا لهـذه الولايـات بعد انفلاتها من المركز يوجب علينا عدة أمور أهمها:

أ- بناء تنظيمات مسلحة، قـادرة على الـترقي من مرحلة شـوكة النكاية إلى شـوكة التمكين، وإن كـانت هـذه التنظيمـات تحمل من اسـمها: القلة وعدم الانتشار إلا أنها حـتى تقـود هـذا التـوحش ثم تعيد صـياغته من جديد فإنها بحاجة إلى السلاح والقـدرة على إدارة التـوحش، أو بمعـنى آخر على إدارة الفوضـى. وهـذه التنظيمـات وإن كـانت في كثـير من البلاد في هـذا الوقت ليست بقادرة على تحقيق تقدم نوعي، أو حـتى كمي، فـإن وجودها قد يزدهر بدخول عوامل جديدة على هذه المعادلة الخاسـرة، ثم لأن هـذه التنظيمات هي الخط الرئيسي في الـدفاع عن إسـلام الأمة وتوحيـدها، ثم هي بنكايتها الضـيفة تعطي هامشا جديـدا لحركـات البلاغ والـدعوة داخل مجتمعاتنا المتحولـة، فانشـغال حكومـات الـردة بحركـات الجهـاد المقاتلة يشغلهم عن الوعاظ والمدرسين ومشايخ التربيـة، وخطبـاء المسـاجد عملا بالقاعدة العقلية: ارتكاب أخف الضـررين. وهـذه التنظيمـات واجبة القيـام على الأمة أصلا.

ب - التوحش أو الفوضى سـتعم العـالم، وخاصة في بلادنـا. أما الغـرب فهم موصـوفون أصلا بالقـدرة على قيـادة هـذه الإدارة في بلادهم تاريخيا وهم المقصودون بقـول عمر بن الخطـاب: "وأسـرعهم إفاقة بعد مصـيبة" والحديث في صـحيح المسـلم.. هـذا التـوحش - أو الفوضـى- القـادم على العالم سيجزئ الدولة الواحدة إلى تجمعات صـغيرة تختلف من تجمع لآخر من حيث رابطتها، فبعضها قلبي، وبعضها فكري، وبعضها مـذهبي، وبعضـها طائفي، كما كنا نرى في لبنان وأفغانستان والصـومال، وكما سـنراها لاحقا في كثير من البلاد، إما بصورة جماعية وهو الأقوى نظرا، وإما على صـورة تتابع في سقوط متتالي.

هذا التـوحش يـوجب علينا تعلم فن إدارة هـذا التـوحش، وهو سـلاح ذو حــدين - أقصد التــوحش -، إما أن يجتثنا أو نفيد منــه. وإفادتنا منه تكــون بسبب ضعف المركزية مما يجعل لحركات الجهـاد هامشا من الحركة غـير المراقبة، من تدريب وإعـداد وتنظيم، كما حصل في أفغانسـتان، وهنا لا بد من التنبيه على ضلال دعوة بعض قادة الحركات المهترئة بوجوب الحفـاظ على النسيج الوطني، أو اللحمة الوطنية، أو الوحـدة الوطنيـة، فعلاوة على أن هذا القول فيه شبهة الوطنية الكافرة، إلا أنه يدل على أنهم لم يفهمــوا قط الطريقة السننية لسقوط الحضارات وبنائها.

ثم هـذا التـوحش يوجد للغربـاء مـأوى يسـتترون فيه بعيـدا عن طلبـات اللجـوء إلى بلاد الغـرب، هـذا إذا اسـتطاعت حركـات الجهـاد أن توجد لها مكانا في قطعة الجبن المتناثرة.

ج - القدرة على إعادة التشتت إلى لحمة جديدة تحمل صـورة الإسـلام الصحيحة، وهذا يستدعي وجود قـادة لهم نظر ثـاقب في الإدارة والحـرب، وحتى أقرب الصورة أكثر فإن القارئ البـاحث يسـتطيع أن يسـتطلع شـيئا مما هو مقبل من خلال معرفته معرفة حقيقية لواقع المجتمع الإســـلامي قبل الحــروب الصــليبية وخلالها وبعــدها، فإنه قد يعيد التــاريخ نفسه إذا وجدت نفس المعطيات، والمعطيات متشابهة هاهنا وليست متطابقة.

د - وبقيت هنا نقطة وهي السؤال الذي تقدمت الإشارة إليه وهـو: كيف سيعالج الغرب حالة الفوضى التي ستجتاحه؟.

ولأن الجواب له علاقة بواقع مجتمعاتنا فلا بد من الإجابة عليه.

عـادة الغـرب أنه كلما تضـخمت مشـاكله الداخليـة، وضـاقت مـوارده الاقتصادية، واضطربت معالم بنائـه، وتزايد العـاطلون عن العمل وتزايـدت حدة اللصوصية والجريمة، فإن الغرب بطريقة ذكية يتقنها، يوجه المشـاكل إلى حالة استنفار نحو خصـومه التقليـديين في المشـرق الإسـلامي، وهـذا مصداق حديث رسول الله صـلى الله عليه وسل : ((**والـروم كلما كسر لها قرن ذر لها قرن آخر**))، لكن يبقى السؤال: من الذي سيكسر هذا القرن؟.

موجبات وجود حركات الجهاد في العالم (2):

ومن عمد موجبــات جماعــات الجهــاد في العــالم الآن: **فك العاني (الأسير)، ونصرة المظلوم، وردع الظالم**:

المتمعن لقصص الأنبياء في القـرآن الكـريم يجد للأنبيـاء عليهم السـلام قضية محورية يلتقـون حولها جميعـا، ويـدعون النـاس إليهـا، ألا وهي كلمة التوحيد، ثم إننا نرى كذلك أن النبي كان يأتي ويحمل قضية أو قضايا مهمة مع التوحيد، وكانت تشكل هذه القضية الأخرى امتحاناً لموضوع الاسـتجابة لألوهية الله على عبـاده، فلـوط عليه السـلام كـان مع دعوته للتوحيد داعيا إلى التخلص من الرذائل الخلقيــة المعروفة مثل إتيـان الـذكران والتبـارز بالضـراط في المجـالس، وهي الـتي قـال فيها الـرب سـبحانه وتعـالى: {**وتــأتون في نــاديكم المنكر**}، فهــذه القضــايا التشــريعية تشــكل الامتحان لمدى الاستجابة لكلمة التوحيد، ولقضية تأليه رب العالمين.

وقد حـدثنا القرآن الكريم كثـيرا عن **موسى عليه السلام**، وتكـررت أحاديث القرآن عن هـذا النـبي العظيم، وهو من أولي العـزم من الرسـل، وكانت قضـية التوحيد مـدار دعوتـه، وحمل معها قضـايا مهمة أخـرى، ومن أهم هذه القضايا التي نازع موسى عليه السلام الأربـاب الباطلة بها إخـراج بـني إسـرائيل من حكم الطاغيـة: قـال تعـالى: {**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْـدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَــوْنُ إِنِّي رَسُـولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَـقَّ قَـدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ**}الأعراف.

وقال تعالى: {**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُـولا لَـهُ قَـوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَـافُ أَنْ يَفْـرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَـالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَـاهُ فَقُـولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِـلْ مَعَنَا بَنِي إِسْـرَائِيلَ وَلا تُعَـذِّبْهُمْ قَـدْ جِئْنَـاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى**} طه.

ثم حكى الله تعـالى هـذه القضـية في سـورة الشـعراء آمـرا موسى وهــارون عليهما الســلام: {**فَأْتِيَا فِرْعَــوْنَ فَقُــولا إِنَّا رَسُــولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**}.

فهذه قضية حكاها القرآن الكريم في ثلاثة مـواطن، قضـية إخـراج بـني إسرائيل المعذبين من حكم فرعـون الطاغيـة، وهي كـذلك هاهنـا في هـذا

العصر، قضية مهمة، عظيمة القدر؟ قضية إخراج المساجين والأسرى والمعتقلين من سجون أهل الكفر والشرك، ومن سجون ا لمرتدين.

والسجن هو إحدى صور العذاب التي يمارسها الطغاة ضد الموحدين، قال تعالى على لسان فرعون: {**قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ**} الشعراء، وقال تعالى: {**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**}الأنفال.

وهنا نكتة بديعة على الأنبياء، وهم أعظم الناس قدرا وأرفعهم منزلة وأوثق الناس بربهم، هذا الفعل هو الهروب والتخفي، فموسى عليه السلام خرج من مصر أول الأمر {**خائفاً يترقب**} ثم خرج ببني إسرائيل على وهدة من عيون فرعون وقومه، وكذلك خروج محمد صلى الله عليه وسلم من مكة متخفيا خوفا من قريش وبطشها، ولم يعتبر هذا الصنيع قادحا في حق هؤلاء الأنبياء، أو خادشا في رجولتهم وعصمتهم وعظمتهم، أقول هذا الكلام تنبيها على ما سمعت من أن بعض قادة الأحزاب الإسلامية الديمقراطية لما عرض عليه الهرب وقد حضر جند الطاغوت للقبض عليه في مقر حزبه أنف هذا الفعل، واعتبره خادشا لشرعية وجوده، وقال: أنا رئيس حزب شرعي ولست لصا حتى أهرب، ولعله كذلك أنف وترفع أن يتدلى بحبل من مكتبه ليخرج من الشباك حتى لا يقبض عليه جند الطاغوت، وهذه النفسية مصيبة ولا شك، فهي تدل على أن قادة العمل الإسلامي الديمقراطي هم من أبعد الناس عن نفسية الرجل المقاتل، أو نفسية الرجل الواعي لطبيعة الصراع بين الحق والباطل.

فالسحن أحد أساليب الطغاة في ردع الدعاة والمصلحين، والسجون الآن تعج بكثرة الموحدين فيها، وقد تبجح الكفر الآن وعربد بما لم يكن له مثيل في يوم من الأيام، فما هو السبيل الشرعي والكوني لردع هؤلاء المجرمين عن غيهم؟! وما هو الطريق الشرعي والكوني لإخراج هؤلاء المساجين من معاقل الطغاة؟ إنه ولا شك الجهاد في سبيل الله تعالى.

وفك العاني واجب شرعي على المسلمين حيث وقع لقوله صلى الله عليه وسلم: ((**فكوا العاني وأطعموا الجائع، وعودوا المريض**))[1]. قال ابن حجر: قال ابن البطال: فكاك الأسير واجب على الكفاية وبه قال الجمهور[2].ا.هـ. ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لأن أستنقذ رجلا من أيدي الكافرين أحب إلي من جزيرة العرب). وروي أن الحجاج بن يوسف الثقفي غضب على واليه في السند غضبا شديدا، وذلك بسبب امرأة أسرت من المسلمين وأدخلت إلى بلاد السند فجهز الجيوش المتواصلة، وأنفق بيوت الأموال حتى استنقذ المرأة وردها إلى أهلها ومدينتها.[3]

وفك العاني المسلم صورة من صور الولاء بين المسلم وأخيه المسلم.

---

1 - رواه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه.
2 - فتح الباري (6/193).
3 - عن الموالاة والمعاداة (1/327).

وليعلم أن ما يعانيه المسلم السجين هو شيء يفـوق الوصف والخيـال، حتى أنهم قديما كانوا يعـدون السـجين كأنـه منفي من الأرض، وأنـه خـارج الحياة. يقول الشاعر:

إذا جاءنا السحن يوما لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

والحضارة الشيطانية المعاصرة ابتكرت من الأساليب الوحشية لتعـذيب خصومها شيئا يفوق الخيال، وليس سجين اليـوم مجـرد رجل محبـوس في جب فقط، مع أن مجرد هذا الحبس عذاب شـديد، ولكنهم يمارسـون على هذا السجين ألوان العذاب وصنوف القهر ما الله به عليم، فـإذا علمنا هـذا تـبين لنا الـواجب الشـرعي الملقى على عـاتق الأمة في تخليص هـؤلاء الأسارى، جاء في "القوانين" لابن الجوزي: يجب استنقاذهم (أي الأسارى) من يد الكفـار بالقتـال، فـإن عجـز المسـلمون عنه وجب عليهم الفـداء بالمال.[1]

قال ابن تيمية في الرسـالة الماتعة المسـماة ب "الرسـالة القبرصـية"، يدعو فيها صاحب قبرص إلى الإحسان إلى أسارى المسلمين عنده، ويـبين سعيه الجاد في استخلاص أسارى المسلمين بل وأسـارى أهل الذمـة يـوم ذاك، قـال: وقد عـرفت النصـارى كلهم أني لما خـاطبت التتـار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم قازان... فسمح بإطلاق المسـلمين، ثم بين بعـدها طلبه في إطلاق أسارى أهل الذمة.

هذه النصوص وغيرها تـبين مـدى الـواجب الملقى على المسـلمين في إطلاق أسارى المعتقلين والمسـاجين من سـجون المشـركين والمرتـدين، ولقد بلغ عـدد الموحـدين الـذين نقم منهم الطـاغوت طهـرهم وعفـافهم وإيمانهم بالله تعالى الأعـداد الكبـيرة، ففي مصر لوحـدها عـدد المسـاجين من الجماعات المسلمة في سجون الطاغوت المصـري أكـثر من خمسـين ألف سجين، علاوة على أولئك الشـباب الـذين ما يكـاد الواحد منهم يخـرج حـتى تدركه مسـالحة (شـرطة) الشـرك وتعيـده مـرة أخـرى، وهنا نقطة مهمـة، وهي أن المسـلم المجاهد عليه أن يسـعى إلى عـدم تسـليم نفسه إلى مسالحة المشركين الملاعين في بلادنـا، بل عليه أن يسـعى جهـده أن يفر منهم وإلا فليقاتل حتى يقتل.

الأسر والحبس والابتلاء:

مذاهب في التغيير

هل السجن مرحلة ضرورية للداعي؟ وهل هي مرتبة ممدوحة، الـداخل فيها خير من غيره بدخول هذه المرحلة؟.

مما لا شك فيه أن طريق الدعوة محفـوف بالمخـاطر والابتلاءات، قـال تعالى: {**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُــونَ وَلَقَــــدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَــــدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**} العنكبوت. ذلك لأن الداعي يأتي للنـاس بالجديد من الأمر، ويـدعوهم لـترك عوائـدهم وإيلافهم، بل ويسـفه ما هم عليه من نهج وطريق، وهذا أمر كبـير على النـاس، لأنـه يطعن في مسـلماتهم وعظـائم

---

[1] - (ص 172).

عقائدهم، ولهذا فإن الداعي يجابه بقوة وعنف، وبسبب هذا الابتلاء تتميز الصفوف، ويفيء الناس إلى مقاماتهم الحقيقية دون لبس أو تزوير، فالابتلاء يعرف مقامات الناس، والبقاء للصابر، قال تعالى: {**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**}السجدة. قال ابن تيمية - رحمه الله - في تفسيرها: بالصبر واليقين تنال الإمامة.ا.هـ. فالصبر يمنع التهور، واليقين يمنع اليأس والقنوط، فالداعي له قوتان تحصنانه من الخطأ، قوة تدفعه وهي اليقين، وقوة تريثه وهي الصبر، يقين على الموعود القادم، وصبر على البلاء الواقع، والبلاء والامتحان ظاهرة في كل الدعوات، وهي تكتنف المتمردين، سواء كان تمردهم بحق أم بباطل، فليس الأنبياء أو أتباع الأنبياء هم فقط من لقي العنت في سبيل دعوته، بل كل من أتى للناس بجديد، ولكن ما يميز أهل الحق من غيرهم في هذا الباب هو أن تعب الأنبياء وأتباعهم هو في سبيل الله {**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**}، وأما غيرهم فتعبهم وبال عليهم كما قال تعالى: {**عاملة ناصبة تصلى نارا حامية**}، وكما قال تعالى: {**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون**}الأنفال، فالابتلاء ظاهرة في مسيرة الدعوات لأن وجود الأعداء من مظاهر نصرة الله لأوليائه، قال تعالى: {**وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن**}الأنعام، ومظهر من مظاهر اسم الله تعالى: **المنتقم**. واختلاف الناس سنة كونية، وكذلك تدافعهم ليتحقق لكل واحد أهدافه التي يسعى إليها، والمعادلة بين الطرفين بحصول النصر والهزيمة مبسوطة في القرآن، وما من أمر إلهي إلا وهو عامل من عوامل النصر، وما من مخالفة للشريعة إلا عامل من عوامل الهزيمة.

والسجن إحدى مظاهر الابتلاء، وصورة من صور العذاب التي يهدد بما كل طرف الآخر، كما قال فرعون مهددا موسى عليه السلام: {**لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين**} الشعراء. وقد كان إحدى اختيارات قريش في عذابها لرسول الله صلى الله عليه وسلم: {**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك**}الأنفال. لأن السجن صورة من صور العذاب النفسي والبدني، فهو تقييد لإرادة الإنسان، ومانع له من ممارسة مدنيته وإنسانيته، ثم هو بالنسبة للداعي أشق وأتعب لأنه يفصل بين الداعي والمحيط الذي يحتاجه لدعوته، فعمل الداعي هو النور في الناس، وتعليمهم الخير، وكسب أتباع لدعوته، وترقية لأفراد دعوته في الطريق، فالسجن حرمان من هذا كله، إذ أنه يعزل الداعي عن محيطه ليمنعه من التأثير والكسب.

وفي هذه الغربة المعاصرة حيث بدأ الدعاة يدعون إلى الله، وتمت سنة المدافعة بين فريق الحق وفريق الباطل، وملأ الطاغوت السجون بالدعاة، وتكررت صور الابتلاء وإلى الآن، كانت التجربة الأولى أن دخلت مجموعات السجون، فماذا صنع فيهم السجن؟.

كان السجن وعاء تشكل لونه بلون الداخل فيه، فبعضهم انتكس ووقـع، وهـؤلاء على الأغلب قلة لا يؤبه بهـا، ولكن الأغلب خـرج من السـجن وهو يحمل ذكريات الألم والعذاب، وخرج ليكتب للناس مذكرات كربلائيـة مليئة بالبكاء والنواح حاول كل واصف فيها أن يستدر عواطف القراء نحـوه، وأن يكسب شـفقتهم عليـه، وقد وجد أدب داخل المكتبة الإسـلامية يمثل هـذا النوع من الفنون، من البكاء والنـواح الكـربلائي، وكـان القصد من هـذا هو تعليق النياشـين (الأوسمة) على الصـدور بـأن هـذا قد عـذب وضـرب، ولم يخرج من الآن من هذا الصف المبتلى دراسة أو دراسات تكون زادا للجيل القادم من هـذه التجربـة، فالسـجن بلاء: إمـا أن يكسـر، أو يعصـر، أو يثمر فيخـرج صـاحبه منه منقى من كل الشـوائب، شـوائب الأفكـار، وشـوائب النفس، فتــترقى مــدارك المــرء، وتنصــقل نفسه في تطورها وتربيتهــا، فالممتحن لا يمدح إلا بمقدار استفادة المرء منه، لا من حيث هو في نفسه ممـدوحا مرغوبـا، فقد ينتكس المـرء فيـه، وقد يخـرج منه كما دخل جهلا وعماء وسوء خلق، وقد يرتقي فيه، وكل هذا بحسب المرء ونظـره إلى ما تمر به الحيـاة من مظـاهر وظـواهر، فليس السـجن مرتبة مدحيـة، ولا هو بالـذي يطلبه المـرء ليكـون الأفضل بين أقاربـه، ولكن ينظر إلى مقـدار اكتساب المرء من هذه التجربة.

السـجن (أو المدرسة اليوسـفية) عند أنصـار فلسفة مذهب ابن آدم الأول:

جرى بعض الباحثين على تسـمية السـجن بالمدرسة اليوسـفية - نسـبة يوسف عليه السـلام - والحق أن القـرآن لم يحك لنا شـيئا عن أهمية السجن ليوسف عليه السلام، ولم يـذكر لنـا شـيئا عن أثر هـذه المدرسة - إن كانت مدرسة - على يوسف عليه السلام، بل الذي اهتم به القرآن هو:

1 - أن يوسف عليه السلام اشـتغل بالـدعوة إلى الله في السـجن، ولم يشغله السجن عن هذه المهمة، بل كان يستغل أصغر الأمور ليوجه أنظـار أهل السجن معه إلى تأليـه الله وتوحيـده، قـال تعـالى على لسـان يوسف عليه السـلام: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}يوسف.

2 - محاولة يوسف عليه السلام الخـروج المبكر من السـجن وذلك حين قال لصـاحبه: {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}يوسف.

3 - حمـده لله تعـالى أن أخرجه من السـجن، قـال تعـالى على لسـان يوسف عليه السلام: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ}يوسف.

4 - قبوله دخــول الســجن - إن كــان لا بد منه - على تبــديل المواقف وتغيير المبادئ {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}.

وهذه الأمور وغيرها ليس فيها شيء يتعلق بأن يكون السـجن مدرسـة، يتخرج المرء منها شهادة يتميز بها المـرء عن غـيره، ولكن مما لا شك فيه أن من دخل هذا الامتحان فصبر فهو خير من غيره ممن دخله ولم يصبر.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن نـذكر هنا أن هنـاك مدرسة حديثة معاصـرة، مقطوعة النسب، لا تلتقي في شيء مع منهج خير القرون، هـذه المدرسة تدعو إلى غريب القول، وعمدة هذا القول يقوم على فلسـفة تـبرير الابتلاء كطريق على المـرء أن لا يسـعى للخـروج منه بنفسـه، أو يدافعه ويعاديـه، وكــان أول قطر هــذه المدرسة كتــاب يســمى "مــذهب ابن آدم الأول" للسوري **جودت سـعيد**، وهو يعـد نفسه من مدرسة **مالك بن نـبي**، ثم تتابع القطر فكان من عمد هذا المذهب كتاب آخر اسمه "ظاهرة المحنـة" لخالص جلبي. تقـول هـذه المدرسـة: إن سـبب سـقوط الحركة الإسـلامية وعدم تقـدمها إلى مواقع جديـدة نحو أهـدافها هو تبـني الحركة للعنف ضد خصـومها وانتهاجها العمل السـري، فتبني الحركة للعنف والسـرية أعطى لخصومها المبرر أن تضربها وتقضـي عليهـا، والطريقة المثلى للخـروج من هذا المأزق هي التالي:

1 - أن تبتعد الحركة الإسـلامية عن نفسـية الصـدام ضد خصـومها وأن تتعامل معهم كما تعامــــل ابن آدم الأول مع أخيه حين قــــال له: {**لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَـدِيَ إِلَيْـكَ لأَقْتُلَـكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُـونَ مِنْ أَصْـحَابِ النَّارِ**}. وتطـور الاحتجـاج لهـذا المـذهب حـتى وصل إلى الاحتجاج بطريقة غاندي ضد خصومة الإنجليز.

2 - على الحركة الإســـلامية أن تجعل من الســـحن ســـبيلا إلى حالة جماعية بها يتم التثقيف والتربية ومن خلاله يتم مد الفكرة إلى الآخرين.

تنتهي هذه النظرية بالخلاصة التاليـة: أن الخصم سـيمارس العقـاب تلو العقاب ولن يحابه إلا بالسلبية في الرد، وبالصـفح الجميـل، وبعد أن يـدرك الخصم أنـك لن تـرد عليه سـتثور في نفسه عقـدة النـدم ويلقى السـلاح ويولي منهزما، وحينئذ سيقع النصر الموعود...

إن من غرائب الأقوال في هذا الزمان، وهو من الحادثات التي نبتت ولا يعرف لها سلف في التاريخ - سلف مؤمن أو كافر - مـذهب غـريب، يـدعو للعجب من القول، يـدعو إلى نبذ العنف ووسـائله وأهمها السـرية، والعنف والمقصود به الجهاد والقتال. يقول هذا التيار:

إن سـبب انتكاسة الحركة الإسـلامية، وعـدم حصولها على أهـدافها أو الاقتراب منهـا، هو تبـني الحركـات الإسـلامية للعنـف، فحيث تبنت الحركة العنف فإنها أعطت الخصـــوم المـــبرر لضربها والإجهـــاز عليهـــا، فلو أن الجماعـات الإسـلامية واجهت عنف الدولة بالصـبر وكف الأيدي، واحتملت الأذى، فـإن الدولة بعد ممارسـتها العـذاب تلو العـذاب على المسـلمين ستصاب بعقدة الندم، وبعدها ستلقي السلاح جانبا، وبعدها سيكون وصـول الإسلام إلى الحكم سهلا ميسورا!.

قال جـودت سـعيد: (وهو إمـام هـذا المـذهب المعاصر وصـاحب كتـاب "مذهب ابن آدم الأول":

أ - أؤكد أن لا نمارس العنف بجميع أشكاله، ونتقبل العنف الـذي يصـدر من الآخـــرين بصـــدور مفتوحـــة، وأن نجعلهم يملـــون من ممارسة العنف بصـبرنا على تحملـه، وعـدم مقابلة العنف بـأي عنـف، وإنما نقابل العنف بقوله تعـالى: {**لا تطعه واسـجد واقـترب**}، وبقوله تعـالى: {**كفـوا أيـديكم وأقيمـوا الصـلاة**} وبقوله تعـالى: {**لئن بسـطت إلى يـدك**

لتقتلني ما أنا بباسط يــدي إليك لأقتلك إني أخــاف اللــه رب العالمين}، بهذا نقابل العالم[1]. ا.هـ.

ب - ينبغي فـورا أن نقلص ونتخلص نهائيا من الجيش والسـلاح، وخاصة الأسلحة المتطورة[2].ا.هـ.

ج - الجيش والسلاح عقبة في سبيل تحرير الأمم.

2 - يجب على الحركة الإسلامية تبني السـلم، وأفضل صـور السـلم هو الديمقراطيــة الغربيــة، يقــول جــودت ســعيد: نحن ينبغي أن لا نــرفض الديمقراطيـة، وإنما ينبغي أن نزيـدها فعاليـة، وذلك بنشر المعرفة والعلم، لأن الديمقراطية إن لم يكن وراءها علم ومعرفة في فســـــتعجز عن حل المشكلات[3].ا.هـ.

وعلينا أن نقبل بالديمقراطية حــتى لو أدت إلى إزالة الحكم الإســلامي إن وجد. يقـول جـودت سـعيد: الـذي أريد أن أذكر به هنا هو مـاذا سـيفعل المسلمون في المستقبل إذا بدأوا يخسـرون الإمـارة بالديمقراطيـة؟ هـذا ينبغي أن يكــون في البـــال مـــاذا ســـنفعل؟، هل نقبل تـــرك الحكم بالديمقراطيـة؟ أم نصـير مثل الـذي يعمله الآن السـكارى بالكراسـي؟... ويواصل قائلا: ينبغي أن نصبر ونتـذكر قوله تعـالى: {**ولنصـبرن على ما آذيتمونا**}... الخ [4].

3 - تـرك أي إشـارة أو كلمة فيها عـداوة لأعـداء الـدين. يقول جـودت سعيد: أن نكون شهداء لله وقوامين بالقسط مع الذين يسيئون إلينا وعلينا أن ندرب أنفسنا أن نكون كذلك، ونتواصى بـذلك، ونتواصى بالصـبر عليـه، حـــتى أننا لســـنا في حاجة أن نطلق لفظ العـــدو عليهم وإنما اختلفنا في التفسـير، والله تعـالى علمنا أن نقـول: {**وإنا أو إياكم لعلى هـدى أو في ضلال مبين**}ا.هـ.[5]

4 - على الحركة الإسلامية أن تقبل التحدي وذلك بالذهاب إلى السجون والرضا بذلك وعدم الاعتراض عليه:

أ - انظر كتاب ظاهرة المحنة لتلميذ جودت سـعيد وهو الـدكتور خـالص جلبي كنجو.

ب - يقول جودت سعيد: إذا أخذ واحد من المسجد لأنه علم النـاس في المسجد، فلنملأ مكانه ونقبل التحدي، ونقبل السجن[6].ا.هـ.

ويقول كذلك: لا نضرب، لا نهرب، لا نطـالب بـالإفراج عن المسـجونين، بل نطالب أن يأخذونا نحن أيضا إلى السحن.ا.هـ.[7]

5 - عـدم الاهتمـام أو الاسـتدلال بالكتـاب والسـنة وإنما العقـل، يقـول جودت سعيد: إنني لم أعد ترهبني قعقعة الكلمات: الروح، النفس، أو الله، أو الرسـول، أو قـال فلان وفلان (وهي حسب السـياق، قبل هـذه الجملة يعني قال الله، قال الرسول) نريد أن نتحدث ماذا يحدث لنا، وكيف يحصل

---

[1] - سلسلة فانظروا (عدد 43 ص 2) - وهي رسالة موجهة إلى الشـباب المسـلم في الجزائر.

[2] - المصدر السابق (ص 3).

[3] - السابق (ص 2).

[4] - السابق (ص 3).

[5] - السابق (ص 8).

[6] - السابق (ص 4).

[7] - السابق (ص 5).

الفهم؟ وكيف نعرف ما فهمناه أننا فهمناه، وكيف يحدث الفهم؟ وكيف انتقلت إلى هذه الأفكار؟ دعونا من الحديث عن السماء، ولنبحث في الأرض، لنعد إلى الإنسان المولود على الفطرة.ا.هـ.[1]

ويقول: إن الذي سيعلمنا ليس القرآن، وإنما نفس حوادث الكون والتاريخ هي التي ستعلمنا.ا.هـ.[2]

ويقول: فالمرجع ليس الكتاب وإنما العودة إلى الحدث أو الشيء.ا.هـ.[3]

ويقول: إن صخرة ما أدل على نفسها من كلام يقال عنها حتى لو كان كلام الله.ا.هـ.[4]

ويصف أوامر الله بالقتال بأنها خرافية، يقول: نسأل الله أن يثبتكم، وأن لا يفلت الزمام من أيديكم، وأن لا تستسلموا للأوامر الخرافية (أي أوامر العنف حسب تعبيره) ا.هـ.[5]

وفي لقاء مع خالص جلبي لأحد الاخوة قال له: أنا أسجد للعقل.ا.هـ.

وكلام جودت سعيد في معرض الأمر الشرعي، وليس الخلق الكوني فانتبه.

هذه خلاصة أفكار هذه المدرسة، مدرسة كف الأيدي والرضا بالصبر - من كتاب "مذهب ابن آدم الأول".. إلى كتاب "ظاهرة المحنة"-.

أما الرد عليهم: فإن أول ما يقفز لذهن المسلم السني أمام هذا الغثاء هو القصة التالية: ذكر الذهبي في "ميزان الاعتدال" أنه ذكر لعمرو بن عبيد (من أئمة المعتزلة) حديثا يخالف هواه، رواه الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عمرو: لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعته من زيد بن وهب لما صدقته، ولو سمعت ابن مسعود يقوله لما قبلته، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله عز وجل يقول هذا لقلت: ليس على هذا أخذت ميثاقنا.ا.هـ. فهؤلاء القوم لا ندري من أين نبدأ معهم، فهم كما قال جودت سعيد: "لا ترهبهم الكلمات حتى لو كانت كلمات الله"، وهم لا يكنون أي احترام لكلام السلف، بل قد صرح أنه قد اكتشف شيئا لم يعرفه الصحابة رضي الله عنهم، يقول جودت سعيد: إن المسلمين سواء في زمن أبي ذر أو الآن لم يفهموا هذا جيدا.ا.هـ.[6]

وعامة احتجاج هذه الطائفة بما فعل غاندي.[7] ومما فعل الخميني[8]، وبما فعل عبد السلام ياسين إمام جماعة العدل والإحسان المغربية، لأن هذا هو الحدث أو الشيء الذي ينبغي أن يعد مرجعا وليس المرجع هو القرآن كما يقول جودت سعيد، إذن فهؤلاء القوم لا يرجى لهم عودة لأن البدعة قد استحكمت فيهم كما يستحكم داء الكلب بصاحبه، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: ((لا يرجعون إلى الإسلام حتى يرتد

---

[1] - سلسلة نشرة فانظروا (عدد 40 ص 43).
[2] - السابق (ص 7).
[3] - (السابق ص 7).
[4] - السابق (ص 7).
[5] - فا نظروا (43 ص 9).
[6] - فانظروا (عدد 43 ص 5).
[7] - مقدمة الطبعة الثانية لكتاب ظاهرة المحنة.
[8] - ظاهرة المحنة، وسلسلة فانظروا عدد 43.

السهم إلى فوقه))[9]. فلا يعود البدعي عن بدعته، وإن عاد فلا بد من علوق بعض الشيء فيه ولا يخرج منها إلا بنوع خاص من العلم، والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

وهؤلاء القوم يتذكر المرء معهم قوله تعالى: {**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**}، هذا هو اعتقادنا في أئمتهم، وليعلم الناس أن العقل الذي يزعمونه هو عين الهوى، ولذلك فإن أمثالهم سماهم أهل السنة قديما بأصحاب الأهواء، وإن زعموا أنهم أهل العقل والمنطق، لأن مدار أمرهم على رغبات النفوس والتشهي، وليس على اتباع الحق، وإلا فما معنى قولهم: أنا لم تعد ترهبني الكلمات.. الله أو الرسول أو قال فلان أو قال فلان؟.

مذهب ابن آدم الأول: العقل والنقل بصورة معاصرة

ما الفرق بين قول أهل الأهواء قديما أن العقل هو اليقيني والنص هو الظني، وقول جودت سعيد: فالمرجع ليس الكتاب وإنما نفس حوادث الكون والتاريخ. بل قوله أشد افتراء وكذبا.

إذا كان اعتقادنا في هؤلاء أنه لم يبق منهم مفصل إلا دخله الهوى، فنرجو أن يكون حديثنا مع من بقي فيه بعض الخير، أو بعض خوف من كلمات الله تعالى، وسنأتي على عمد احتجاجاتهم الشرعية بدءا من قوله تعالى: {**لئن بسطت إلى يدك** ...} الخ الآية، لنرى كيف هي في شرع الله ودينه؟.

من حجج هذا التيار البدعي استدلالهم بقوله تعالى على لسان ابن آدم: {لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} المائدة (68 ـ 69). واحتجوا بهذه الآية على أن مذهب الفطرة في الإنسان السوي هو عدم صد من أراد إيذاءه بل كف اليد عنه، مما سيدفع الخصم المعتدي إلى ترك السلاح جانبا والاحتكام إلى العقل، ثم إثارة كوامن الخير التي ستدفعه إلى الندم وعدم البطش بخصومه، وهذا كله سيجعل العاقبة للحق والصواب، وهو الإسلام كما يعتقد هذا التتار، هذا هو خلاصة ما يريده كتاب جودت سعيد "مذهب ابن آدم الأول" وكتاب "ظاهرة المحنة" لخالص جلبي. ويزعم هذا التيار أنه عقلاني في هذا المبدأ إلى مشاشه، وأنه يحتكم في صواب هذا المنهج ليس إلى التفسير البياني (اللغوي) للقرآن، ولكن إلى الفطرة أو إلى التاريخ والواقع، وأن العقل ومقتضياته تلزم الجميع بصواب هذا المنهج وأن خلافه جهل وخرافة، ومرض عصبي، يدفع المرء ليفكر للاحتكام إلى السلاح والقوة في فض الخصومات بين أصحاب المذاهب الفكرية، سواء القابض على السلطة أو غيره من الخصوم المقهورين.

الرد على احتجاجهم بهذه الآيات القرآنية له عدة طرق، وكلها تتدافع بنفس القوة والتدليل، ولكن الغريب في هذا التيار أصوله التي يتعامل بها مع الوحيين، فالأمة قد أجمعت أن الحكم الشرعي مأخذه الكتاب والسنة،

---

9 - انظر فتح الباري (ج 12/295) وما بعدها.

وأن هذا المصدر نزل باللغة العربية، فأصول تفسير هذا المصدر وقواعد فهمه تعود إلى قواعد وأصول هذه اللغة، وليس هناك من قواعد يحتكم إليها في ذلك سوى قواعد البيان العربي، إلا ما أحدثه أبو حامد الغزالي من إدخال قواعد علم المنطق إلى أصول الاستنباط، وقد عاب العلماء عليه، وشنعوا القول على صنيعه هذا، وكان أشدهم نكارة الإمام أبو عمرو بن الصلاح الشافعي رحمه الله تعالى، وأما قبل ذلك فإن الأمة مجمعة على تنزيل الكتاب والسنة على أصول البيان العربي، قال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - في كتابه العظيم "الرسالة": البيان اسم جامع لمعان متشعبة الفروع، فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب.ا.هـ.[1]

ثم شرع الإمام الشافعي رحمه الله في تفصيل أنواع البيان في الوحي، وقسمها إلى أقسام:

1 - ما أبانه لهم نصا ولا يحتاج لغيره.

2 - ما أحكم فرضه بكتابه (وأحكم هنا بمعنى أجمل أصله) وبينت السنة تفصيله - أي هيئته -.

3 - ما أتت به السنة وبينته ولم يأت به في الكتاب نص محكم.

4 - ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد.

ثم شرع في تفصيل هذه الأنواع واحدة واحدة، واستخلص منها أدلة الحكم الشرعي وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وهذا القسم الرابع من أقسام البيان هو الذي تنكره الظاهرية، ومن جهلهم به حكموا أن مستويات البيان في الدلالة واحدة لا فرق بينها، أي بين ما يعلم نصا وما يعلم اجتهادا، واختلاف الناس في توسيع دائرة السنة وتقنين الشروط في الأخذ بها هي التي تفرق الناس بين أثريين وآرائيين، فكلما وضعت ضوابط أكثر على السنة كلما قل الأخذ بها، وبهذا تتسع دائرة الرأي، وكلما أكثرنا الأخذ بالسنة تقلصت دائرة الرأي، وقاعدة الشريعة تقوم على الاتباع وتقليل الرأي والاجتهاد.

نعود إلى ما سمي بقواعد البيان التي سميت بعد ذلك بأصول الفقه، كون أصول البيان وقواعده هي نفسها قواعد استنباط الحكم الشرعي، فكلما زاد الرجل معرفة في البيان وقواعده كلما ازداد معرفة بمراد الوحي، قال الإمام الشافعي: لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت الشبه التي دخلت على من جهل لسانها.ا.هـ.[2] فمن جهل لغة العرب ثم فسر الوحي على أي جهة كان وبأي قواعد أخرى فقد أخطأ وإن أصاب، قال الشافعي: ومن تكلف ما جهل ولم تثبته معرفته كانت موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة والله أعلم، وكان

---

[1] - ص 21.
[2] - ص 50 فقرة 169.

لخطــأه غــير معــذور إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بــالفرق بين الخطأ والصواب منه.ا.هـ.[1]

هـذه القواعد الـتي قالها الشـافعي لم يخـالف فيها أحد من أهل الملة قبل يومنا هـذا إلا ما تقوله الباطنيــة، وهي الــتي تجعل الرابط بين اللفظ والمعنى ليس هو الوضع اللغوي، وإن قواعد استنباط الحكم الشـرعي من اللفظ ليست هي قواعد البيـان، بل هي عنـدهم راجعة إلى سـلطة أخـرى غير سلطة البيان، مثل قواعد شيوخهم، وهؤلاء لا خلاف بين أهل الملة في كفـرهم وزنـدقتهم، حـتى المعتزلة لا يفـترقون عن أهل السـنة في هـذه القاعدة، وهو وجـوب إرجـاع تفسـير النصـوص إلى قواعد البيـان العـربي، يقول الجاحظ وهو معتزلي: للعرب أمثـال واشـتقاقات وأبنية وموضع كلام يـدل عنـدهم على معـانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفـاظ مواضع أخـرى، ولها حينئذ دلالات أخـرى، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتـاب والسـنة والشـاهد والمثل.ا.هـ.[2] فهو يجعل البيان العربي أساس وقاعدة تفسير ولكنه بصـفته معتزليا شط في فتح باب، أو لنقل وسع بابا كان ضـيقا، وهو أن الأصل في الألفاظ الحقيقة ولا يصـار إلى غيرها إلا على اسـتحالة حملها على الحقيقة ووجـود القرينة وهو الـذي سـماه المتـأخرون المجـاز - فإنه قـال: ولتلك الألفاظ مواضع أخرى ولها حينئذ دلالات أخرى...الخ قولـه. ولكن لم يختلف معنا المعتزلة في أساس سلطة البيان، فيقول الزمخشري: وما يمــيز به - أي إنسان - من سائر الحيـوان من البيـان هو المنطق - أي الكلام الفصـيح المعرب عما في الضمير.ا.هـ.[3]

أما اكتشافنا لأهل البدع فعن طريق معرفتنا مغايرتهم في فهمهم للنص عن قواعد البيـان فاكتشـافنا لهم يتم بإرجـاع أنفسـنا وأنفسـهم لما فهمته العرب، وعامة ضلال أهل البدع يكون بسـبب جهلهم بقواعد اللغة العربيـة، ولهذا قـال الحسن رضي الله عنه عن المبتدعـة: من العجمة أوتـوا. وقـال عمرو بن العلاء - من أئمة أهل السنة - لعمرو بن عبيد - إمام المعتزلة في عصره - لما ناظره في مسألة خلود أهل الكبائر في النـار، واحتج ابن عبيد أن هـذا وعـد، والله لا يخلف وعـده، يشـير إلى ما في القـرآن من الوعيد على بعض الكبائر والذنوب بالنـار والخلـود، قـال له ابن العلاء: من العجمة أوتيت، هذا وعيد لا وعد، وأنشد قول الشاعر:

وإني وإن أوعدته أوواعدته   لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وقال بعض الأئمة فيما نقل البخاري وغيره: إن من سعادة الأعجمي أو الأعرابي إذا أسـلما أن يوفقا لصـاحب سـنة، وإنه من شـقاوتهما أن يمتحنا وييســرا لصــاحب بدعــة.ا.هـ.[4] فالبــدعي أساسه الأول هو تــرك الأصــول العربية، ثم أساسه الثـاني: تـرك المحكم إلى المتشـابه، وهـذا الثـاني في الحقيقة عائد إلى الأول، لأن من أصـول البيــان رد الفــروع إلى الأصــول، واتفاق البيان وعـدم اختلافه إذا صـدر من حكيم. روى الإمـام البخـاري في صحيحه في كتاب التفسـير أن عائشة رضي الله عنها قـالت: ((تلا رسـول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: { هُوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ

[1] - ص 52.
[2] - كتاب الحيوان (4 ص 289).
[3] - الكشاف (4 ص 442).
[4] - الرسائل والمسائل النجدية (ج 2 ص 10، 11).

آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأؤلئك الذين سماهم الله فاحذروهم)).[1]

والمتشابه هاهنا ليس ما يذكر في كتب الأصول، ولكن شيء تختلف درجته في عدم دلالته على المراد في نفسه، فمنه ما يحتمل أكثر من معنى، ومنه مما لا يعلم حقيقته - لا تفسيره - إلا الله وليس هذا موطن تفصيل ذلك. لكن أهل البدع يتركون ما لا يفهم منه إلا مراد المتكلم إلى ما يحتمل عدة معاني (حيث وضع ابتلاء للناس وهو ما تنكره الظاهرية)، ولكن هذا المتشابه لم يترك للناس من غير بيان فلا بد من رده إما إلى المحكم أو إلى خاصه، فيأتي أهل البدع إلى هذا المتردد إلى معنيين أو أكثر فيصرفه إلى ما يريده هواه، فأولئك هم طالبوا الفتنة، والواقعون فيها.

مدرسة كف الأيدي أتت بالعجيب من القول:

1 - أسندت حق تفسير الكتاب والسنة للواقع والتاريخ (وهو الحكم القدري) ولم ترجع حق التأويل إلى اللسان العربي، بل احتقرت اللسان العربي كما تقدم من كلام جودت سعيد، وهذا الذي قالته هذه المدرسة باطنية جديدة، فلو قال طبيب كافر إن بعض الخمر قد ثبت أنه يشفي بعض الأسقام، وثبت هذا بحكم التجربة والواقع، وسيرورة التاريخ لوجب علينا أن نجيز القليل من الخمر ولا نلتفت لما فهم أهل البيان من كلام رب العالمين.

2 - يؤدي هذا الأمر في هذه المدرسة إلى تفسير النصوص تفسيرا جديدا، ويجعل للألفاظ العربية التي تكلم الله بما في القرآن معان جديدة لم يعرفها الأوائل، مما يلتقي هذا الأمر مع أهل الحداثة الجدد - أو الزنادقة الجدد -. وهذا التجديد ستفرضه اكتشافات الناس للواقع والتاريخ كما يزعم هذا التيار...

الآيات المخبرة عن ابني آدم ووضعها في شرعة الإسلام لها جانبان من النظر، جانب يلتقي معها، وجانب يفترق عنها، أما ذكر الجانب المتفق معها فمعلوم اضطرارا وروده، ولكن قد يسأل سائل: ما فائدة أن يذكر القرآن الكريم جانبا من هذه القصة والحدث ولا يريد من الأمة المسلمة أن تتبعه وتقتدي به؟ وبعيدا عن قول أئمتنا السابقين أن شرع غيرنا ليس شرعا لنا، أو قول بعضهم إن شرع من قبلنا شرع لنا، والخلاف الدائر حول هذا المصدر، فإن هذه الآيات فيها التأكيد العظيم على أن شريعة الإسلام التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم هي أكمل الشرائع، وأحق الشرائع اتباعا ((فوالله لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي)) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما جانب الاتفاق فهو:

1- إن خطاب ابن آدم الصالح لأخيه الآخر، هو خطاب علِمَ الأخ من أخيه أن تخويفه بالله قد يردعه ويرده، وإلا فلو علم أن نفس الأخ غير متهيبة لخطاب التخويف من الله لما خاطبه به، ولكان هذا الخطاب عبثا لا قيمة له، ثم تبين أن هذا الخطاب لم يجد نفعا، ولما تبين أن هذا الخطاب لم

---

[1] - صحيح البخاري (ج 5،ص 166).

يجد نفعا كان لا بد من تغيير التشريع ليوافق الحق، وهو عـدم التمـادي في الظلم، أو الاسترسال في تحقيق أهـواء النفـوس بقتل الخصـوم، وهـذا هو جانب الافتراق كما سيأتي لاحقـا، إذا فمقالة الرجل الآخـر: "اتق اللـه" لن تفعل مفعولها إلا في نفس نرهب الله وتخافه، وهذا من جنس قـول مـريم عليها السلام للملك الذي جاءها بالروح عيسى عليه السلام: {**قـالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا**}، فالاسـتعاذة بـالرحمن لن يخفرها التقي وهي اسـتعاذة بكلمـات الله الكونية لما خفي عن الإنسـان من الجن وغـيره وهـذه تمنع الـبر والفـاجر، واسـتعاذة بكلماته الشـرعية لما يـراه الإنسان ويحسه، فحين يقول المرء أعوذ بكلمـات الله التامـات من شر ما خلق فإن المقصود بها الكلمات الكونية وليست التشـريعية، فلو قـال رجل مسلم لكـافر: أعـوذ بالله منـك، وأراد الكـافر قتله فـإن هـذه الكلمـات لن تنفعـه، أما إذا قالها لمسـلم فإنها تنفعـه، كما نفعت كلمـات المـرأة الـتي لقنت أن تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أعوذ بالله منـك، فقـال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك))، فإنها نفعت مع من يعلم أن خفر ذمة الله تعـالى جريمة ومعصـية تـوجب العـذاب، فمـريم عليها السـلام قيـدت نفع كلماتها - أعـوذ بالله منك بكـون السامع تقيا، أما إن كان فاجرا فإنه سيخفر ذمة الله تعالى.

نعـــود إلى خطـــاب ابن آدم لأخيـــه: {**إني أريد أن تبـــوء بـــإثمي وإثمك**}، هذا تهديد لمن يعلم قيمة الإثم ويؤمن أن وراء هـذا الإثم عقابـا، وهو الـرادع في قلب المـؤمن، أما الكـافر والعاصي الجاهل الناسي فلن تردعه هذه الكلمات.

فالمؤمن هو الـذي يخـاطب بكلمـات الله الشـرعية لأنها عظيمة القيمة في قلبه، وأما غيره فليس له إلا كلمات الله الكونية.

المؤمن يقال له: اتق الله، وعليك أن تخاف اليوم الآخر فيتذكر كما قال تعالى: {**إن الذين اتقوا إذا مسهم طـائف من الشـيطان تـذكروا فـإذا هم مبصـرون**}، وأما الكـافر فهو الـذي {**إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم**}، فيتمادى في غيه وعصيانه.

المـــؤمن تردعه كلمـــات اللـــه، والكـــافر تردعه اللطمة وإن لم تنفع فالركلة، فإن لم تنفع فالإرهاب {**ترهبون به عدو الله وعدوكم**} فـإن لم ينفع فقوله تعالى: {**واقتلوهم حيث ثقفتمـوهم**} ولن يـردعهم إلا أن تخضب الأرض بدمائهم {**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُـونَ لَـهُ أَسْـرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...فشـرد بهم من خلفهم**}. وإعمـال كلمـات الله التشريعية بالتخويف للكافر هـزل بآيـات الله تعـالى، وإعمـال كلمـات الله الكونية مع من يرتـدع بالكلمـات التشـريعية ظلم وتجـاوز للحـد، ولكل له مكانه.

مدرسة الصبر وكف الأيدي تريد منا أن نقول للنصـيريين وهم في ذروة حماسهم وسكرتهم: اتقـوا اللـه!!، فهل جـربت هـذه المدرسة مـاذا يقـول المرتدون في بلادنا وهم يعذبون الشباب المسلم فتخرج كلمات الاسـتغاثة من الشـباب قـائلا: أنا لائذ بالله أو ملتجئ إليـه، فمـاذا كـان ردهم؟: ألم يخبرنا أولئك أنهم ردوا عليهم قائلين: لو حضر الله إلى هنا لسـجناه معكم. (أستغفر الله وأتوب إليه).

لو أن المرتد دخل بيتك ليزني بأهلك فهل تمنعه من فعلته الشنيعة بقولك: اتق الله؟!، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ولمن زنيت بأهلي لن أحقد عليك ولن أسميك عدوا، إني أخاف الله رب العالمين؟!.

بل سأذهب معكم إلى بعد آخر، لو أن المشركين من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هزيمة بني قريظة، فحكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه أن يقتل رجالهم، فلو أن يهوديا؟ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليكف يده عن قتلهم: يا محمد اتق الله فينا!! فماذا سيكون جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ سيقول له: أنا بأمر الله الذي أتقيه أقتلكم، ولولا تقوى الله ما حكمت فيكم هذا الحكم.

هذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يقول له الناس عند توليته عمر بن الخطاب من بعده: أستخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه فكيف إذا خلا بهم، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك، فقال أبو بكر: أبالله تفرقني (تخوفني)؟. إذا لقيت الله ربي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك.ا.هـ.[1]

واليهودي يعتقد أنه بقتله الأمميين يرضي ربه، وكذا النصيري والدرزي، وكل ملة تتعبد إلهها بخصومتها للآخرين.

ولو ذهبنا نستعرض التاريخ الإنساني والإسلامي عن حالة واحدة تؤيد اتجاه هذا الفريق لما وجدنا، بل إن الآية ضدهم، فإن تخويف ابن آدم لأخيه لم يمنعه من قتله، والعرب تفهم هذا، فإنها قالت: القتل أنفى للقتل، والله تعالى قال: {**ولكم في القصاص حياة**} ولكن القوم: قال الله، قال الرسول، كلمات لم تعد تخيفهم، فليأتوا لنا بحالة واحدة درست دراسة علمية تؤيد سبيلهم.

2- إن مما قاله ابن آدم الصالح لأخيه: إني أخاف الله رب العالمين، فالمانع له عن بسط يده لأخيه حتى في رد عدوانه عليه هو خوفه من الله تعالى، فهو يتعامل مع شرع مأمور به، وهو أنه لو بسط أخوه يده له بالقتل فعليه أن لا يبسط له يده لقتله، امتثالا لأمر الله تعالى، فهل مسلم اليوم يستطيع أن يقول ذلك، وهو مأمور بقوله تعالى: {**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**} فأمر الله تعالى المسلم أن يقاتل من بينه وبينهم عهد لمجرد ظهور بوادر الخيانة، فكيف من لم تكن بينه وبين المسلمين عهود ومواثيق؟!!.

ألم يقل سبحانه وتعالى: {**إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم**} فجعل كف اليد وترك القتال سببا موجبا لعذاب الله تعالى، فأين هذا من ذاك؟! .

ألم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل أن يفقأ عين الناظر إليه في بيته دون إذنه؟، وقال : ((**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**))، فهل انقلبت صورة الحجر التي تفقأ عين الظالم إلى ورود في نفسية هذا التيار في هذا الزمان؟!.

أليس هذا هو عين تأويل البعض لقوله صلى الله عليه وسلم: ((**احثوا في وجه المداحين التراب**))، فكان من تأويل بعض فقهاء السلاطين لهذا الحديث أن الذهب من التراب، والسلاطين يطبقون أمر الله تعالى، فمن مدحهم حثوا في وجهه الذهب امتثالا لأمر النبي صلى الله عليه

---

[1] - الطبري.

وسـلم، فصـار الـتراب ذهبـا!، وصـار فقء العين يعـني أن تعلق على ياقته الوردة حتى تخجل عينه فيغلقها، فهذا هو عين الفقء!!.
هكــذا تنقلب الأوامر الشــرعية إلى تــأويلات جديــدة تشــابه تــأويلات الباطنية.

آيـــــات ابن آدم تصـــــور لنـــــا الحقيقـــــة التاليـــــة:

رجلان قد اختلفـا: رجل يخـاف الله فـترده الكلمة والموعظـة، ورجل لا يخـاف الله فوعظ وخـوف بالله تعـالى فلم يرتـدع، فلا بد من ردعه ورده حتى لا يتمادى في غيه وظلمـه، إذن لا بد من شـيء آخر غـير كلمـات الله التشريعية، وهي كلمات التكوينية، فتطور التشـريع ليوافق الحق المطلـق، وهو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا جانب الافتراق.
قصة ابـــني آدم عليه الســـلام ككل القصص القـــرآني فيها من العـــبر والعظـات الـتي تؤكد حكمة الـرب سـبحانه وتعـالى، وتؤكد الحق المطلق الذي جاء به رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، وقد قلنا إن في قصة آدم جانبا يفـترق عن شـريعة الإسـلام، وهو جـانب كف اليد عن المعتـدي إذا أرادك بسوء وظلم، وقد نستطيع القول إن هذا الجانب كذلك لا يفترق عن شريعة الإسلام، وهو كف اليد عن المسلمين حـتى لو أرادوك بظلم وشـر، وأن تكن كما قـال صـلى الله عليه وسـلم: (**كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل**)، وهــذا قطعا وجزما هو مع المســلمين من بــني عقيـــدتك ودينـــك، فالحـــديث الأول يـــذكر في زمن الفتن الواقعة بين المســلمين، وكــذلك الحــديث الثــاني، أما مع غــير المســلمين فلا بد من استحضـار قوله صـلى الله عليه وسـلم: ((**لا يجتمع كـافر وقاتله في النار**)) وهو حديث فيه الـترغيب في قتل الكـافر، فكلما قتل المسـلم من الكافرين كلما باعد الله بينه وبين جهنم، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتنافســون في قتل أعــداء الله تعـالى كما في قصة ابــني عفــراء مع أبي جهل، فهما جانبان يحضران في نفس المسلم في الوقت ذاته {أعزة على الكــافرين} {أذلة على المؤمــنين} لكن لو قلنا أن شــريعة ابن آدم الأول كـــانت تمنع بسط اليد إلى أي أحد كائنا من كـــان فما هو وجه ذكرها في القرآن؟ ولماذا تذكر بعض الجوانب في قصص الأنبياء في القــرآن الكــريم مما لا تلتقي مع شريعة الإسلام؟ فما هي الحكمة في ذلك؟.
إن المقارنة بين الشــريعتين شــريعة الأوائل وشــريعة محمد صــلى الله عليه وسـلم - مهمة من مهمـات القـرآن الكـريم، لأن فيها من الله تعـالى على عبـاده في أمة محمد صــلى الله عليه وســلم بأنه لم يشــرع لهم إلا الأفضـل، ولم يعطهم إلا خـير ما عنـده سـبحانه وتعـالى في علاه، فالأوائل اسـتؤمنوا على كتبهم فخانوها وبـدلوها، فـدل هـذا التبـديل والتحريف أن الناس لن يكونوا أوفياء لكتبهم، فمن الله تعـالى على هـذه الأمة بـأن نـزع منها حق الحفاظ على الكتاب وألزم الرب جل في علاه نفسه بـأن يحفظه {**إنا نحن نزلنا الــذكر وإنا له لحــافظون**} وكــان الأوائل يقتلــون أنبيــاءهم، فعصم الله نــبي هــذه الأمة من أعدائه {**والله يعصــمك من النــاس**} ومســيرة الأنبيــاء مع أقــوامهم دلت على أن كل نــبي أتى إنما أعطـاه الله سـبحانه وتعـالى ما ظهر لمن قبله أنه محتـاج إليـه، ولو تفـرغ بعض طلبة العلم لــيرى تطــور منهج الأنبيـــاء في الــدعوة لــرأى العجب العجاب، ومع أن هذا التطور شــرعي وربـاني، أي أنه وضع إلهي، ولكن مع

توقيفه إلا أن الله سـبحانه وتعـالى يعلم عبـاده فوائد ما فـرض عليهم من تطـور جديد من خلال تجربة النـبي السـابق، لتظهر حكمة الله تعـالى في التشريع الجديد، وليشعر النبي وأتباعه أن هذا الفارق كان له ما يـبرره من حكمة الله تعالى، وهذا كله من رحمة الله تعالى بعباده.

لقد كان سـبحانه قـادرا {**لا يسأل عما يفعل**} أن يقيم هـذه الحيـاة في أسس وجودها القائمة على الصــراع بين إرادة الله ســبحانه وتعــالى وبين إرادة الشيطان، إرادة الله تعـالى الـتي تقـدم للنـاس الحـق، وتجـزي على الخـير الأجـور المضـاعفة، وبين إرادة الشـيطان الـتي تقـدم للنـاس الباطل، وتجزي أتباعها يوم القيامة {**إذ تبرأ الـذين اتبعـوا من الـذين اتبعـــوا**} وقوله لهم: {**وما كـــان لي عليكم من ســـلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم**} وغيرها من عبارات البراءة والإبعاد، لقد كان الله قادرا أن يقيم هـذه الحيـاة على هـذا الصراع من غير المقدمة التي تمت في السـماء والـتي تـبرر هـذا الصـراع على الإنسان، لكن الله سبحانه وتعالى حكيم ورحيم بعباده، فإنه قـدم لهم هـــذا الصـــراع مع مقدمة كونية حقيقية لتكـــون أدعى لقبـــولهم وأرجى لاستجابتهم، فسبحانه في علاه يدعوهم إلى الحق بكل الصور التي تدفعهم للقبـول والرضـا، إذ سـبحانه لا يشـرع لعبـاده من أمر إلا ويقطع لهم من الحقـــائق الكونية الـــتي تثبت لنفـــوس البشر التواقة للمعرفة أن ما قاله وشـرعه موافق لما خلقه وأبدعه، {**سـنريهم آياتنا في الآفـاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ**} وهذا قد حـدث مع حركة الأنبيـاء وسيرتهم مع أقوامهم، فما من نبيّ إلاّ وقد أغنى النّبيّ القادم بعده بتجربة يتواصل معها القـادم ليعطي ثمـرة أن يكـون أكـثر ونتيجة أعظم، ولـذلك فليس من الغـريب أكـثر الأنبيـاء أتباعـاً هم آخر الأنبيـاء، موسى وعيسى ومحمّد عليهم الصّلاة والسّلام، وعدد أتباعهم كثرة على التّـوالي، وأكـثرهم تابعاً هو محمّد صلى الله عليه وسلم، فها هو رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله تعالى كما دعا نوح عليه السّلام مـدّة ثلاثة عشر سـنة في مكّة فلم يستجب له إلاّ القليل كما قال عن نــوح {**وما آمن معه إلاّ قليل**}. ومحمّد عليه السّلام في دعوته على منهج نوح لم يســتجب له إلاّ القليـل، فشـرع لهم طريقـاً آخر في الـدّعوة وهو اجتمـاع كلمة الحـقّ مع القـوّة والسّـيف، فبهـذه الطّريق دخل النّـاس في دين الله تعـالى أفواجـاً، هكذا ينبغي أن نفهم قصص الأنبيـاء في القـرآن، وهي صـورة المقارنة بين طريقة الأوائل وطريقة محمّد صـلى الله عليه وسـلم ليعلّم أتباعه أنّهم هم الأقوى طريقاً والأسلم منهجاً، فلا يحيـدون عنه لأنّهم يـرون نتـائج الطّرائق الأولى ونتائج طريقة المتـأخّر، وللتّـدليل على هـذا الـذي قـدّمتُ أذكر هـذا الأمر وهو أنّ لوطا عليه السّلام في صـراعه مع قومه تمنّى أن يكـون معه شـــيء آخر في دعوته إلى الله غـــير الكلمة الحســـنة في مجابهته لقومه الكافرين، قـال لـوط عليه السّـلام: {**لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد**} هذه العبارة التي قالها لوط تحمل معها الـدّعاء والرّجـاء، إذ يتمنّى أن تكـون معه قـوّة لتسـاعده في الـدّعوة لأنّه اكتشف أنّه لا بـدّ أن يكون مع الكلمة قوّة يقاتل بها وركن شديد يؤوى إليه، فهذه تجربة نبويّة لا بدّ أن يستثمرها النّبيّ اللاحق وذلك بتشريع ربّانيّ. فكان الـذي بعـده لا بـدّ له من ركن شديد يأوي إليه، قال صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأ الآيــات

السّـــابقة {**لو أنّ لي بكم قـــوّة أو آوي إلى ركن شـــديد**} قـــال: ((رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عــزّ وجل - فما بعث الله بعـده من نـبيّ إلاّ في ثـروة من قومـه))، فـدلّ هـذا على تطوّر مسيرة الأنبياء في دعوتهم إلى الله بطريقة سننيّة، فإذا جـاء تشـريع جديد فهو بيّن الضّرورة، واضح السّبب.

لمــــاذا ذكـــــرت قصّـــــة ابـــــني آدم في القـــــرآن الكـــــريم؟:

لقد ظهر من قصّـة ابـني آدم أنّ النّفـوس البشـريّة لا ترتـدع بالكلمـة، ولنقل إن الكثير منها لا ترتدع بالكلمة وهو الأصل في النّفـوس، وأنّه لا بـدّ أن يشارك الكلمة الحسـنة الـتي تقنع العقل بالصّـواب عصـاً تـردع النّفس الرّاغبة في الشّر، لأنّ الإنسان قد يقتنع بالحقّ ويعلمه ويدركه، ولكن يمنعه من اتّباعه هـــوى النّفس وشـــهواتها، فلا بـــدّ من علاج القســـمين: الفكر والنّفس، فـالفكر يعـالج بالموعظة والـذّكرى والمجادلـة، والنّفس ترتـدع بالعصا والسّـيف، والرّهبة من العقـاب، وهـذا هو الصّـواب في التّربية كما أمر صلى الله عليه وسلم راعي الـبيت أن يعلّق العصا في بيته ليراها أهله تخويفاً لهم من ارتكاب المخالفـات، وتجربة ابن آدم الأوّل كشـفت لنا هـذا الأمر، فهذا أخ شـقيق (وجـود العاطفة النّسـبيّة الصّـلبيّة) تدفعه نفسه إلى قتل أخيه رغبة في الشّـهوة النّفسـيّة، فيعظه أخـوه {**إنّي أخـاف الله**} ويخوّفه العقاب {**فتكون من أصحاب النّار**}، ولكنّ هذه الشّهوة أعمته عن العاطفة الأخويّــة، وعن الموعظة العقليّة وعن رؤية العقــاب الآجــل، فقتله {**فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله**} ثمّ ذهب بعد ذلك نادمـاً {**فأصبح من النّادمين**}، لكنّ المعصية قد وقعت وقتل ابن آدم الصّالح. فهل تشريع ابن آدم الأوّل نفع في منع وقوع المعصية؟ أبـداً لم ينفـع. إذن لا بدّ من تشريع يمنع من وقوع المعصية.

كلمــات الله التّشــريعيّة، والعاطفة الجبلّيّة موانع ولكنّها ليست كافيــة، فجاء التّشريع الأخير، الخاتم لكلّ تشريع وفيه الحقّ المطلق بردع العاصي عن معصيته {**وإمّا تخافنّ من قوم خيانةً فانبذ إليهم على سواء**} و{**فشرّد بهم من خلفهم**} و{**فاضـربوا فـوق الأعنـاق واضـربوا منهم كلّ بنان**} و {**وما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض**} و{**ولا تأخـــذكم بهما رأفة في دين الله**} و{**واغلظ عليهم**} و{**وليجـــدوا فيكم غلظة**} و"قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سـبع سـماوات"،[1] حتّى وصل الأمر أن ترتعد فـرائص الأعـداء بمجـرّد سماع اسم المسلمين، وهذا تفسير قوله صلى الله عليه وسلم: ((نصـرت بـالرّعب))، لأنّ المسـلمين هم قـوم يتقرّبـون إلى الله بـذبح أعـداء اللـه، فالذّبح سجيّتهم، وبه يكـون العـالم سـالماً من المعاصي والـذّنوب إلاّ فيما قدّر الله سبحانه وتعالى.

فشـريعة محمّد صـلى الله عليه وسـلم هي الـتي تمنع وقـوع المعاصي واستفحالها:

- رجل سرق تقطع يده، فصاحب شهوة السّـرقة سيتحسّـس يـده ألف مرّة قبل أن يمدّ يده إلى دراهم غيره..

---

[1] - وذلك في حكم سعد بن معاذ في بني قريظة في قتل رجالهم.

- رجل يزني يرجم أو يجلد، فصاحب الشّهوة ستموت شهوة الجنس عنده بمجرّد تذكّره حرّ الحجارة أو ألم السّياط أو ذهاب سمعته بين النّاس..

- رجل يريد أن يرتدّ سيجفّ حلقه خوفاً قبل أن يستطرد ذهنه مع هذا الهاجس الشّيطانيّ.

أمّا شريعة ابن آدم الأوّل فقتلته، فأيهما أهدى سبيلا.. ((**أمتهوكون أنتم، والله لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلاّ اتّباعي**))، فاتّباع سبيل ابن آدم الأوّل في مطلق كفّ اليد عن الكافرين وأعداء الدّين.. تهوّكٌ وضلال.

العنف والسرية ومذهب كف الأيدي:

هل صحيح أنّ سبب انتكاسة الحركة الإسلاميّة بمجملها في الوصول إلى أهدافها هو تبنّيها منهج العنف واعتماد السرّيّة وسيلة في الحركة والعمل؟.

هذا ما يحاول خصوم المنهج إثباته وتقريره، وهم لهم طرق عدّة في إثبات هذه المقولة.

هؤلاء الخصوم تتفاوت درجاتهم في فهمهم للمنهج الصّدامي، فبعضهم يرى أنّه بمجرّد تبنّي الحركة الإسلاميّة للعمل السّياسيّ أو كما يسمّيه بعضهم الكفاح السّياسيّ يصبح المنهج صدامياً يعطي المبرّر للطّواغيت بضرب الحركة، وبعضهم مثل جماعة التّبليغ يرى أنّ مجرّد الحديث في السّياسة طريق مهلك للعمل الإسلاميّ، لأنّنا بذلك ندقّ نواقيس الخطر التي يتخوّف منها الطّغاة، ومن أعجب ما نرى ممّن ينتمي للإسلام أن نرى بعض المشايخ وخاصّة ممّن ينتمي للتّيّار السّلفي ويتدثّر بشعاره يعلن ويجعل وليّ الأمر في مرتبة لا يجوز أن يتحدّث عنها أحد بنقد أو تقويم، ولكن هل صحيح أنّ سبب ضرب الطّغاة للحركة الإسلاميّة تبنّيها العنف ؟.

إنّ طرح القرآن الكريم لعمليّة الصّراع بين الحقّ والباطل كطريق حتميّ في هذا السّبيل يجعلنا نثق أنّ البلاء لابدّ أن يقع على أيّ وجه من الوجوه، وأنّ الحقد الذي يكنّه الطّغاة لأهل التّوحيد قضيّة لا مفرّ منها ولا مهرب، لأنّ الباطل بذاته يكره الحقّ ويحقد عليه ولا يحتاج لمبرّر آخر لضربه وسحقه، فهذه علاقة جدليّة حتميّة لا مفرّ منها في لقاء الحقّ والباطل وفي تضاربهما.

ثمّ تعالوا إلى أرض الواقع لنرى أيّ نوع من العنف تبنّت الحركة الإسلاميّة حتّى كان ضربها عملاً لا مفرّ منه من قبل الطّغاة ؟.

إنّ جماعة "الإخوان المسلمين" هي التّجربة التي يحاول من خلالها أصحاب مدرسة كفّ الأيدي الاعتماد عليها في تقرير مبدأ أنّ استخدام العنف سبب شقاء العمل الإسلاميّ، هذا على الرّغم من أنّ هذه المدرسة لا تفتأ المرّة تلو المرّة، بمناسبة وغير مناسبة الإعلان أنّ بينها وبين منهج العنف عداء مستحكم أصيل، بل وتذهب أكثر من ذلك، وذلك بإعلانها أنّها لن تخرم موادّ الدّستور والقانون في أيّ عمل من أعمالها أو تصرّف من تصرّفاتها، وهي قد قبلت بكلّيّتها نتائج العمل الدّيمقراطيّ، حتّى أنّ رجلاً من رجالهم في برلمان الكويت يعلن بعد فوز الحكومة في إحدى قوانين الردّة والكفر فيقول هذا البرلمانيّ: لقد قبلنا بالدّيمقراطيّة كحكمٍ فعلينا

أن نرضى بنتائجها. لكن هل الضّربة التي تلقّتها جماعة الإخوان المسـلمين من عبد النّاصر هي بسبب تبنّي الجماعة لمنهج العنف ؟.

الجواب بكلّ وضوح: لا وألف لا، فـإنّ الجماعة منذ مؤسّسـها ومرشـدها الشّـيخ حسن البنّا إلى أن ضـربت زمن الرّجل الثّـاني في قيادتها وهو المحامي الهضيبي لم تخرم العمل السّلميّ قِيد - بكسر القـاف لا بفتحها - أنملة، فقد كـان الشّـيخ البنّا واضـحاً في عـدم تبنّيه العمل الصّـداميّ ضـدّ الحكومة المصريّة بقيادة ملوكها الكفـرة، فهو الـذي أمر جماعته أن تخـرج لاستقبال فاروق بعد عودته من إحدى أسفاره، وأمرها في هـذا الاسـتقبال أن تهتف له لتأييده وبرّر ذلك بقوله: إنّ على العالم أن يعـرف أنّ الشّـعب المصـريّ يحبّ مليكـه، ومعلـوم أنّ الأسـتاذ حسن الهضـيبي هو الـذي أمر بحلّ الجهاز الخاصّ، وهو الجهاز العسكريّ الذي كـان حسن البنّا قد أنشـأه من أجل قتـال الإنجلـيز، وهنا لا بـدّ من وقفة وهو أنّ كلمة الجهـاد الـتي ترفعها جماعة الإخوان المسلمين على معـنىً واحـد، ومفهـوم قاصـر، وهو جهـاد الأجنـبيّ: أي أن يجاهد المصـريّون الإنجلـيز، ويجاهد الفلسـطينيّون اليهود، ويجاهد الأفغان الرّوس، أمّا جهاد الكافر العـربيّ أو المرتـدّ العـربي فهذا لا يدور بخلدهم، فهو ليس له وجـود في أذهـانهم بسـبب عـدم وجـود المقدّمات الشّرعيّة لهـذا النّـوع من القتـال وهو فهم التّوحيد على أسـاس فهم الصّـحابة رضي الله عنهم، فالقائد الـذي لا يفتأ يـوزّع الرّحمـات والدّعوات بدخول الجنان للطّواغيت أمثـال عبد النّاصر والسّادات وغيرهما وأقصد الأسـتاذ عمر التّلمسـاني، لا يمكن أن يكـون على بصـيرة واضـحة لفهم التّوحيد الذي بعث به الرّسل، فجماعة الإخوان المسـلمين الـتي تُتّهم أنّها أفرزت الفكر الجهادي، أو كما يزعم تيّار الضّلال والبدعة، تيّـار مدرسة ربيع المدخلي وفريد المالكي وقد انضمّ إليهم أخيراً في تلك الزّفّة "جمعيّة إحياء التّراث الإسلاميّ" عن طريق مجلّتهم الضّالّة "الفرقـان"، هـذا التّيّـار المتـدثّر بلحـاء السّـلفيّة كـذباً وزوراً يتّهم جماعة الإخـوان المسـلمين أنّها مصدر الفكر السّلفيّ الجهـاديّ، فإنّها هي الـتي أوصـلت الشّـباب المسـلم إلى تكفـير الحكّـام، نقـول إنّ جماعة الإخـوان المسـلمين بريئة من هـذه التّهمة، لأنّ الجماعة بكلّ أدبيّاتها لم تدْعُ إلى شيء من ذلك البتّة، فسيبقى السّـؤال إذاً قائمـاً، لمـاذا ضـربت جماعة الإخـوان المسـلمين؟ هل لتبنّيها العنف مع الحكّـام؟ وأعـود وأقـول إنّ مفهـوم العنف والصّـداميّة مختلفة درجته عند تيّـار كـفّ الأيـدي، فهو متفـاوت بين الأسـتاذ محمّد سـرور مثلاً وبين جماعة التّبليـغ، فالأسـتاذ سـرور عند جماعة التّبليغ مثلاً هو صـداميّ المنهج، وطريقه مهلكة لأنّه بسـلوكه لطريق العمل السّياسـيّ عن طريق البيان والتّبليغ يعطي المبرّر للدّولة لضربه وتصفيته، بل إنّ الأسـتاذ سـرور بما هو عليه من سلوك طريق السّلامة ونبذ القتال، ونبز لجماعـات الجهـاد في العالم الإسلاميّ بأقبح الأوصاف متّهم من التيّار المذكور - تيّار السّلفيّة المزعومة - بأنّه من الخوارج، وهذا قاله أحد أعمدة هذا التيّـار وهو الشّـيخ عبد الله السّـبت، وهكـذا تـدور الـدّائرة.. سـرور يتّهم جماعـات الجهـاد بالخارجيّة، وسرور متّهم من جماعة السّـلفيين المزعومة بأنّه خـارجيّ، بل إنّ الشّـيخ عبد الـرّحمن عبد الخـالق متّهم عند البعض بأنّه يحمل فكر الخوارج، وهو يدعى ضالا فقط لأنّه أجاز للسّلفيين في الكـويت أن يتكتّلـوا وينتظمـوا ويمارسـوا العمل السّياسـي، وهكـذا تصـبح السّـاحة هي سـاحة

شـعارات جوفـاء لا يعقل النّاقل لها وكـذلك النّـاطق شـيئاً من مفهومها ومدلولها. إنّ مجرّد وجود جماعة تدعو إلى الله تعـالى، وتـدلّ النّـاس على الخــير، وتنشر في النّــاس الفضــيلة جماعة لن تكــون مقبولة من قبل الطّواغيت، ولن ترضى عنها حكومات الردّة في عالمنا المليء بالشّياطين، إنّ حكّامنا لا يحتملون وجود الأطهـار بين أظهـرهم، وهـذه نفسـيّة المرتـدّ، لأنّها مشتقّة من نفسيّة الشّيطان الـذي قـال: {**لأقعدنّ لهم صـراطك المستقيم**}، فهؤلاء يجب عليهم أن يقضوا على الخـير، سـواء تبـنى هـذا الخــير العنف أم لم يتبنّــاه، وهو يجب عليه أن يتبنّــاه ليحمي نفسه أوّلاً وليدمّر معاقل الشّياطين التي تمنع وصول الخير إلى النّاس.

في بلدة كانت تسمّى إسلاميّة، رئيسـها خـرّيج الجـامع الأزهر بالشّـهادة العالميّة في علم الأصول، انتخبه النّاس يوماً لأنّه رجل متديّن، هذا الحـاكم المرتدّ (عالم أصول) يمنع في بلده أن يتحدّث المشـايخ في المسـاجد عن حرمة الخمــر، ويمنعهم أن يتحــدّثوا عن الحجــاب، ومن خــالف فمصــيره السّجن والتّعـذيب، وهو يسـهّل الـدّعارة بدرجة عالية حتّى أني سـألت أحد الصّالحين في تلك البلدة عن سبب عزوف المتـديّنين من الـزّواج من بـني جلدتهم، فأجابني شاكياً إنّه من الصّعب جدّاً أن تجد في بلدتنا عذراء.

هذا الحاكم يلاحق النّاس بسبب طهرهم وعفافهم.

وفي النّهاية..

إن حملت السّلاح ستقتل..

وإن ركعت ستقتل..

إذاً احمل السّلاح ومت عزيزاً، وربّما تنادى في الأعالي: فلان شهيــد.

جوهر الخلاف بين مدرسة الجهاد والسلام :

بقليل من التّمعّن والنّظر يتـبيّن للفـاحص أنّ الخلاف بين مدرسة كـفّ الأيـدي والصّـبر وتـرك العنف والعمل الصّـداميّ، وبين المدرسة الجهاديّة السّلفيّة ليس خلافاً على باب من أبواب الفقه، وليس الخلاف حول مسألة فقهيّـة، يسع النّـاس الخلاف فيهـا، بل الخلاف حـول منهج ومنهج، بل يصل الخلاف إلى مســتوى طبيعة الفهم للإســلام وجــوهره، حيث تنظر بعض التيّـارات المـذكورة إلى الإسـلام من بُعد إنسـانيّ يعظّم فيها الإنسـان إلى درجة التأليـه، وهـذا يفـرز صـورة تعطي للعقل الإنسـانيّ حـقّ إلغـاء النّص تحت دعاوى أصوليّة كثـيرة، مثل مدرسة "الغائيّـة" أو مدرسة "المصـلحة" الـتي ينسـبونها كـذباً وزوراً للإمـام أبي إسـحاق الشّـاطبيّ، وأمّا المدرسة الجهاديّة فهي تتعامل مع القضــيّة من بُعد واحــد، وهو بعد العبوديّة لــربّ العالمين، وبه تلغى الأهواء التي تسمّى زوراً بالعقل والمنطق.

أعمـدة المدرسة المـذكورة الـتي مثّل صـورتها الأوضح جـودت سـعيد وتلامذته، تبيّن لنا فسـاد ما قـالوا في فهمهم للقصص القـرآني، وقبل ذلك فسـاد منهجهم في التّعامل مع الـوحي، والمنهج الأصـوليّ التّحليليّ للنّص، الذي أوصله إلى درجة الدّعوة إلى إلغاء قدسـيّة النّص، وكـذلك في فهمهم للسّنن القدريّة التي تتبجّح المدرسة أنّها رائدة هذا الباب وذلك أنّهم زعموا أنّهم أصحاب دعوة إلى الدّراسات السـننيّة في المجتمع والنّفس، ولا أدري إلى أيّ درجة من الفهم الثّاقب وصلوا في تحليلهم لحركة الخميـني، الـتي زعموا في أبحاثهم أنّ حركته ومنهجه في رمي الورود ضدّ الدّبّابات، وإلقاء

الابتسامات ضدّ فوّهات البنادق هي التي ضمنت النّجاح لحركته ضدّ الشّـاه وشرطته السّـرّيّة "السّـافاك"، وجيشه الـذي كـان يحضّـر كخـطّ أوّل ضـدّ الغزو الرّوسيّ من قبل الإدارة الغربيّـة! هل هـذه النّتيجة الـتي خرجـوا بها هي ممّا يسـتحقّ أن يـدخل في بـاب البحث العلميّ ؟ أو لنَقُل في مرتبة الكلام الذي يُستحقّ أن يحترم؟.

هل صحيح أنّ غاندي (أسـتاذ المدرسة الأوّل) بحركته السـلميّة السـلبيّة المزعومة هي الـتي ضـمنت له النّجـاح ضـدّ الآلة الإنجليزيّة في الهند ؟! فأوصـلته إلى تحقيق أهدافه وذلك حين أصـيب الجنـديّ الإنجلـيزيّ بعقـدة النّـدم فـألقى السّـلاح جانبـاً وتـرك الهند وشـأنها؟! أصـحيح أنّ هـذه هي الدّراسات السننيّة الواعية التي تتعامل مع الحدث باحترام وتقدير؟!.

لا أدري والله أمـام هـذا الغثـاء ما أقـول؟ وأنا لست هنا بصـدد دراسة حركة الخميـنيّ لأنّي أعتقد وإلى الآن أنّ حركته في التّغيـير كـانت كجبل الثّلج الطّـافي على المـاء، إذ يمثّل الجـانب المخفيّ منه أكـثر بكثـير من الجـانب الطّـافي، وحركة الخميـني ولا شـكّ أصـابت الكثـير من الـرّؤوس المفكّرة، والقيادات الحركيّة بالصّـدمة، إذ ظنّوها هي النّمـوذج الأصـلح في التّغيير، فبعض الحركات خرجت بنتيجة اعتماد نظريّة حركة الجمـاهير، وأنّ الشّعوب هي الرقم الصّعب، وهي القـادرة على خـوض المعركـة، وتحقيق النّتائج، ولو أردنا أن نردّ على هذه النّتيجة بصـورة مقابلة لها تنقضـها لرأينا أنّ تجربة الإنقـاذ في الجزائر مثّلت الجـانب السّـلبيّ لهـذه النّظريّـة، وأنّ الجمـاهير كعـدد لا تشـكّل الـرقم الصّـعب في التّغيـير، فلو قـال قائل أنّ العمل النّخبـويّ الطّليعيّ هو القـادر على تحصـيل النتـائج لاحتجّ بـآلاف التّجـارب الانقلابيّة في العـالم القـديم والحـديث، فليس بمثل هـذه الأبعـاد الفكريّة السّـاذجة تنـاقش حركة التّغيـير الانقلابيـة، لأنّ أعظم البـاحثين والعاملين في هذه المسألة سـيقول لـك: إنّ أعظم النّـاس إدراكـاً لطبيعة عدوّه وحقيقته، ولطبيعة واقعه لن يستطيع أن يجزم بنتـائج الحركة الثّوريّة الانقلابية، بل إنّ النّبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم لم يكن يـدري ما يفعل به، ولولا الوحي الإلهيّ المبشّر بحصـول الظّفر لما كـان لبشر - أيّ بشر - أن يخبرنا جزماً بنتيجة حركة التغيير وسـبب ذلك أنّ حركة التغيـير الثـوريّ الانقلابيّ هي من أشـقّ ما يقع في الوجـود من تفـاعلات، وعناصر هـذا التفاعل تشـمل عناصر الوجـود بأكملـه، ثمّ إنّ من عناصر هـذا التّفاعل الإنسـان، وهو ليس بعنصر جامد خـالي الإرادة، فـإلى أيّ درجة سيضـمن القائد هذا الـرقم المتغيّـر، والجمـاهير على مـدار التّـاريخ ضـعيفة الإدراك، يسـيطر عليها عقليّة وغريـزة القطيـع، فبلمسة ذكيّة تصـبح الهتافـات في اتّجاه معاكس إذا فقد اللاعب بعض بريقه أو إذا دخل عامل جديد على هذا التّفاعل الواقع.

حركة الخميني حركة معقّدة، دخلت فيها الكثـير من العناصـر، المعلـوم منها والمجهول، الأصـيل فيها والـدّخيل، فكيف لعقلي الصّـغير، ولنفسـيّتي التي تحلّل الأشياء تآمريّاً أن أقبل القول أنّ الخميني بإخلاصه - مع كفره - قبلت منه فرنسا أن يـــركب من مطاراتها وينطلق كمخلّص لمجتمعه من نير العبوديّة للغرب، من غـير أن يقـدّم الخميـنيّ شـيئاً من إخلاصه لشـعبه مقابل هذا الصّنيع الفرنسي، بل الدوليّ.

نرجوكم: قليلاً من احـترام العقل يا أصـحاب العبوديّة للعقل والمنطـق، لأنّه ليس من العقل ولا من المنطق أن يقول لي جـودت سـعيد ومدرسـته أنّه بمجرّد أن أمر الخمينيّ الشّعب الإيرانيّ أن يواجه جيش الشّاه بـالورود والقبلات حصـلت المعجـزة ووقع النّصر وتحقّق السّـرّ الـذي لم تكتشـفه الحركات الإسلاميّة!!.

ويقـال كـذلك بمثل هـذا القـول في استشـهادهم بحركة غانـدي ضـدّ الاحتلال الإنجلـيزيّ للهنـد، ويقـال هنا على الخصـوص: لمـاذا ألغت هـذه المدرسة ما كـان ظـاهراً كنـور الشّـمس ضـياءً ووضـوحاً، وهو أنّ غانـدي صنيعة إنجليزيّة أوجدوها لتحقيق الهدف بسلب المسلمين حقّ قيـادة الهند ورئاسـتها، إذ من المعلـوم أنّ حركة الجهـاد في الهند كـانت على أشـدّها بقيادة العلماء المسلمين من مدرسة "ديوبند" ومشايخ أهل الحـديث، فإنّه قد علم القاصي والدّاني أنّه لم يُطلق طلقة واحدة ضـدّ الإنجلـيز في الهند إلاّ من قبل المسـلمين، فحركة التّحـرّر من الاسـتعمار كـان المسـلمون وقودها ودثارها، وأدرك الاستعمار الإنجليزيّ أنّه لا بدّ من ترك الهند، ولا بدّ من وجود بديل وراءه يحقّق له أهدافه، وهي صورة تكرّرت في كـلّ البلاد، فلا بـدّ من صـنع الصّـنم، فكـان غانـدي، حيث طبّلت له صـحافة الغـرب وأظهرته بصـورة القـدّيس المخلص؛ رجل وطـنيّ يلبس من قطن بلاده، ويلتحف بلبـاس القدّيسـين والزّهّـاد، والأطمّ من ذلك هي عنـزته، هـذا الحيوان السرّ، الذي يصرّ غاندي على اصطحابها في كلّ أسـفاره حتّى وهو في أوروبّا إذ أنّه يصـرّ أن لا يشـرب إلاّ من لبن عنـز بلاده، وهي مهزلة تقتلك من القهـر، لما فيها من احتقـار للعقـل، والأدهى من ذلك أنّ النّـاس يهلّلون - طبقـاً لعقليّة القطيع - ويعظّمـون هـذا القـدّيس القـادم من رحم الغيب "غانـدي"، لكن دعـوني - بصـفتي رجـل قـرّر أن لا يلغي عقله - أن يسأل بعض الأسئلة، وهي أسئلة بريئة شهد اللّه:

1 - هل كانت عنـزة غاندي تأكل أم أنّها لا تأكل؟.

2 - هل كانت عنـزة غاندي تبرّز وتتغوّط أم أنّها من أصحاب السرّ؟.

3 - هل كـانت العنــزة تـدفع أجـرة الطّـائرة في سـفرها من الهند إلى أوروبّا أم لا؟.

ولا أدري هل فهمت الأسـئلة أم أنّها أسـئلة صـبيان كما يريد أن يجعلنا جودت سعيد ومدرسته؟.

مذهب ابن آدم الأول والتصوف الفكري :

إنّ ملاحقة أهل البدع وكشف سـترهم هو منهج أهل الحـقّ، وخاصّـة إذا صـار البـدعيّ داعيـاً إلى بدعتـه، مزيّنـاً لها أمـام النّـاظرين، إنّ الخلاف الحاصل بين جماعـات الجهـاد السّـلفيّة وبين غـيرهم من جماعـات العمل الإسلاميّ الأخرى خلاف منهجيّ، وليس خلافاً فرعيّاً، ومـدار الخلاف حـول الصّـواب في فهم السّـلف لتوحيـديّ الشّـرع والقـدر، ثمّ حـول المنهج الأصولي في فهم النّصّ وتحليله، والذين يريـدون أن يهوّنـوا من شـأن هـذا الخلاف جديرون بأن يخرجوا من زمـرة الفقهـاء لواقع المنـاهج المطروحة على السّـاحة، ومن زمـرة أهل البصـيرة لمنـاهج السّـلف في التّوحيد والأصول.

لعلّنا أطلقنا القليل من النّفَس في مناقشة مدرسة مـــــــذهب ابن آدم الأوّل كما يسمّون أنفسهم، وسـبب ذلك هو أنّ هـذا المـذهب تسـتقي منه أغلب جماعـات نبذ العنف والعمل الصّـدامي، فبعضـهم يسـتقي منه حتّى التّضـلّع، وبعضـهم يأخذ منه لمّة أو لمّـات، بحسب ما يلائمه من الهـوى والاستحسـان، وقد رأينا كيف تقلب هـذه الجماعـات حقـائق الوجـود، وتقريـرات الفطـرة، وكـان من أبـرز ما دعت إليه من هـذا الباطل ما قاله جودت سعيد، وكذا تلميذه خالص جلبي من أنّنا علينا أن لا نـرهب السّـجن، ولا نعاديه، ولا نطالب بـإخراج المسـاجين من إخواننـا، بل علينا أن نطـالب بأن يذهبوا بنا نحن كذلك إلى السّجن، وقولهم هذا واضح تمام الوضوح في مخالفته لفطـرة الإنسـان السـويّ، فـإنّ الإنسـان السّـويّ يكـره القيد ولا يشتهيه، بل يحـاول جاهـداً أن يخـرج منه إن وقع فيـه، ولكن حيث أثّر قيح الفكر الصّوفيّ في كلّ جوانب الحياة، فغاير بين الحقائق، فشـتم الصّـواب وعابه، ومدح الخطأ وشجّع عليه، وهذا الذي قالوه ينسجم تمـام الانسـجام مع نتـائج الفكر الصّـوفيّ، فنحن نعلم ما يمـدح التّلاميذ به شـيوخهم هـذه الأيّـام، حيث يقولـون مثلاً: إنّ شـيخنا - حفظه الله - لا يقـرأ الصّـحف ولا يسمع الرّاديو ولا ينظر إلى التّلفزيون.. و...، فشيخنا مشـغول طـوال وقته بين كتب الأوائل!!.

وهذا الذي قالوه يعيب الشّيخ ويحقره أكثر ممّا يمدحه، وقد وجد كـذلك من يمدح العزوبيّة في العلماء، لأنّ انشغالهم في العلم منعهم من الـزّواج، أو أنّهم كما قالوا آثروا العلم على الزّواج، ولا ندري كيف يُمدح المـرء بـأن يجاهد نفسه ليغيّر فطرته وبشـريّته؟! فهل يقـوى؟! الجـواب: بـالنفي.. بل نجزم أنّه يضيع الأوقات الكثيرة من تفكيره بهذه الفطـرة الـتي فطر عليها أكـثر من انشـغاله في بيته وزوجه إذا كـان محصـناً (هـذا إن كـان سـويّاً)، ويكفيه مدحاً أنّ الشّارع أطلق على المتزوّج لفظ المحصن.

وهكـذا بفضل الفكر الصّـوفيّ تنقلب الحقـائق، ومن أراد المزيد فعليه بكتب طبقات الأولياء ليرى العجب العجـاب أمثـال كتـاب: "جـامع كرامـات الأولياء" ليوسف النّبهاني، و"الطبقات الكبرى" للكبريت الأحمر الشّـعراني وأمثالها.

فها هو جـودت سـعيد وتلميـذه ومدرسـته يريـدون من الأمّة ومن الأئمّة ومن الدّعاة إلى الله أن يـذهبوا إلى السّـجن باختيـارهم، فهل قـولهم هـذا ممّا يستحقّ أن يناقش من وجهة نظر شرعيّة، أم أنّ الأولى بنا أن نناقشه من بـــاب دخوله في أقـــوال المكلّفين أو المعـــذورين؟! أظنّ الثّانية هي الأولى مع مثل هذه الأقوال، لكن ما يجب أن نقوله ونذكّر به هؤلاء النّوكى بحقيقة السّجون في العالم المرتـدّ، وهل يجـوز للمسـلم وقد علم حقيقتها أن يقول مثل قولهم، مع التّذكير مرّة أخرى أنّ رسالة جـودت سـعيد الـتي قال فيها هذا القول رسالة موجّهة للشّباب المسلم في الجزائر إبّـان حمى الدّعوة إلى إحياء الدّولة الإسلاميّة.

إنّ السّـجن في العـالم المعاصر وخاصّـة في بلاد الـردّة لم يعـد حبسـا فقـط، حيث يوضع المـرء في جبّ يمنعه من ممارسة بشـريّته في الحيـاة وحركتها؛ فيمنع من أهله وبيته وعمله، بل صارت السّجون آلاما لا تقوى لها النّفس البشـريّة بحـال، وعلينا على الـدّوام أن نتـذكّر صـنائع المرتـدّين مع المسلمين في كـلّ وقت وحين، لتبقى قلوبنا ونفوسـنا مليئة بـالبغض لهم،

وعدم التّفكير البتّة بالعفو عنهم أو مسامحتهم، وإن أقـلّ ما يحكم فيهم إذا ظفر المسلم بهم هو حكم سعد بن معاذ - رضي الله عنه - في حلفائه من بـــني قريظـــة، حيث حكم أن تقتل مقـــاتلتهم، وكـــلّ من بلغ منهم الحلم، وتسـبى نسـاؤهم، وتغنم أمـوالهم، وهو حكم الله تعـالى من فـوق سـبع سماوات، إن ما نراه من ضعف ذاكرة قادة الحركات الإسلاميّة مع خصـوم الإسلام جدّ مؤلم، ولا يتلاءم مع طبيعة المعركة بيننا وبين هؤلاء المرتدّين.

الإسلام بين منهجين :
الجهاد وابن آدم الأول

كان ممّا قالته هذه المدرسة، ودعت النّاس إليه ترك أيّ إشارة أو كلمة فيها عداوة لأعداء الدّين، حيث يقـول جـودت سـعيد: أن نكـون شـهداء لله وقوّامين بالقسط مع الذين يسيئون إلينا، وعلينا أن ندرّب أنفسنا أن نكـون كذلك، ونتواصى بذلك، ونتواصى بالصّبر عليه، حتّى أنّنا لســنا في حاجة أن نطلق لفظ العدوّ عليهم، وإنّما اختلفنا في التّفسـير، والله تعـالى علّمنا أن نقول: {وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مـبين}.ا.هــ. هـذا الـذي قاله جـودت سـعيد تمارسه الكثـير من الحركـات المنتسـبة للإسـلام، فـالإخوان المسلمون ما زالوا يردّدون صباح مساء أنّ النّصارى إخوانهم، كما ورد في بيان لهم تحت عنوان: "بيان للنّاس"، وما مؤتمرات الحـوار بين الأديـان إلاّ صورة مثلى لمثل هـذا الانحـراف الخطـير، وهـؤلاء القـوم يمارسـون هـذه الأخلاق التي يزعمونها حسـنة، ولكنّها على حسـاب الإسـلام، فالإسـلام هو الذي يجني الثّمار السّيّئة لهذه الأفعال القبيحـة، وهـذه المقولة وغيرها من المقولات تؤكّد ما قلنا مراراً من أنّ هـؤلاء القـوم يفقـدون الفهم الصّحيح للبّ هذا الدين وجوهره، وحكمته التي إن لم يفقهها المرء فقد الرّشد كلّه، واضطربت رؤاه وتصوّراته، وجوهر الدّين قـائم على العبوديّة لـربّ العبـاد، وأنّ الإنسـان عبد لهـذا الإله الحـقّ، فليس له من قـول يـراه، ولا مـذهب ينتحله سـوى ما أراده الله تعـالى لـه، فهو لا يقـدّم قـولاً على قـول الله سبحانه وتعالى، ولا يـؤثر رابطة على رابطة عبوديّته لـربّ العـالمين، فـإذا أخطأ المرء هذه القضية أخطأ الدّين كلّه، وتظهر حينئـذٍ المفارقة بين منهج عبودية الله ومنهج متّبع الهوى والرأي الذّاتي.

من فهم الأولى وآمن بهـــا، واعتقـــدها على ما هي عليه فإنّه يحـــارب الخلق ويعاديهم، أو يحبّهم ويواليهم بمقدار قربهم من الله تعالى أو بعـدهم عنه، فهو يحارب من حارب الله، ويعادي من كفر باللـه.. {قـاتلوا الـذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر}. وقوله صلى الله عليه وسلم: ((وقاتلوا من كفر بالله)). فعلّة حركته العدائيّة نحو مجموعة من الخلق هي عـداؤهم لله تعالى، ولو كانت هـذه المجموعة من أكـثر النّـاس إحسـاناً له وعطفا عليه كأن يكون والده أو والدته، فإنّ المسلم لا ترتجّف يده قط وهو يذبح والده أو أخاه أو ابنه إن وقف هؤلاء مع صفّ الكفر، أي صـفّ العـداء لله تعـالى، وهو كـذلك يحبّ من أحبّ الله تعـالى، ويـدافع عنـه، وسـيؤثره على نفسه وإن كان من قوم لا يعرفهم أو يعرفونه، إذا فهمت هذه النّكتة فـإنّ المـرء لا يسـأل عن موقف ظهر منه التّنـاقض بين إحسـان قـوم له وبين سـعيه الجادّ في قتـالهم وقتلهم، فعلّة حـرب المسـلم للنّـاس جميعـاً هو كفـرهم بالله تعالى، لأنّهم يسبّون الله سيد المؤمنين، وحيث سبّ سيّد العبد، فـإنّ

على العبد أن ينتقم لسـيّده لأنّه لا يرضى لسـيّده وحبيبه أن يتطـاول عليه أحـد، أو أن يتّهمه أحد بما ليس فيـه، كـأن يقـول: إن سـيّده وحبيبه وإلهه ثالث ثلاثـة، أو أنّ فيه بعض صـفات النّقص كادّعـاء الشّـريك لـه، أو اتّهامه بعـدم قــدسيّة حكمته في شـرعه وقـدره، أمّا إذا كـان الرّجل من الصّـنف الثّاني، وهو من عامل النّاس على أساس معـاملتهم معه فإنّه شـاء أم أبى سيكون قد سيَّدَ ذاته، وألّه هواه، وهو لا يلتفت إلى جانب رضى الله تعـالى عن الخلق أو غضبه عليه، وهذا هو مظهر تأليه الإنسان لذاته أو لغــيره من البشر، وهذه النّقطة هي التي أوجـدت الفقه السّـيء في أمّتنا نحو الجهـاد والقتال، فالجهاد في ديننا في سـبيل الله تعـالى، أي أنه متعلّق برضى الله وغضــبه، فنحن نقاتل من أغضب الله ولو أحسن إلينا أو ادّعى الإحســـان، ونحن نكفّ عمّن رضي الله عنه، ولو أسـاء إلينا كـلّ الإسـاءة، وهـذا يظهر بوضــوح في مســألة الخــروج على الحــاكم الكــافر، فإنّه بمجـرّد أن يكفر الحاكم، يجب الخروج عليه، وبـذل النّفـوس رخيصة في سـبيل ذلـك، بغضّ النّظر عن كون الحاكم خرج عن الإسـلام في نفسـه، ولم يتعـدّ كفـره إلى غيره أم خرج من الإسلام وتعـدّى كفره إلى غيره، فعلّة الخروج هي الكفر بالله تعالى، الذي أمرنا بهذا الأمر، هو الذي أمرنا أن نصبر على جور الأئمّة إذا وقع على الرّعيّة كقوله صلى الله عليه وسلم: ((وأطع أمــيرك وإن جلد ظهرك وأخذ مالك))، وعلى أساس هذا الأمر ادّعى قوم عـدم وجـود جهـاد الطّلب، وقصروا الجهاد على جهاد الدّفع، وهذا الذي قالوه لم يقله أحد من الأوائل كما قدّمنا عند مناقشـتنا لمحمّد سـعيد رمضـان البـوطي، وهـذا هو الذي دفع أقواماً إلى إنكار حـدّ الـردّة، حيث زعمـوا أنّ الـردّة الـتي يقاتل النّاس عليها هي الخروج المسلّح ضدّ الدّولة، وليس هو الكفر بالله تعـالى، وجعلوا يخبطون في الظّلمات بتـأويلات فاسـدة مثل قـولهم: إنّ قتـال أبي بكر الصــدّيق رضي الله عنه للمرتـــدّين لخـــروجهم عن الدّولة وحكم أبي بكر، أي قتال سياسيّ حسب تقسيمهم، وليس هو قتال من أجل حــقّ الله تعالى، فأنت تـرى العلّة في الخلاف ليست فرعيّة في فهم النّصـوص على غير محلّها، ولكن في فهمهم لحكمة الـدّين وحقيقتـه، فهو خلاف بين منهج ومنهج، والخلاف بينهما أشد من خلاف أهل الحـديث والمعتزلـة، لأنّ أغلب ما قاله المعتزلة قاله هؤلاء وأشدّ منه كذلك، وموقف هـذا التّيّـار من منهج أهل الحديث معروف، سطّر في كتب أصحابه.

هذه المدرسة التي تضلّعت بالرأي الفاسد، والأصـول البدعيّة اضـطرت لتوافق منهجها أن تقـول بـترك عـداوة أعـداء الملّة والـدّين، وكلام جـودت سعيد المتقدّم هو في حقّ الفرانكفونيين العلمــانيين في الجزائر وليس مع جماعة من أهل السنّة والجماعــة. حتّى أننا لســنا في حاجة أن نطلق لفظ العــدو عليهم، وإنّما اختلفنا في التّفســير، وهـذا الـذي قاله لا نـدري أقاله لحظة جذبة عرفانيّة أم صـحو وإفـــاقة؟ فما هو الشّــيء الـذي اختلفنا في تفسـيره ؟ أهي آيـات الله تعــالى التّشـريعيّة الـتي اختلفنا حولهـا؟ إذ أنّ العلمانيين في ذهنية هذا المفكّر قـوم أخطـأوا في تفسـير القـرآن الكـريم وأنزلوا آياته على غير محلّها ؟.

ثمّ هل قضيّة إظهار عداوتنا لأعداء الله خاضعة للرّأي أم هي من أسس توحيد المسلم؟. إنّ الله سبحانه وتعالى بعث محمّدا صلى الله عليه وسلم لهدم الأوثان وتجريد الطّواغيت من قداسـتها الزّائفة وهـذا لا يقع إلاّ بعيب

الآلهة الباطلة، فقد كـان منهجه صـلى الله عليه وسـلم في دعوته إلى الله بيـان ضـلال ما عليه البشر من عبـادة غـير الله تعـالى، فقد عـاب آلهتهم، وسبّ آباءهم، وسخر من أوثانهم، لأنّه لا يتمّ التّوحيد الحقّ إلاّ بـالبراءة من الطّواغيت وعبّادهم كما قال إبراهيم عليه السّلام لقومـه: {إنّا بـرءاء منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم، وبـدا بيننا وبينكم العـداوة والبغضـاء أبـداً حتّى تؤمنـوا بالله وحـده}. وهـذا الـذي قاله أبو الأنبيـاء عليه الصّـلاة والسّلام قاله في زمن الاستضعاف، وقلّة النّاصـرين، وهو الـذي فعله نـبيّ الرّحمة والملحمة، فأمـر الـبراءة من الكـافرين وعبـادتهم ليس ممّا يـدخل في بـاب المصـلحة، فـإنّ إبـراهيم عليه السّـلام قـال: {وبـدا بيننا وبينكم العـداوة والبغضـاء}، فقـدّم العـداوة وهي أمر ظـاهر بيّن غـير ظنّي على البغضـاء وهي أمر قلـبيّ خفيّ، ثمّ ليعلم المسـلم أن قوله للعلمـانيين: إنّنا اختلفنا معكم في التّفسـير، هو تصـويب لعبـادتهم ودينهم، وهو افـتراض وجـود الصّـواب عنـدهم، وهـذا أمر لا يقوله مسـلم، فـإنّ المسـلم الموحّد يجزم بكفر ما عليه العلمانيّون، وهكذا يظهر الخلاف مـرّة أخـرى بين منهج العبوديّة لربّ الأرباب، وبين منهج تأليه البشر وأهوائهم، فإذا علّق المسـلم بغضه للكافرين بكـونهم أعـداء لله فلن يرضى إلاّ بـأن يـرمي الحقيقة في وجوههم، ولا تدخل المصالح في هذا الباب البتّـة، وأمّا إذا اتّبع المنهج الآخر فإنه سيبقى جاهداً لإرضاء خصوم الحقّ وأعداء الدّين.

وههنا نصيحة لطلاّب الحقّ وناشديه أن لا يلتفتوا إلى أقوال المعاصـرين ولا ينتبهـوا لها إلاّ بعد عرضـها على منهج الأوائـل، فـإنّ حقيقة الـدّين في الاتّباع وترك الابتـداع، وهـذا أصل من أصـوله الـتي لا يقـوم إلاّ بهـا، وحيث ظنّ المرء أنّه قادر بذكائه أن يبتدع ديناً جديـداً فهو على خطر عظيم، وإن زعم انتسـابه إلى الإسـلام، فعليك أخي المسـلم بمنهج الأوائل فـالخير كلّه في اتّباع من سلف.

موجبات وجود جماعات الجهاد في العالم (3) :

من موجبات وجود جماعات الجهاد في العـالم كـون الجهـاد هو السـبيل الأجلى والأقوى في تجلية حقائق الرجال وقدراتهم، فبه تتمحّص النفــوس، فتظهر على حقيقتهـا، فيقـدَّم حينئذ من يقدِّمه الجهـاد، ويـؤخَّر من يـؤخِّره الجهاد.

إنّ أمـراض الحركـات الإسـلامية كثـيرة جـداً، وإنّ من أعظم أمراضِـها التي تعاني منها وصول أنصاف الرجال أو أرباعهم أو أعشارهم إلى القيادة بسهولة ويسر، فبعض الجماعـات تقـدِّم الأكـثر ثـراءً ومـالاً، وبعضـها يقـدِّم الأكثر مرتبةً في الوظيفة أو العشـيرة، وبعضـها يقـدّم الأبلغ خطابـاً وبيانـاً، وهـذه ليست من ميِّزات القيـادة في شـيء، بل إنّ تقـديم هـذه الأوصـاف لعلّـةِ هـذه الأوصـاف يجـني على الحركة ويقضي عليهـا، وهـذا هو الواقع والحاصل في الحركاتِ الإسلاميّة فإنّ مما يلاحظه الناظر لبعض الحركـات الإسلاميّة التقليديّة أنّه كلما ارتفع الرّجل في السلّم القيادي داخل الجماعة كلّما سَفُلَ تديّنه، وقلّت صلته بحقائق هذا الدّين، وصـار أقـرب إلى الفسق منه إلى الإيمان، فـأنت تنظر إلى جماعة من الجماعـات الـتي ملأت الـدنيا شهرة وصـيتاً ثمّ تحـاول أن تـرى شـيئاً يميّز القيـادة في علمها أو دينها أو قدرتها الإداريّة فلا تـرى إلاّ مسـوخاً من الرّجـال، إذا تكلّم أتى بالمصـائب،

وإذا قرر أودى بالجماعة إلى المهالك، ولسنا بحاجة إلى التّذكير أنّ مراقبـاً لهـذه الجماعة في بلـدٍ من البلاد مُنِع من اللقـاءات الصـحفيّة بعد لقـاء - مصيبة - مع إحدى الصّحف حيث ظهر أنّه لا يصلح إلاّ وراء بسْطة (طاولة) من بسطات بائعي البَندورة، وإذا حوجحت الجماعة لماذا هذا ؟، قـالوا لنـا: هذا قائد رمز فقط، وليس بيده شيءٌ من حقائق الإدارة والقيادة، ولا أدري كيف تقبل الجماعـات الإسـلاميّة بمثل هـذه الألاعيب (أن تسـمي رجلاً من الرجال رمزاً)؟، وكيف يقبل هذا الرجل إن كان رجلاً أن يكون رمزاً؟!.

في بلد من بلاد الـردّة سـمِّيت قيـادةٌ من قيـاداتِ الجماعة الإسـلاميّة المذكورة بـ "الشّـركة" أي أنّ مجلس الشـورى سـمّي بشـركة فلان (قائد الجماعة): لأنّ قيادة الجماعة كلّها من أسـرة هـذا القائـد، فهـذا من بلـده، وهذا زوج ابنته، وهذا نسيبه وهذا شريكه، وهـذا صـاحبه، فحـقّ للقواعد أن تسمّي قيادة الجماعة بشركة هذا المـراقب العـام لهـذه الجماعة في هـذا البلد.

الجماعات المعاصرة: الاختراق والتراص

حين تصبح الجماعة مهمّتها توصيل الرجال (رجالها) إلى البرلمان، فمن المقدّم حينئذٍ في هذه الجماعة؟:

1 - لأنّها تحاول جاهدة لكسب أصوات العشائريين، ورجال القبائل فإنّها ستتغاضى عن الكثـير من المواصـفات والميّـزات في الرجـال مقابل أن تبحث عن رجل تـدفع له عشـيرته أصـواتها، فحينئـذٍ المقـدَّم هو رجل عشائريّ.

2 - ولأنّها بحاجة إلى المـال من أجل الدعاية الانتخابية فإنّها سـتقدّم الرجل الأكـثر مـالاً، وستتغاضى عن الكثـير من الصـفات الشّـرعيّة للعدالة حتى تستفيد من قدراته الماليّة.

هـذه الخـروق وغيرها تجعل وصـول الوصـوليين والانتهـازيين والنّفعـيين والعملاء إلى القيـادة سـهلاً وميسـوراً، وقد كـان، وهـذا حـال الكثـير من التنظيمـات والتّكتّلات والتّجمّعـات الإسـلاميّة، حتّى المراكز الإسـلاميّة لو نظرنا إلى القائمين عليها لرأيناهم على الحال الذي تقدّم وصفه.

وحتّى لا أبتعد في ذكر المطلقات فسأمرّ على بعض الحوادث التي تبيّن حـال قيـادات العمل الإسـلامي، وهي في الحقيقة أسئلة موجّهة إلى هـذه الحركات لتجيب عليها، وهي أسـئلة عليهم أن ينظّفـوا أنفسـهم من تَبِعاتها قبل أن يتطـاولوا بأنفسـهم كالـدّخان في اتّهـام الآخـرين، وادّعـاء العلميّة والموضوعيّة، أو ادّعاء تصفيّة الصّف من المنافقين والمخابرات:

أ) هنـاك رجل مصـريّ، هـرب من مصر إلى بلاد الشّـام واسم هـذا الشّـخص نجيب جويفـل، ظهر بعد ذلك أنّه رجـلٌ مخـابراتيّ من الدرجة الأولى، هذا الشّخص كـان له مهمّة تغيـير القيـادة في بلاد الشّـام - الأردن وسـوريّا ولبنـان - وقد نجح، فقد أزال الشّـيخ أبي قـورة من الأردن عن منصب المراقب العام، وعيّن غيره في ليلة ليلاء ولم يُعـرف إلى الآن سـرّ التّغيـير، وحـدث كـذلك في سـورية ولبنـان?.. الرجـاء كشف سـرّ نجيب جويفل.

ب) حين يعـترف القائد المنظّـر، شـيخ المشـايخ أنّه جلس مع ضـبّاط مخابرات من أجل دعمه لنشر كتابه "وجاء دور المجوس" الذي نشره بغير

اسمه، أجاز لنفسه أن يتعاون مع الدّولة السّعوديّة ضدّ الشّيعة الـرّوافض، فماذا يسمّى هذا الفعل.

نعم إنّ تصفية الصّف المسلم مهمّةٌ عظيمة، ولكن من الجهل الفاضـح، والعلميّة المفقـودة تبـني القـول: إنّ جماعـات العنف المسلّح، والجهـاد القتالي هي الأكثر عرضة للاخـتراق، فليس هنـاك من مقـدّمات موضـوعيّة لهذا الحكم القطعيّ، ثمّ أليس القول إنّ جماعة من الجماعـات حين تجعل القيادة تـؤول مباشـرة إلى الأكـبر سنّاً مثلاً، هي جماعة تـؤول قيادتها إلى غير مقدّمات شـرعيّة معتـبرة، ثمّ لقد كـان هنـاك اخـتراق لكـلّ الصّـفوف ولكن لو رأينا النّتيجة التّالية لتـبينت لنا مقاصد الاخـتراق عند كـلّ جماعة لنعرف قيمة كلّ جماعة على حدة.؟

- اختراق الجماعات الأخرى يؤدي بهؤلاء العملاء إلى القيادة والسّـيادة والرّياسة.
- اختراق جماعات التوحيد والجهاد يؤدّي إلى الموت والقتل.

الابتلاء والامتحان

لو أراد بـاحث منصف أن يـرى خصيصة تمـيز بها الصـادقون في هـذه الأمة، وشارة جمعت العلماء الأفـذاذ لـرأى بكل وضـوح أن هـذه الخصيصة والمـيزة هي الابتلاء، وهـذا مصـداق حـديث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: ((أشد النـاس بلاء الأنبيـاء، ثم الأمثل فالأمثـل)).. و((يبتلى الرجل على قدر دينه))، ولكن ما يلاحظه المرء كذلك بوضـوح أن وصـول القيـادة في هذا الزمان، واعتلاء منصة الزعامة (أعني في الحركات الإسـلامية) هو طريق لا يمر أبدا عن طريق الابتلاء والامتحان، بل يمر عـبر طريق لا يعـبر بحق عن صدق الرجل وانتمائه لهذا الدين.

وعلى ضـوء هـذا يجـوز لنا أن نسـأل بعض الأسـئلة البريئة مع بعض المقدمات الضرورية:

1 - الـذين يطـالبون الأمة بـاحترام العلمـاء لكـونهم ورثة علم السـلف، ولكـونهم رفعـوا راية السـلف، لو قلنا لهم التـالي: لمـاذا كـان ينتهي أمر السـلف دوما بالسـجن أو القتل أو النفي مع أنهم يعيشـون في ظل دولة إسلامية؟، ولماذا زعمـاء وزاعمـوا وراثة السـلف ينتهي بهم الأمر في دولة مرتدة كافرة أن يكونوا وزراء ومقربين عند قادة هـذه الـدول؟ هل انقلبت السنة الكونية في حقهم؟ أم أن الجواب يكشف عوار ممثلي راية السـلف المزعومة؟.

2- الذين يريدون أن يصفوا الصف المسـلم من المنـافقين والوصـوليين ديدنهم الحـديث عن كشف ما هو مكشـوف، وفضح ما هو مفضـوح، أي ما فضحه الخصـوم لانتهـاء مهمتـه، فلمـاذا لا يمارسـون فنـونهم العبقرية في كشف ما لم يكشفه الخصوم، وفضح ما لم يفضحه أهله؟

3 - إن إطلاق الشـائعات الصـبيانية في حق الخصـوم يتقنه كل جاهل وموتور، لأنه سلاح تستجيب له الأمم الغبية الجاهلة، وهو لا يملك قـوة دفع كما يملك قـوة إثبـات، فـإذا قيل عن أحد أنه مخـترق فهو لا يسـتطيع دفع التهمة، ولكنها أدعى للقبول في زمن العجائب والصغائر.

لمـاذا حين تطلق الشـائعات لا يـذكر معها الرهـان الـذي أمر الله عز وجل بإقامته عند كل دعوى؟!.

أمـام هـذا الواقع المريـر، وهو واقع يفـرز ولا شك السـلبيات أكـثر مما يفـرز الإيجابيـات، لأن المُلك فيه للشـيطان وحاشـيته، وهو يـدفع بضـلالاته بقوة نحو المجتمعات، أمام هذا الواقع ما هو السبيل الأقوم لإفراز الثقات، ومعرفة حقائق الرجال دون لبس وتزويـر، كـذلك دون هـروب من الحقيقة نحو الرمل للاختفاء؟.

إن الجواب على هذه الأسئلة يدعونا أن نرجع إلى النموذج المحتذى في تعريفنا بمنهجهم في معرفة الرجال وأحوالهم وقيمتهم.

لقد كـان في الصـحابة رضي الله عنهم علمـاء، وكـان فيهم الأعـرابي البوال على عقبيه (كما قال الذهبي).

لقد كان في الصحابة رضي الله عنهم الأثريـاء، وكـان فيهم من يقع في صلاته لشدة فاقته وفقره.

لقد كان في الصحابة رضي الله عنهم الشاعر البليغ، وكان فيهم العيي.

لقد كـان في الصـحابة رضي الله عنهم الصـانع الخبـير، وكـان فيهم من يخسر في كل تجارة يمارسها.

القيادة : العلماء والجهاد

لقد كانت صـور الصّـحابة تتنـوّع وتختلف في قـدراتهم ونمـاذجهم ولكن كان هناك شيء واحد يجمعهم جميعاً بلا استثناء، ورابط يحوزهم بلا شذوذ، هذا الرّابط هو الجهاد في سبيل الله تعالى.

بل إنّنا نرى أنّ أغلب مسـائلِ العلم الـتي علّمها رسـول الله صـلى الله عليه وسلم- سواء كانت في التّجارة أو بقيّة الأحكام - إنّما تعلّمها الصّـحابة رضي الله عنهم وهم في حال الجهاد في سبيل الله تعالى.

وأنا لا أستطيع أن أكثر الأمثلة، أو أستوعب بعضها في ذكر النّماذج التي تشهد لهذه القاعدة، أو لهـاتين القاعـدتين، لكنّي أدعو طلبة العلم وغـيرهم إلى فتح وقــراءة صــحيح البخــاري مثلاً (وهو أفضل نمــوذج لما أقــول)، ويقرؤوه بتمعّن وتدبّر، ويحـاول كـلّ واحد أن يجمع سـبب الحـديث الـوارد، بمعنى أن يذكر الزّمن الذي قيل فيه الحديث، وأين قيل، وســوف يــرى أنّ أغلب مسائل الفقه في عموم الحياة كانت تقالُ في الجهاد في سبيل الله تعالى، وهاك بعض الأمثلة:

- قوله صــلى الله عليه وســلم لجــابر رضي الله عنه في ترغيبه أن يـتزوّج البكـر: ((هلاّ بكـراً تلاعبك وتلاعبهـا))، قالها صـلى الله عليه وسلم خلال قفلةٍ من غزوة.
- فقه التّيمّم من الجنابة أخذ من حادثةٍ في غزوة.
- حكم زواج المتعة، كان كلّه في الغزو من تحليل وتحريم مؤبّد.
- جــواز شــركة الأبــدان أخذ من حــديث يتعلّق بجــواز الشّــركة بين المجاهدين في الغنيمة.

والأمثلة أكـثر من أن تحصـى، وهي تـدلّ دلالـةً واضـحةً أنّ عمل الأمّـة التي ينبغي أن تعمل به - وكلّ عمل آخر هو تبع له - الجهاد في ســبيل الله تعالى.

ولمّا كـــان عمل الأمّة بمجموعها - إلاّ من اســـتثناه الشّـــارع الحكيم سبحانه وتعالى - هو الجهاد في سـبيل اللـه، فكـان المقـدّم فيها هو أتقنهم لهذا العمل، وأكثرهم قدرةً على خوضِ غمـاره، فكـان المُقـدّم هو المجاهد

في سبيل الله تعالى، وهكذا كـان حـال قـادة الأمّة من خلفـاء وأمـراء، فلا يوجد خليفةٌ في تاريخنا الطّويل إلاّ وكان مقاتلاً مجاهداً، وفي أعلى مرتبــةٍ من مراتبِ هذا العمل العظيم.

هارون الرّشيد، هذه الشّخصيّة العظيمة، والتي ملأها الكذّابون أخباراً مزيّفة عن بذخه ولهـوه وقصـفه، لو علمـوا حقيقتـه، لخجلـوا من أنفسـهم أشدّ الخجل، ولكنّهم في الحقيقةِ لا يخجلون.

هارون الرّشيد كان يغزو عاماً ويحجّ عاماً، وكان ينام على حصانِ جهاده حتّى تقوّست رجلاه من كثرة ركوبه عليه، ومات وهو في غزوة "الصّـائف" جهة المشرق، وهو يجاهد في سـبيل الله تعـالى. لو قـال قائـل: لكنّه كـان كثير المال، عنده الجواهر بالأطنان، والذّهب بالأرطال، والمـال لا يُعَـدّ بين يديه. قلنا له: صدقْت وهكذا كانت الأمّة، غنيّة مثلهُ، فلم يكن غنيّـاً وأمّته لا تجد لقمة الخبز، كما هو حال الظّلمة والمتكبّرين، ثمّ قلنا لهم كـذلك، هـذا كلّه من فضل الله تم بالجهاد في سبيل الله، حيث أورثه الله تعالى بالجهاد ديـار الظـالمين، لقوله صـلى الله عليه وسـلم: ((جعل رزقي تحت ظـلّ رمحي)).

نقـول هـذا الكلام ردّاً على من يحـاول أن يبحث عن القيـادة الصّـحيحة الحقّة للتّجمّعات الإسلاميّة، وكذا التّنظيمات والتّكتّلات، فلن نستطيع شـئنا أو أبينا أن نفرز قيادة حقيقيّة إلاّ في الظّـرف الصّـحيح لهـذا الإفـراز، هـذا الظّرف هو الجهاد في سبيل الله. حين يـبرز قائد تلتقي حوله الجماعة في ظروف الشّـدائد والأهـوال، والمصـابَرة والمكابَـدة، وهي ظـروف قاسـيةٌ، تكشف المعادن على حقيقتها، حينئذٍ يكون معدن القائد خالٍ من الشّـوائب والكدَر، فهُو قائدٌ حقيقيّ يسـتحقّ هـذا المنصـب، بل المنصـبُ يتشـرّف به ويفخــــر، لكن في زمن الدّعة والخمــــول، وفي زمن المهانة والرّذيلـــــة، وظروف الخسّة والعار، يـأتي لنا شـيخٌ معمّم جـلّ ما يملك هو إتقانه صـنع الكلمة الحماسيّة، أو المنمّقة، فيأسرُ ألباب السّامعين، فيسارعُ الغثـاء إلى تســييده وتــأميره، فهل هــذا هو الطّريق الحقيقيّ في اكتشــاف القيــادة الصّائبة؟ أو حين يَطْلُع علينا رجل ملك البريق الدِّعائيّ، سـواء بقدرته على إنشـاء مجلة أو نشـرة أو جريـدة، بها واسـتطاع أن يشـرف على النـاس، فيعرفونه كاتبا مرموقـا، أو سياسـيا خبـيرا، فهل هـذا هو الطريق الصـائب للقيادة الحقيقية؟.

هذه أمثلة وعليك أن تقيس عليها، لتعلم أن القيـادة الحقيقيـةَ إنما تُعلم بالجهاد في سبيل الله تعالى، في زمن الصِّعاب والشدائد.

القيادة في القرآن:

عرض القرآن الكريم لنا نموذجا رائعاً لاسـتخلاص الشَّـهد من بين ركـام الاخـلاط، وكـان هـذا العـرض والتصـوير مثلا حيّاً وحقيقيـاً في تعليم الأمّة كيف يخلص هـذا الخلـوص، وكيف تتمـيز الصّـفوف، وكيف تعـرف مقـاديرُ الرّجال، وهذا الحدَث التاريخيّ كما عرضه القـرآن العظيم فيه الـردّ الجليّ الواضحُ على الطّرق المُبتدعة في إعداد الكوادِر، أو صـنعِ الكفـاءات، إذ أنّ الكثـير من أصـحاب الأفكـار الهجينة المعاصـرة يطرحـون طريقة بدعيّة أو طرقا بدعيّة في الأمــة، وهم في دعــواتهم هــذه الــتي ســيتبيّن لنا أمرها

وحقيقتها إنما هم يفرغـــون الشـــباب المســـلم من الطاقـــات الإبداعية الحقيقيّة.

يحـاول أصـحاب التربية المزعومة أن يوجـدوا الأدلّة على طـريقتهم في صنع الأمّة، ورجال الأمّة، وتراهم يصـرخون في كل وادٍ أنّ الأمّة والشّـباب المســـلم بحاجة إلى تربيـــةٍ وإعـــدادٍ قبل أن يوضع في معـــترك البلاء والامتحـان، ولعـلّ أبـرز أدلّة هـذا التيـار البـدعي هو احتجـاجهم بحـادِث **طالوت عليه السلام**، وها نحن نعرض هـذا الحـادث كما صـوره القـرآن ليتبيّن بجلاء أبلج أن هذا الحدث عليهم لا لهم، وهو في الحقيقة عُمْـدةٌ من عُمد حركات الجهاد، ودليلٌ من أدلّتها أنّ حركة الجهاد هي التي تربي الأمّة وتُبرز القيادات، وتعرّفنا بمقادير الرجال.

في سورة البقرة حديث مطوّل عن بـني إسـرائيل، وكـان من كلام الله تعالى في هذه السّورة عن بني إسرائيل بعد موسى عليه السّـلام [البقـرة من آية 246-252]:ـ {ألم تر إلى الملأ من بـني إسـرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيٍّ لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله} وفي الآية كما نرى أنّ الـــذين طلبـــوا الملك هم "الملأ"، والملأ في القـــرآن وصف لا ترتـــاح له النّفس، فبمجرّد ذِكر الملأ وإطلاق هـذه الصِّـفة على قـوم تتـوجّس خيفـة، وترتقب أوصاف شـؤم وقبح (راجع كلمة الملأ في القـرآن الكـريم)، وليس من عادة الملأ أن يطلبوا خيراً، وإن طلبوه فهو لأمر خبّئ في أنفسهم، وأنا هنا لا أدري لماذا فرّق الملأ بين النبيّ والملك المقاتـل، وسـنّة الله جاريـةٌ في الأنبياء سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم أنّ النّـبيّ في أتباعه هو الحـاكم والقائد والقاضـي، وكـان هـذا الأمر في بـني إسـرائيل أوضـحَ وأجْلى، والحديثُ النّبويّ يشهد لذلك لقوله صلى الله عليه وسـلم: ((كـانت بنو إســرائيل تسوســهم الأنبيــاء)) فهل هــذا الطّلب المشــروط في الملأ مقدّمة لنعرف أنّ الذين طلبوه هم "ملأ"، لا يخرجون عن هذا الوصف وإن تزيّنوا بغيره، هذا أمرٌ يحتاج إلى بحثٍ ونظر وإن كان هذا هو الــذي تطمئنُّ إليه النّفس في هذا الـوقت، بل إنّ هـذه السّـرعة في كشف حقيقتهم في ختام الآية تنبئك عن هـذا الـذي قلنـاه، قـال الله تعـالى: {فلمّا كتب عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين}.

ثمّ جاءت الآيات تكشف لنا هذا الإجمـال وكيف تمّ فـرض القتـال وكيف سار الحدَث واستقرّ على حاله.

{وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قـالوا أنّى يكـون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعة من المال}.

هـذا الكلام الربّـانيّ يؤكّد لنا أنّ الابتلاء كـان للملأ، الملأ الممتلئ مـالاً.. الملأ طلبوا ملكاً. ولمّا كان الله عليماً بالظّـالمين، فهو قد علم سـبحانه أنّ هؤلاء القوم يطلبون ملكاً فقط، لا ملكـاً مقـاتلاً، وعُمْـدة الحـقِّ لـديهم في إقرار الملك وقبوله هو أن يكون ممّن له سعة من المال ولو حاولنا تصــوّر النّفسيّة الحقيقيّة للملأ، ومحاولاتهم الزّائفة والذّكية في ستر مـبرّر القتـال لاتّضح لنا الشيء الكثير، فهم طلبـوا أوّلاً: {ملكـاً نقــاتل في سـبيل الله}، ولمّا حاججهم النبي وذكّرهم بعورات نفوسهم.. {قال هل عسـيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا} فكان جوابهم على قوله هذا مؤكداً لما قال: وهو أنّ ما علمْت من أنفسنا حبّه والشّغف به هو سبب طلبنا للقتال {قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرِجنا من ديارنا وأبناءنا}.

إنّه حديث الملأ، وهو حديث لكشف الملأ، وهـذه المقدّمة تـدلّك على ما سيأتي وراءها من أحداث تكشِف الملأ على حقيقتهم.

{فلما فصل طالوت بالجنود} هـذه الآية تحمل في طيّاتها معـنى تخلُّف الملأ، وفيها إشـــارة إلى أن الملأ قد ســـقط في أيــــديهم فمنهم من لحق بــالركب فســار جنـدياً، ومنهم من تخلف ليبقى تحت وصف المـــلأ، فحيث ذهبَت حقيقتهم عن الموقع - الفصل - ذهب وصفهم، فمن فُصِل به فخــرج معهم سار تحت وصف جديد هو "الجنود"..

فصل طالوت {بالجنود}، وطالوت عيِّن مَلِكـاً بقـرارٍ لا دخل للجنـود ولا للملأ فيه، بل ببعثٍ إلهي {إنَّ الله قد بعثَ لكم طالوتَ ملكاً} مبرّر البعث {بسطةً في العلمِ والجسم}، القوّة والأمانة. جاء امتحانٌ تشريعيٌّ لا دخل للبشر فيه وهو قـــول طـــالوت : {إن الله مبتليكم بنهـــرٍ فمن شـــرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنّه منّي إلاّ من اغترف غرفةً بيده} فهذا أمرٌ تشريعي من وضعٍ إلهي، وليس استحسانا بشريّا لشـروط يضـعها أصـحاب التّصـفية المزعومـة، والتربية المـدّعاة، فكيف يجـوز للنـاس أن يشـترطوا شروطا للجهاد ما أنزل بها من سلطان؟ وما هي الأدلة على هذه الشّروط البدعية؟ فهذا شيخٌ يريد من الأمّة أن لا تجاهد حتى يصبح قيام الليل ديْدنها بلا تخلّف أحد منها، وهـذا شـيخٌ لا يُجـيز الجهـاد للأمّة حـتى تحفظ الأربعين النوويّـة، وهـذا شـيخٌ يشـترط للجهـاد أن تصـبح الأمّة منظِّرةً في السياسة وفهم الألاعيب الدوليـة، وهـذا شـيخٌ يـوجب على الأمّة قبل الجهـاد أن تنبذ المذهبيَّة وإلا سـيكون جهادها في سـبيل المـذاهب الأربعة وهـذا.. وهـذا..، شــروطٌ ما أنـزل الله بها من سـلطان، ثم هنا نقطة يــدور البحث عليهــا، وهي: هل طالوت عليه السّلام اشترط شـروطاً قبل إعلان الجهـاد؟ أم أنّ شـروطه على جنـوده كـانت بعد الفصل بـالجنود؟ وهـذه نقطة مهمّة لأنّ الحــدث يــدلّنا على أنّ ابتلاء القائد لمعرفة حقيقة جنــوده واختبــارهم في قدراتهم، وفي مدى تحمّلهم للصّعاب والأثقـال كـانت في مسـيرة الجهـاد، ومن خلال حركته مع جنوده، لا كما يريد مشايخنا في هذا الزّمــان، وهو أن يمتحنهم وهم على فُرشِهم الوثيرة، فشتّان بين إخلاص ونقاءٍ حقيقيّ يخرج من وسط الملمّات والمحن، وبين إخلاص مزيّفٍ يخرج من امتحانات الولاء للقيـادة، وابتلاءات تسـليم الـرّأس كالببّغـاء دون وعيٍ وإدراك فتصـبغ عليه القيادة لباس القُرب والنّجاح.

إنّ معرفة طـــالوت لحقيقة جنـــوده كـــانت من خلال مســـيرته وحركته للجهاد في سبيل الله تعالى، وهـذا الـذي نقوله ونـدعوا النّـاس إليه بفضل الله تعـالى ورحمتــه، ونحـــمدُ الله تعـالى أن عافانا من أمــراض الآخــرين وتصوّراتهم العليلة.

ثمّ خلص من خلص إلى المواجهة ضـدّ جـالوت وجنـوده بعد محنة النّهر والشّرب منه، ثمّ محنة الكثرة والقوّة الماديّة، ولم يذكر لنا القرآن الكـريم أنّ محنة الكثرة العدديّة أسقطَت بعض القوم، بل إنّ الوصف المدْحيّ لهم كان قبل ابتلائهم برؤية كثرة عدوِّهم، حيث قال الله تعالى بعد حادثة النّهر: {فلمّا جاوزه هو والذين آمنـوا معه}، فوَصْـف الإيمـان هنا وصـفٌ مـدحيّ، لكنّ الإيمان مراتب متفاوتة وليس على درجة واحدة.

قال تعالى: {فهزموهم بإذن الله، وقتل داود جـالوت وآتـاه الله المُـــلك والحِكـمة وعلّمه ممّا يشاء}.

حصل المقدور الإلهيّ بنصر المؤمـنين ووقع الوعد الإلهيّ {كم من فئـةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصّابرين}، ومن حدَث المعركـة، ومن وسط ملمّاتهـا، ومن حركة الجهـاد عـرف النّـاس داودَ عليه السّـلام، ونحن المسـلمين نعتقد أنّ النّبـوّة اختيـار واصـطفاء، وقد عـاب السّـلف رحمهم الله على الإمام ابن حبان البستي صاحب الصّحيح، حين قال: "إنّما النّبوّة العلم والعمل"، حيث لمحـوا فيها إلغـاء الاختيـار والاصـطفاء الإلهي، ولكنّنا نجزم أنّ الإمام ابن حبان لم يرد هـذا، وأنا أقـدّم هـذا حتّى لا يخـرجَ علينا زاعمٌ بـأنّ معـنى ما نقـول هو إلغـاء الاختيـار، ولكنّا عرفنا من خلال الآيــات أنّ داود عليه السّــلام بــرز بعد {وقتل داود جــالوت}. فجمع الله تعـالى لـداود ما تفـرّق قبل الحـدث بين النّبـوّة والملك {وآتـاه الله الملك والحكمة}. نعم! عنــدما قتل الجنــديّ داود الكــافرَ جــالوت كــانت مقدّمة الاختيار.

{قتل} فاجتباه الله تعالى، فهل عقل مشايخنا هذا: قتل، قتل، قتـل...؟ فليت مشايخنا يعيدون لنا تفسير وتجليَة كلمة "قتل". قال صــلى الله عليه وسلم: ((لا يجتمع كافر وقاتله في النّار)) رواه مسلم.

ومن أجل أن تفهم أمّة محمّد صلى الله عليه وسـلم كلمة "قتـل"، وأنّها منهجٌ ربّانيّ سليمٌ سديد، أتبَع الله سبحانه وتعـالى الحـدث كلمـاتٍ عظيمة جليلة شريفة {ولولا دفع الله النّـاس بعضـهم ببعضٍ لفسـدت الأرض} فلو لم يقتل داود جـالوت لبقيَ جـالوت وجنـوده يصـولون ويجولـون، ويُهلكـون حـرث النّـاس ونسـلهم، ولكن لمّا منّ الله تعـالى على الأمة بتعليمها قتل الطـواغيت، كـان عليهم أن يشـكروه، لأنّه سـبحانه وتعـالى ذو فضل على العالمين، كما قال سبحانه في خاتمة الآية: {ولولا دفع الله النّاسَ بعضــهم ببعضٍ لفسدتِ الأرضُ ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين}. نعم، ولكنّ الله ذو فضــلٍ على العــالمين، فمنهم من يشــكرُ فضــله ويرضــاه، ومنهم من يرفضهُ ويأباه، ويذهبُ يتخبّط في الظّلمات باحثاً عن كلمة أخرى غير قوله {فهزموهم}.. {وقتل..}

{تلك آيات اللهِ نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين}.

القيــــــــادة : الجهــــــــــاد بدايـــــــــــة ونهايـــــــــــة

هـذه القصّـة التاريخيّة ومن حـديث القـرآنِ الشَّـيق عنها كشـفت لنا أن الجهـاد هو بداية الأمر وهو نهايتـه، وهو منهج الله تعـالى في ابتلاء النـاس، لتكتَشِف الأمة حقيقتها.

وفي النهاية نخلص إلى النتائج التالية:

1 - الملأ يناورون، والجهاد يكشفُ حقيقتهم، وليس بغير الجِهـاد تُكشف حقيقة الملأ، الملأ الممتلئ فلسفةً ومناورة، والملأ الممتلئ تبجُّحا وتيها.

2- طالوت يعرف حقيقةَ جنودِهِ خلال مسيرته وحركته للجهاد في سبيل الله تعالى، وليس بعيداً عن أرض المعركة والحركة ونحوها.

3- الإيمان لا يتنافى مع بعض ما يعتري النفس من خوفٍ ووجـل، وليس هذا الخوف والوجل مبرراً لترك إعلان الجهاد في سبيل الله تعالى.

4- قيادة داود عليه السلام برزت من وسط المعركة، ومن خلالهـا، وبعد برهـان حقيقي أنه من عنــده القــدرة على إصــابة الــرأس -جــالوت- فهو يستحق أن يكون الرأس.

5- إنَّ العلم الشرعي شرْطٌ من شـروط القيـادة الجهاديّـة، لأن الجهـاد حركةٌ مضبوطة بضوابط الشّرع وأوامر الإله جل في علاه.

6- إنّ شــعيرة الجهــاد فضل إلهي، ومنّة ربانيــة، ويجب علي الأمة أن تقبل فضل الله ومنّته، ومن أعرض عنها فهو الخاسر المغبون.

إنّ من أشدّ القضايا معاناة لدى الحركة الإسلاميّة هي عدم وجود القائد المناسب، والرمز الصّحيح للتيّار والحركـة، وعلى الـرّغم من وجـود المـدّة الزّمنيّة المناسبة لإفرازه إلا أن الخطوات ما زالت متعثّـرة وفاشـلة، ونحن نرى الشّباب المسـلم من أشـدّ النّاس احترامـاً لمسـئوليْه وقيادته مـازال بعيداً عن القيادة، غـير مختلط بهـا، حتّى إذا عايشـها وخالطها اهـتزّت لديه الثّقة، وسقط الاحترام، وبدأت صـيحاته تتعـالى في بيـان أخطـاء مشـايخه وقيادته، وهذا يؤكّد أنّ إفراز القيادة بالطّرق التي اتّبعَتها هذه الحركات هي طـرقٌ فاسـدة وخاطئـة، ومن أجل الحفـاظ على صـورة الشّـيخ المحـترم، والقائد المقبـول يحـاول بعضـهم إحيـاء الطّريقة الصّـوفيّة في التّعامل مع الشّــيوخ، لكنّها تكــون مغلفة بغلاف العمليّة أو السّــلفيّة، أو التّــبريرات الإداريّة الــتي اشــتقّت من نظم جاهليّة لا تمتّ إلى الإســلام بصــلة، فالمحاولات المتكرّرة في إضفاء صفةِ القداسة على القيـادة لم تعد تـدوم طـويلاً أمـام اختبـارات القـرب والتّعامل بين القواعد والقـادة، ومن صـمد منهم أمام هذه الضّغوط القسريّة من القادة، بغضّ الطرف عن النّظر إلى أنـوار الشّـيوخ والقـادة فإنّه سـيخرج صـورة شـوهاء من رجـلٍ بـاع عقله وإرادته لمثل هؤلاء القوم، وحينئذٍ فإنّ الحركة تصبح مجموعـةً من الأبـواق التي تسير وراء ناعقٍ واحـدٍ فقـط، هـذه الصّـورة هي أقــرب ما نـرى في الواقع من تركيبة الجماعات الإسلاميّة.

القيادة والقاعدة (التلميذ والشيخ):

المشــكلة الواضــحة هي كيف توفَّق الجماعة المســلَّحة المهتدية في إيجــاد الاحـترام بين أفرادها على العمـوم وبين قواعـدها والقيـادة على الخصـوص، وبين وجـود المـدى الأقصى من القـدرة على احـترام العقل الذّاتي والإرادة المستقلّة؟ وقد يظهر لبعض قاصري النّظر استحالة وجــود هذه التّركيبة، واعتقادُ الاستحالةِ مردّه إلى عدم فهم أحد طرفي المعادلـة، فقد يُــدخِل البعض صــوراً أو ممارســاتٍ خاطئة إلى مفهــوم الاحــترام والتّقدير، وبالتّالي يجعل من أضداد الاحترام عدم وجـود هـذه الممارسـات والسّلوكيّات.

عندما يناقش التّلميذ شيخه في مسألةٍ من المسـائل، ويراجِعه فيها إلى أقصى درجـات المراجعة بل المنـاظرة، فهل هـذا الفعل يضـادّ الاحـترام والتّقدير ؟.

هل مراجعـةُ بلال رضي الله عنه المتكـرّرة والصّـلبة لعمر بن الخطّـاب رضي الله عنه في مسألةِ الاختلاف حول الأرض المفتوحــةِ، هل يُعمل فيها بالخراج كما هو رأي عمر، أم تُقسّم على الفاتحين كما جرت السنّة وأصـرّ على تطبيقها بلال، هل هـذه المراجعة فيها ما ينـبئ عن فقـدان درجة (أيّ درجة) من درجات الاحترام بين شخص القائد وأتباعه؟.

هل استنكار سـعد بن معـاذ رضي الله عنه لمّا فهم من وجـوب إحضـار أربعة شهـود حال رؤيته لزنى الزّوجـة، وحلفه الأيمـان المغلّظة أنّه لو رأى

ذلك ليضــربنّ ما بين رجليها هو ممّا لا يــدخل تحت بــاب احــترام الرعيّة للقيادة؟.
ثمّ تعــالوا أيّها القــادة لنحاســبَكم، وأنتم ملأتم الــدّنيا صــياحاً بوجــوب محاكمةِ ومحاسبةِ المتسبّبين بمصائب الأمّة وهزائمها؟.
تعالوا أيّها القادة لنحاسبكم عن أحداثِ حمــاة، ومن هو المتســبّب بهــذا الكمّ من المصــائبِ والبلايــا؟ ألم تــدعوا الليــالي الطّــوال أن يخلّصــكم الله تعــالى من عــدنان عقـــلة، لأنّه بــدأ يســير في الآفــاق داعيــاً إلى كشف المجــرمين والمنــافقين والوصــوليين والنّفعــيين والجبَنــاء وقــادة الفنــادق، وسماسرة المال وقطّاع الطريقِ إلى الله؟.
لماذا احمرّت أنــوفكم - غضبــاً ظالمــاً - ضــدّ كتــاب "التّجربة السّــوريّة" لمؤلّفه عمر عبد الحكيم مع أنّه لم يُظهر من الحقـــائق إلاّ بمقـــدار رأس الإبــرة، وإلاّ فالحقــائق ينبغي أن تــؤدّي بكم إلى المشــانق لو كــان هنــاك قاعدة تَفهَم دين الله تعالى، وتتعامل مع الأمورِ بشرعيّةٍ وموضوعيّة.
ثمَّ لمــاذا لا يفتح ملــفَّ حــزب النّهضة بقيــادة راشد الغنّوشي بطريقة علنيّــةٍ ليعــرِفَ النّــاس حقيقة ما جــرى في تــونس فتوضع النُّقــاط فــوق الحــروف، فيعــرف القائد المزيّف من القائد اللعــوب، لمــاذا تلصق هــذه الصّور الزّائفة ضمن لوحة الإسلام العظيم، بل لمــاذا كتب علينا أن لا نــرى إلاّ قائداً ورمزاً مزيّفاً عاجزاً عن قيادة دجاجة لا قيادة أمّة؟.
إنَّ الاحترام والتقدير للقيادة الواعية أمرٌ تفرضه القيــادةُ بنفســها، وذلك من خلال مسيرتها المظفَّرة نحو أهداف الجماعة وانتصاراتها.
الإمام أحمد ابن حنبل - رحمه الله تعــالى - لم يخطب الخطب الرنّانــة، ولا أصدر البيانات المطوَّلة طالبــاً من النّــاس احترامه وتقــديره، بل موقفه وصلابته في الحق، وتفانيهِ في سبيل السنّة ودين الله تعالى هو الذي جعله للناس إماماً وفرض اسمه على أهل السنّة والجماعة.
شـــيخ الإســـلام ابن تيمية - رحمه الله تعـــالى - بفعاله وجهـــاده جعل خصومه قبل تلاميــذه ومحبِّيه يُقِــرُّون له بالفضل والرِّفعــة، لأنّهم رأوا رجل المواقف، لا أبواق كلامٍ وصراخ.
الأمَّة والقاعــدة والأتبــاع يحــترمون علمــاءهم وقــادَتهم عنــدما تفــرضُ القيادةُ نفسها بمواقفها وفعالها ونزاهتها.
إنّني أعلم أقوامــاً (من الشــباب المتحمس) كــان يرجو نظــرة من بعض الأســماء الرنّانة من القــادة المفكــرين، وكــان يعتــبر مجــرَّد الجلــوسِ في محاضرةٍ لهذا الشــيخ أو القائد أو المفــكّر هي من أشــدِّ القُربــات إلى الله تعالى، ولكنّه بعد تجربةٍ مُرّةٍ كشفت هذا الغثاء على حقيقته صــار يعتقد أنَّ قتل هؤلاء القادةِ من أفضَلِ القُربات إلى الله تعالى.
لماذا هذا ؟.
الســبب واضــحٌ جليّ، لأن الواقع كشف أن هــؤلاء القــادة تُجّــارُ كلامٍ، وأبواقُ صراخ، حتى إذا جاء دَوْر النّزال والتّجربة تعــرّت حقــائقهم، وكُشِــفَ أمرهم.
وإذا كــان الجهــاد يعــرّ فنا بالرّجــال، إذ هو من أدقّ المــوازين في هــذا الباب، فإنّه كذلك الفرقان الذي يقسّم النّاس إلى أقســامها الحقيقيّــة، فبه تتميّز الصّفـــوف، فيتــبيّن فســطاط الإيمــان، كما يتــبيّن فســطاط الكفر والنّفاق، فيؤوب النّاس إلى منازلهم التي يرتضــونها لأنفســهم، ومعلــوم أنّ

الفتن والابتلاءات تكشف النّاس، وتخرج مخبوء نجواهم، إذ صدق من قـال: "إنّ الحرب حصـاد المنـافقين"، وبها كـذلك يتّخذ الله الشّـهداء، والشّـهادة باب جليلٌ لا يفتحه الله تعالى إلاّ لأوليائه المقرّبين.

الجهاد: مراتب الولاية والقرب والنفاق والبعد

من قرأ السّيرة النّبويّة قراءة متفحّصة، يرى فيها هذا الذي قلناه، إذ أنّه ما من معركةٍ خاضها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ وأظهرت رجـالاً في مرتبة الولاية والقرب، كما وأظهرت رجالاً في مقـام النّفـاق والخِـزي، فالجهاد هو الذي يكشف حقائق المخادعين والمتخاذلين، لأنّ بذل النّفـوس هيّنة في سبيل هـذا الـدين لا يقـوى عليه إلاّ المرتبط بهـذا الـدين ارتباطـاً حقيقيّاً، ومن تمثّلت له الدّار الآخرة بين عينيه، يراقبها أنّى توجّه أو قـال أو فعـل، كما مـدح الله تعـالى الصّـادقين من عبـاده بقولـه: {إنّا أخلصـناهم بخالصة ذكرى الدّار} وهي في سورة ص، ذلك بعد أن تكلّم الله تعالى عن داود وسليمان وأيّوب وإبراهيم وإسحاق ويعقـوب عليهم الصّـلاة والسّـلام، وذكر سـبحانه وتعـالى مِنَنه عليهم، جعل سـبحانه وتعـالى علّة هـذه المِنَن، وسبب إغـداقها أنّهم أخلصـوا أنفسـهم للآخـرة، حبّـاً وعملاً، قـال مالك بن دينــار: "نزعنا من قلــوبهم حبّ الــدّنيا وذكرها وأخلصــناهم بحبّ الآخــرة وذكرها"، إذ أنّ هذا الدّين لا يرفع الله به إلاّ من آمن به حقّ الإيمان، وصبر على ما يلقاه من الفتن والأهوال، ثمّ تيقّن على موعود الله تعالى وأنّه آت لا ريب فيه، كما قـال تعـالى: {وجعلنا منهم أئمّة يهـدون بأمرنا لمّا صـبروا وكانوا بآياتنا يوقنـون}. قـال ابن تيميّة - رحمه الله تعـالى - تفسـيراً لهـذه الآية: "بالصّبر واليقين تنال الإمامة".

ففي غزوة الأحزاب حيث جمع النّـاس حشـودهم، وتكـاتفوا يـداً واحـدةً على بلــدة صــغيرة هي طيبة مدينة رســول الله صــلى الله عليه وســلم ومهاجره، واضطربت النّفوس، وزُلـزِلت، ورأى النّـاس المـوت بـأمّ أعينهم [الآيات من 9-27 من سورة الأحزاب]. قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنـودٌ فأرسـلنا عليهم ريحـاً وجنـوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً } الأحزاب 9.

أمّا الجنــود فهم الملائكــة، ولم تقاتل الملائكة يومئــذٍ، وإنّما عــذّب الله الكــافرين بــالرّيح، ففي الصّـحيحين عن ابن عبّـاس رضي الله عنهما عن النّـبيّ صـلى الله عليه وسـلم أنّه قـال: ((نصـرت بالصَّـبا، وأهلكت عـاد بالـدبور)). وأمّا تفاصـيل حركة ريـاح الصّـبا فقد روى ابن أبي حـاتم بسـند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قـال: "قـالت الجنـوب (أي ريح الجنوب) للشّـمال (أي ريح الشّـمال) ليلة الأحـزاب: انطلقي ننصر رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، فقـالت الشّمال: إنّ الحـرة لا تسـري بالليـل، وكانت الرّيح التي أرسلت عليهم الصّبا".

ثمّ فصّل الله تعالى أمر المعركة وما جرى فيها، فقال جلّ وتعـالى: {إذ جـاءوكم من فـوقكم ومن أسـفل منكم وإذ زاغت الأبصـار وبلغت القلـوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا} الأحزاب 10.

إنّها الفتنـــة، إنّه الابتلاء والتّمحيص، حيث تظهر القلـــوب ما بها لشـــدّة الضّـغط عليهـا، {زاغت الأبصـار}: أي تحـرّكت عن مكانها لشـدّة الخـوف والرّعب، و{بلغت القلوب الحناجر}: وكذا زالت القلوب عن مكانها لشــدّة

خفقانها واضطرابها، فالعيون تتحرّك بحركة القلـوب، إذ العين لم تعد تـرى بوضوح وجلاء، والقلب لم يعد يفكّر بسلامة وثبات، وهذا كلّه بسـبب شـدّة الخـوف، وهو خـوف لم يسـلم منه أحـد، فقد حـدّث حذيفة بخـبر أصـحاب رسول الله ? في هذا الشّأن شيئاً عجيباً، قال فتىً من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمـان رضي الله عنه: يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله صـلى الله عليه وســلم وصــحبتموه؟. قــال حذيفــة: نعم يا ابن أخي. قــال: كيف كنتم تصنعون؟. قال: والله لقد كنّا نجهـد. أي نتعب بصـحبته تعبـاً شـديداً، وذلك أنّه صلى الله عليه وسلم كان صـاحب همّة عاليـة، وعمل دءوب، ونفس لا تكـلّ، وكـان أصـحابه رضي الله عنهم لمحبّتهم له يحـاولون اللحـاق بـه، والتّشبّه بفعاله، فكانت محاولاتهم هذه تصيبهم بالتّعب والجهد، وكـذا القائد الحقيقيّ لا يرضى من رجاله الـدّون، ولا يقبل في رعيّته إلاّ فعـال الرّجـال ووَثبــاتهم، وأمّا أولئك القــوم الــذين يصــنعون من أتبــاعهم أبواقــاً لهم، ومقلّدين لحضرتهم، فلن ينفعوهم شيئاً في يوم كريهةٍ وسدادِ ثغرٍ، ولقـولِ حذيفة رضي الله عنه معنىً آخر، وهو أنّه كلّما وَضُح الحقّ وكان قويّاً جليّـاً كلّما كان الباطل كذلك جَلداً واضحاً جليّاً، ولم يكن الحقّ جليّاً واضحاً قويّاً في يـوم من الأيّام كما كـان في عهد محمّد صـلى الله عليه وسـلم، وكـذا كان الكفر في عهده سـافراً عن وجهه القـبيح، فكـان هـذا يُلحق بأصـحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهد والتّعب، فقال حذيفة: "يا ابن أخي والله لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقـال: ((من يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة))، فما قام منا رجل، ثم صلّى رسول الله صلى الله عليه وسـلم هونـاً من الليـل، ثمَّ التفت إلينا، فقـال مثلـه، فسـكت القـوم، وما قـام منّا رجـل، ثم صـلّى رسول الله صلى الله عليه وسـلم هونـاً من الليـل، ثم التفت إلينـا، فقـال: ((هل من رجل يقــوم فينظر ما فعل القــوم على أن يكــون رفيقي في الجنة))، فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد".

{وتظنون بالله الظنونا}: فالمنافقون ظنّوا بربّهم شرّاً، وبالإسلام بهتاناً، إذ أنّهم قالوا: {ما وعدنا الله ورسـوله إلا غـروراً}، يقولـون: "يعـدنا محمد فتح قصور الشـام وفـارس وأحـدنا لا يسـتطيع أن يجـاوز رحلـه، هـذا والله غرور"، وها هم اليوم يقولون: كيف لنا مع ضعفنا وقلة حيلتنـا، وهواننا على النــاس أن نعيد دولة الإســلام؟ وكيف لنا ونحن لا نســتطيع أن نعبد الله تعالى آمنين أن ينقلب حالنا إلى حالٍ تخشانا فيه قوى الكفر والشّـرك في مشرق الأرض ومغاربها ؟. لكنّنا نقول: إنّها الوعود الإلهية، إن أخطأْنا نحن فهي واقعة لا شك فيمن ثبت على الطريق، وواصل المسـير، ولم تُضـعفه الأيّام والشّهور، بل ازداد ثباتـاً ويقينـاً، وما شـدة الصـعوبات إلا دليـلٌ على صــواب الطريــق، وإذا كــان طريق الجهــاد وهو طريق الــدّم والخطــفِ والسجن، فإنّه كذلك طريق العزّة والنّجاح، وإذا كانت الطّـرُق الأخـرى هي طـرُق السّـهولة والمناصـب، فـإن نهايتها الذلّة والخِـزْيُ والشّـنار. وطائفة منهم قالت: يا أهل يثرب لا مقـام لكم على الإسـلام فـارجعوا، أو لا مقـام لكم في القتال فهزيمَتكم محقّقة، فارجعوا إلى منازلكم، وبدأوا يســتأذنون رسول الله صـلى الله عليه وسـلم في الهـروب وتـرك المواجهة يقولـون: {إن بيوتنا عـورة} أي مكشـوفةُ الجـانب، لا نسـتطيع منـعَ الـدّاخل إليهـا، فكذّبهم الله تعالى قـائلا: {وما هي بعـورة إن يريـدون إلاّ فـراراً}، وهكـذا

النّفــوس المريضــة، والقلــوب الخاوية من الإيمــان، تبحث لها عن الحجج الواهيةِ الضعيفة لترك المواجهة، ولعل هؤلاء يبحثــون عن الحجج الأصــولية في إسقاط فريضة الجهاد تحت دعوى المصلحة الموهومــةِ الزائفــة، ولكنّ حقيقةَ الحال أنهم لا يريدون الجهـاد، ويخشـون نتائجـه، قـال تعـالى: {ولو دُخِلت عليهم من أقطارها ثمّ سُـئِلوا الفِتْنة لأتَوها وما تلبّثـوا بها إلا يســيرا ولقد كانوا عاهدوا الله من قبلُ لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسـئولا قل لن ينفعكم الفـرار إن فـررتم من المـوت أو القتل وإذاً لا تمتّعـون إلا قليلا قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سـوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً}.

إن هـؤلاء القـوم لا يقيمـون للفضـائل شـأناً ولا لـدين الله رأسـاً، همّهم بطــونهم، وشُـغلهم أهــواءهم، ودليل ذلك أنه لو دخَلت جيــوشُ الأحــزاب عليهم في المدينــة، ثم طلبت منهم الجيــوش أن يُشــركوا بالله تعــالى ما احتبســوا، ولا تلكّـؤوا، بل لأقبلـوا على الكفر بالله طيّبة بالشـرك قلـوبهم، فهم يدورون مع من مُلك المنصب والمال، ويراقبون حَركته، حتى يبرمجوا أنفسهم على اتّجاهه، ليس لهم اختيار إلاّ اختيارُ الحاكم، إن أسـلم الحـاكمُ أسـلَمنا، وإن كفَر الحــاكمُ كفَرْنــا، ولا يُقبِلــون على الإسـلام إلا بــالوعود الممتلئةِ ذهباً وكنوزاً، ومناصبَ وتشريفاتٍ، ولهذا قالوا قولتهم: {ما وعـدنا الله ورسوله إلا غروراً}، فهم اعتنقوا الإسلام لوعوده الدنيويـة، أليس هـذا يعلّمنا أن لا نفـرش الـورود والريـاحين للنـاس في دعـوتهم للإسـلام ؟ ثم أليس هذا خطأ تلك الجماعات الـتي قـالت للنـاس: انتخبونـا، وسـنطعمكم السَّمن والعسل، وسنبني لكم المساكن الفاخرة، وسنسهّل لكم معايشكم وحَيَـاتكم، فلمّا أصــابهم بعضُ اللأواء، فـإذا هم أمـام شاشـاتِ التّلفزيــون يتبرَّأون من الإسلام وأهله، ويتساقطون على الطّريق الواحد تلو الآخـر، ألا ما أتعسَ العبد الذي يُريد أن يشتري بإسلامه منصباً وجاهاً، وصدق رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حين قـال: ((ما ذئبـان جائعـان أرسلا في غنم بأفسد من حرص الرّجل على المال والشّرف لدينه)).

يا قوم! أين عهـودكم؟ أين بيعتكم مع اللـه؟ ألم تقسـموا من قبل أن لا تولّوا يوم الزحف، بل تثبتوا ثبات الصادقين؟!.

القدوة والأسوة في الجهاد:

اعلموا أنّ الجهاد لا يقرِّب أجلاً، فلو كنتم في بيوتكم لبرز الموت إليكم، ففرارُكم لن ينفعَكم، ومتاعُ الدّنيا قليلٌ زائل، والذين يظنّون أنّه بالجهاد قد توحّش الخصم، أو ازدادت شروره، وكثْرةُ قتْله للموحّدين والضّعفاء هو جدّ واهم، لأنّه سـواء حملتم السّـلاح وقـاتلتم على دينكم وأعراضـكم، أو أنّكم تركتم السلاح وأعلنتم صباح مساء أنّكم ضدَّ العُنف والقتال، فلن يغيّر هــذا من الحقيقة شيئاً، وهذه الحقيقة تتجـدّد كـلّ يـوم، فها هي جماعة الإخـوان المســلمين تسـاقُ في مصر إلى السـجون، وتـرمي بنفسـها تحت أقـدام الكفـرةِ المرتـدّين وترجو نظـرةَ رِضى من قبل وزير الداخلية المصـري أن يسمح لها بلقائه، لتشرح له حقيقتها، بل إنها لترجو منهم أن يسمح لوسيط بينهم أن يدخل عليه ويشرح له أنّ جماعة الإخوان جماعة سـلميّة، لا تنتهج العنف، بل تتبرّأ منه صباح مسـاء، ونحن نقـول: حسـبنا الله ونعم الوكيـل، وإنّنا والله لنشـعر بــالخِزي من هـذا الموقـف، فهل وصـلت المهانة والذّلة

بهذه الجماعة إلى هذا الـدّرك الأسـفل ؟، إنّه لشـتّان بين موقف جماعـات التّوحيد والجهاد وجماعة الإخوان المسلمين!! الدّكتور أيمن الظّـواهري مع ضعفه وعجزه، يلقي الكلمات كالحمم وكأنّها طلقاتُ مِدفع محمرّ الجَوانب نحو الرّئيس المرتدّ وحكومته، وتَحمِل كلماته الأمَل أنّ فتح مصر لا بدّ منه، وأنّه قريب، مع أنّ الجميع يعلم إلى أيّ درجة هو ضعيف عاجز، لكنّها آيـات الله ما زالت تتجلّى في هذا العصـر: {ولمّا رأى المؤمنـون الأحـزاب قـالوا هـذا ما وعـدنا الله ورسـوله وصـدق الله ورسـوله وما زادهم إلاّ إيمانـاً وتسليماً}، نحسبه كذلك ولا نزكّي على الله أحداً.

إنّ الرّجـــال مواقـــف، فـــانظر يا عبد الله أين موقفُـــك، وإنّ الإيمـــان ليستعلي بذاته حتّى لو كـان حـبيس السّـجن، أو طـريحَ الفـراش، أو فقـير الجَيب، أو مطاردَ الحال.

إنّه ليســتعلي في السّـــجن بخلوتـــه، ومع القتل بشـــهادته، ومع النّفي بسياحته، ذلك هو الإيمان، وإنّ النّفاق مخذول مع منصـبه وشـاراته وأمواله وحشمه، لأنّه النّفـاق!! {قد يعلم الله المعـوّقين منكم والقـائلين لإخـوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلاً أشـحّة عليكم فـإذا جـاء الخـوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ، أشحّة على الخير، أولئك لم يؤمنوا فأحبط أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا}.

أرأيت أخي: هم، هم، في البأساء والضّرّاء، معوَّقون ومعوِّقون، فإذا أتوا إلى مواطن النّزال أتوا قليلاً، من أجل الرّياء والسّـمعة، حـتى يرجع الواحد منهم إلى بلدته ويخطب آلاف الخطب، ويجمع آلاف الـدّنانير، في الحـــرب ينصحون بترك المعركة، وفي السّرّاء إيـذاء ورميٌ بسـوءِ الأقـوال من كـلّ جانب، عيونهم مفتّحةٌ، مجهريّة البصر في النّظر إلى الأخطـاء والسّـقطَات حتّى يسـيروا فيها شـرقاً وغربـاً، لكنّها كلّةٌ تعِبَة عن رؤية الخـير وإبصـاره، جيوبهم منتفخة، كريمة على نفسها وعيالها، يبني الواحدُ منهم كأنّه مخلّــد، ويجمع المال باستكثار يظهر عليه، حتّى صـار الواحـدُ منهم يعَـدّ من أثريـاء بلـده، وصـارت أمـوالهم محـــطّ تنـدّرٍ من قبل الأعـداء والخصـوم، بنـوكهم تسـجّل في بلاد الـــ "واق واق"، تـأتيهم هبـاتُ الملـوك وشـيكاتُ الهـدايا بملايين الرّيالات، من أجل فتاوى رخيصة وخطب قبيحة.

لقد تكلّم الله بهذه الآيـات والكلمـات، وهي كأنّها صـورة كونيّة للحـدث، كلمات الله تنقلنا نقلات سريعة، وكذا حدث الأحـزاب، اختلطت فيه صـورة المشـركين {جـاءتكم جنـود}.. {جـاءوكم من فـوقكم}، وصـورة مشـاعر النّاس جميعاً بصورة خاطفة: {وتظنّون بالله الظّنونا}، ولم يتكلّم الله عن مشاعر الكافرين شيئاً، بل يكفي أن يقـول عنهم أنّهم جنـود، جنـود فقـط، فلم يتكلّم شـيئاً إلاّ عن حـركتهم الظّـاهرة: {إذ جـاءوكم من فـوقكم ومن أسفل منكم}. ثمّ شرع القـرآن في وصف المؤمـنين، حيث انتظرنا وصـفاً مُسـهباً: {هنالك ابتُليَ المؤمنـون وزُلزِلـوا زِلـزالاً شـديداً}، لفتة سـريعة، كلمـــات مفعمة بالبيـــان، وتحتـــاج إلى ما وراءهـــا، ولكنّ ســـرعة المعركة تقتضي ســرعة الوصـــف، وفجـــأة تنتقل إلى المنـــافقين، كلمـــات الله إلى المنـافقين، وتتحـدّث، وكـأنّهم في معـزلٍ عن أرض المعركـة، مشـاعرهم خاصّـة، وأقـوالهم خاصّـة، جسْـمٌ غـريب، يتوقّف عَنـدهم حـديث المعركة ليحكي لنا أصـــولهم السّـــابقة، ومعـــالمهم قبل الحـــدث، وكيف يعـــالجون

الأحداث بتعليقاتهم وتحليلاتهم، ويفضح الحـديث علّة حركـاتهم وسـكناتهم، وكـأنّ المعركة ما جـاءت إلاّ لهـذا الأمـر، وهو فضح المنـافقين وكشْـف عوراتهم.

ووسط ذلك كلّـه، فجـأة يلقي الـرّب جـلّ في علاه علينا هـذا التقرير والإحكام قائلاً: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليـوم الآخر وذكر الله كثـيراً}21، وعلى الـرّغم من أنّ رسـول الله صلى الله عليه وسلم أسـوة المؤمـنين في الأمـور كلّهـا، وعلى الـرّغم أنّ هذه الآية حجّة في وجوب اتّباع النّـبيّ صـلى الله عليه وسـلم، إلاّ أنّ علينا أن نتوقّف أمـام سِـياقها، وسِـباقها، فقد قـرّر الله هـذه الأسـوة من خلال حديثه عن المعركة، وتفاعلات النّاس حولها، نعم أسوة لنا بلباسـه، وأسـوة لنا بصـلاته، وأسـوة لنا بمأكلـه، وأسـوة لنا بشـأنه كلّـه، لكنّ الحـديث عن الأسوة انطلق من وسط فتنة الأحزاب، وغبار المعارك، وصلابة القـرارات، فـأين المتحـدّثون عن الأسـوة بحبّه لبيـاض الثّيـاب، وكـثرة التّطيّب، وذراع الذّبيحة، .. و!.

ليعلموا أنّ حديث القرآن عن القدوة والاتّساء كـان من خلال حديثه عن غزوة الأحزاب.

إنّه النّبيّ لا كذب   إنّه ابن عبد المطّلب

وبعد أن قرّر الله تعالى حُكم الأسوة والقُدوة، وأنها لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، فحيث أنه صـبر فعليكم أن تصـبروا، وتقـاتلوا، فلا ينبغي لكم أن تـتركوه وحـده في مـواطن القتـال والنـزال، بل لا يجـوز لكم أن تسـتأذنوه في تـرك القتـال كما قـال الله تعـالى: {لو كـان عرَضـاً قريبـاً وسـفراً قاصـداً لاتّبعـوك ولكن بعُـدَت عليهم الشـقة، وسـيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكـاذبون عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتّى يتبيّن لكَ الذين صدَقوا وتعلَم الكـاذبين لا يسـتأذِنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسـهم والله عليم بالمتقين إنّما يستأذنُك الذين لا يؤمنون بالله واليومِ الآخر وارتابت قلـوبُهم فهم في رَيْبهم يتردّدُون} التوبة. ذلك لأنّ الاستئذان هو هـروب من نصـرة دين الله تعالى، وخذلٌ له، ولا ينبغي للمسلم أن يخـذل دين الله تعـالى، أو يَتَـوانى عن نصـرته، وإنّه من البيـان الضّـروري أن تكـون الأسـوة في هـذا الباب أعني باب الصّبْر على القتال ودوام الارتباط به عملاً وفِكراً، ودعوةً، وتحريضاً، وردّاً على شـبه المثبِّطين والمخـذِّلين، أو المعـوِّقين له بإسـقاط أحكامه في أي عصر من العصور.

إن القيام بهذا الأمر أسوة برسول الله صـلى الله عليه وسـلم لا يقـوى عليه إلا المتعلّق بـالآخرة، الـرّاجي لأجْرِها أن يُصـيبه، ولعـذابِها أن يخطِـأه، والذّاكرُ لربّه تقويةً لقلبه، وتطميناً له من أن يهـتزّ أو يرتجف كما قـال الله تعــالى: {يا أيها الــذين آمنــوا إذا لقيتم فئــةً فــاذكروا الله كثــيراً لعلّكم تفلحون} الأنفال، لأن الأسـوة في هـذا البـاب تكاليفها شـاقّة عاليـة، يـرى المرءُ آثارها بأمّ عينَيْه، ويعيشُ هـذه التكـاليفَ لحظـةً بلحظـة، فهو معـذَّبٌ من طواغيت الأرض، أو مطاردٌ غَريب، أو محاصَرٌ مَحْبوس، أو مهدّدٌ يـرْقب الموتَ في كلِّ آن، ومثل هذا الحال لن يصبِر عليه إلا من قـام به من أجل الآخرة، واستعان على هذا الصـبر بـذكر الله تعـالى، وبهـذا يتحقق التوافق بين ذكر الأسوة وبين ذكر وصف القائم بهـا، وذلك بخلاف المتأسِّـي به في

غــير هــذا البــاب، إذ أنّه قد تجتمع رغبة النّفس وشــهوتُها مع الأســوة في أبـواب أخـرى كثـيرة معلومة لـدى القاصي والـدّاني، لأنّ الأسـوة في هـذا الباب لا تكلِّف كثيراً، ولا تصابر النّفس نفسها عليهـا، بل تقـوم عليها راغبـةً فرحةً، لا تخاف شيئا لترجو غيره، ولا تضطرب فتحتاج إلى الاطمئنان.

{ولمَّا رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هذا ما وعـدنا الله ورسـوله وصـدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما من المؤمنين رجـالٌ صـدَقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحْبهُ ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلا}.

الابتلاء والوعد بين المنافقين والكافرين:

بعد أن وصف الله تعالى المنافقين وأحوالهم، وذكر حركة الكافرين من الالتفاف حول المدينة، وبعد أن وصف الله تعالى عِظَمِ الزّلزلة على قلوب المؤمنين {هنالك ابتُليَ المؤمنون وزُلزلوا زِلزالاً شديداً} أخبرنا الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم، وماذا كان تفسيرهم لحـدث الأحــزاب وكيف كان فقههم له، {هذا ما وعـدنا الله ورسـوله}، إنّ جمع الأحــزاب هو وعـدٌ الله ورســوله?، وانظر أخي في الله تعــالى إلى أدب الصــحابة رضي الله عنهم حين ســمُّوا الابتلاء وعــداً، مع أن لفظ الوعد يحمِل البِشــارة وليس النِّذارة، والأحزاب نِذَارةٌ، فكيف سمّوا الابتلاء وعداً ؟!.

إنّ تسـميةَ الابتلاء وعـداً من تمـام الفقه والفهم، لأن وعـود الله تعـالى بحصـول الخـير، وقـدوم البِشـارات لا تتمُّ إلاّ بعد الابتلاء والتّمحيص، فحيث رأى المؤمن الابتلاء قادماً إليه، فهو رابطٌ له ولا شك بما سيأتي بعده، وهو وقــوع الوعــد، لكن بعد اتِّخــاد المؤْقف الصّــحيح، وفي كلامهم رضي الله عنهم موقِفُهم من الحدث، فحيث قالوا: إن هذا الابتلاء هو وعد لله تعــالى، فهو موقف منهم أنَّهم سيصبرون عليه، ويعالجوه وفق أحكـامِ الله تعــالى، ذلك ليخرجَ من الابتلاء إلى الوعد، وإلا فإن الابتلاء سيكون مقدّمة الوعيد لا الوعد.

فهم رضي الله عنهم نظروا إلى نتيجة الابتلاء وخلاصـته، وذلك من خلال موقفهم من الحدث، فالفتنة يسقط بها المرء، فتكون عـذاباً على صـاحبها كما قال المنافقون: {وإذ يقـول المنـافقون والـذين في قلـوبهم مـرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً} فهؤلاء محجوبون بحجاب الهـوى والشّـهوة، وكذلك بحجـاب البلادة والجهـل، حيث ظنّـوا أنّ الوعـودَ الإلهية تقـدم على أطباق الذّهب والفضّة، بلا امتحان وابتـلاء، وبـدون تمحيص واختبـار، فحيث وقع البلاء زاغت قلوبُهم عن الحقّ، وخرجت منهم كلمـات الشـرِّ والسّـوء، وأمّا المؤمنون فقد تذكّروا قوله تعالى: {أم حسـبتم أن تـدخلوا الجنّة ولمّا يأتِكم مَثَلُ الذين خَلـوْا من قبلكم مسّـتهمُ البأسـاءُ والضـرَّاءُ وزُلزِلـوا حتّى يقـولَ الرّسـول والـذين آمنـوا معه مـتى نصر الله ألا إنّ نصر الله قـريب} البقـرة. فـالوعود لا تـأتي بلا مقابـل، بل لا بـدَّ من أن تـأتي لمن يسـتحقّها {وصدق الله ورسـوله وما زادهم إلا إيمانـاً وتسـليماً} وأنت أخي المسـلم تـرى أن الله فـرّق في كلامه المجيد العظيم وصف المؤمــنين حيث قــال سـابقاً: {هنـاك ابتُلي المؤمنـون وزُلزِلـوا}، ثمّ وصـفَ المنـافقين ثمّ عـاد سبحانه وتعالى إلى ذكر المؤمـنين، وأظنّ أنّ حكمة هـذا - وهو ذكر وصف المنافقين بين وصـفٍ سـابقٍ للمؤمـنين ووصف لاحـقٍ لهم - إنّما هو تبـيينٌ لحال المنافقين وأنّ وجـودهم بين المؤمـنين هو الـذي اقتضى ذكـرهم بين

وصفين للمؤمنين، وهناك نكتة أخـرى وهي أنّ الوصف السّـابق {زُلزِلـوا} كـــان بين وصـــفين وهو وصف حركة الكـــافرين {إذ جـــاءوكم} ووصف المنافقين، فالزّلزلةُ الحاصلةُ للمؤمنين هي بسبب هذين العدوّين:

- الكافرين وقدومهم..
- والمنافقين وخذلانهم وأراجيفهم..

فـالابتلاء قد وقع بين سـندانٍ ومطرقـة، سـندان المنـافقين ومطرقـةُ الكافرين، وهذا من أشدّ البلاء وأعظمـه، وكما سـيتبيّن لنا أنّ الكـافرين قد ذهبوا وبقيت فتنة المنافقين بين أظهُرِ المسـلمين، فما أشـدّ هـؤلاء القـوم على أهل الإيمان!! وما أقسى ما تعاني الجماعة المسلمة منهم!! بل {هم العـدوّ فاحـذرهم قـاتَلَهم الله أنّى يؤفكـون}. وحـديث القـرآن عن النّفـاق والمنافقين طويل مسهب، ولكنّ معاناة المؤمنين من هذا المَـرض لم تكن إلاّ في حال الجهاد والقتال، إذ أنّ النّفـاق لا يُطِـلُّ برأسـه، ولا يجد لكلماته قبولاً وصدى إلاّ عند وقوع الابتلاء والمحن، فحين تضطرب النّفـوس، وتبلغ القلوبُ الحناجرَ يكون لأراجيف النّفاق مـوطنٌ ونـوع قبـول... والنّفـاق في القرآن على وصفين ومثلين.

أصناف أهل النفاق: المثل والواقع

المثل الأوّل: {مثلهم كمثل الـذي اسـتوقد نـاراً، فلمّا أضـاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتـركهم في ظلمـاتٍ لا يبصـرون، صـمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون}..

المثل الثّاني: {أو كصيّب من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبـرقٌ يجعلـونَ أصابعهم في آذانهم منَ الصّواعقِ حذرَ الموْت والله محيط بالكافرين يكـادُ البرقُ يخطَفُ أبصارهم كلّما أضاء لهم مشوا فيـه، وإذا أظلم عليهم قـاموا ولو شاء الله لذهب بسـمعهم وأبصـارهم إنّ الله على كـلّ شـيء قـدير}..

والمثلان القرآنيّان لحالتين واقعيّتين:

فالمثل الأوّل لنوع المنافق الذي لم يُسلم أبداً، ولم يـدخل الإيمـانُ قلبَه قطّ، بل بمجـرّد قدوم الحقّ عليه أنكره وأعـرض عنـه، فهـذا مسـتقرّ قلبه على الكُفر، لكنّه أسلمَ ظاهِراً خوف السّيفِ أو رجاءَ الأصفر (الذّهب).

والمثل الثّـاني لنـوع آخر من النّفـاق، وهو النّفـاق المتقلّب، تـأتي على قلبه الـــواردات الإيمانيّـةُ فيبصـرها ويهتـدي بهـا، فيسـلم قلبه كما أسـلم ظاهره، {كلّما أضاء لهم مشوا فيه} ولكنّه لا يقيم على الإيمـان، فـإذا أتت عليه وارداتُ الشّـبه الباطلـة، أو شـهوات الهـوى والنّفس، فإنّه يتنكّر لهـذا النّـور، فيُظلم قلبه {وإذا أظلم عليهم قـاموا}، فقلبُه مـتردّد بين الإيمـان والكفر، لا يَقِـرُّ له قـرار، والله عليم بما يختم لهم، فـإذا جـاءه المـوت وهو في حال نوره وإسلامه مات مسـلماً، وإن أتـاه المـوت حـالَ كفـره ونفاقه مات كـافراً منافقـاً، وليس لنا إلاّ الحكم بالظّـاهر وقـرائن الحـال الغالِبـة، فالابتلاءات والمِحن تكشف النّوعين، والقسم الثّاني تكـون له فتنـةً وابتلاءً، فإمّا يزداد بها نوراً وإيماناً، وإمّا ينتكس بها ويخـلد إلى الكفر والنّفاق، وهذا سرّ قوله تعالى: {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعــدنا الله ورسوله إلاّ غروراً} فهما قسمان: منافقون وفي قلوبهم مرض، وهـذا كذلك سبب تعليق الحكم عليهم على المشيئة كما سيأتي في قوله تعـالى:

{ويعذّب الله المنـافقين إن شـاء أو يتـوبُ عليهم}. وهـذا الكشف ومعرفة الحقائق -أي حقائق النّاس- لم تُعرف إلاّ بالجهاد في سبيل الله تعالى.

{من المؤمـنين رجـالٌ صـدَقوا ما عاهـدوا الله عليـه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بـدّلوا تبـديلاً، ليجـزي الله الصّـادقين بصـدقهم، ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوبَ عليهم إنّ الله كـان غفـوراً رحيمـاً، وردّ الله الـذين كفـروا بغيظهم لم ينـالوا خـيراً، وكـفى الله المؤمـنين القتـال، وكـان الله قويّـاً عزيـزاً، وأنـزل الـذين ظـاهروهم من أهل الكتـاب من صياصـيهم وقـذف في قلـوبهم الـرّعب فريقـاً تقتلـون وتأسِـرون فريقـاً، وأورَثَكم أرضهم وديارَهم وأموالَهم وأرضـاً لم تطأوها، وكان الله على كـلّ شيءٍ قديرا} الأحزاب 23-27.

ثمّ انجلت المعركةُ وأسفرت نتائجها واضحة بيّنة، وهي غـزوة من أشـقّ الغزوات على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفيها فقط قـال صلى الله عليه وسـلم: ((يا أيّها النّـاس، لا تتمنّـوا لقـاء العـدوّ، وسـلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلمـوا أنّ الجنّة تحت ظلال السّـيوف)). ثمّ قال: ((اللهمّ منـزل الكتاب، ومجري السّحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)) متّفق عليه. فهي المعركة الوحيدة التي طلب فيها رسول الله صلى الله عليه وسـلم من أصـحابه عـدم تمنّي لقـاء العـدوّ، وإلاّ فـإنّ خروجَ الصّحابة رضي الله عنهم لملاقاة العـدوّ أكـثر من أن يحصـى، بل إنّ بعـدها (أي بعد الأحـزاب) قـال صـلى الله عليه وسـلم: ((الآن نغـزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)) البخاري. ولذلك لا يحتجّ بهذا الحديث على عدم جواز تمنّي لقاء العدوّ مطلقاً، إنّما هو ظرف خاصّ، في حالة شديدةٍ، كـان اللقـاء يكلّف الإبـادة الشّـاملة لكـلّ الجماعة المؤمنـة، ولكن إذا لقيتُمـوهم فاصبروا.

انجلت المعركة عن شـهداء قضـوا نحبهم، وأفضَـوا إلى خـالقهم، أحب الله لقاءهم فاتخذهم شهداء، واتخـاذ الشـهداء من مقاصد الجهـاد كما ذكر الله ذلك في غزوة أحد {وتلك الأيّام نداولِها بين النّاس وليعلَمَ اللـهُ الـذين آمنوا ويتّخذ مِنكم شهداء والله لا يحب الظّالمين}، فالموت في سـبيل الله من مقاصد حركةِ الجهاد، وقد روى البخـاري أنّ هـذه الآية نـزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه، كما قال أنس بن مالك رضي الله عنـه، وقد ذكر العلماء أنّه قد يكون للآية الواحدةِ عدّة مناسبات، وأنّها نزلت عـدة مـرات، فسياق الآية في الحـديث عن الأحـزاب، فلا يمتنع أن تنــزل هـذه الآية بعد أحد مرة، وفي الأحزاب مرةً أخرى.

أصناف أهل الإيمان: أهل الإيمان قسمين:

شهداءٌ إلى ربّهم، وأحياءٌ أمناءٌ على العهد؛ ينتظرون النّصر أو الشّـهادة، كلاهما قد صـدق ربّـه، فجزاؤهـم عند ربهم، ليس عند أحـدٍ من الخلـق، وانجلت المعركة عن منافقين يتردّدون بين الإيمان والكفر، فإما أن يـقيموا على الكُفر أو يموتوا عليه فلهم العذاب، وإمّا أن يغلب النـور على قلـوبهم بعد أن رأوا من آيات الله البيّنـات من نصرِ نبيـه، وتأييـدِ الـريح لـه، فيغفـرَ الله لهم، ويُلحِقهم برَكْبِ الإسلام والإيمان، وبجماعة الهُدى والنّور.

{ورد الذين كفروا بغيظهم}: عذّبَهم الله بالرّيح، والرّيحُ جُنديّ من جنود الله تعالى، وروى الإمـام مسـلم في صـحيحه عن جـابر رضي الله عنه أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قـدم من سـفر، فلما كـان قـرب المدينة هاجت ريحٌ شديدة، تكـاد أن تـدفن الـراكب، فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: ((بعثَت هـذه الـرّيح لمـوت منـافق))، فلما قـدِم المدينة فـإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات. {وكفى الله المؤمـنين القتـال وكـان الله قويا عزيـزاً}: فلم يُضـرب في غـزوة الأحـزاب بسـيف، ولم يُـرم فيها بسهم، إنما هي الريح - ريح الصّبا -.

وكان من زيادة الله تعالى وفضله عذابُ بني قريظة، وغنيمةُ المسلمين لأرضهم وأموالهم، ففي صحيح البخـاري عن عائشة رضي الله عنها قـالت: "لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق ووضع السلاح واغتسـل، أتـاه جبريل عليه السـلام فقـال: قد وضـعت السـلاح! والله ما وضـعناه، فاخرج إليهم. قال: ((فإلى أين؟)) قال: هاهنا، وأشـار إلى قريظـة، فخـرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم".

وفي رواية أخـرى في غـير الصـحيح أنّ جبريل عليه السـلام قـال: يا رسول الله انهض إلى بني قريظة. فقال (أي النبي صلى الله عليه وسلم): ((إن في أصـحابي جهـداً)). قـال: انهض إليهم فلأضعضـعنهم. قـال: فـأدبر جبريل، ومن معه من الملائكة حـتى سـطع الغبـار في زقـاق بـني غنم من الأنصار. ا.هـ.

ففتح الله عليهم بـني قريظـة، إذ لم يبق منهم رجل بـالغ إلا وقُتِـل، وسـبِيَت نسـائهم، وغنِمَت أمـوالهم، {وأورثكم أرضـهم وديـارهم وأمـوالهم وأرضاً لم تطئوها}، قال أهل العلم في قوله تعالى: {وأرضـاً لم تطئوها}: "أن هذه بُشرى لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم ولصـحابته بفتح أراض أخرى غير بني قريظة، قال بعضهم هي خيـبر، وقـال بعضـهم مكـة، وقـال آخـرون: فـارس والـروم، وقـال عكرمـة: هي كل أرض تفتح إلى يـوم القيامة".

نعم بالجهـاد ورِث المسـلمون كنـوز الأرض وملكوهـا؛ كنـوزاً تَعِبَ عليها أصـحابها حين جَمعوها وتعِبـوا في جنْيهـا، وأضـاعوا من أجلها الأوقـات والأعمار والأزمـان، وأرضاً جعلوها من جِنَانِ الأرض، حدائقَ غنّاء، وأشجاراً باسقةً عالية، وأرضاً زاهيةً حيةً، كلُّ هذا ورثهُ المسلمون عنـدما كـانوا أهل الجهاد وأصحابه، أما الآن فيا حسـرتاه على ما أصـابَنا بسـبب تـرك الجهـاد والرّكون إلى الأرض: دفعنا الجزية، وورث الكفر أرضَنا وديارَنا.

في فلسـطين، أرض من جنـان الدّنيـا، بيّـارات (بسـاتين) البرتقـال والليمون، أخذَها إخـوان القِـرَدة والخنـازير، ووَرِثوها من أصـحابها بسـهولةٍ ويُسر، بلادُنا التي كانت تسمّى بلاد السَّمْنِ والعسل، هـاهم أبناؤها يرتمـون على أرصفة الذلّ والخزيِ في أوروبا بحثاً عن لقمةِ الخبز، وخيراتُ أرضِـنا من معادنَ وبترول وذهب هـاهو الكفر يتنعّم به كل نعيم، ويخـوض فيه إلى أذُنيه، والفقر يضرب بجذوره في ديارنا، عائلات تـبيع عِرْضـها وشَـرَفها من أجلِ قوتها، فيا الله ما أشدّ عذاب من ترك الجهادَ وأخلَدَ إلى الأرض!.

أيها المسـلمون لا بـديل عن النـار، ولا بـديل عن السِّـلاح، ولا بـديل عن الدَّم..

أيها المسـلمون الجهـاد.. الجهـاد.. جهـادٌ من أجـلِ ديننا الـذي ضـيّعه المرتدُّون، وتلعَّبوا به وجعلوه أهونَ موجود.

جهادٌ من أجلِ أعراضنا الـتي انتهكها الفقر والبـؤس والجـوع، وتلعَّب بها الطَّواغيت كحكايات الليل.
جهاد من أجلِ صرخاتِ الأسارى والمعتقلين.
جهاد من أجل أرض الإسلام وديار الإسـلام، الـديار الـتي طهـرت بـدماء الصحابة والأولياء والصالحين فصارت مـأوى الغربـان والبـوم وصـهيل خيل مسيلمة.
لقد صمّت الآذان بفحيح الأفاعي ونعيق الغربان وصهيل خيل مسيلمة..
فمن يُسرِج خيل الجهاد ؟.
ومتى يَطْرب الشَّجر والحجر، ويتغنّى الوجود بنداء:
يا خيل الله اركبي؟.

موازين الرجال وحقائق الوجود:

تحت شمس الجهاد اللاهبة ظهـرت حقـائق الوجـود، والإنسـان من هـذا الوجـود، فتعـرَّى الإنسـان، وآب كل صـنْفٍ إلى قسـيمه، فعـرف النـاس أنفسهم، وعـرف النـاس إخـوانهم وأعـداءهم، ولم يكن ليظهر هـذا كله إلا بسبب شمس الجهاد ونورها الكاشف.
غزوةُ الأحـزاب كما عرضـها أشـرف الكـلام وأعلاه - القـرآن الكـريم - كشَفَت الجزيرة العربية، وكشَفَت مجتمع المدينة النبوية، فليس هنـاك من رطوبةٍ خبيثة مخبَّأة، وليس هناك من أمـاكن مظلمـةٍ تضـرب الغربـان فيها بأجنحتها، وتُغَمغِم البوم بنعيقها، وليس هناك مقادير للرجال قد شغلها غـيرُ أصحابها، لا، بل عدَّلت غزوة الأحزاب الموازين، موازين الرجـال، ومـوازين القوى.
أمَّا موازين الرجـال ففي قوله سـبحانه وتعـالى: {من المؤمـنين رجـالٌ صـدقوا ما عاهـدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبـديلاً}، وفي قوله سـبحانه وتعـالى: {ويسـتأذن فريـقٌ منهم النّـبي ويقولون إنَّ بيوتنا عورة}، وفي قولـه: {وإذ يقـولُ المنـافقون والـذين في قلوبهم مرضٌ ما وعَدَنا اللهُ ورسولهُ إلاّ غروراً}.

سعد بن معاذ نموذجاً:

فكـان من القسم الأول شـهيدٌ ووفيّ، منهم سـعد بن معـاذ رضي الله عنه، وهو من سـعود الخـير (سـعد بن عبـادة، سـعد بن الربيـع) من أنصـار النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وكـان سـيداً من سـادات الأوس، رفعه الله فوق ما كان عليه من رفعةٍ في قومهِ، ورفع الله تعالى به الإسلام، وخَبَـره في غـزوةِ الأحـزاب خـبرٌ يملأ الجـوانحَ إعجابـاً وحبّاً، فيها الصـورة المثلى لرجل التّوحيد والجهاد، ففيها أصابه سهمٌ في أكحله من رمية رجلٍ مُشرك اسمه ابن العرقة، وقيل غير ذلك، ولما رماه قال: "خذها وأنا ابن العرقة"، فقـال سـعد : "عـرّق الله وجهك في النّـار"، فـذُهِب به إلى داخل المدينة ليمرَّض، وكان من دعائه بعدما أُصيب: "اللهم لا تمتني حتى تُقِرَّ عيـنيَّ في بني قريظة"، وبنو قريظة هم من ثلاثة قبائل يهوديةٍ في المدينة وهم:
بنو النّضير، ومن زعمائهم كعب بن الأشرف.
بنو قينقاع. وهؤلاء قد سبق طردهم من المدينة بسـبب نقضـهم العهـود والمواثيق التي أنشأها معهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم عند قدومه إلى المدينة.

بنو قريظــة، وكــانوا حلفــاء سـعد بن معــاذ ومواليه في الجاهليَّة، وبعد انتهاء الغزوة وانصراف الأحزاب، فـرغ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لهم بعـدما حرّضه جبريل عليه السـلام كما تقـدم، وبعد حصـارٍ دام خمسٍ وعشـرين ليلـةٍ، جَهَـدَهُم فيه الحصـار جهـداً شـديداً، ففي صباح الخـامس والعشرين، وبعد مـداولات ومشـاورات بين القرظـيين، وبعد أن قـذفَ الله في قلوبِهم الرُّعب قبِلوا أن ينـزلوا على حكم رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، فتـواثب الأوس، فقـالوا: "يا رسـول الله موالينا دون الخـزرج، وقد فعلتَ في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت"، وقد كـان الرسـول صـلى الله عليه وسلم حاصر بني قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فسأله إيـاهم عبد الله بن أبي ابن ســلول فــوجّههم له (أي أعتقهم)، فلما كلَّمَه الأوس قــال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا ترضــون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم))، قالوا: بلى، قـال: ((فـذاك إلى سـعد بن معـاذ))، فأتـاه قومه إلى الصُّفَّة التي كان يمرَّضُ بها بجانب المسجد النبوي، فحملوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلوا يقولون له: "يا أبا عمرو (أي سـعد) أحسن في مواليك، فإنّ رسـول الله إنَّما ولاّك لتُحسن فيهم"، فلما أكـثروا عليه قال: "قد آن لسـعد أن لا تأخـذه في الله لومة لائم"، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجـال بـني قريظة قبل أن يصل إليهم سعدٌ بن معاذ - رضي الله عنه - عن كلمته الـتي سـمع منه، فلمّا انتهى إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم والمسـلمين، قـال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم: ((قومـوا إلى سـيدكم))، فقـاموا إليـه، فقالوا يا أبا عمرو: "إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد ولاّك مواليك لتحكم فيهم"، فوقف سعد بين اليهود والمسلمين، فنظر إلى اليهود وقال: "عليكم بــذلك عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيما حكمت". قــالوا: نعم، ثمّ قال وهو معرض عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم إجلالاً لـه: "وعلى من ههنا"، فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: ((نعم))، قـال سـعد: "فـإنّي أحكم فيهم بـأن تقتّل الرِّجـال، وتقسَّـم الأمـوال، وتسـبى الـذّراري والنّساء"، فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لسـعد: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)). ثمَّ خرج رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إلى سـوقِ المدينـة، فخنـدق بها خنـادق، ثمّ جيء بـالقرظيين، فضرَبَ أعناقهم، وكـانَ عـددهم بين السـبعمائةٍ والثّمانمائـة، وكـان سـيّافٍ النّبيّ صلى الله عليه وسلم الزّبير، وإن غاب فعليّ رضي الله عنهم جميعاً، وقد كان الصّحابة رضي الله عنهم يفرّقون بين الرّجـال والأ طفـال بظهـور اللحية والشّـارب، وإلاّ بظهـور العانـة، فمن ظهر شـاربه أو لحيتُه أو عانَته فهو رجلٌ يُقتل، وإلاّ فهو سبْي ومالٌ مغنـوم. أمّا سـعد بن معـاذ رضي الله عنه فقد دعا بعد ذلك بقولـه: "اللهمّ إنّك علمت أنّه لم يكن قـومٌ أحبّ إليّ أن أقاتل أو أجاهد من قوم كذّبُوا رسولَك. اللهمّ إن كنتَ أبقيْت من حــرب قريشٍ على رسـولكَ شـيئاً فـأبقني لهـا، وإن كنتَ قد قطعتَ الحـربَ بينه وبينهمٍ فاقبضني إليك"، فـانفجر جرحه حـتى أنهـاه، فرحل إلى ربّه راضـياً مرضيّاً.

إنّ هذه الشّخصيّة الصّحابيّة العظيمة تُظهر لنا أركـان الصّـورة المحبوبة لله تعـالى: {من المؤمـنين رجـالٌ صَـدَقُوا ما عاهـدوا الله عليه فمِنهم من قضى نحبه}، وسعدٌ رضي الله عنه كان ممّن قضى نحبه.

صورةٌ مشرقةٌ بعطائها وقتَ المِحن والخطوب، تـأتي إلى المـوت وهي ترتجز:

لبثت قليلاً يشهد الهيجا حمـل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

صورةٌ لرجلٍ لا تأخذهُ في الله لومةُ لائم، لا يعرفُ إلاّ محبّة اللـهِ ومحبّة رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وشـائجُ القـربى بينه وبين النّـاسِ مقطوعةٌ إلاّ ما وصلها الله وأمر بوصلها، لم يُـرِد رضي الله عنه أن يتشـبّه برجلٍ منافقٍ، استغـلَّ وجوده في الصّـف المسـلمِ لتمريـرِ شـبكةِ علاقـاتٍ قائمـةٍ على أصـولٍ جاهليّـةٍ فاسـدة، أو يبـني علاقـةً على حسـاب الإسـلام والمسلمين، وفي هذه الصورة المعروضةِ تظهر لنا أنّ الشّخصيّة الصّحابيّة قد بلغت من الرّقيِّ الفِكْـري والنّفسـيّ إلى درجـةِ ما يحبُّ الله تعـالى وما يرضـيه قبل أن تسـمع الخـبر الإلهيّ، فـالنّبيّ صـلى الله عليه وسـلم شـهد لحُكمِه أنّه هو حكم الله تعالى، وقد كان رضي الله عنه في منطقةِ الاختيار الجـائز للطّـرفين، ولكنّه لمّا وصل إلى درجة القُـرْب من عبوديّته لسـيّده -جلّ في علاه- صار يعـرِفُ ما يريـدُه سـيّده، وما هـذا إلاّ بسـبب الطّاعـات وكثرة القرب كما قال الله تعالى: {والذين جاهـدوا فينا لنهـدينّهم سـبلنا}، وكما قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم في الحـديث القدسـيّ: ((وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فـإذا أحببته كنتُ سـمعه الـذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يَبطش بها، ورجلَه الـتي يمشي بها، ولئن سـألني لأعطينّـه، ولئن اسـتعاذني لأعيذنّـه))، ثمّ انظر إلى دعائه الأخير، والذي يكشِف فيه سبب رغبَتِه في زيادَة العُمر إن كانت ثمّ فائـدة، وما هي هـــذه العلة الـــتي من أجلها يطلب طـــولَ العُمـــر: إنّها مقاتلة المشركين: "اللهم إن كنت أبقيتَ من حربِ قريشٍ شيئاً فـأبقني لهـا". إنّ الحياة ليست بطـول السّـنين ولا بكـثرة الأيّام، وليس جمالها برغَد الطّعـام ولينِ الفـراش، ولكن إن كـان ثمّة رغبة في الحيـاة فهي بسـبب الجهـاد، وهذه نفسيّة أغلب أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فهنـاك قولٌ لعمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه شبيه بقول سعد، وكـذا لخالد بن الوليـد، ولأبي بكر رضي الله عنهم جميعاً، وكلّها تشهَدُ أنّ الجهـاد صـار هـاجس النّفــس، ومنتهى الطّلب، وغاية المُنَى، وإن كان الله تعالى قد كتب الجهاد وهو كُرهٌ للبشر كما قال في كتابه - جـلّ في علاه -: {كُتِبَ عليكُمُ القِتـال وهو كـره لكم}، فإنّ تلك النّفوس ما زالت تترقّى وتتعـالى على شَـهَوَاتِها حتّى صـار الجهاد شهوتها ورغبتها:

وذاك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلوٍ ممزّع

إنّ هناك فارقاً كبيراً بين جيل كان يطلب الإذن للقتال، وإذا سمع شـرّاً بـادَرَ بمعالجته بالسّـيف: "أفلا ننابـذهم؟"، وبين جيـلٍ يلتمسُ المعـاذيرَ والحُجَج الهزيلة لإسـقاط الجهـاد أو تعويقه أو تأجيلـه. شـتّان بين هـذين الجيلين؟.

لقد كان لحكم سعدٍ بن معـاذ رضي الله عنه - هـذا الحكم الرائع - على بني قريظةَ موجباتٌ ومقدِّمات عقليّة ونفسيّة، وهـذه العقليّة والنفسـيّة قد شكّلها مبدأ الجهاد أوّلاً، ثم مسيرةُ الجهادِ ثانياً، وخاصّة حدثُ الأحـزاب، إنّه لا يُمكن أن يَصدُر هذا الحكم بلا مقدِّمات موضوعيةٍ حقيقيةٍ:

رجلٌ بينه وبين قومٍ وشائجٌ وصلاتٌ هي من أقوى الصلات بين الناس يومَ ذاك، ومن أجلها يبذلون الأرواح والأموال والطّاقات، فالحليف كان ينصر حليفه حتى لو أدت هذه النُّصرة إلى المهالك، ثمّ هذه الوشائجُ والصِّلات بإنشاء الأحلاف لم تكن تنشأ من فراغٍ نفسي، بل من وجود محبَّةٍ وعلاقةٍ خاصّة بين المتحالفين، وها هنا الأوس وبني قريظة، ثمَّ وفي ظَرْفٍ يصدِرُ الحليف حكم الموت على حليفه: "حكمي فيهم بأن تقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتسبى الذراري والنساء"، وهذا الحكم ليس موجبه الخلاف القبلي ودليل ذلك أن الأوس جعلوا يطوفون به يرجونه بأن يُعتقهم ويطلق سراحهم، فما هي هذه الموجِبات التي جَعلته ينطق هذا الحكم الرائع العادل؟.

قلنا إنّ هذه الموجبات منشؤها الجهاد، وحركة الجهاد ومسيرة الجهاد. فالجهاد بصفته مبدأً وعقيدةً أنشأ في نفس المسلم الصّحابيّ بغضاً للكفر وأهله، إذ أنّ المرءَ لا يندفع بقوّة كافية للقَتل والقِتال إلاّ بعد أن تمتلئ نفسه بالبغض والكره لخصمه، وقد بغّض القرآن الكريم الكفر والكافرين لأتباعه ورجاله، ودفعهم بكلِّ ترغيبٍ إلى مصادَرَة حياة الخصوم.. {ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم}.. {قاتلوهم يعذِّبهمُ الله بأيديكم}.. {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}.. {واقعدوا لهم كل مرصد}، ولولا مبدأ الجهاد وعقيدة الجهاد لما أمكن أن تصل النّفس المسلمةُ إلى درجة البراءة المطلوبة ضدّ المشركين، فمبدأ البراء من المشركين يعبَّأ ثمَّ ينفَّذ من خلال الجهاد في سبيل الله.. ثمّ بسبب الجهاد اكتشف الرجل التّقِيُّ الطّاهر الوفيّ خبث الشَّريك والحَليف، وأنه لا يستحقُّ حِلفه لأنّه خائنٌ، وما كان للنَّفسِ اليهودية أن تَظهَرَ على حقيقتها إلا بهذا الظّرف المُلتهب وهو غزوة الأحزاب، إذ أنّ الفتنة تكشف الصادق في كلماته، والكاذبَ في دعواه، فكان الجهادُ في غزوةِ الأحزاب كاشفاً للحقائقِ النَّفْسيةِ لهذا الحليف الخبيث، وكم هي مؤلمةٌ أن يكتشفَ الطّاهر الصَّادِقُ كَذِب وتزييف المدَّعي!! إنَّها لمؤلمة حقاً أن يكتشف سعدٌ بن معاذ أنّ حلفائه كذَبةٌ فَجَرة ينقُضُون العهودَ والمواثيق بلا حساب أو وَخْزةِ ضمير، وعلى هذا فسيكون عقاب هذا الرجل شديداً على من خَدَعَهُ. وهكذا كان حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه. إنّ الجهاد بصفته مبدأً وعقيدةً أنشأ عقيدةَ البراءِ من المشركين، وبالتالي دفع الصحابة لقتل أعداء الله، وإنَّ الجهاد بصفته حركةً وسلوكاً كشَف للصحابة مِقدار خبثِ العدوّ، وبالتّالي ذهَبَتْ كلّ أعذار المعوِّقين بأن هناك مجالاً طيّباً في نفوس أعداء الله يمكن أن تستغل في الدّعوة إلى الله.

ولقد رأيت لبعض المعتوهين ممّن ينتسبون للفكر الإسلامي!! معالجةً غريبة لحكم سعد رضي الله عنه، حيث ذهب هذا المعتوه إلى القول: "إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحكم على اليهود هذا الحكم لأنّه يناقض مبدأ الرّحمة والإحسان الذي بُعث به، ولذلك ترك الحكم لسعد بن معاذ، ليكون حُكْماً لسعد لا لرسول الله صلى الله عليه وسلم"!!، ولكن أين ذهب هذا المعتوه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لحكم سعد: ((لقد حكمت فيهم بحكم الله فوق سبعة أرقعة)).

مات سعد..

فما الذي حدث عند موته؟ وماذا حدث في جنازته؟.

عندما مات اهتزّ له عرشُ الرحمن حزناً عليه أن لا تصـعد إليه الأعمـال الصـالحة من سـعد.. واهـتز له فرحـاً بقـدوم الـروح واسـتقرارها معلقة بالقناديل الخضر المعلقة فيه..
أما في جنازته فقد مشى رســول الله صــلى الله عليه وســلم على رؤوس أصابعه لكثرة ما كان من الملائكة في المشيّعين!.
فهكذا رجال الجهاد يحيون، وهكذا يموتون..

غـزوة الأحـزاب ومـوازين القـوى في الجزيـرة العربية :

في غزوة الأحزاب تغيّرت موازين القوى في الجزيرة العربيّـة، لأنّ روح الجهـاد وحركة الجهـاد تُعيد تـرتيب الأوضــاع حسب مفهـومٍ إيمـانيّ، فـإذا سَرَت روحُ الجهاد وحركته، في قومٍ أذلاّء محتقرين، فبالجهــاد تنقلب الذّلة إلى عزّة، والاحتقار إلى احترام وتقدير، ولا يمكن وجـود أمّة من الأمم فيها النّجاح والعزّة إلاّ وروح الجهاد تسري في جميع أوصالها.
والآن كيف غيّرت غزوة الأحزاب موازين القوى في الجزيرة العربيّة؟.

الشـــــــــــــــوكة من النكايـــــــــــــــة إلى التمكين:

ابتــداءً علينا أن نعلم أنّ النّصر الكبــير الضّــخم مجموعة من سلســلة انتصــارات صــغيرة، ولا يمكن أن يقع شــيء في مجــال النّصر والهزيمة بصـورة طفـرةً مفاجئة تبـاغت المنتصر أو المهـزوم، إذ الطّفـرة الـتي لا مقدّمة لها لا وجود لها إلاّ في عقول مشايخنا وقادتنا فقط، فإنّهم يحملـون في كلّ ما يقولون ويرتّبون لضربة يحضّـر لها تحضـيراً تامّـاً وكـاملاً، بعيـداً عن أعين الخصـــوم وبهـــذه الضّـــربة المفاجئة المباغتة نقضي فيها على الخصوم، وبها نتجنّب الكثير من الـدّماء الـتي تـراق، والأرواح الـتي تزهـق، ومشايخنا يدنـدنون على هـذه الفكـرة كثـيراً، وعلى ضـوئها يـتراجعون عن الصّراع تحت شعارات التّربية والإعداد، وهذه الفكرة تجد صدىً وقبولاً في النّفوس، لأنّها جميلة جدّاً، ورائعة جداً، ووورديّة جدّاً، وهي مع ذلك كلّه هشّة جــداً جــداً، أمّا أنّها جميلة ووورديّــة، فكيف لا تكــون كــذلك وهي تقــدّم للإسلاميين النّصر والعـزّة والسّـؤدد على طبق من ورد ؟ ثمّ كيف لا تكـون ورديّة وهي من صنع أوهام الحالمين، والحلم عندما يختلط في ذهن المـرء مع الحقيقة فإنّه لا يناقش مناقشة العقلاء، والأذكياء.
إنّنا نحلم بترتيب رفيعٍ جدّاً لشوكةِ التّمكين دون المرور بشوْكة النّكايـة، وهي الشّـوكة الـتي يقع فيهـا: {إن تكونــوا تــألمون فــإنّهم يــألمون كما تألمون}، ويقع فيها: {يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويقتَلون}، وهـذا مع عدم إمكانيّة حدوثه فإنّه يفرز ولا شكّ فِقهاً أعوجـاً، وأحكامـاً فاسـدة، وما هذا الفقه الذي نسمعه من مشايخنا من جـواز التّعدّديّة السّياسـيّة، وجـواز التّداول على السّلطة، وعدم جواز الجهـاد الهجـومي، وجـواز تـولّي الكفّـار المناصب السّياسيّة والعسكريّة والقضائيّة في الدّولة الإسـلاميّة إلاّ بسـبب هذا الحلم الفاسد الناشئ عن تُخمةٍ مردّها خلط الأفكار غـير المتجــانسة، وتفســير هــذا: أنّ واقعنا بســبب عوامِل البنــاء الشّــيطانيّ فيه قد امتلأت جوانبه بالشّـرور، وأصـابت الأمل الإسـلامي بالإحبـاط، فحين يـأتي الشّـيخ ليعالج هذا الواقع بهـذه التّركيبة بأحكـام فقهيّـة، فـإنّ هـذه المعالجة وعلى

ضـوء هـذا الواقع سـتجعله يتنـازل عن كثـير من (تشـديدات السّـلف كما يسـمّيها)، إلى ميوعـات الخلف (اعتـدالهم كما يسـميها)، وهـذا لأنّه تمّ له التّمكين دون تحضير أرضية التّمكين بما يناسـبها، وهـذا التّحضـير لا يقع إلاّ من خلال شوكة النّكاية، لأنّنا حين نصل إلى التّمكين مروراً بالنّكاية، نكـون بفضل الله تعالى قد نظّفنا الطّريق من كلّ أوساخها وقاذوراتها، (ليس كلّ الأوسـاخ والقـاذورات، بل رؤوسـها إن شـاء الله تعـالى) بشـوكة النّكاية المتكـرّرة، يـترقّى الحـقّ في نفوسـنا ويتجـذّر، وتـذهب زهومة الأفكـار الفاسدة، ويتجذّر بُغضُنا للباطل وبُغضُ الباطل لنـا، وبشـوكة النّكاية نقطف الرّؤوس التي حان قطافها، فلسنا على استعداد (بتاتاً) لنقاش سفسـطائي تفوح منه رائحة الهوى والشّرك، ولسنا على اسـتعداد (أبـداً) لحـوار يبتسم خصـومنا لنا فيه فنظنّ فيهم خـيراً، فيـدفعنا هـذا الظّنّ إلى تقسـيماتٍ ما أنـزل الله بها من سـلطان، ولسـنا على اسـتعداد (ونحن نمـارس شـوكة النّكاية) إلى التّحالفات الشّركيّة الباطلة. خلال شـوكة النكاية يتّخذ الله منّا شـهداء، فـترتفع أرصـدة الجماعة المجاهـدة في خانة الصّـدق وحبّ اللـه، وحبّ الرّسول صلى الله عليه وسلم، والبراءة من المشركين.

خلال شـوكة النّكاية نتعلّم كيف لا نخـاف من الـدّم، وكيف نُتقن الـذّبح، وكيف نُتقِن اقتحام الحصون المنيعة.

من خلال شوكة النّكاية نتعلّم الصّبر على فقدان الأحبـاب، ونـتربّى على بذل الأرواح في سبيل هذا الدّين.

ومن خلال شوكة النّكاية نتصفّى ونتربّى، ومن خلالها نجهّز لمن بقي منّا حقائبَ الدّخول على الوزارات!!، فإذا وصلنا إلى التّمكين من خلال شـوكة النّكاية لن نضـطرّ إلى إعلان الحـرب على جيراننـا، لأنّنا سـنكون في حالة حربٍ حقيقيّةٍ لا قيمة فيها للإعلان.

إذاً وصلنا إلى التّمكين من خلال شوكة النّكاية لن نكـون مضـطرّين إلى احترام آراء التّعدّديّة السّياسية ولا الأحـزاب الأخـرى لأنّه لا وجـود لهـا، لقد واريناها التُّراب قبل قليل، أو رميناها في قليب بدر.

وإذا وصـلنا إلى التّمكين من خلال شـوكة النّكاية المتكـرّرة لن يكـون قائدنا جباناً ولا خائناً ولا عميلاً، لأنّ القائد الجبان والخائن والعميل هو الآتي لنا من الظّلام، لم نَخبُـره ولم يَخبُرنـا، أي أتانا من وراء مكتب وثـيرٍ لا من وهج المعركة.

والوصول إلى التّمكين من خلال شوكة النّكاية المتكـرّرة لن يجعل همَّنا إرضاءَ النّاس بتأمين السّكن والخبز والعمل لهم، ولسـنا محتـاجين إلى أخذ رضـاهم فيمن يحكم أو بما يحكم ؟، سـيحكمهم أميرنا شـاءوا أم أبَـوا، وسـنحكمهم بالإسـلام ومن رفع رأسه قطعنـاه، لأنّ التّمكين وصل إلينا بفضل الله وحده، فليس لنا أن نهتمّ إلا برضـاه وحـده، نفعل ما يـأمُر وإن غضب النّـاس، وننتهي عمّا نهى، وإلهنا هو إلهنا وحبيبنـا، نصـرنا وحـده من ضعف، وآوانا من عُرِيّ، وأطعمنا من فقر، أخـذنا سـلاحنا من يد عـدوِّنا، لم نعقد الصّفقات مع الشّـرق والغـرب مقابل تنـازلات مبدئيـة، ولم نصل إلى التّمكين بقرار في بيت أبيض أو أسود، بل بعبوديّتنا لله وحده، وببراءتنا من كلّ طواغيت الأرض.

الأحـــــزاب وانكســـــار شـــــوكة قــــريش (تحــــول الصــــــراع):

عودة إلى غزوة الأحزاب: لقد كـان لقـريش مكانة خاصّـة في الجزيـرة العربيّـة، وكـانت العـربُ تـرقب نتيجـةَ الصّـراع بين النّـبيّ صـلى الله عليه وسلم وقـريش، وذلك كما روى البخـاريّ عن عمـرو ابن سـلمة رضي الله عنه أنّه قال: "وكانت العرب تلوم (أي تتحيّن وتتربّص) بإسلامهم الفتح (أي فتح مكّة)، فيقولون اتركـوه وقومه فـإن ظهر عليهم (أي انتصـر) فهو نـبيٌّ صـادق"، بل إنّ بعض العـرب جعل لإسـلامه موعـداً، كما قـال ذو الجوشن الضّـبابيّ لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بعـدما دعـاه إلى الإسـلام، فوقّت ذو جوشن موعداً لإسلامه وهو هزيمة قريش حيث قـال: "إن تغلب على الكعبة وتقطنهـــا" [انظر مجمع الزوائد 6/162]. وعلى هـــذا فلو رأينا معارك النّـبيّ صـلى الله عليه وسـلم مع قـريش لرأينـاه سـجالاً وذلك كما وصـفها أبو سـفيان قبل إسـلامه لهرقـل: "يغلبنا يومـاً ونغلبه يومـاً"، وقبل الأحزاب كانت بدر الكبرى التي سمّـاها الله تعالى {يوم الفرقان}، بالرّغم من أنّها لم تكن حرباً عالميّـةً، وليست تعـدل بحجمها العسـكريّ الغـزوات الإسلاميّةَ الكـبرى كـاليرموك والقادسـيّة وغيرهمـا، وهي كـذلك معركة لم تقض على قريش قضاء مبرماً، بل خرجت قريش بعدها بسنة لغزوة أحـــد، وتمّ لهم الغلبة العسكريّة في أحد، ولكن عظمة هذه الغـزوة الـتي سـمّاها الله فرقاناً وهي التي لم تحضّر لها قـريش طـويلاً، ولم يخـرج رسـول الله صلى الله عليه وسلم من أجلهـا، بل تمّت من غـير ميعـاد، لأنّ بها قد وضع حجر الأساس للفتح الأكبر، فهي لبنة من لبنـات بنـاء النّصـر، وهكـذا فكـلّ معركة تلتها كانت تصبّ في خانة الفتح الأكـبر "فتح مكّـة" وكـان فتح مكّة لبنة ومحطّة للخروج من الجزيـرة، وهكـذا..، وبعد بـدر كـانت أحـد، وما تمّ فيها من استشــهاد ســبعين صــحابيّاً، وخســران الجماعة المســلمة بعض قياداتها، وهكذا توالى السجال، بئر معـونة وما حصل فيها من البلاء الشّديد في السّنة الرّابعة للهجرة، حيث قُتل نفر من خـيرة المدرّسـين والمعلّمين والفقهاء رضي الله عنهم، فالحرب تأخذُ وتُعطي، نصرٌ وابتلاء، حتّى وصلت الذّرْوة في هذا السّجال إلى غزوة الأحزاب، حيث قرّرت قريش أن تضرب ضربتها النّهائيّة، وتُنهي سلسلة الصّراع لصالحها.

ولو أردنا أن نـــوازن بين البلاء على قـــريش والبلاءِ على الصّــــحابة والمسـلمين في مجمـوع الصّـراع لظهر أنّ البلاء كـان أشـدّ وأعظمَ على المسلمين، إذ كانت قريش تتعامل مع محيطٍ في الجملة معها سـوى بعضِ القبائل الكارهة لها كخزاعة، ولكنّ المدينة الطّيّبة محاصرة من اليهود ومن الأعراب ومن قريش، وفي الدّاخل من المنافقين، فالمعوّقات على الصّفّ المسلم وفي داخله كانت أشدّ وأعظم من وجوده في عسكر قريش.

هذا الصّـراع بين قـريش والنّـبيّ صـلى الله عليه وسـلم كما قلنا كـانت العرب ترقبه وتنتظر نتيجته، وقد كان النّبيّ صـلى الله عليه وسـلم يحـاول جاهداً أن يحيّد قريش في صـراعه مع الشّـرك في الجزيـرة العربيّـة، لأنّها ليست بالكتلة الهيّنة، ولا المعادِلة له في الصّـراع وظهر هـذا في قوله كما روى البخـاري: ((إنّ قريشـاً نهكتهم الحـرب وأضـرّت بهم، فـإن شـاءوا ماددتهم مُدّة ويخلّوا بيني وبين الناس، فـإن أظهـرُ فـإن شـاءوا أن يـدخلوا في ما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّـوا (أي اسـتراحوا) وإن هم أبـوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفـذنّ

الله أمـره)) وهـذا قاله عنـدما توجه إلى مكّة للعمـرة ونزوله في الحديبية صـــلى الله عليه وســـلم، ولكن يـــأبى الله تعـــالى إلا أن ينصر دينه وذلك بتصـعيد الصّـراع بين قـريش وبين النـبي صـلى الله عليه وسـلم، فكـانت قريش تضع نفسـها في كل مـرة أمـام مـدّ الإسـلام، فتَغلِب وتُغلَب، حـتى جـاءت غـزوة الأحـزاب وهي الوعد الإلهي المبشّـر كما سـمّاها الأصـحاب الكرام رضي الله عنهم وحدَث ما حدَث من نزول الملائكة وإرسال الصَّبا.

بعد غـزوة الأحـزاب قـال صـلى الله عليه وسـلم: ((الآن نغـزوهم ولا يغزونـا، نحن نسـير إليهم))، بعـدما انقلبت المـوازين، وقد قـدَّر صـلى الله عليه وسـلم بما آتـاه الله من الهـدى والرُّشد أنَّ قريشـاً اسـتجمعت كـلّ قوّتها في غزوة الأحزاب، ولم يبْق في جعبتها سهماً إلا ورمته، ولا سيفاً إلا وضرَبَته، فلم يَبْق لها شـيءٌ من القـوى ما يمكن أن يجعلها تقـوم بمعـارك جديـدة خـارج أرضـها لـذلك قـال صـلى الله عليه وسـلم قولته وهو سـائر للعمرة كما تقدم: ((إن قريشاً نهكتهم الحرب وأضرّت بهم)) وقد رأينا بعد غزوة الأحزاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقم بغـزو قـريش، بل خـــرج إلى مكة معتمـــراً لا يريد حربـــاً، بل كما روى البخـــاري: ((إنا لم نجيء لقتـالِ أحـدٍ، ولكن جئنا معتمـرين))، وسـبب هـذا الأمر هو أنّ النـبي صـلى الله عليه وسـلم أراد أن يُحـرجَ قريشـاً أمـام العـرب، حتّى يُفقـدها شرعيّتها في حماية البيت الحرام، وهذا أمر ضـروري لأنه مقدِّمة ضـروريَّة لإضعافِ حلفِ قريش وتفتيته، ثمَّ لإعطاء المبرر لدى القبائل المنتظرة بأن قريشاً ليست بالذي يحقُّ له أن يكـون حاميـاً للـبيت، فـإن العـرب لم تكن لتتصور أن يُمنَع قومٌ - أي قومٍ - من القـدوم إلى بيت الله الحـرام، فكيف إذا كان القوم هم المسلمون، حيث أحرموا وساقوا الهدي، وبهـذا سـقطت هيبةُ قريشٍ الدِّينيّة، إذ أنها عَرِيَت أمام العرب بتصرّفها القَبيح، حيثُ مَنعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من العمـرة. وبمرورنا السـريع على هـذا الصّراع - دراسة وبحثاً - يظهر لنا أنّ الصّراع كان خاضـعاً للسّـنن الإلهيّـة، ولم يتجاوزها في أيّ مرحلة من المراحـل، صـراعٌ سـننيّ لا طَفـرة فيه ولا مفاجـأة، ولا يوجد فيه تلك الخَبطـات الحالِمة بالضّـرب المفـاجئ للخصـم، حيث نصل إلى سيادة بلدٍ مهما صغر من خلال إعداد سـرّيّ شـديدٍ (ودرجة السرّية تصل إلى عدم العمـل، لأنّ قمّة السّـرية المطلقة تعـني بكـلّ جلاء أن لا تعمـل)، وكأنّنا مع هـذا النّـوع من التّفكـير نتعامل مع قـوم من أهـل القمر، يعِدّون أنفسهم هناك فوق مستوى مراقبةِ الأقمارِ الصناعيَّة وبعيــداً عن ضربات الخصوم وهجماتهم!!!!.

معركتُنا مع المرتدّين هي معركـةٌ قد فرغنا من أصـولها الشّـرعيّة، حيث تبيّن لنا بكلِّ وضوحٍ حُكمَ الله تعـالى في الحكّـام وطـوائفهم، وأمّا من بقي من النّاس يرتكس في جهله لعـدم فهم التّوحيـد، أو لعـدم عِلمه بنواقضـه، فلا نملك له إلاّ الـــدّعاء، أمّا من فهم حكم الله في هـــؤلاء أنّهم كفّـــار مرتـدّون، وأنّه يجب قتـالهم فقد خـرج من دائـرة الجهل إذا تمّ هـذا، فعلى الجميع حينئذٍ أن يُريحنا من آرائه الرّائعة الورديّة، إنّ الدّور الآن بعد الفراغ من معرفةِ حُكمِ الله تعالى فيه أن نسمع لخـبراء ومستشـارين وقـادة من نوع جديد، قطعاً ليسـوا هم خـرّيجي الجامعـات الشّـرعيّة، والـذين دَفعَتهم علاماتهم الضّـعيفة مكـرهين لدراسة الشّـريعة والفِقـه، وقطعـاً ليسـوا هم المفكّرين الذين يريدون أن يُجبرونا أن نعترف أنّهم مجدّدون لعصـرهم، مع

أنّهم لا يملكون إلاّ الجهل والغبـاء، قَطْعـاً ويقينـاً ليسـوا هـؤلاء ممّن ابتُلينا بهم في العمل الإسـلامي، إنّما هم أهل الخــبرة والمعرفة في العســكريّة والقتال والحرب:

مرّت فتراتٌ متقطّعة من أعمال الجهـاد واقعة يتقمّصـها غـير أصـحابها، ويتاجرُ بها غيرُ أبنائها، وسـبب ذلك عائـدٌ إلى عوامـلَ منهـا: رضا الجمـاهير المســلمة عن هــذا الجهــاد، ومن أجل الرِّفعة والظّهــور على أكتــاف المجاهـدين، فتسـارع هـذه التّنظيمـات الطّفيليّة إلى تقمّص دور البطولـة، وإظهار نفسها في موقع الرّيادة في هذا الجهاد، فترتفع الأرصدة الإعلاميّة، وبالتّالي ترتفع الأرصـدة الماليّـة، وحينئـذٍ يصـبح الجهـاد في مـأزق حقيقيّ، حيث يضرب المجاهدون ضـرباً شرسـاً وذلك ليصـبحوا تحت وطـأة هـؤلاء اللصــوص وقطّــاع الطّريق إلى الله تعــالى، فتظهر الأمــراض العجيبــة، وتتكشّــف النّفــوس الخبيثــة، ويقع الفِصــام النّكد بين المجاهد الحقيقيّ والممـوّل الخـبيث (لص بغـداد)، وأمثلة هـذا كثـيرة الوقـوع وعديـدة فمِن أفغانستان إلى فلسطين إلى البوسـنة والهرسك إلى سـوريا.. إلى.. إلى..، ومن هـذه العوامل كـذلك: إرضـاء القواعد التّحتيّة المتململـة، فالإنســان المسلم الفطري السويّ تتـوق نفسه فطريّـاً إلى الجهـاد، وإلى المشـاركة في مــواطن العبوديّة لله ضــدّ الكفر بجميع صــنوفه وأشــكاله، فمن أجل تفريغ هذا المِرجل من بخاره الغاضب، فلا بدّ من بعض المنفّسـات للتّفريغ الــذّكيّ الخـبيث، فتسـارع الجماعة إلى تبنّي أعمـال جهاديّة لتقنع القيـادة قواعدها أنّها لم تغيّر الطّريـق، أو لتعريف قواعِـدها أنّ هنـاك فرقـاً بين ما هو معلن من أجل الغطاء السّياسي، وبين ما هو مخفيّ حقيقيّ.

الجهاد السلفي بين السني والبدعي :

هناك جماعـاتٌ طفيليّة ووصـوليّة في هـذا البـاب معروفة لـدى القاصي والـدّاني، وهي تملك في خطابها نـوعين من المضـمون، نـوع يتعامـلُ مع الأفكار والمفاهيم بكثـير من الشّـرعيّة والأصـوليّة، ونـوع يتعامل مع الواقع بكثير من الميكافيليّة والثعلبية.

فجماعةٌ ترى عدم شرعيّة الانتخـابات الشّـركيّة مثلاً ولكنّها لا تفتأ بل لا تتــوانى في تأييد جماعــات العمل البرلمــانيّ، خاصّــة إذا أخــذت هــذه الجماعـات خطـوات متقدّمة في الحضـور الإعلاميّ، والوجـود الجمـاهيريّ الشّعبيّ.

هذه نقطة على الجماعات السّلفيّة المجاهـدة أن تحسـمها منذ البدايـة، عليها أن تحسمها وجـوداً وكونـاً وذلك بقطع الأيـدي والأرجل الـتي تحـاول التّسلّق طفيليّـاً على أسـوار الجهـاد السّـلفيّ الواضـح، وعليها أن تحسـمه فكريّاً وذلك ببيـان الفــوارق الشّـرعيّة بين هـذه الجماعـات الطّفيليّة وبين المجاهدين الموحّدين.

نعم في الجهــاد السّــلفيّ الواضح هنــاك قضــايا لا يمكن أن يتحمّلها الطّفيليّ الوصوليّ، وإنّه وإن حاول الالتفاف الخبيث حينـاً من الـدّهر، فإنّه لا يسـتطيع أن يواصل بالشّـوط إلى نهايتـه. في الجهـاد السّـلفيّ ميّـزات وخصائص عن عموم الجهاد في المفهوم العـرفيّ لـدى عـوامّ النّـاس ومن هؤلاء العوامّ قادة الحركات البدعيّة، وقـادة الحركـات الطّفيليّة الوصـوليّة، ومن أهمّ هذه الفوارق:

صـفة الجهـاد وطبيعته ونوعـه: حركـات الجهـاد السّـلفيّ تقاتل في بلاد الـردّة تحت راية واضحة، وكـذلك تصف العـدوّ وصـفاً واضـحاً، فهي تصف هذه الطّوائف المعادية أنّها طوائفَ ردّةٍ وكفر، لأنّها اجتمعت بقـوّة وشـوكة على أمــرٍ مكفّــر، أجمعت على كفــره ملّة الإســلام، فنــوع قتــال هــؤلاء الخصوم، وجنس هذا القتـال، أنّه قتـال المرتـدّين، وهـذا القتـالُ له أحكامه الخاصّة التي تجتمع وتفترق عن قتـال الكفّـارِ الأصـليين، وحين تقاتل هـذه الطّوائف السّلفيّة المجاهدة تحت هذه الرّاية، فإنّها لا تفرّق في هذا القتال بين مرتدٍّ "دكتاتور" متسلّط، وبين مرتدّ "ديمقراطيّ" سِلميّ.

فهذا فارق مهم في التّفريق بين جهاد الموحّـدين السـلفيين وبين جهـاد المبتدعين الضالين، فليس مجرّد رفع راية الجهاد كـافٍ لإدخـال المـرء في طائفة التّوحيد والجهاد، وهذا الأمر يـوجب على الشـباب السّـلفي المجاهد أن يتوثّق لدينه وأن يتــبيّن راية جماعتــه، ولا يجــوزُ له أن يقاتل تحت راية عمية لا يدري أين تسـير بـه، ففي يـوم تسـمّيه البطل المجاهـد، وبعد حين تقذفه بأقبح الأوصاف وأشنعها.

وهذا الفارق الذي ذكرنـاه يعود إلى قضـيّة رئيسـيّة، بل هي أمّ القضـايا في دين الله تعـالى، هـذه القضـية هي فهم المـرء للتوحيـد، وفهمه لمنهج السّـلف في الإيمـان، فـإن معرفة المـرء للتوحيد وتبيينه له بشـكل واضح جليّ يمنعه من الانزلاق في متاهات الجاهلية المظلمة، ويردعه من التنازل عن حق الله تعالى، فإنه يجـوز للمـرء أن يتنـازل عن حقّه، وهـذا من بـاب الفضل، ولكن لا يجوز أن يتنـازل عن حـقّ الله تعـالى، فالجماعة الموحـدة المجاهدة تعفو عمّن ظلمها من المسلمين، وتتجاوز عن حقوقها، ولا توالي على أساس قرب الناس منها، ولا تعادي على أساس بعد النـاس عنهـا، بل هي توالي النّاس على أسـاس محبّتهم للـه، ومحبّة الله لهم، وتعـادي على قواعد الملّة المحمّدية في الـبراء من أعـداء الله تعـالى، وهـذا الأمر من أ شدّ الأمور وضوحاً في دين الله تعالى، وعند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج على الحـاكم إذا ظلم رعيته: ((أطع أمـيرك وإن جلد ظهـرك وأخذ مالـك))، فحـقُّ الإنسـان المســلم يتنــازل عنه مقابل مقاصد الوحــدة وجمع الشــمل، ودرءً للفرقة وذهاب الريح، وقد أوجبت الشريعة الخروج على الحـاكم إذا كفر بالله ((إلا أن تروا كفراً بواحاً)).

هذا هو دين الله تعالى، فعلّة القتال فيه عـدم إيمـان المشـركين باللـه، واجتماعهم بقوّة وشوكة على هذا الأمر {قـاتِلوا الـذين لا يؤمنـون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حـرّم الله ورسـوله ولا يَـدينون دين الحـقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون}.

بهذا الأمر الجليِّ الواضح تكتَشِف الفـارق، وهو أهمّ هـذه الفـوارق، بين جهاد الموحد السلفي وبين المبتدع الوصولي.

وهذا الأمر - وهو عدم تبيّن الناس لحقيقة الجمـاعات المقاتلة - يُحسَـم من خلال إعلان جماعـات الجهـاد السـلفيّ براءتها من جماعـات البِدعـة، ويـوجب عليها أن تؤَصِّـل نظرتها من خلال الـرّؤى السـلفيّة لواقع الجماعة البِدعيّة، وعليها أن تعلن ذلك ولا تُخفيـه، وليس هنـاك من مصـالح شـرعيّة تمنع إعلان الفارق بيننا وبينهم.

بقي أمرٌ يتعلق بهذه النقطة، وهو وجود أقوام تسَربلوا بأثواب مُستعارة من السّـلفية أو بشـاراتٍ خادعـةٍ لا حقيقة لها مثل أهل السـنة والجماعـة، وهؤلاء الأقوام قد يخفى أمرهم على المسـلم العـاديّ غـير المتبصّـر بحـقّ هـؤلاء المبتدعـة، وبقليل من البحث ونـور والبصـيرة سيكتشف النّـاس أنَّ عقول هؤلاء القوم ما زالت تعمل خارج الإطار السَّـلفي، وأنها خـرجت من البدعة مع بدعتها، ولكنَّ غلبةَ الأمّية على أمّتِنا منَعت الكثـير من البشر من اكتشافهم.

حركة التجديد المجاهـدة السـلفيّة لا تتعامل مع النّـاس إلاّ من خلال أصـولهم وقواعـدهم، وعلى ضـوء هـذه القواعد والأصـول تحكم على المجتمعـات، والتّنظيمـات، وبالتـالي على الأشـخاص. والمنهج هو السّـائق للإنسـان في سـلوكه وحركتـه، وهو الـذي يحـدد أحكامه وعقليّتـه، ومعرفة القواعد والأصول للموضوع - شخصاً أو فكراً – لا تعرف من خلال فكرة أو خـاطرة، بل لا بـدّ من الاسـتقراء، وهو يقع من الخـاصّ إلى العـام، فيبـدأ الإنسان الباحث في مراقبة المفردات ثمّ الارتفاع بها حـتى تشـكّل قاعـدة كليّة تخضع لها مفـردات المقدّمة وهي حركة الإنسـان وأحكامـه. فيتشـكّل الحكم العـام من خلال أفـراد أحاديّة في الحكم والسّـلوك، وبعد ثبـوت القاعدة، وهو وصف الفكرة والشّخص، ثم لو طلب من الحاكم الدّليل فإنّه يسارع إلى إيجاد هذه القاعدة ليبسطها أمام السّائل بثقة ويقين.

وعلى ضوء هذه المقدّمة فإن الشّعارات الكاذبة، والألقاب النّابتـة، تفقد قيمتها عند أهل الـوعي والإدراك، وأصـحاب العلم والبصـيرة، لكن تأثيرها يبقى على العـوام والسوقة، وغمار البشر من أهل التقليد والبلاهة، فهؤلاء القوم يستطيع الخبثـاء أن يسـوقوهم إلى ما يريـدون من خلال الشّـعارات الجميلة المرضية، ويصدّوهم عما يريدون من خلال الألقاب النابتة القبيحة.

وحين يقبل المـرء أن يكـون أتباعه من هـذا الصـنف من البشر - أهل التّقليد والبلاهة - فهو رجل نخاسة تهمُّه الأرقـام والجسـوم، لا المبـادئ والعقائد والأفكار، وهو رجل في ميزان الفكر والعقل والدّين لا يساوي ذرّة أو نقير.

قد يجاهد البـدعيّ، وقد ينصر الله الـدين بالرّجل الفـاجر كما أخبرنا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، فليس حَمْـلُ السّـلاح هو الفـارق بين البـدعي والسُّـني، ولكن الفـارق هو المنهج، وبالتـالي علينا أن نفهم آلية الفهم عند الرّجل عندما حمل السـلاح، وما هي دوافعه ؟، وما هي مبرّراته عنـدما حمل السّـلاح مقـاتلاً مجاهـداً ؟. فعلينا أن لا نـدفن رؤوسـنا في الجهل، ونعمى عن رؤية الحقيقة عندما يأتينا رجلٌ أو تنظيم ويحرّضـنا على حمل السـلاح، بل علينا أن نتوثّق من منهجـه، ومن فهمه لحقيقة الجهـاد، وفهمه لتوحيد الله، وللإيمان عند أهل الحقّ والهدى.

جماعات الجهاد السلفية: الشمول والتكامل

نحن الآن نعيش فوق قنطرةٍ، أمامها الكثير من المفاوز والقفار، وخلفها الكثير من الفوائد والعبر، وبين يديها كتاب الله تعـالى، وسـنة النـبي صـلى الله عليه وسلم، فكيف علينا أن نطرح أنفسنا؟، وإذا طرحنا أنفسنا بصفتنا حركـات جهاديّة سـلفيّة، فما هي حقـول وميـادين عملنا ؟ هل هي طوائف

الــردّة الممتنعة من قتالنا لهم فقــط؟ أم أنّنا أمــام أكــوام من الــتراث المختلط، وواجبنا كذلك أن نحرّر إرادة الأمة من عوائق الشرك والجهل؟.

وعلى معنى آخر: هل طرح جماعـات الجهـاد السـلفيّة لمواضـيعها على صيغة شمولية أم في جزئية من الجزئيات؟.

الجواب ولا شك: إن الواجب علينا أن نعالج الدّين كله، نجدّده، وأن نعيد بهجته وضياءه على صـورته الأولى وهو جديد أوّل مـرة، وهـذا يـوجب علينا كـذلك أن لا نغـترّ بالجزئيـات والفرعيّـات، بل علينا أن نفهم آليّة فهم هـذه الجزئيّــات، وما هي أصـــولها، وما هو المنهج المتّبع حـــتى وصـــلت هـــذه الجزئيات والفرعيات.

إن موافقة بعض الطوائف لنا في مسألة من المسائل لا يعـني أبـداً أن هــذه الجماعة منّــا، ونحن منهــا، وأنّ لها ما لنــا، وعليها ما علينــا. بل إنّ الجماعة التي هي نحن، وهي منّـا، ونحن منها إنما هو بـالنّظر إلى منهجهـا، وآلية فهمها لدين الله تعالى.

لقد مرّت على أمّتنا أطوارٌ كان قادة القتال والجهاد فيها هم أئمّــةٌ فيهم جـذورٌ بدعية شـديدة، وقد مـدحَتهم كتب الرّجـال وما زال أثـرهم الحسن يـتردد على الشـفاه والألســن، ولكن علينا ألا نغضّ الطّـرف عن الجـانب البدعي فيهم، وبراءتنا منه، وعدائنا له حـتى نحفظ للحقـائق وجودهـا، ولئلا تضيع خلال حمّى التشجيع والتأييد لهذه الطوائف.

والمثال يوضح المقال:

عنـــدما نشـــأت الزَّندقة العجَميّة في المجتمعـــات الإســـلامية، وأطلّت برأسـها الخـبيث، وبـدأت تكشف عن نفسـها دون خـوف أو وجـل، رأينا أن أقوى الرُّدود على هـذه الزندقة كـانت صـادرةً من جهـاتٍ مسـلمة بدعيّـة، وكـــان لـــردودهم في ذلك الطـــور أبلغ الأثر في إزالة آثـــار هـــذه الأفكـــار الإلحادية.

عنـدما كتب ابن الراونـدي الزنـديق الملحـد، كتب ودعا إلى عـدم الثقة بالشريعة، وذهب (لعنه اللـه) لضـرب دين الله بعضه ببعض، حينئـذٍ قـام له رجل بدعي هو أبو علي الجبائي المعتزلي ففضح أمره، وكشف جهلـه، وردَّ كيده إلى نحـره، مدح الناس هذا الصنيع لأبي علي الجبائي المعـتزلي، لكن لم ينسوا بدعته، بل شنُّوا الغارات الشَّديدة عليه وعلى بدعته، فكان أمــره وأمر الاعتزال إلى زوال.

لو افترضنا جدلاً أن الرّوافض الإثنى عشرية وقفوا وقفةً ما، وكان قــدَرُ هـذه الوقفة في خنـدق الحق والصـواب، فهل يجـوز لنا لهـذا الموقف أن ننسى من هم الروافض؟ وأنّ دينهم لا يلتقي مع دين الإسـلام في شـيء؟، الجواب: لا، بل علينا أن نبقى نحن حيث نحن في تمسّكنا بـالحقّ والسّــنة، وعلينا أن لا نزيل الفوارق الحقيقيّة بين أهل السـنّة والجماعة والـرّوافض، بحيث نزعم أو نفتري أنّه لا فرق بين السنّي والرّافضيّ.

لقد فرح الصّحابة رضي الله عنهم، وكانوا يتمنّـون أن ينتصر أهل الـرّوم (أصـحاب الكتـاب) على أهل فـارس (أهل الأوثـان)، وليس من جـامع بين المسلمين الصّحابة ومن بعدهم وبين الرّوم النّصارى المشـركين إلاّ الاسم الــذي لا حقيقة له ســوى الانتســاب - أهل الكتــاب -. لكن هل أجــاز هــذا التّمنّي لهم أو لغـيرهم من المسـلمين أن يقـاتلوا تحت راية النّصـارى جند

أهل الكتــاب؟. أبــداً بل إنّ دخــول المســلمين تحت رايتهم تُخــرجهم من الإسلام، وتخلع نسبتهم إلى الإسلام.

هذه قضـايا يجب أن نعيهـا، وأن نهتمّ بهـا، لئلاّ نُزيل الحـواجز الشّـرعيّة الــتي أمر الله تعــالى بإقامتها بين النّــاس في جميع مســتوياتهم القريبة والبعيدة عن الإسلام.

فـإذا فهمنا هـذا تمـامَ الفهم حينها نخـرج من المـأزق، أو الزّاوية الـتي يحاول بعض العقلانيين (أهل الأهواء) أن يضعونا فيها فيجبرونا بين خيارين، أحلاهما كفر.

لا يســتطيع المــرء إلاّ أن يعــترف أن المعركة ضــدّ الإســلام شرسة وقاسية، وأن كلّ مبدأ وشخص خارج دائـرة الإسـلام محـارب لهـذا الـدّين، ومنذ مبعث النّبي صلى الله عليه وسلم والقضـاء على هـذا الـدّين هـاجس الشّيطان وجُنده وذلك كما قال تعالى: {ولا يزالون يُقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دينكم إن اسـتطاعوا}، ولكن كـذلك من الفهم الصّـحيح لطبيعة هـذه المعركة أن نعتقد ونعترف أنّه ما كانت هـذه الخصـومة من قبل الصّـفوف المتراصّة خارج دائرة الإسلام أن تـؤتي أكلهـا، وتُثمر مجهوداتها إلاّ بسـبب حصول الضّعف والهزيمةِ في داخل المنضوين تحت دائرة الإسلام ورايته.

لقد كانت جهودٌ تقوم بها طوائفٌ من المنتسبين للإسلام، وهـذه الجهـود تصنع الأرضيّة الصّالحة لغرس ثمار الشرّ القادمة من الخارج، وتمهّد لقبول الغزو الخارجيّ.

الجهاد والابتلاء: القيادة والقاعدة

ترقيق العبارة وسلوك سبيل السّلامة معناه في لغة الدّعوة والبيان في هــذا الزّمــان تــرك ما هو حــقّ لترضى عنك طوائف الشــرّ من كفــرةٍ ومشركين ومبتدعةٍ وغيرهم.

وقد يظن الجاهل المتلعِّب أنَّ سـلوك سـبيل كلمة الحق معنـاه البحث عن الهلكة ونسي أن العلاقة بين كلمة الحق وبين البلاء علاقــــــةُ تلازُم لا انفكاك بينهما.

وعلى كل حال نبـارك لهم طـرائقهم الـتي سـتؤمِّن لهم الأمن والدعـة، ولكننا رضينا هذا الطريق فسنسلُكه حتى النهاية.

ســنبقى نفــرح ونعلن فَرَحَنا لكــلِّ عمــلٍ جهــاديّ فيه قتل الكــافرين وتعذيبهم، وسننشُر هذا الفرح وسـنبقى الصـوت النشـاز بين كل الأصـوات الشيطانية السَّاكتة أو الناعقة.

سنبقى نفرح ونُعلِن فَرَحنا لكل عمـلٍ استشـهادي فيه دمـار مَعقِـلٍ من معاقل الطـاغوت أو لكل عمل رائع فيه صد طـاغوتٍ وجندلتـه، وسـنقتدي بهدْي القرآن في لَعنِ المشركين والكافرين ونردِّدُ من غير خـوفٍ ولاٍ وجل {تبت يـدا أبي لهب وتب ما أغـنى عنه ماله وما كسب سيصـلى نـاراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد}.

ســنلعن أبا لهبٍ في كــلِّ عصــرٍ وســنلعن دولته وجُنــده وأهله وامرأته حمّالة الحطب.

قولوا ما شئتم، سمّوا هذا ما شئتم، واختاروا من معاجمكم الجديدة في قلب الحقائق ما أحببتم.

هل يســعنا أن نــرمي رســالة الشــيخ عمر عبد الــرحمن في أدراج المهملات مخافة اتِّهامنا بأننا أنصــار المتطــرفين والإرهــابيين؟. فو الله لو فعلنا ذلك لخِفنا أن يخسف الله بنا ويضرب قلوبنا ويختم عليها.

هل يســـعُنا أن نفعل كما فعل أهل السِّياسة الشـــيطانية من جماعة الضـلال، وجماعـات الخِـزي والعـار في التسـابق على اسـتنكار كـلِّ عمل جهاديٍّ، وكأنه مفروض عليهم أن يموتوا وهم على بغض الخير؟.

أيُّ كلمة صادقة هذه إن لم تكن هذه الكلمة في هـذا الزمـان تـؤدِّي بك إلى السِّجن أو النفي أو عدم الأمن؟.

إن البحث عن كلمة صادقةٍ كل الصـدق، واضحةٍ كل الوضوح قريبةٍ إلى قلـوب المؤمـنين يرضى عنها سـاكنو الســماء وأوليـاءُ الله في الأرض ثمَّ تكـون بغـيرِ ثمنٍ تدفعه هي كلمــةٌ لا يُمكن أن تكـون صـادِقة ولا يمكن أن تكون حقاً من كلِّ وجه.

أيُّ دين هـذا وأي حـقٍّ هـذا الـذي نحملـه، وأيُّ كلام هـذا الـذي ننشـره ونبتغي منه حركة الأمَّة وإصلاح شأنها وخروجها من حمـأة الـذلِّ والعـار ثم نحن نجمجم فيه ونجمله ليرضى عنه أشــباه الأنعــام ممن لا عقـل لهم ولا نظر صـحيح {إن هم إلاّ كالأنعـام بل هم أضل}. إنَّ كلمــات الحق ليست برسِيماً تفـرَح له البقر إن رأتـه، بل هي حِمَم حـقٍّ كلَّما رأوها كلَّما ازدادوا لها بغضاً وازدادوا عنها بُعداً ما دامت قلـوبهم لا تـؤمن بالله وبمحمد صـلى الله عليه وسلم.

الإعلام الإسلامي والدعوة إلى الله ليست امرأة نزيِّنها للخُطَّاب من كلِّ جِنس ليشمّ منها ما يرضيه ويحبه.

نعم نحن نحبّ الخير للناس، ومن محبَّتنا الخير لهم أن نقول لهم الخــير والحقَّ وإن كان مُرّاً على أنفسهم، فإن أقبلـوا عليه أقبلـوا على الحق كما هو في نفسه من غير تزيينٍ باطلٍ، ولا تزويرٍ دجليٍّ.

لو أنَّ بدعيَّاً جاءَك وسألك عن حكـم الله في بدعته، فما الــواجب عليك لتهديه إلى الحــق؟. عنــدما جــاء الرجل إلى رســول الله صــلى الله عليه وسلم وقال له: أين أبي؟ بم أجابه رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وهو إمام الحِكمةِ وسيِّد الكلمة الحسنة، هل قال غـير كلمة الحق الـتي أصـابت منه ألماً؟. قال له: ((هو في النار)).

ماذا سنقول للمشركين حين يسـألونا عن موتـاهم وعن عقائـدهم وعن مـــذاهبهم؟ هل نقـــول لهم - إن استحســـنوا الديمقراطية - أنّ في ديننا الديمقراطية ليرضوا عنـاّ وعن ديننـا؟ أو نقـول إن الإسـلام فيه الكثـير من الديمقراطية ليحبوا الإسلام ويرغبوا فيه؟.

يا قوم مالكم كيف تحكمون؟ أي كتبٍ هذه الـتي تقرؤونها فتهـديكم إلى هذا الشرِّ المبير والمَهْلَكة العظيمة؟؟.

يا قـوم هما طريقـان: طريق يـؤدي إلى الابتلاء، وطريق ترضى به عنك الأغيـار، أما الأول فهو طريــقُ الحــقّ وأما الثـاني فهو طريــقُ الباطل وإن تسمّى بكل الأسماء الجميلة الكاذبة الخادعة.

نحن لا نحبُّ ولا نــرغَبُ أن يرضى عنّا مشــايخ الســلطان، ولا طلاّب السـلامة ولا أبـواق الـدِعايات، ولا مؤسَّسـات الكـذِب والـدَّجل، ووالله إنّنا نخاف أن نسمع أنّ أحداً من هؤلاء مَدَح ما نقول أو أُعجِب بما نقول.

نحن نقولها بكل صراحة: نحن نحبُّ أن يَبغضنا أعداء الله، ونحن نحبُّ أن يبغضنا أهل البدع، لأن بُغضهم زاد الطَّريق كما قال ابن حزم رحمه الله تعالى: لكل شيءٍ فائدةٌ ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعةً عظيمة، وهي أنه توقّد طبعي، واحتدم خاطري، وحمى فكري، وتهيّج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليف عظيمةِ النفع، ولولا استثارتهم ساكِني، واقتداحهم كامني ما انبعثْتُ لتلك التّواليف.(مداواة النّفوس ص 48)، فلولا وجودهم ما عرفنا للحقّ طعماً، وصدق عمر رضي الله عنه حين تمثل قائلاً: ذكّرتَني الطّعن وكنت ناسياً. هكذا هو الحقّ، وهكذا غربته في كلّ زمانٍ، وأنا أعجب لأولئك القوم الذين يضعون على أعيُنِهم عصاباتٍ غليظةٍ تمنعهم من رؤية الشرِّ الذي سرى في الأمّة، وأقول مرّاتٍ ومرّاتٍ لعلّهم فسدت أمزجتهم فصاروا يرون الباطل حقّاً، والحلو مرّاً، وتغيّرت معالم الأشياء وأسماؤها وهكذا يكون صاحب الفطرة المتغيّرة والقلب المنكوس، فإنّه لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً، وحين يصل المرء إلى هذه المرتبة لن تملك له شيئاً، والله الهادي والموفّق.

نعم بعض الأحبّة يُشفقون علينا ولكنّها شَفَقةُ ابن هرمة وهو يمدح الحكم بن عبد المطّلب بن عبد الله بن المطّلب بن حنطب حين قال:

لا عيب فيك يُعاب إلاّ أنّني أمسي عليك من المنون شفيقا

ولكن من رحمة الله بنا أنّ هذه المنون لن تُبقي أحداً فالقاتل ميّتٌ كما المقتول، وعند الله تجتمع الخصوم فلِمَ الحُزن والشّكوى وإنّما بين المتقدّم والمتأخّر لحظات ثمّ نزور المقابر.

التربية الجهادية: صحة النظر وصواب العمل وإخلاص القصد

العلاقة بين فكر الشّخص ومعتقده وبين نفسيّته علاقة حميمة وقويّة ولو بالغنا لقلنا إنّها علاقة تلازم ولكنّها قطعاً غير مطلقةٍ فقد يقع التّخلّف لوجود بعض العوارض والتي تشكّل هيكلَ الإنسان العمَليِّ والنَّفسيِّ والعلميِّ والعاطفيِّ وغيرها من أفرادِ إنسانيَّته، وبالتّالي فإنَّ عمليّة رفع مستوى نفسيّة المرء إلى مستوى معيّن لا بدّ أن يسبقها أو يكون معها رفع المستوى العلميِّ سواء بتصحيح الأفكار والمعتقدات أو بتنشيطها وتذكيرها إن أصابها النّسيان والغفلة، فهذه العمليّة المزدوجة هي التي يصحّ أن يُطلق عليها عمليّة التّربية، فالتّربية ليست صياغة لطرفٍ في الإنسان دون طرفٍ آخر، فإن وقعت فإنّ الحركة لن تدوم في الوصول إلى مبتغاها.

فمثلاً لو أنّك اتّبعت مع جماعة من الأشخاص أسلوب "التّوريط" - وهو لفظٌ لا أدري مدى صحّته لكن يُطلق من قِبَل أصحابه على طريقة معيّنة في الممارسة، ويعني أن يقوم مجموعة من النّاس بصنع جوٍّ من البيئة المعيّنة رغم أنف مجموعة أخرى من أجل إجبارهم على الدّخول في اختيار وحيد تريده المجموعة المورِّطة للمجموعة المورَّطة - فإنّه وإن تورّطَتْ هذه الجماعة فإنّها لن تداوم على الفعل إلى نهايته وإلى آخر الشّوط وبالتّالي لن يتحقّق المراد من هذا التَّوريط.

لقد حـاول الشـيخ مـروان حديد رحمه الله تعـالى أن يـورِّط الإخـوان المسـلمين في الجهـاد في سـوريا، لأنَّه حـاول جاهـداً أن يُقنِعهم بالجهـاد فكـانوا يـأبَون عليه ويرفضـون رأيه فقـرَّر توريط الإخـوان المسـلمين في الجهاد وأطلق كلمته: "لو طَرَدَنا الإخوان المسلمون من الباب سنرجع لهم من النافذة"، ولذلك قام هو ومجموعةٌ معه بأحداث جهادية فرَضَت معركـةً بين النظام النصيري البعثي الكافر وبين المسـلمين عمومـاً وعلى رأسـهم الإخـوان المسـلمين في سـوريا، وبالفعل وُرِّطَ الإخـوان المسـلمون في المعركة ودخلوا فيها من باب - مكره أخاك لا بطل - بل لقد واصل عـدنان عقلة هـذا الأسـلوب وسـار عليه حيث أطلق على مجموعته "الطليعة المقاتلة للإخـوان المسـلمين" ولاختيـار هـذا الاسم أسـباب كثـيرة منها محاولته توريط الإخـوان المسـلمين في هـذه المعركـة. فكـان مـاذا بعد ذلك؟!.

ارتفعت أصوات الجهاد من قبل القواعد وهذه استجابة فطريةٌ صـحيحة للجهاد في سبيل الله تعالى، لأن العوام بفطرهم الصحيحة هم مادَّة الجهاد على الدوام ولكنَّهم يحتاجون إلى من يُحسِنُ إعطاءهم الدين الصحيح لا أن يسلك بهم سبل أهل البدعة، وهذه نقطة مهمة وضـرورية ? أعـني قاعـدة اعتبار العوام أصحاب الفطر السليمة هم مادة الجهاد في سبيل الله تعالى ? وهذه بفضل الله تعالى هي إحدى الفوارق بين جماعات الجهاد السـلفية وبين جماعـات التكفـير، فإننا نعتـبر أن الأصل في أمتنا هو الإسـلام ما لم يـأت الرَّجل بمكفِّر صـريحٍ مكتَمِل الشُّـروط وانتفت عنه الموانـع، ولكن جماعات الغلوِّ والتكفير وكذا جماعات التوقُّف والتبيُّن على غير هذا الهـدي السنِّي فـإنهم يعتـبرون أن الأصل في أمتنا الكفر أو عـدم اعتبـارهم شـيئاً والتـوقُّف في حكمهم حتى يتبين -ولذلك هم يعتـبرونهم مـادَّة للـدَّعوة إلى أصل الـدين- أي من أجل إسـلامهم، وأما جماعـات الجهـاد السـلفية فإنها تعتبرهم مسلمون وهم مـادّة التعليم ومـادَّة الجهـاد في سـبيل اللـه، وهـذا بخلاف الذين سُـلِّكوا وأقصد بلفظ التسـليك هنا من مورست عليه طريقـةٌ مبتدعةٌ صرفتهُ عن فطرته السليمة، فالإنسـان المسـلم العـامِّي تسـتجيب فطرته استجابةً فورية للأعمال الصـالحة، فبمجـرَّد أن يسـمع هيعة للجهـاد فإنه إن لم يستجب لها عملاً فإنه يفـرح لها وتطـرب نفسه لخبَرها فيـدعو الله تعـالى أن يوفِّق أصـحابها لهـذا العمـل، وهـذا رآه من عايشه في كـلِّ عمـلٍ جهـاديٍّ فـإن النسـاء في خـدورهنَّ وكـذا العجـائز يلهجن بالـدعاء للمجاهدين، خلافاً للمُسـلكين سـواء كـانوا من الإخـوان المسـلمين أو من السـلفيَّة المزعومة أو من أصـحاب الطُّرق والمـذاهب البدعية من أتبـاع جماعات الفكر العرفاني الصوفي المعاصر المتطور، فـإنهم بسـبب فسـاد فِطَرهم ومرض أفكارهم يسـتنكرون هـذه الأعمـال، ولكنهم قد يضـطرون للمسايرة حيناً أو السُّكوت حيناً مخافة سـبِّهم وشـتمهم، ولكنَّهم يـؤخِّرون قَيح أفكـارهم إلى فرصـةٍ سـانحةٍ لفتنة تقع أو مشـكلةٍ تهب برياحها على الجهاد.

إن استجابة القواعد البعيدة عن القيادة والتي ما زالت تردِّد الشِّـعارات الأولى "والجهاد في سبيل الله طريقنا"، وشـعار "والمـوت في سـبيل الله أسـمى أمانينـا"، وهـذه الشـعارات معروضة بحـقٍّ من أجل القواعد لا من أجل القيادة، فكانت هذه الاستجابة وسيلة ضـغط لقبـول القيـادة للـدُّخول

في (الورطـــة)، فـــوُرِّطَت القيـــادة مع عـــدم اقتناعهـــا، وقد وقع ما يرجو أصحاب نظريَّة التوريط، ولكن كان ماذا بعد ذلك؟!!.

الشُّـــيوخ هم الـــذين يقـــودون المعركة وهم أصـــحاب القَـــرار (وأقصد بالشيوخ ليسوا كبار السن، ولكن أقصد القيادة) وهم الذين شرعوا فيها بها على مَضَض، فهل سيسيرون بها إلى نهاية مبتغاها ؟. الجـــواب: لا وألف لا، بل إنَّهم ســـيكونون من أولئك القـــوم ? بل هم منهم ? الـــذين ينتظـــرون الفرصة السَّـــانحة لشـــتم المُـــورِّطين (بكسر الـــراء) وجلد القواعد الـــتي أجبرتهم على هذا الطريق، وفُرَصُ هؤلاء كثيرة في الجهاد، فإن الجهاد فيه من الفتن والإبتلاءات ما لا توجد في غـيره من الأعمـال، فبمجـرَّد حـدوث فرصةٍ لهزيمةٍ في معركةٍ حتى يبدأ الجلد وإظهار مكنون النفوس.

إذاً فالذين يظنّون أنه بمقدورهم أن يورِّطـوا القواعد التحتية لجماعـات البدعة والهوى وكذا قادتهم في الجهاد في سبيل الله تعـالى واهمـون ولن يحققوا النتائج المرجوَّة من الجهــاد، فلا بـدّ من التمـايز عن طريق إظهـار مغايَرَتِك للطّرق المطروحة، وأن توجب على المسـتجيب لنـداء الجهـاد أن ينخلع من تنظيمه السابق ويعلن فهمه لسـبب هـذا الانخلاع ولا يكـون هـذا السبب أبداً ولا يُرضَى منه أن يقول أن الفـارق بينك وبين تنظيمه السـابق أنك تجـاهد وهو لا يجاهد بل لا بدَّ من تأصـيل المسـألة على أسـاس الفهم الجديد والأصل الصَّحيح، وهي قواعدُ وأسسُ ومنطلقـاتُ جماعـات الجهـاد السلفية.

نعم هـذا أمر لا يُخـاف منه - وأعـني لحـوق أفـراد عديـدة من جماعـات البدعة معك بالجهاد في وقت الفتنة والابتلاء - فـإنّ هـذه القواعد لا تلتحق بك لصعوبة هذه القنطرة، ولكن يُخاف حين يكون للجهـاد الصَّـوتُ العـالي والمدُّ الشَّعبيّ الواسع، فإنّ مشايخ هذه التّنظيمات قد يسمحون لأفـرادهم بالجهاد وقد يسكتوا عنهم فحينئذٍ يكون هذا المحذور الذي نتكلَّمُ عنه فلا بدَّ مِن شـرط التّمـايز الـذي تكلّمنا عنـه، أمّا بقـاء الارتبـاط التّنظيمي مع تلك الجماعـات المسـلّكة سـبل الباطـل، أو الارتبـــاط المشـيخي مع مشـايخ الإرجاء والتهوّك فإنّ ثبات هـؤلاء إلى نهاية الطّريق أمـرٌ في غاية الصّـعوبة وصـعب الوقــوع، فـإن وَقَـعَ فإنّما يقع لأفـراد قلائل ثمّ تعـود الجمــوع إلى تنظيماتها السّـابقة أو إلى مشـايخها ليمارسـوا عمليّة الجلد ويُقـال لهم: ها قد جرّبتم،... ها قد وَرَّطتمونا بحماسكم.. فمـاذا نفَعَكم؟! وحينها تصـبح هذ الجمـوع أصـواتاً وأبواقـاً لأولئك المشـايخ، وسيمارسـون على الأمّة التّبجّح والتَّرفّع والأستذة بأنّهم أصحاب تجربة.. فلا يجوز لأحدٍ أن يزايد عليهم.

تلاميذ السّلفيّة المزعومة الذين قدِموا إلى أفغانستان... بماذا رجعــوا؟! وماذا يقولون؟! هل انتفعوا بالجهاد - دع عنك الأجر الأخـرويّ - هل أفهمهم شـــيئاً؟؟ هل غيّر من مســتوى أفهــامهم وعــرّفهم سـنّة الله في التّغيـــير والتّبـديل؟؟. الجـواب: لا وألف لا بل زادتهم انتكاسـة، وظنّـوا أنّهم ملكـوا ناصـــية التّجربة فهم يتكلّمـــون من منطلق التّجربة الـــتي خاضـــوها (روح الأستاذية الكاذبة).

إذن فالذين يعتمـدون على طريقة التّوريط أو دفع الآخـرين بـأيّ طريقة من الطّـرق غـير طريقة الاقتنـاع إلى عمـلٍ من الأعمـال إنّما يبعـدون في المـذهب ويتعـاملون مع القضـيّة بغـير الطّريقة السـننيّة في إظهـار العمل وإيجاده، لا بدّ من الاقتناع وهـذا طريقه إلى الـدّماغ وإلى الفكر عن طريق

المجادلة بالحسنى وعرض الأدلّة وتكرار ذلك مع اعتماد عامل الـزّمن حتّى يحصل قبـولاً للفكـرة والـدّعوة، ولا بـدّ من وجـود الـدّافع لتحقيق هـذه القناعات وذلك عن طريق إيجاد المحرّضات الكافيةِ لإثارة النّفس البشريّة لتحقيق هذا العمل عن طريق الوعظ والتّذكرة وربط نفسـيّة المـرء بمحبّة تحقيق رضـاء الله سـبحانه وتعـالى وتحصـيل الـدّار الآخـرة، فـإذا حصل الاطمئنان النّفسيّ لهذا العمل تحرّكت النّفس نحوه برغبةٍ صـادقةٍ فلا يَـرُدُّ عنانها عن ذلك إلاّ الذي فطرها، وهي بحاجة إلى التّـذكير مـرّة بعد مـرّة – {وذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين} - وذلك عن طريق اسـتثارة القناعـات بوضعها في جوّ التّأثير العاطفيّ والنّفسيّ. بهذا يحصل التّمايز عن الآخـرين وبه فقط يتمُّ السّـير نحو الهـدف المطلـوب وفي بـاب الجهـاد هـذه هي الطّريقة السنيّة لتحقيقه وليست المسـألة مسـألة عواطف شـباب جيّاشة سرعان ما تنتكس تحت ظروفٍ جديـدةٍ وأحـداث متغيّـرةٍ، فالقـائلون بـأنّ الجهاد تهوّر واندفاع وحماسة شباب لا خِبرةَ لهم في الحيـاة واهمـون، نعم يكـون كـذلك حين يكـون الجهـاد دافعه الحمـاس الفِطـريُّ غـير المؤصَّـل، وتمّت الاستجابة له دون الفهم له على الوجه المطلوب فإنّ هذه الحماسة سرعان ما تـزول إمّا لوقـوع البلاء أو تخلّف النَّصر أو كـثرة المعوِّقـات في طريق الجهاد.

هـذه القناعـات العقليّة والمبنيّة على أُسُـسٍ علميّة واضـحةٍ وعنـدها القدرة على كشف ودحض تلبيس الخصـوم وأخطـائهم مع نفسـيّة محرّضة هي التي تصنع التّمايز في الشّـخص المجاهد طـول حياته وتـؤمّن له عـدم الانتكـاس بـالعودة إلى الجلاّدين من قـادة تنظيمـات بدعيّة أو مشـيخات معوّقة.

إذن فالتّمايز شرطٌ لتحقيق الجهاد السنّي، ويقع التّمـايز بتحقيق حقيقته المتقدّمة عن طريق التّنظيم المتميّز والـــذي يعلن افتراقه عن الآخـــرين واختلافه عنهم من جهة الشّـعار المخـالف فلا يلتبس لـدى الأفـراد تـداخل الصّورتين بين هـذا التّنظيم وبين غـيره من التّنظيمـات، وعن طريق تعميم الفهم لدى الأفـراد كـذلك بمخالفة الآخـرين للشّـرع والعقل ودخـولهم في دائـرة الـرّأي والهـوى أو البدعة الممقوتـة، وهـذا يتمُّ عن طريق كشف وتعرية طُـرُق الآخـرين من جهة أصـوليّة عميقة فلا يكـون الرّجل معك في التّنظيم وهو يرقب إشارات المشايخ وفتاويهم من خارج السّرب، فإنّ هـذا النّوع من الشّباب خطـيرٌ جِـدّاً ومُـذهِبٌ للقـوّة والـرّيح لـدى أيّ تنظيم من التّنظيمات في أيّ ظرف من الظّروف.

إذا فهمنا هذا واستبان لنا حقيقة هذه المقالة بـأنّ العمل الصّـحيح لا بـدّ أن ينشأ عن قناعةٍ علميّة وبمحرّضٍ نفسيٍّ صحيح (التّمايز) يتـبيّن لنا عمق الخطأ في قـول من يقـول بإمكانيَّة اسـتخدام قواعد التّنظيمـات البدعيّة مادّةً للجهاد في سـبيل الله تعـالى مع بقـائهم في تنظيمـاتهم تحت دعـوى سلامة فِطَرِهم واختلافهم عن قـادتهم، أي التّفريق بين القواعد والشّـيوخ، أو بين الشّباب الصّالح والقيادة الزمنى، وهـذا يُظهر كـذلك خطأ من يقـول إنّ المشكلة في عدم الجهاد هي مشكلة القـادة الزمـنى والمشـايخ الأئمّة وأمّا القواعد فهي صـالحةٌ للجهاد وهذا خطأ كبير لأنّ القضيّة ليست قضـيّة حماسٍ وعدمَ حماس، أو تأجّج عواطف وسكون أخرى، بل المشكلة الأولى والأخـــيرة في التركيبة العقليّة والعِلميّة في الفـــرد بغضِّ النّظر عن كونه

قائـداً أو مَقُـوداً، شـابّاً أم كهلاً أم شـيخاً، فتحليل عـدم جهـاد جماعـةٍ مثل الإخوان المسـلمين بسـبب القـادة مثلاً أو عدم جهـاد السّـلفيّة المزعومة بسبب مشايخهم وكذا أصحاب الصّوفيّة، خطأٌ محض فهؤلاء في هذا الجهاد - وأقصد جهــاد المرتــدّين - ليســوا مقتنعين به قناعــةً علميّــةً في أصل القضيّة، فإنْ حدث جهادٌ من بعضهم حيناً فإنّما هو من دافع توريط الصّـغار للكبـار، أو دفع التّيّـار أي ما يسـمّى بغريـزة القطيـع، وهـؤلاء سُـرعان ما يؤوبون إلى مواقعهم وتبدأ عمليّة الجلد المشيخيّ والتّنظيمي.

نعم يُمكن للأفـراد والقواعد أن يخرجـوا من أسر قـادتهم ومشـايخهم، لكن بعد أن يتمكّنـــوا علميّـــاً من اكتشـــاف تهـــافت البنـــاء العلميّ عند مشـايخهم وقـادتهم فيخرجـوا عليهم وعنهم وحينها يتميّز الشّـخص ويُمكن إلحاقه بالتّنظيم المميّز، أمّا إن جـاء من بـاب التوريط وتحت غثائيّة غريـزة القطيع ودفْع التيّار فارقب في كلّ لحظة سكونٍ ثورته وعودته إلى قواعده سالماً محضَّراً نفسه للوقوف أمام قائـده وشـيخه ليعـترف له أنّه اكتشف صواب ما يقوله وخطأ أولئك (المتسرّعين والمتهوّرين).

هذه نصيحة أسجّلها هنا، وهي أمانة أضعها في أعنـاق تنظيمـات الجهـاد السنّي السّلفيّ لئلاّ يكتشفوا بعد حين أنّ ما معهم مِن رجال إنّما هم شِـبهُ المجاهدين (والشّـبه هو صـنم من نحـاس تـدخل فيه الـرّيح فيصـفر فيظنّ الجاهل أنّه شخص حقيقيّ) وليسوا مجاهدين حقيقة.

السّـيرة النّبويّة ومسـيرة التّـاريخ الإسـلامي حديقـةٌ خصـبة للدّراسة والاعتبار، وفيها من العظات ما تجعل المرء المسلم الذي ينشد التّغيير في غنى عن أن يكون منبهراً بكـلّ ما كتبه وخطّه الأغيـار بتجـاربهم وأحـداثهم، وقد كـان الأوائل من آبـاء هـذه الأمّة حريصـين كـلّ الحـرص على تلاوة السّيرة على مسامع الأبناء وتحفيظهم إيّاها وجَعْلِها جزءً من تركيبة الطّفل العقليّة والنّفسيّة لأنّ السّيرة النّبويّة تصنع العقليّة السّـديدة في فهم سـنن الحيـاة، فالتّـاريخ هو جريـان سـنّة الله تعـالى، والتّـاريخ المتعلّق بالسّـيرة النّبويّة فهي التّوافق الشّامل في مسيرة المـرء في هـذه الحيـاة من خلال عدمِ تجاوزه لشرع الله تعالى وأمـره، فالقـارئ والـدّارس - المـؤمن بهـذا الـدّين - للسّـيرة النّبويّة لا يجِد أبـداً شـيئاً من التّعـارض في مسـيرته إلى مقاصـده سـواء كـانت هـذه المقاصد حياتيَّه بحتة أم جـزء من صـراع مع الأغيـار أو من أجل تحقيق بعض المصـالح بين تمسّـك المـرء بشـرع الله تعالى وانقيـاده لحكمه واسـتغنائه عن اقـتراف أيّ معصـية من المعاصـي، وهذا بخلاف المرء الـذي يُكـثر من قـراءة كتب التّجـارب الـتي لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة فإنّها تقدِّم في نفسِ المتضلّع بها الحاجة الشّـديدة إلى بعض المعاصي خلال حركته التغييريّة وأنّ من الصّـــــــعب إقامة حركة تغييريّة ناجحةٍ دون تجاوز ضوابط الشّريعة.

الفارق بين الثائر والمجاهد:

في القـرن الأخـير قـامت كثـير من التّجـارُبِ الإنسـانيّة لتحقيق أهـدافٍ بإســقاط نظــامٍ وقيــام آخر وكــان أئمّة هــذا الفن في هــذا العصر هم اليساريّون، وهي الحركات الـتي يكـثر البعض تسـميتها حركـات التّحريـر!! وهو اسم لا يوافق معنـاه حقيقـة هـذه الحركـات، هـذه الحركـات القتالية حققت أهــدافها مثل حركة ماوتسي تونغ في الصــين، وهو الرجل الــذي

يسمِّيه الكثير من الباحثين بأنَّه خـير من كتب في حـروب العصـابات وهـذا النـوع من الحركـات، وكـذلك ثـورة البلاشـفة في روسـيا ضـد القياصـرة وثورات أمريكا الجنوبية كثورة كاسترو وصديقه جيفارا، هذه التجـارب قـام أصحابها بكتابة هذه التجارب وتُرجمت للغة الإسـلام (اللغة العربيـة) وكـان فيمن قرأها شـــبابٌ مســـلمون، وهي تجـــارب حقَّقت على أرض الواقع أهـدافها وهـذا مـدعاةٌ للقـارئ أن يقتنع بـالكثير من نظريَّاتها وقواعـدها، والإنســان أســير قراءاته شــاء أم أبى، فــإنَّ الكِتــاب يصــنع عقلية قارئه ويصبغها بصبغته، لأنه ينقله إلى البيئة التي يريدها الكـاتب والكتـاب، فخلال هذه القراءات الكثيرة لهذه الكتب اصطبغت عقليَّة القارئ بنفسيَّة الكاتب، وهذه الحركات كما خطَّت في كتبها لم يكن لها من قواعد وأُسُسَ أخلاقيـةٍ تحكم هذه الحركات أو توجب على السـائر فيها أيَّ قيـودَ وروابـط، بمعـنى أن هـذه الحركـات ليس لها أبعـادٌ أخلاقيـة، وهي عنـدي شـبيهة بكتب فنِّ الطَّبخ المنتشـرة في الأسـواق، فـإنَّ واضـعيها لا يحكمهم سـوى حصـول الطَّبخ والمذاق الطَّيب، فترى في بعض الطبخـات وجـوب وضع القليل من النبيـذ، أو قليـلٍ من الخَمر وهكـذا، فهـذه الكُتُب كتِلك حيث وضع أصـحابها نظريَّاتٍ ومبادئ فيها التصـور الـذاتي من التحسـين والتقـبيح لأيِّ فعل من الأفعـال، وفي داخلها الكثـير من الأعمـال الـتي لا تمُتّ إلى مبـادئ الحق والدِّين بصلة، فيـأتي المسـلم المتـديِّن إلى قـراءة هـذه الكتب مع نفسـيةِ الاحترام الإنساني المجرَّد لهـذا الكـاتب كونه الخبـير العليم المجـرِّب لهـذا الفنّ، فيقرأها بنهم مع الكثـير من التسـليم والانقيـاد فـيرجع عنها بعد ذلك إلى حالته الإسلامية من أجل أن يراجع الكثير مما قرأه مع مبـادئ الإسـلام الـذي يـؤمن بـه، فينشأ الشـدُّ والجـذب بين ما احترمه من قواعد في هـذا الباب وبين ما يؤمن به من مبادئ هذا الـدين، أي صـراعٌ بين ما يحترمه ولا يؤمن به وبين ما يؤمن به بفطرته، وهذه واحدة في الشر.

بعد ذلك يقع هذا المتضلع بهذه القراءات في حالة أخـرى، وقد يقع فيها ابتداءاً وهي أن هذا القـارئ له بعض القـراءات الشـرعية اليسـيرة، سـواء كانت نبذ قليلة في أصول الفقه أو فقرات مجملة عامة في السيرة النبوية فيحاول حينها جاهداً إمـرار هـذه المفـاهيم الوافـدة من خلال هـذه النبذ أو الفقرات، فهو يحفظ مثلاً أن السياسة الشرعية مبنية على المصـلحة، وأن المصلحة عِلّة الأحكام وغيرها من القواعد التي لا يجوز للمسـلم أن يشـتق منها حُكمـاً، لأن القواعد الشـرعية والأصـولية لم توضع من أجل اسـتنباط الأحكـام بل وُجـدت من أجل ضـبط الأحكـام، فيـذهب هـذا المتضـلع بهـذه الكتب إلى تمرير هذه القواعد الجديـدة تحت عمومـات القواعد الشـرعية، ويُلبسها ثوباً شرعياً وصبغة ظاهرية للون الإسلام، مع أن جوهرها أن لينين قالهـــا، وجيفـــارا نطق بهـــا، ولكن لا يُمكن تمريرها على أهل الإســـلام إلا بإلباسها اللَّون الإسلامي بمحاولة (نتش) أي انتقاء بعض الأحداث الإسلامية سـواء كـانت في السـيرة النبوية أو التـاريخ الإسـلامي ودفعها في طيَّات الحـديث لتصـبح الفكـرة إسـلامية الصـنع والـدليل، ودَور الإسـلام فيها هو التزيين والتحوير.

وهـذا الفعل قـريب بل هو عين فعل الفقيه الـذي يستحسن رأيـاً مـا، ويكون منشؤه هوى الفقيه ورأيه ولكن يـذهب إلى كتب الفقه من أجل أن

يبحث عن فقيه ولو كـــان شـــاذاً ليقـــول عن نفسه أنه متَّبع لغـــيره وليس مبتدع.

هذا النوع من (المتضلعـين بهذه الكتب) لهم لونٌ خاصٌّ ورأي خاصٌّ في طريقة أهل الفقه والأثر في التعامل مع الأمـــورٍ ومن هـــذا الـــرأي: أنهم يعتـبرون أن أصـحاب الفقه والأثر متحجِّرون متكلِّسـون لا يفهمـون الحيـاة وسُننها، ويصبغون على أنفسهم ما شاؤوا من ألوان التعظيم والتبجيل فهم المتفتحون، وهم أصحاب الفكر المستنير، وهم أئمة فنِّ الحركة، وهم أئمَّة فن الممكن.. إلى غـير ذلك من الألقـاب، وهم حين يقـــولون عن أنفســهم أنهم أهل الخبرة في الحركة والحياة لا يَنسـون أن يقولـوا عن أنفسـهم أنَّ عندهم من فهم الشريعة ومقاصدها ما يكفيهم لقيادة الإسـلام في معـترك الحيـاة ودروبهـا، وأما غـيرهم من أهل الفقه والأثر فهم لا يصـلحون إلا في التكايا والمســاجد حيث يخلع المـــرء عقله هنــاك وقصر الأمر على ذلـــك، وينسون أن ما كان شرعياً ودليله الكتـاب والسـنة لا يمكن الإبـداع الـذاتي فيه حتى يقرأ الكتاب والسنة والأثـر، وما كـان عقليـاً فمـداره على الـرأي وليس هناك من عقل يزعم صاحبه أنه أعقل من غـيره إلا ونـوزع في هـذا وعورض من قبل البشر جميعاً فإن كان لهم عقـولٌ فلبقيَّة النـاس عقـول، وحين قسم الله تعالى الأموال بين الناس لم ترض الناس القسمة لأن ابن آدم لا يشبع من المال، وحين قسمت العقول رضي كل امـرئ بعقله وظنَّه أفضل العقول، نعم، لصاحب التجربة حِكمة يفوق بها غيره، ولغير المجرب سبل كثيرة لرأب هذا النقص وإتمامه، ذكرها أئمَّتنا، لا يعرفها هذا النوع من (المتضلعين).

هذه الثنائية المتعارضة بين أن تكون فقيهـاً أوحركيـاً!! لا تنشأ في عقل المسلم الذي تضلع كثيراً ودرس كثيراً وفهم كثيراً لأكبر حركةٍ انقلابية في التاريخ الإنساني كله أقصد سيرة النبي صـلى الله عليه وسـلم لأنّه لا يوجد أبداً داخل هذه السيرة التعـارض بين ما هو شـرعي وما هو حـركي، فليس هناك شيءٌ اسمه فقه الأحكـام وشـيء غـيره اسـمه فقه الحركـة، بل هما شـيءٌ واحـد، وليس هنـاك في داخل هـذه السِّـيرة حاجة إلى تأويـلٍ فاسد باستيراد ما هو حرامٍ لتمريره في حركة الجماعات في سعيها للتغيير تحت باب المصلحة أو السياسة الشّـرعية (على مفهـوم مغايرتها لفقه الشـريعة والأحكام) بل في هـذه السِّـيرة البيـان الشَّـافي واليقين التـام في حصـول الجماعات الإسلامية على أهدافها من غير الـدخول في سـبيل المجـرمين، وأن التعـارض بين الشـرعي وتحقيق الأهـداف هو تعـارض موهـوم، وكـذا التعارض الموهوم بين مصـلحة الجماعـات وبين فقه الأحكـام المـأخوذ من (الورق الأصفر) حسب زعمهم.

نعم إن فقه الأحكام هو فقه ضوابط وتقييد الحركة لكنَّه ليس فكــراً ولا فقهـاً تعويقيّـاً ولا مثبِّطـاً بل هو من رحمة الله بهـذه الأمة لإيصـــالها إلى أهـدافها بـأقرب الطـرق وأيسـرها، والخـروج عن فقه الأحكـام إلى فقــهٍ مزعـوم يسـمونه فقه الحركة أو ما أطلَق عليه بعضـهم فقه السِّـيرة (فقه الموازنات والتقلُّبات الذاتية) هو الذي يمنع الجماعة المسلمة من الوصـول إلى أهدافها ويُشغلها بذنوبها كما قال الله تعالى: {إنما استزلَّهم الشـيطان ببعض ما كسـبوا} فما من معصـيةٍ من المعاصي وإن لبست ثـوب التأويل

الشــرعي إلا وهي مثبِّطٌ ومعــوِّق للجماعة المســلمة في الوصــول إلى الأهداف الشرعية وذلك بحصول البلاء الرباني والعذاب الإلهي.

في السيرة النبوية والاهتداء بها تعميـقٌ لعلاقة المسـلم بشـقِّ الشـهادة الثاني محمد رسول الله صلى الله عليه وسـلم فهو إن عمل عملاً أو سـار مسيراً فإنَّه يشعر بعمق الارتبـاط بينه وبين النـبي صـلى الله عليه وسـلم، فهو سائرٌ على الخطى المحمدية ويحس بها في كلِّ خطوة يخطوها، وهـذا بخلاف (المتضلع) بهدي الأغيار والسير على مناهجهم، فإنَّ باطنه مشــغولٌ بشخوصهم الوثنية المقيتة، وهذا رأيناه في عالم الواقع بين شخص يحـاول أن يلبس ويتحـرك ويجيل نظـره مقتـدياً بــجيمس بوند فهو حـريص على مشــابهة اللفتة للفتة والهيئة للهيئــة، وبين شــخص لم ينشــغل باطنه إلاّ بالشّــخوص المهتــدين - مَن ذكــرهم الله في كتابه - ومن قــرأ عنهم في السّيرة النّبويّة.

إصلاح الباطن والإيمان بالغيب :

إنّ صلاح وإعمار الباطن يكون بالاقتداء بشـخص النّـبيّ صـلى الله عليه وسلم وهديه وشخوص الصّـحابة كعُمر وخالد وأبي عبيـدة والقعقـاع رضي الله عنهم وهو يضـاد إعمـار البـاطن بهـدي جيفـارا وماوتسي تونغ وليـنين وغيرهم من شخوص الوثنيّة والضّلال، إعمَار الباطن بهدي المهتدين يكــون بالتّضلّع لا بإنتقاء السيرة النّبويّة وفِقه الأئمّة، وإعمـار البـاطن (بل خرابـه) بهدي الوثنيين يكون بالتّضلّع بسيرتهم وحركتهم.

في السّيرة النّبويّة علاقة مع عالم الغيب، حركة ومسيرة لا تخرِمُ شـيئاً من ســنّة الله تعــالى الكونيّــة، بل هي في إطارهــا، ولكنّ من ســنن الله الكونيّة علاقةُ الشّهادة بـالغيب، ومن سـنّته حصـول الـرّعب لـدى الأعـداء، ومن سـنّته حصـول أثر الـدّعاء، ومن سـنّته أن ينصر المؤمـنين به بسـبب ضُعَفائهم، هذه السُّـنن الكونيّة سـننٌ تعـادل شـطر عـالم الشّـهادة وسـنن الحياة الظّاهرة لا ينتبه لها إلاّ المتضلّع بسنّة النّـبيّ صـلى الله عليه وسـلم وسيرته، أمّا المتنكب فهذه أمور لا يقيم لها وزناً ولا يرفع لها رأساً.

سبابة الدّعاء المرتفعة إلى السّماء تعادل سـيفاً ورمحـاً مُشـرَعاً، بكـاء الثّكالى وصراخ المظلومين هي سـهام الليل الـتي يشـتّت الله بها الأعـداء والكفّار.

إنّ أعظم البشر وأشجعهم وأشـدّهم بأسـاً صـلى الله عليه وسـلم كـان في بدر يناجي ربّه، لأنّ هذه المناجاة من أعظم السنن الـتي يسـتغلّها أهل الإسلام في القضاء على الأعداء والكفّار.

كان أهل الإسلام إذا سمعوا أهل الحصن أو البلدة يسـبّون النّـبيّ صـلى الله عليه وسلم استبشروا بسرعة حصول النّصر على هـذه القرية والبلـدة كما ذكر ابن تيمية في "الصّارم المسلول"، هذه المعـاني الحقيقيّـة، وهـذه الأسباب الكونيّة في ميزان القوى بين أهل الإسلام وبين أعدائهم لا يهتـدي لها ولا يحسب لها حساباً إلاّ المتضـلّع بسـنّة النّبي صـلى الله عليه وسـلم وسيرته، أمّا ذاك الرّجل المتضلّع بسيرة الوثنيين والجاهلين فإنّه يســتعيض عن سهام الليل أكف الدّعاء بمعاصي يمرّرها تأويلاً لها من بـاب المصـلحة الموهومة والسّياسة الشّرعيّة التي لا ضابط لها ولا زمـام يقيّـدها في ذهنه وعقله.

فما من معصـية يحتـاج لها أهل الإسـلام في معـركتهم مع أعـداء الله تعـالى إلاّ بسـبب غفلتهم عن طاعـةٍ وشـرعٍ علّمهم الله إيـاه فنسـوه ولم يهتدوا له، فذهبوا يستعيضون عن السنَّة بالبدعـة، وعن الطاعة بالمعصـية، وعن عالم الغيب ورجاله برجال الكفر والبدعة.

فعـالم الغيب الـذي فيه السـتر الإلهي والنَّصر الإلهي والتأييد الإلهي هو عالمٌ يشترك مع عالم الشـهادة في سـنن الله تعـالى في الجهـاد والتغيـير والنصر والفلاح.

تحقيق التوحيد غاية المجاهد:

في السيرة النبوة الأهداف قبل الوسائل، ولمَّا كانت أهداف الإسلام لها تعلُّق بعالم الغيب أي برضى الله تعالى كانت تقديرات الأمور تختلف تمـام الاختلاف مع تقـديرات وأهـداف أصـحاب الـكتابات العسـكرية للحركـات الثورية في العالم.

أهل الإســلام هــدفهم الأعظم ومــرادهم الأكمل تحقيق التوحيد في الأرض، فكل ما يقترب من شأن هذا الهدف إبطالاً أو تأجيلاً أو تبـديلاً فإنه مردودٌ بغضِّ النظر عن بقية المصالح التي نظن أننا سنحصِّلها بعد ذلك.

ولذلك فكلُّ مساومة حول هذا الهدف لتحقيق بعض المصـالح مسـاومةٌ مرفوضـة، وكل محاولـةٍ لتأجيل البحث في هـذا المقصد لا وجـود له في سـيرة النـبي صـلى الله عليه وسـلم وسـنته، لكنَّ هـذه المسـاومة وهـذا التأجيل لهما الوجـود الأكـبر فيمن يـرى الأمر سياسـةً مطلقـةً ومصـالح فضفاضة لأنه سـمع أن جمع الأنصـار (مطلقـاً) هو إحـدى مبـادئ تحقيق الأهداف وحرب الأنصار.

إن الوصول إلى القبور مع المحافظة على هذا المبـدأ الأصـيل خـير من الوصول إلى المساومة حوله وتأجيل البحث فيـه، فإقامة الدولة الإسـلامية لخدمة التوحيد ومن أجله ولصـيانته وللحفــاظ عليــه، وليس العكس، فالإسلام ليس وسيلة لهـدف، وإرضـاء الله تعـالى ليس وسـيلة لهـدف، بل كل وسـائل البشر من أجل تحقيق الإسـلام في أنفسـنا، ونيل رضـاء الله تعالى في الدنيا والآخرة.

فالتأجيل والمسـاومة تكـون في غـير التوحيد وصـيانته، أما التأجيل والتأويل فيما يخص التوحيد وأهله فهو شـأن المتضـلعين بكتب (سـبيل المجرمين).

الطريقة الشرعية لإقامة الدولة طريقة كونية:

بناء دولة الإسلام حكم شرعي بمعـنى أنّه واجب شـرعي دليله أمر الله تعالى في كتابه وفي سنّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولمّا أسقطت دولة الخلافة وانفرط عقد الأمّة وبدت في الأفق معـالم عقديّة فاسـدة تتسـارع في اقتنــاص الـدول المنفرطة من دولة الخلافــة، فقد دخلت الأحــزاب الشيوعيّة إلى بلادنا سنة 1917م أي في السنة ذاتها التي انتصر فيها ليـنين ضـدّ خصـومه وبـنى الدولة الشـيوعية الأولى في روسـيا، وبعـدها بـدأت الأحزاب اليمينيّة واليساريّة على مختلف ألوانها من حمراء وبيضاء وزرقاء، من بعثيّة وقوميّة وعلمانيّة وغـير ذلـك، وكـان من جملة هـذه الأحـزاب المتصــارعة لحصــول الغلبة على هــذه الدولة الأحــزاب والتنظيمــات

الإسلاميّة، وكان في هـذه الأحـزاب الكثـير من العمومـات الـتي لم تحـدّد، وكانت هذه العمومات سبباً لعدم اهتداء الكثـير منها إلى الوقـوف الموقف الشرعي الصحيح مع الأحداث المتسارعة. وكان من جملة هذه المعلومات المعوّقة من تحصـــيل الغلبة الاختلاف حــــول الطريقة المثلى في إقامة الدولة الإسـلاميّة، وكـان السـؤال: ما هو الطريق الشـرعي لإحيـاء دولة الإسلام؟ وقد أخذ هذا السـؤال شـوطاً بعيـداً من الـوقت والجهد للوصـول إلى الجواب الصحيح، أو لتحديد معالمه.

وللأسف (وأقولها حسـيراً) ما زال بعض النـاس يظنُّ أن هـذه الطريقة تحتاج إلى مزيد من الكشف والدراسة، أي أنه مازال الكثير من أهل الدين يجمع النـــاس ليحـــدّثهم عن الطريقة المُثلى في إســقاط الطــواغيت، أو الطريقة المثلى لإحياء دولة الخلافة.

في الوقت الذي كـانت فيه الأحـزاب وخصوصـاً اليسـاريّة تشـدّ الخطى وتســعى بتقــدّم نــاجح نحو أهــدافها في بنــاء دولهم ومجتمعــاتهم كــان المسـلمون في تنظيمـاتهم يتنـاظرون فيما بينهم على الطريقة النبويّة في إقامة دولة الإسلام، وهو أمر مشين معيب.

لقد كان أهل الإسلام يملكون الرصيد الأكـبر لتحصـيل الغلبة في امتلاك الدولة، ولكن بكلّ سهولة ويسر تحوّل مَن لا يملك الرَّصيد إلى حاكمِ دولةٍ ومن يملكُ الرصيد إلى مُهاجرٍ مُطارد لا يملك مترَ أرض يموت فيه.

لقد بـنى النّـاس دولهم وأقـاموا لها الأساسـات والعُمُد ووثّقـوا أركانها وجنُوا خيراتها وربّوا الأمّة على ما يريدون، وكسبوا مواقع متقدّمة، وما زال أهل الإسـلام يتنـاظرون ويتشـاجرون حـول الطّريقة المثلى لإقامة الدّولة الإسلاميّة؟!!. وكلّ المتناظرين يزعمـون أنّ دليلهم فيما يقولـون من إقامة الدّولة الإسلاميّة مشتقّة من الطّريقة النّبويّة (زعموا).

وإنّي بفضل الله تعالى منذ أن بدأت أحترم عقلي وأحترم ما وهبني الله تعـــالى من نِعَمٍ أيقنت أنّ الطّريقة المثلى لإقامة دولة الإســـلام هي عين الطّريقة المثلى في إقامة أيّ دولة من الـــدّول. فالطّريقة الشّـــرعيّة هي عينها الطّريقة الكونيّـــة، فـــإذا ثبت من جهة النّقل الصّـــحيح فإنّه يوافق الكــونيّ الصّــريح، وإذا ثبت شــيء من جهة العقل الصّــريح فإنّه لا بــدّ أن يوافق النّقل الصّحيح، ولكنّ الحكم الشّـرعيّ لا يؤخذ من الكـونيّ بل يؤخذ من النّقليّ، فالحلال والحرام والجائز والمسـتحبّ والمكـروه لا يثبُتُ واحـدٌ منها إلاّ بالكتاب والسنّة.

وبالتّـالي لا يمكن أن يثبت نقـلٌ صـحيحٌ على خلاف العقـلِ الصّـريح، ولا يُمكن أن يُجمع العقلاء على كـونيٍّ صـريح وهو مخـالف لشـرع الله ودينـه، فمصدر الكون هو مصـدر الشّـرع {ألا له الخلق والأمر} بل إنّ من معـاني الحقّ (وهو اسم يطلق على الشّرعي) ثابت لكونه موافقٌ لقدَرِ الله تعـالى وخلقه (الفطرة).

هذا الذي أقـوله لا بدّ أن يجتمع مع ما قُلته سابقاً ليسـتقيم المعـنى في نفوس إخواني القرّاء.

وقد علم كـلُّ من عاشـرني وعرفـني عن قـرب أنّي من أشـدّ النّـاس (بفضل الله تعــالى) تنبيهــاً على أولئك الــذين يخرِمــون الســنن الكونيّة والقدَريّة بحجّة وجـود قواعد خاصّـة لنا (أي أهل الإسـلام) تُخـالف السـنن الكونيّة والقدريّة التي يجريها الله تعالى على البشر جميعـاً، وبالتّـالي فـإنّ

مِن الخطأ الشّنيع أن يظن ظان أنّ السّيرة النّبويّة لها نظام خـاصٌّ وقواعد مستقلّة خارج نظام وقواعد وسنن التّغيير السّننيّ في البشر جميعـاً، فهـذا الزّعم هو الـذي يجعل أولئك القـوم يقـرأون السّـيرة من أجل البركة فقط من غير نظرٍ إلى أنّها هي الطّريقة الكونيّة والشّرعيّة الوحيـدة لإقامة دولة الإسـلام، وهـذا فيه ردٌّ على أولئك الـذين يجعلـون الطّريقة النّبويّة طريقة خاصّة لا يعرفها إلاّ أهل الإسلام في إقامة الدّولـة، وكفى بواقع أولئك دليلاً على خطأ ما وقعوا فيه من الوهم والظّن الذي حسبوه علماً ويقيناً.

لا أشكّ أنّ كثيراً من النّاس لن يقبلـوا كلامي حتّى أملأه وأحشُـوه بكلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، مثل هؤلاء القـوم لست حريصـاً على إقنـاعهم بصواب ما قلته.

الشّيخ ناصر الدّين الألباني له طريقةٌ خاصّة في إقامة الدّولة الإسـلامية يسمّيها ويلقّبها بالطّريقة النّبويّة، ويُطلق عليها شعار التّصفية والتّربية.

حزب التّحرير له طريقةٌ خاصّةٌ في إقامة الدّولة الإسـلاميّة يـوجب على النّاس سلوكها ويسمّيها الطّريقة النّبويّة.

وكذا الإخوان المسلمون (إحساناً للظّنّ بهم) وغيرهم الكثير، وأنا أسأل هـؤلاء جميعـاً سـؤالاً واحـداً أقـدّم له بمقـدّمات مُجمع عليها (!! أو أظنّ ذلك):

أوّلاً: المسـلم المهتـدي معه توفيق الله تعـالى وبالتّـالي هو أقـرب إلى تحصيل أهدافه من الكفّار.

ثانيـاً: من أسـماء الشّـرع عنـدنا: الهدايـة، ومعناها البصـيرة في إدراك المطلوب، فبالتّالي ما هو شرعيّ أقرب إلى غيره في الوصول إلى الهدف فمُمْتَثِل الطّريقة الشّرعيّة أقـرب من العاصي في إدراك المراد.

هاتـان مقـدّمتان (الهداية الشّـرعيّة والهداية التّوفيقيّـة) توجبـان علينا سؤالاً هو:

إذا كان الأمر كذلك فلماذا وصل الكـافر إلى هدفه وجـنى المسـلم ضـدّ مراده؟ لماذا بنى البعثيّون دولتين وشـيوخ الإسـلام لم يجـدوا مـأوى لهم؟. مع أنّ كلّ أدوات المعركة كانت بين أيدي المسلمين ومشايخهم كما قدّمنا وكان القليل منها بيدِ أعدائهم (خلافاً لواقعنا الآن).

أليس هذا السؤال يوجب عليّ وعلى كلّ عاقلٍ (لم يـؤجّر عقله لغـيره) أن يعتقد أنّ ما قاله المشـــــــــايخ عن الطريقة النبويّة في إقامة الدولة الإسلاميّة خطأ على الطريقة النبويّة، وليس خطأ من الطريقة النبويّة؟.

لكن للأسف وُجد عنـــدنا من قـــال أنّ هـــذا الطريق هو طريق الابتلاء، ومعناها عنده أنّ الشارع أعطانا طريقـةً غـير صـحيحةٍ من أجل أن يوصـلنا إلى ضدِّ أهدافنا وأهدافِهِ ابتلاءً لنا. فهذا هو معنى الابتلاء عندهم:

أن تسلك الطريق التي أمرك بها الشارع فتصل إلى ضـدّ أهـدافك ابتلاءً لك (وحسبنا الله ونعم الوكيل).

هل بين ما قُلتُه هنا وبين ما قلتُه سـابقاً خلاف؟! بمعـنى أني قلتُ أنّ الطريقة الكونيّة الـتي يسـلكها عقلاء البشر في بنـاء دَولتهم هي عينها الطريقة النبويّة في إقامة الدولة الإسلاميّة، لأنّ الدَّولة شيءٌ وجوديٌّ كونيٌّ واسمها يُطلق على شيء واحد عند البشر جميعاً ولكن المضاف إلى هـذه الدولة هي الأحكام والقِيَم التي تحكم بها هذه الدولة، فهـذه دولة إسـلاميّة لأنها تحكم بالإسلام وقِيَمُها مستمدّة من الإسلام، وهذه دولة شـيوعيّة لأنها

تحكم بـالقيم الشـيوعية، وهـذه دولة بعثية لأنها تحكم بقيم حـزب البعث، ولكن اسم الدولة مشـترك بينها جميعـاً وهو يُطلق على شـيءٍ وجـودي واحد، والشيء الوجودي (السنة القدريّة) شـيء جـامع للبشر جميعـاً بغضّ النظر عن دينه وقيمه.

سنن قيام الدول:

ثمّ إني ثربت هنـاك ورهَّبت من أولئك القـوم الـذين يتضـلّعون من كتب الأغيار في بنائهم لمعارفهم في طريقة التغيير وبناء الدّول.

في الجواب على هذا أقول:

أوّلاً: إني وإن اعتقــــدت أن الطريقة النَّبوية هي عينها الطريقة الكونيّة في إقامة الدُّول إلاّ أنّ الخطاب الشـرعي لا يَثبُت إلاّ بـدليلٍ شـرعي، فهو كقولِ من قال إن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح، وقد أطلقه خيار الأئمّة في بـاب صـفات الله تعـالى، إلا أنّ صـفات الله تعـالى لا تثبت إلاّ بالشَّرع الصَّحيح مع أنها لا تخالف العقل الصَّريح.

ثانيـاً: إنّ مهمَّة إقامة الدولة الإسـلاميّة تتطلَّب إعمـار البـاطن بمثـالٍ سـابقٍ خلالَ حركته وقيامه وقعـوده، وهـذا المثـال يجب أن يكـون عبـداً صالحاً، فالواجب ضرْبُ الأمثلة بالشُّـخوص المهتـدين، وأنا أعتقد أنّ ما من حقٍّ يحتاجه المـرء في هـذه الـدنيا إلاّ وفي الكتـاب والسـنة ما يغنيه فيـه، فلماذا إبعاد النجعة (وإبعاد النجعة معناه أنّ طـالب المـاء حين يسـتطيع أن يأخذ الماء من مكان قريب فيذهب إلى المـورد البعيد يكـون قد شـقّ على نفسه وأبعد في الطلب من غير ما ضرورة).

ثالثــاً: في كلامي الســابق تنبيه مهم على نوعيَّةٍ من الدارســين لكتب الأغيار امتلأوا منها وتضلّعوا حتّى الثمالة فكـانت عُمُـدُ معـارفهم منهـا، ولم يكن التاريخ الإسلامي عموماً والسـيرة النبويّة خصوصـاً عنـدهم إلاّ غِطـاءً وصبغةً ظاهرة لهـذه المعـارف، فقد تـراهم يأخـذون المعـارف من الأغيـار ولكنهم يُأسلمونها بعد ذلك حسب نظريّة المعهد العـالمي للفكر الإسـلامي في مشـروعه (إسـلاميّة المعرفـة)، فهـذا الصِّـنف من الدارسـين يقع في أخطاءٍ لا بدّ من التنبيه عليها.

ونحن في هذا الباب أمام صنفين من الناس:

الصنف الأول: غنوصي عرفاني (ومعناهما واحد وتعنيان من ينكر وجوب الدلائل والمقدمات من أجل الحصول على نتيجةٍ سواءً في المعرفة أو في القَـدَر، فهو يُنكر الـدليل ويـوجب عليك أخذ النتيجة من غـير مقدّمـة، فـإن كانت النّتيجة في القدر (الكونيـات) كـان جبريـاً وزعم بـأنّ عـالم الشـهادة مربوطة أحداثه بعــالم الغيب (زعم) بالكليّة ولا قيمة للســنن، وإن كــانت النتيجة معرفية كان باطنيّاً وزعم أنّ الإلهام والكشف والذوق دليله).

فهذا الغنوصي العرفاني يقرأ السيرة النبوية قـراءة صـوفية لا صـلة لها بعالم الشهادة والسنن.

والصنف الثاني: انتقـائي تجزيـئي ومعارفه الأساسـية من الأغيـار، ودور السيرة عنده التدليس لا التأسيس، وهذا ما عنيته آنفاً.

أمّا إسـقاط الكلام السـابق على أحد من إخوَتِنا أومعارفنا تحديـداً فهو ظنٌّ لم يُصب صـاحبُه فيـه، فالمناقشة كـانت لظـاهرة وليست لفـرد من الأفراد {ولكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات}.

أثر الخلط بين الكونيـات والشـرعيات: الجـوهر والعرض نموذجاً

المعـارف الكونيّة (معـارف الخلق والتّكـوين) معـارف مشـاعة وليست خاصّــة لأهل الإســلام، وهي كــذلك ليست محصــورة ولا محجــورة على أصحاب المعارف الشّرعيّة (العلوم الدّينيّة)، بل قد غلب على هـذه العلـوم والمعارف الكونيّة غير أهل الإسلام منذ القدم، وقد شكى على الدّوام أهل العلم والذّكاء مِن ترك هذه العلوم لغير أهل الإسلام.

فقد شكى الإمام الشّافعيّ رحمه الله تعـالى من إعـراض أهل الإسـلام عن أهمّ علمين على مـدار التّـاريخ الإنسـاني بعد علـوم الـدّين، وهما علم الطّبّ وعلم الحسـاب، فإنّه لا قـوام لحيـاة البشر في دنيـاهم إلاّ بهـذين العلمين (علم الأبدان، وعلم الحساب) قال حرملـة: كـان الشّـافعيّ يتلهّف على ما ضيّع المسلمون من الطّب، ويقول: ضيّعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنّصارى. [سير أعلام النّبلاء 10/58]، وقال: من نظر في الحساب جــزل رأيــه. [المصـدر السّــابق 10/41]، وقد انتشر في بلاد المسـلمين الاهتمام الشّديد بعلوم الذّهن وظهر الإعراض عن علوم اليـد، وهو مـيراثٌ أساء كثيراً إلى البناء العلميّ للعقـول في تـاريخ أهل الإسـلام المتـأخّرين، وقد أصبغ المتكلّمون وخاصّة الأشاعرة على هذه المفـاهيم صـبغة شـرعيّة ولعـــلّ من أعجب ما وقعـــوا فيه النّظر إلى العلـــوم الكونيّة والكلام عليها بطريقة الكلام على المعـــــارف الأخـــــرى حيث اســــتعملوا فيها المنطق الأرسـطيّ وقواعـده الـتي سـمّاها بالكليّـات، وهي مـوازين لا تصـلح لهـذه المعــارف، فــإنّ المعــارف الكونيّة لا تحصَّــل إلاّ بطريق الحسّ والعقــل، فــالحسّ لتحصـيل المعـارف الجزئيّة لهـذه السّـنن، والعقل لتعميم هـذه المعارف لتحصِّـل منها القواعـد،(وهو المنهج التجريـبي) فاسـتخدام الحس فقط دون اعتبــار العقل للتّعميم عن طريق الاعتبــار والقيــاس لا ينشئ قاعـــدة، واســـتخدام العقل في عموماته دون الحســـاب والتّجربة تنشئ أوهامـاً أغلبها لا يوجد لها وقـائع وحقـائق كونيّـة، ولـذلك كـان المتكلّمـون (وعلى رأسهم الأشاعرة) من أفسد النّاس نظراً إلى العلوم الكونيّـة، ومن أفسد ما قالوه ما سمّوه قاعدة الجوهر والعرض، وهي قاعـدة جعلوها من أصل الدّين وبنوا بعض العلوم الدّينيّة على أساسها، وهي في أسـاس بنائها لا وجود لها إلاّ في أذهانهم الأرسطيّة الكليلة، وشرح هـذه القاعـدة يطـول أمره وهي باختصار تقول:

1- أنّ الأشياء كلّها تتكوّن من جواهر متعدّدة.

2- والجواهر هي أصغر شيء في المادّة، ولا شيء أصغر منها.

3- الجواهر حقيقة واحدة تتعدّد وليس بينها اختلاف في جميع الأشياء.

4- العلاقة بين الجـــواهر في تشـــكيل المـــادّة هي علاقة تجـــاور فقط وليست علاقة تفاعل.

وقد سـمّيَت هـذه القاعـدة مـؤخّراً بقاعـدة الـذّرّة، وعلى أسـاس هـذه القاعـدة الـتي أدخلت في أصـول الـدّين بـنى المتكلّمـون (وعلى رأسـهم الأشاعرة) قاعـدة التّحسـين والتّقـبيح وهي قـولهم: إنّ التّحسـين والتّقـبيح شرعيّان، فالأشـياء الـتي حرّمها الله هي في حقيقتها كالأشـياء الـتي أحلّها الله وإنّما التّحليل والتّحريم ابتلاء من الله لعباده من غير علّة سابقة.

فلمّا اقتنع المتكلّمــون أنّ الأشــياء في حقيقتها شــيء واحــد، أخــذوا يقولـــون: ما ضـــرورة البحث إذاً؟! ما أهميّة التّجربة في إدراك حقـــائق الأشياء وهي في جوهرها شـيء واحـدٌ؟ فالحديد في حقيقته عين النّحـاس وهما عين الـــذّهب والفضّـــة، وإنّما الاختلاف في الأعـــراض (المظـــاهر الخارجيّة كاللون والوزن وغيرهمـا)، وهـذه القاعـدة هي الـتي جعلت بعض المجــاذيب (من المتكلّمين) يسـعون بشــقّ الأنفس بــاحثين عن أكســير الكيميـاء، وهـذا يعـني أنّنا كما استطعنا اسـتخراج روح الـورد والزّهـر، ثم وضــعنا شــيئاً قليلاً منه في بركة مــاء فتحــوّل المــاء إلى رائحة الزّهر المُستخرَج منه الرّوح، ولمّا كانت حقائق الأشياء واحدة فلماذا لا نســتخرج روح الـذّهب فنضـعه على بقيّة المعـادن فتتحـوّل بسـبب روح الـذّهب إلى ذهب.

هذه العقليّة في تفسير الكونيّـات التقت في عـدم أهمّية البحث والنّظر وعدم أهميّة العمل في حصول النّتيجة كنهاية مع النّظـرة الجبريّـة، فكمُلت المصـيبة عند أهل الإسـلام بـالإعراض عن البحث والدّراسة والتّجربـة، ثمّ جاءت الصّوفيّة فاسـتغلّت ذلك كلّه وجعلت الكسل شـعار الزّهّـاد، وجعلت تحطيم الإرادة نهاية التّعبّد والتألّـــه، وجعلت المجـــاذيب والمجـــانين هم البهاليل (والبهلول كلمة مدح تعـني الرّجل الشّـجاع الحكيم الكـريم ولكنّها أطلقت من قبل الصّوفيّة على مجاذيبهم فانقلب معناها في أذهـان النّـاس إلى معنىً قبيح وهو المجنون).

ومن هنا فإنّ أضلّ النّاس كلاماً في الكونيّات هم أهل الكلام، وهم قادة الأمّة منذ القرن الخامس الهجريّ، فكان خلال هذه العصور رجال الكونيّات وأئمّتها هم النّصارى واليهود والفلاسفة والزّنادقة.

أمّا لماذا الفلاسفة كابن سينا والرّازي والفـارابي والخـوارزمي فهـذا له شرحٌ طويلٌ لا يتّسع له هذا المقام.

ولكن، هل العلوم الكونيّة من الإيمان؟ بمعنى هل المسلم البصير بأمور الخلق وسننه أكثر إيماناً من غيره، كما أنّ المسـلم البصـير بـأمور الشّـرع والدّين أكثر إيماناً من غيره؟.

الجواب بكلّ اطمئنان ويقين: نعم، وعندما يكون الجواب نعم فإنه يعـني أنّ الوعود الإلهيّة التي قالها الله تعـالى في كتابه وقالها رسـول الله صـلى الله عليه وســلم في الســنّة النّبويّة لا تقع إلاّ بوجــود النّــوع من الإيمــان المتعلّق بالأمور الشّرعيّة والدّينيّة.

وتفسـير ذلـك، أو دليل ذلـك، قوله صـلى الله عليه وسـلم: ((المـؤمن القويّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، وفي كلٍّ خير)).

فإيمـان المـؤمن القـويّ أقـوى - لأنّه أحبّ إلى الله تعـالى - من إيمـان المـؤمن الضّـعيف، والقـوّة والضّـعف تعلّقهما في الكـونيّ والخلقيّ لا في الدّينيّ والشّرعيّ، وتفسير هذا، أنّ الإيمان قـول وعمـل، والعمل لا يقع إلاّ بقوّة وإرادة، والقوّة هنا في هذا التّقسيم قاصرة فقـط على ما هو كــونيّ، ولا ينبغي أن يقـال هنا قـوّة محبّة الله ومحبّة الآخـرة، فـإن هـذا النّـوع من القــوى داخلة في الإرادة وهي الشّــقّ الثّــاني المطلــوب لتحقيق العمــل، فالقوّة هنا تقع على ما هو كونيّ فقط.

إذاً يجب علينا أن نعلم أنّ البصر والعلم بما هو كـــونيّ شـــرطٌ لتحقيق كمال الإيمان الواجب لتحقيق الوعود الإلهيّة في الكتاب والسّنّة.

كما أنّ البصر والعلم بما هو شــرعيّ شــرطٌ لتحقيق كمــال الإيمــان الواجب لتحقيق الوعود الإلهيّة في الكتاب والسنّة سواء بسواء.

ولهـذا النّـوع من العلـوم (علم الكـونيّ) طـرقٌ للفهم، وقواعد للتّلقّي وأصـول للتّأصـيل والعمـل، كما أنّ للعلم الشّـرعيّ طـرقٌ للفهم وقواعد للتّلقّي وأصول للتّأصيل والعمل.

ومن أهم هذه القواعد وأرسخها وأوضحها وأبرزها أنّ النّبوّة والأنبيـاء لم يرسلهم الله تعالى بهذه العلوم، بل هذه العلوم داخلة في قوله صـلى الله عليه وسلم: ((أنتم أعلم بأمور دنياكم)).

نعم، ما قاله صلى الله عليه وسلم من هذه الأمور والعلوم والسّنن حقٌّ وصدق ويجب التّسليم به واعتقـاد صـدقه وحقّه مثل قوله صـلى الله عليه وسلم عن الذّباب: ((إنّ في إحدى جناحيه داء وفي الأخـرى دواء))، أو مثل قوله: ((أنّ الـداء ينــزل في الليـل))، أو مثل ما أرشد إليه من بعض أمـور الطّب كقوله عن الحبّة الســوداء: ((أنها شــفاء من كل داء إلاّ الســام -الموت-))، وكقوله عن ماء الكماة أنهـا: ((شـفاء للعين))، فهـذه أمـور حق وصِـدق ويجب الإيمـان بها والتسـليم بها ولا يُلتفت إلى قـول من قـال إن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قالها من قبيل نفسه وتجربته كما وقع لشـاه ولي الله الـدهلوي في "حجة الله البالغـة" ومن تابعــه، بل هي من أمور الوحي الذي منّ الله تعالى على أمّة محمد صلى الله عليه وسـلم بها رحمة بهم والإيمان بها واجب والتعريض بها ردّاً وقدحاً من ضـعف الإيمـان وربّما يكون نفاقاً عياذاً بالله تعالى.

ومن أوضح هــذه القواعد في التّعامل مع الكــونيّ أنها عرضة للتبــديل والتغيير، وهي داخلة في مجال البحث والاكتشاف والأخذ والردّ.

والبدعة في الأمـور الشـرعيّة الدّينيّة ولا تطلق البدعة على ما اكتشـفه الناس وحسّنوه في الأمور الكونيّة، وهذه أمـور يأخـذها المـرء المسـلم ولا يتحـرّج في ذلـك، فالنـاس كـانوا يتنقلـون على أرجلهم وعلى الـدواب من حمير وبغـال وخيول، وقد استطاع الإنسان أن يكشف أنظمة وســنناً كونية جعلت الوصـول إلى أهدافه أيسر بكثـير مما كـان عليه في القـديم، وهـذا باب الحديث عن أمثلتهِ واسع جداً.

إذن: الثابت الذي يجب امتثاله وعدم تطـويره أو إدخـال الـرأي والهـوى فيه هو الشرعي، أما المتحوِّل فممَّا له تعلقٌ بالكونيات.

فالرجل الـذي يقـول بتطــوير الشّـريعة هو رجـلٌ زنـديق في دين الله تعالى لأنّه يريد أن يلغي الشَّريعة، حتّى لو كان هـذا التطـوير باسم التأويل الجديد، فإن التأويل الحق هو إصـابة مـراد المتكلم، وأحـقُّ النـاس بإصـابة مراد الله ومراد رسول الله صلى الله عليه وسـلم هم الصـحابة رضي الله عنهم، فالدِّين والشرع هو ما فهموه، وما لم يكن عندهم دينـاً فلا يجـوز أن يكـون فيمن بعـدهم دينـاً "اتّبعـوا ولا تبتـدعوا فقد كُفيتم"، أمّا من أراد أن يجعل الثّبـات فيما هو كـوني فهو أضـلُّ من حمـار أهلـه، فـإني أعجب من أقـوام يزعمـون أنّ اسـتعمال الكهربـاء والأدوات الصـناعيّة الجديـدة من البدعـة، وإني أعجب أن يكـون لهم رؤوس كـرؤوس البشـر، ولكن لله في خلقه شؤون.

ومن هذه القواعد والأصول في التعامل مع الكوني أنّها إنسـانيّة التلقّي، فحيثما وُجِــدت فيجب على أهل الإســلام أن يســارعوا في الأخذ بها ولا

يُعرضوا عنها بحجَّة أن مكتشفها أو صانعها غيرُ مسلم وهذا داخل في ضالّة المؤمن من الحكمة فحيثما وجدها فهو أحق بها. ألا ترون أن رسـول الله ? نهى عن الغِيلة فلمَّا رأى أهل فارس والروم يفعلونها ولا تضر أبناءهم نسخ نهيه وأجــاز فعلها (والغِيلة أن تحمل المــرأة وهي تُرضع ابنها حيث كــانوا يظنُّون أنّ هذا يؤثّر على الطفل ويخرجه ضعيف البدن).

الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكــر: التغيــير كوناً وشرعاً

في باب التّغيير (تغيير المنكر) ومنه الجهاد في سبيل الله تعالى، يكــون الجهاد حكماً شرعيّاً وواجباً عينيّاً في حــالاتٍ معروفة عند أهل العلم، فإنّه لا يجــوز تغيــيره ولا تبديله بحجج الــرأي والهــوى والاستحســان، إذ لو كــان هناك أفضل منه وخير لعلمّنا الشارع إيّاه وهدانا إليه وفعله الصــحابة رضي الله عنهم، فالجهاد في سبيل الله تعالى ومقاتلة المشــركين حكم شــرعي وواجب عينيّ في حالات وواجب كفائي في حالات أخرى.

فإذا قــال الشــارع الحكيم إن الحــاكم إذا ارتــدّ يجب قتاله فهــذا حكم لا يدخل فيه التبديل والتغيير.

نعم هو حكم ككلِّ الأحكام الشرعيّة منوطٌ بالاستطاعة والقــدرة، بل قد أمر الشارع بتكوين القوّة والاستطاعة وهما من باب الإعداد، ولكن لا يجوز أن نبحث عن بدائل ووسائل لإلغــاء هــذا الحكم وتطــويره، كما فعل البعض حيث سمّى الدخول في الانتخابات جهاداً في سبيل الله تعالى، وجعل هذه العملية بديلاً عن الجهاد في سـبيل الله تعــالى، وأدخل هــذا الأمر في بــاب الوسائل التي تجيز للمسلم الاختيار بينها (نعوذ بالله من الخذلان).

إذن يجب الجهــاد، فمن لم يســتطع الجهــاد بســبب ضــعف الإعــداد أو عدمــه، فيجب الإعــداد فــإن لم يســتطع الإعــداد فيجب عليه الاعــتزال ((فاعتزل تلك الفرق كلّها)).

والجهاد ليس وسيلةً بل هو عبادة، أي أن الجهــاد في ســبيل الله تعــالى والقتــال عبــادةٌ من العبــادات وهو أمر شــرعي لا يــدخل فيه التحويل ولا التطــوير ولا التغيــير، وما لم يكن عند الصــحابة دينــاً فلا يجــوز أن يســمى اليوم ديناً.

وما هو متحول في هذا الباب وسائل القتال وأساليبه وخططه وطرقــه، فمن الجهل الذي لا جهل فوقه، ومن الغباء الذي لا غباء فوقه ومن أسباب دمــار أهل الإســلام وطــوائفهم أن يــوجب أحــدهم على أهل مصر مثلاً أن يحكموا أهل مصر بالإسلام بفتح جديد بنفس الطّريقة التي فتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه، ويرون من الخطأ والبدعة استعمال طرق وأساليب للحــرب والقتــال (ولو تعلّمناها من غــير أهل الإســلام) في إقــرار حكم الله تعالى على هذا البلد.

ولو لا أني قــرأت شــيئاً من هــذا عن بعضــهم لما ظننت أنّ أحــداً من البشر (بله أهل الإسلام) يفكّر بمثل هــذا التّفكــير ويقــول مثل هــذا القــول الخطير.

ومن فهم من كلامي أنّي أَقصُــرُ الأخذ في أســاليب الحــرب وطرقها وعلومها على أهل الإسلام فقد فهِم كلامي على نحــوٍ خطأ ولا شــكّ. لكنّي

أعتقد أنّ السّــيرة النّبويّة غنيّة غنــاءً لا مثيل له في إدراك ســنن التّغيــير وقواعد التّعامل مع الأحداث.
السّيرة النّبويّة فيها الحرب الصّداميّة الشّاملة (مثل بدرٍ وأحد).
السّيرة النّبويّة فيها الاغتيـال وتصـفية الـرّؤوس (قتل كعب بن الأشـرف وغيره).
السّــيرة النبويّة فيها العقــود والمعاهــدات (مثل صــلح الحديبية وعقد الرسول عليه السلام الأمان لليهود أول هجرته).
السّـيرة النّبويّة فيها الانقلاب والتّغيـير الرّأسـيّ الشّـامل (حادثة فـيروز الدّيلمي رضي الله عنه مع الأسود العنسيّ في اليمن).
السـيرة النبوية فيها جهـاد الـدفع كما في غـزوة أحد وغـزوة الخنـدق، الســيرة النبوية فيها جهــاد الطلب كفتح مكة وغــزوة حــنين بل أن مؤتة وتبوك وغيرهما قد اجتمع فيها الدفع والطلب والتشريد..
السّـيرة النبويّة فيها نظـام {وشـرّد بهم من خلفهم}. (مثل ما وقع في غزوة حمراء الأسد ومعركة مؤتة وغزوة تبوك).
وهكذا فهي تجربة غنيّة تملأ نفس المسلم وتغني باطنه وتعمـره بوجـود المثال الصّالح لأغلب أحداث الحروب وطرقهـا، ولكنّ كتب السّـيرة النّبويّة صارت كتباً للتّبرّك لا كتباً للعلوم والمعرفة فحسبنا الله ونعم الوكيل.
فعلوم الحرب وطرقها ووسـائلها علـومٌ إنسـانيّة مشـاعة، شـئنا أم أبينا فـإنّ هـذه العلـوم ممّا ينبغي أن نبكي على أهل الإسـلام لإعراضـهم عنها وهي علوم تنشأ بالتّجربة والاطّلاع وحدة العقل الـرّاغب في هـذه العلـوم، وتؤخذ من مظانّها التي يعرفها أهل البحث والنّظر.
وقد يقوى لها الفاسق ويضـعف عنها التّقيّ وحينئـذٍ سنشـكو كما شـكى عمر بن الخطّـاب رضي الله عنه حين قـال: اللهم إنّي أعـوذ بك من عجز التّقيّ وجلد الفاجر.
وأنا لست من أهل هذا الفنّ ولا من أصحاب علومه المفاريد حتّى أنصح وأقــوّم الكتب الرّائعة في هــذا البــاب، وأقصد ما عمله أهل الإســلام في اكتشاف علـوم الحـرب وقواعـدها من خلال السّـيرة النّبويّـة، ولكنّي رأيت عامّة من كتب في هذا الباب إنّما تأسّست معارفه وعلومه في فنّ الحرب من الدّراسة خارج السّيرة، فلمّـا قرأ السّيرة نعى على النّاس وخاصّة أهل الإسلام إعراضهم عن هـذا النّبع العظيم، ومن هـؤلاء الممـدوحين في هـذا البـاب محمـود شـيت خطّـاب في أغلب كتبـه، وكـذلك ما كتبه العسـكريّ الباكستانيّ عن خالد بن الوليد، وما كتبه تنويهاً بهذا الأمر منـير شـفيق في كتابه "في نظريّات التّغيير" وإن كانت سيّئات الكتاب أكـثر بكثـير جـدّاً من حسـناته وإنّما أشـرت إلى تنويهه لقيمة السّـيرة النبويّة في هـذه العلـوم، والرّجل له كتاب عنـدما كـان شـيوعيّاً ماويّاً في فنّ الحـرب وما كتبه الأخ عمر عبد الحكيم في القسم الثّـاني من كتابه "الثّـورة الإسـلاميّة الجهاديّة في سوريا" والذي حرص فيه أن ينبّه إلى أهميّة هذا البحث وليس فقط ما اقتصر البعض عليه من قـراءة السّياق التّـاريخيّ لمأسـاة جماعـات البدعة على الجهــاد في ســوريّا الشّــام، وما ذكـر فيه من قواعد اختصّ بهـا دون غيرها من الكتب المتقدّمة في البناء المنهجيّ لجماعات الجهـاد المعاصـرة فعلوم الكونيّات تؤخذ من أصحابها المتفقّهين فيها ولا تؤخذ من غير أهلهــا، فــإذا وقعت الموازنة بين الفاسق أو الكــافر العــالم لهــذه العلــوم وبين

المسلم الصّالح الجاهل في هذه العلـوم فـإنّ واجب التّـرجيح يكـون مـائلاً إلى أصحاب هذه العلوم من غير تردّد.

نعم: أمانيّنا أن يجتمع البيان والـدّين مع القـوّة والفنـون المادّيّـة، ولكنّها أماني أظنّ أنّنا فقـدناها قـديماً في أهل الإسـلام، ولا حاجة لـذكر ما ذكـره ابن تيمية رحمه الله تعالى من حصول هـذا الافـتراق في زمانـه، ولكن وما ذلك على الله بعزيز.

وممّا يجب أن يُعلم أنّ هذه العلوم دليلها الحسّ والتّجربة والعقـل، ومن رام دليل هـذه العلـوم في كـلّ أحـداثها وقواعـدها وأصـولها من الكتـاب والسّـنّة من غـير العمـــومات فهو جاهل لا يفهم دين الله تعـالى، نعم هي داخلة في عمومات الشّريعة التي تُبيح لنا تعلّم هذه العلوم من غـير طريق النّبـوّة (الـوحي) كالسّـير في الأرض والنّظر والبحث و((أنتم أعلم بـأمور دنياكم)).

فمثل هؤلاء الطّالبين لأدلّة ما هو كونيّ ممّا هو شرعيّ يـذكّروننا بقصّـة ذكرها ابن حزم في بعض كتبه وأظنّ أنّه "طوق الحمامـة"، تقـول القصّـة: إنّ رجلاً مغفّلاً من أهل الحـديث ركب سـفينة فـرأى رجلاً نصـرانيّاً يحمل زجاجـــات خمـــر، فتقـــدّم منه المحـــدّث المغفّل وســـأله عمّا هو داخل الزّجاجات. فقال: هذه زجاجات خمر.

فقال المحدّث: ما دينك؟. قـال الرّجـل: نصـرانيّ. قـال المحـدّث: ممّن اشتريتها؟. قال الرّجل: من يهوديّ.

فـأهوى المحـدّث بيـده على قـارورة منها فشـــربها، فتعجّب النّصـرانيّ وقال له: أقول لك هي خمر وتشربها؟!!.

فردّ المغفّل: يا هذا يأتيني الحديث عن فلان وفلان (وذكر أسماء جماعة من كبار أهل الحديث) فأردّه، أفآخذ بقول نصرانيٍّ عن يهوديّ؟!.

ما يهمّنا كون المحدّث شرب الخمر وبالتّالي سيَسـكر ولن تنفعه مهارته المزعومة، ولا احتياطه المقلـوب، ولا منطِقُه المعكـوس، وهـذا من فسـاد المتنطّعين في ظنّهم أنّ إتقان علمٍ من العلوم وقاعدة من القواعد لقضيّة من القضـايا كافية للفتـوى والجـواب على أيّ مسـألة في الـدّين والـدّنيا، فمصلّح السيّارات يُفتي في إصلاح الأبدان والطّبّ، وخبير الكمبيوتر يتحدّث ويُفتي في علم الحديث، وللأسف فإن هذا كلّه لا نراه إلاّ عند أهل الإسـلام لأنّنا ما زلنا نفكّر بمنطق أرسطو الذي علّمنا الكليّات الجامعة لكـلّ العلـوم سواء كانت المعارف كونيّة أو من العلوم الشّرعيّة.

أليس من المعيب حقّاً أن يُفتي شيخٌ في علم الحديث لرجل يعيش في البوسنة زمن الحرب أن لا يقاتل حتّى يصل الصّربيّ باب بيته ؟!!.

ثمّ أليس من المَعيب أن يظنّ مفكّرٌ أو بصـــير في علمٍ من العلـــوم الكونيّة أنّ قواعـده الكليّة وروح الإسـلام العـامّ ترشـده إلى إدراك الحكم الشّرعيّ في أيّ مسألة من المسـائل، حـتىّ تصـحيح الأحـاديث وتضـعيفها يدخل في باب روح الإسلام وقواعده الكليّة ؟!!.

نعم: ديننا ليس فيه كهنـوت، وليس فيه فاتيكـان، وليس فيه بابـا، ولكن أليس في ديننا شيء يسمّى طلب العلم ؟!!.

أم أنّ الجوهر واحد والاختلاف في الأعراض فقط ؟!!.

الباب الثاني
الاجتهاد في مجتمعات معاصرة

الفصل الأول

مفاهيم ومصطلحات

"المقصد الشرعي من وضع الشــريعة، إخــراج المكلف من داعية هـواه، حـتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبــدٌ لله اضطراراً" الشاطبي

ما هي السَّلفية ؟ !

السّلفية على مدار التّاريخ الإسلامي تتمثّل بأمرين:

أولاهما: منهج علمي في التّعامل مع الأصلين (الكتـاب والسـنة) حيث تقــوم على اعتمادهما فقط ونبذ ما ســواهما في الصُّــدور عنهما بــالحكم المراد للحركة والحياة.

ثانيهما: حركة حياة وسلوك طريق في تطبيق هذا المنهج.

فالسّلفيَّة هي ذلك المنهج الّذي اختطّه الأوائل من أصحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم علمـاً وعملاً، هكـذا هي السَّـلفية وهكـذا ينبغي أن تكون، ومن رحمة الله تعالى بهذا المنهج العلميّ العمليّ أن أقام له رجـالاً تعاملوا معه بأسـمى حـالات الكمـال حتّى صـاروا هم المنهج، والمنهج هم، فحينئذٍ ارتبط اسم المنهج بشخوصهم وتقيّد بهم فأطلق اسم المنهج عليهم بكونهم السلف الّذين سبقوا الكلّ في تطبيق المنهج قدْراً وزماناً.

فالتّابعون تعاملوا مع أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم على أنهم: (منهج وســـلف)، ومن بَعــدَهم تعامل مع التَّابعين على أنهم: (منهج وسلف)، وهكـذا، ولمّا كـثرت البـدع في نهاية القـرن الثّـاني وبداية القـرن الثّالث، وخاصّةً بـدع أهل الكلام، في تقـديم منهج بـدعيّ جديد في التَّعامل مع الأصــلين، واختلطت الأمــور، نشط أهل الســنَّة في تميــيز المنهج عن غـيره، وكـذلك في كشف رجـال المنهج السَّـلفي عن غـيرهم من أصـحاب المناهج الخلَفيّة الأخرى، وصــار بعض أهل العلم هم أصـحاب المنهج، ولهم ينســب، وصــاروا هم المقيــاس في ردِّ الآخــرين لهم، وقد ذكر **الإمــام الكــرجي** - رحمه الله تعـالى - هـؤلاء الرِّجـال في كتـاب سـمّاه: "تنقيح الفصول في الأصول عن الأئمَّة الإثـنى عشر الفحـول"، وهـؤلاء الأئمة هم: مالك والشّـافعي وسـفيان الثَّوري وعبد الله بن المبـارك، والليث بن سـعد واســحق بن راهويه وأحمد بن حنبل وســفيان بن عيينة والأوزاعي ومحمّد بن إسماعيل البخاريّ وأبو زرعة وأبو حاتم الرازيان.[1]

هؤلاء العلماء ليسوا هم فقط، ولكن غيرهم يرجع إليهم في توضيح هــذا المنهج القويم. وبعد هذا نخلص إلى النّتائج التّاليــة:

1 - تحت كلِّ شعار زيـوف ونقـد- وكـذلك السَّـلفية - ففيها الزَّيف وفيها الحــق، ولــذلك ينبغي التَّعامل مع الحقــائق لا مع الشِّــعارات، مع أهميّة الشِّعار وضرورته.

2 - السّـلفية منهج علميّ عمليّ، أئمّته هم أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسلم وغيرهم تبع لهم، فلهم وحدهم حقُّ التّقويم والرشد.

---

[1] - انظر "درء تعارض العقل والنّقل" لابن تيمية (ج 2/95-98).

3 - علينا أن ندرك خطأ وانحـراف من قـرن السّـلفية بشخص لا يـؤمن عليه الفتنة في فهمه للحركة والحياة، وكذلك علينا أن ندرك ضلال وبدعية من جعلها تنظيما وحزباً وتجمعاً، وأشدّ من هؤلاء ضلالاً وانحرافاً هو جعل السَّلفية علاقة بين أفراد، فهذا سلفيّ لأنّه معـروف لهـذه الجهـة، أو تتلمذ على يديها، وهـذا غـير سـلفيّ لأنّه غـير معـروف لـديها، أو لم يسـلّم لهـذه الجهة رقبته لتقــوده كالدَّابّــة، ثمّ علينا أن نــدرك خطأ وانحــراف من جعل السّلفية مذهبا فقهياً، يوالي ويعادي عليه.

إن منهج السّـحرة هو تزييف الحقـائق وتمويهها على النّـاس، والسَّـحرة في كلِّ زمان إما أن يغيّروا صورة الأشـياء في الأبصـار عن طريق التّخْييل الشيطاني، وإما أن يغيروا حقائقها في الأذهان عن طريق السّـحر البيـانيّ، وقد حذّر النَّبيّ صلى الله عليه وسلم من هاتين الطّـائفتين أشـدَّ التحــذير، ونبّه الأمّة إلى خطرهما وعظيم أمرهمـــا، وقد علم أهل الســنّة أن أعظم السّحرة على مدار التّاريخ الإنساني هو الدَّجال، الّذي سيخرج آخر الزّمــان بما معه من شـعوذات ومخــاريق يفتن بها النّـاس عن توحيد الله سـبحانه وتعـالى، وقد جـاءت الأحـاديث الكثـيرة الّـتي تكشف للمؤمـنين أمـره فلا يغترّوا بـه، ولا يلتبس عليهم حالـه، وفي حـديث لرسـول الرحمة والملحمة صـلى الله عليه وسـلم يجمع فيه التحـذير من هـاتين الفرقـتين: سـحرة التّخييل وسحرة البيان: فقد ذكر الإمام أحمد رحمه الله في مسـنده حـديثا فيه التّحذير من أمر الدّجال، وذكر فيه قول النّـبي صـلى الله عليه وسـلم: ((غير الدجال أخوف على أمّتي من الدّجال، الأئمة المضلّون)).[1]

في هذا الحـديث إرشـاد نبـويّ إلى وجـوب كشف الأئمّة المضـلّين، كما كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الدّجال بجامع فتنتهما.

وإذا كان الدّجال أعظم فتنة تقع في الدّنيا كما جاء في بعض الأحـاديث، فإن هذا الحـديث يـبيّن أن الأئمّة المضـلّين أشد فتنة وأكـثر سـوءاً وأعظم إفساداً. فمن هم الأئمة المضلّون؟.

الإمام: هو المرء المتبوع، سواء كان هـذا المتبـوع في أمر علميّ أو أمر عمليّ، قـال تعـالى: {وأطيعـوا الله وأطيعـوا الرّسـول وأولي الأمر منكم} النساء، وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله تعالى - تفسير العلماء بقولــه: أولي الأمر وخلافه في تعيينهم هل هم العلمـاء أم الأمـراء؟ ثمَّ خلص إلى القـول أنّها عامّة في كلٍّ من العلماء والأمراء.

فالأئمّة المضــلّون هم الأمــراء الضّــالّون والعلمــاء الضــالّون، وهاتــان الفرقتان ربط رسول الله بصلاحهما صلاح النّاس وبفسادهما فساد النّاس، وهما كما قال ابن المبارك رحمه الله تعالى:

وهل أفسد الدين إلاّ الملوك   وأحبار سـوء ورهبانـها

فساد الأمراء: روى الإمام البخاري في صحيحه أنَّ امــرأة من أحمس ســألت أبا بكر الصــدّيق فقــالت: ما بقاؤنا على هــذا الأمر الصــالح - أي الإسلام - الذي جاء الله به بعد الجاهليّة؟ قال: بقـاؤكم عليه ما استقــامت بكم أئمّتكم. قـالت: وما الأئمّـة؟. قـال: أمَا كـان لقومك رؤوس وأشـراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى. قال: فهم أولئك النّاس.

فصلاح الأمراء بقيامهم على أمر الإسـلام، وتطـبيقهم شـريعة الـرحمن، ونشـرهم العـدل في الأحكـام، وفسـادهم بـتركهم دين الله تعـالى، وبعـدم

---

[1] - سنده صحيح.

إقامته في النّـاس، وقد علّق أبو بكر رضي الله تعـالى عنه فسـاد النّـاس بفساد الأئمة. ما استقامت بكم أئمّتكم. قـال **الحـافظ بن حجر** - رحمه الله - في "فتح البـاري" في شـرحه لهـذا الحـديث: لأنّ النّـاس على دين ملوكهم، فمن حاد من الأئمّة عن الحال مال وأمال. ا. هـ.

ومن أجل أهمية الأمـراء وقيمتهم في الحيـاة فـإنّ الشّـارع الحكيم أمر المسلمين وحثّهـم على مراقبتهم من أجل تقويم اعوجـاجهم، ولو أدّى هـذا إلى حصـول الضّـرر على النّاصح المقـوّم، قـال صـلى الله عليه وسـلم: ((**أفضل الجهـاد كلمة حـقٍّ عند سـلطان جـائر**))،[1] وهـذا كلّه في الحـاكم المسـلم، أما الحـاكم الكـافر فقد وجب على المسـلمين خلعه وإزالتـه، قـال القاضي عيـاض: فلو طـرأ عليه - أي الأمـير - كفر وتغيـير للشّـرع أو بدعة خـرج عن حكم الولاية وسـقطت طاعتـه، ووجب على المسلمين القيام عيه وخلعه. ا. هـ.

فساد العلماء: روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العـاص رضي الله عنه مرفوعـاً أنّ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: « **إن الله تعـالى لا يقبض العلم انتزاعـاً ينتزعه من العبـاد، لكن يقبض العلم بقبض العلماء حتّى إذا لم يبق عالماً اتخذ النّـاس رؤسـاء جهّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا** ».

فصـلاح العلمـاء في تعليم النّـاس الحـقّ والصـواب، وإرشـادهم للهـدي الصّحيح، وتحذيرهم من الأحكام والتّصورات الفاسـدة، وفسـادهم بـالفتوى الجاهلة، والهدي الباطل، والقول الفاسد، فإذا أفتى العالم بـالهوى والجهل فإن قوله يفسد النّاس ويضلّهم كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث السّابق (**فضلّوا وأضلّوا**).

وقد فرّغ كثير من أهل الـذّكر نفسه لـذكر نمـاذج من الأئمّة الصّـالحين، وكيف كـان لأفعـالهم وأقـوالهم الأثر الطّيب، والخـير الـذي يصـيب العبـاد والبلاد، ونمـاذج العلمـاء الـذين وقفـوا أمـام حيف الأئمّة الأمـراء وظلمهم وفسادهم، وكذلك نماذج الأمراء الصّـالحين الّـذين سـطروا بفعـالهم دفـاتر الخير والنصر على مدار التاريخ الإسـلامي، ولكن كل هـذا لم يخل من ذكر نماذج من الجهة المقابلـة، جهة أمـراء الضـلال، وعلمـاء الضـلال، وسـأذكر أركان علماء الضّـلال الّـذين وقفـوا أمـام الحـقّ، وحـاولوا مزايلتـه، أو أنهم حاولوا اسـتغلال عمـائمهم من أجل نشر الرذيلة الفكرية بين النّـاس، وهي أركـان تعين الشّـاب المسـلم الآن وغـدا في كشف هـؤلاء القـوم، وهـذه الأركان الّتي سأسوقها هي الأركـان الّـتي حـذّر منها أهل السـنّة والجماعة في أقوالهم ومصنّفاتهم، ولم أزد سوى أني جمعتها على هذه الصورة:

مـن هـم علماء الضلال؟

1 - الـصوفية: قال **الإمام الشّـافعي**: ما تصـوّف رجل عاقل أول النّهار وأتت عليه صلاة العصر إلاّ وهو مجنون. ا. هـ.[2]

والصّوفية فرقة ضالّة منحرفة، تلبست بمسـوح الإسـلام، وادعت العمل بالشريعة، وهي في حقيقتها وجوهرها قائمة على أصول شـركية منحرفـة، ولم تعرف هذه الفرقة بعقائدها ولا بعباداتها في الصّدر الأول الممدوح من

---

[1] - رواه أحمد بسند صحيح عن أبي أمامة.

[2] - ذكره ابن الجوزي في صفة الصّفوة وفي تلبيس إبليس.

قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: ((**خير النّـاس قـرني**...))، وهي في كلّ زمان تتلوّن بأثواب جديدة، ولعلّ أكثر الفرق انحرافاً في هذا الزّمان فرقة الحبشـية، وهم أتبـاع الضّـال **عبد الله الحبشي** المقيم في لبنـــان، ومن أعظم انحرافـــاتهم بعد كـــونهم صـــوفية كلامية مـــوالاتهم للطّـواغيت، قـال **عـدنان الطرابلسي**، وهو نـائب في مجلس الشّـرك (النّـوّاب) اللبنـاني. وهو ممثّل الحبشـيّة في البرلمـان، والفرقة لها جمعية هناك تسمّى جمعيّة المشاريع الخيرية. يقول هذا الضّال المخرِّف: إننا لسنا من الأصـولية السّـلبية!! هـذه الأصـولية المزعومة المـراد منها الكرسـيّ والزّعامة والتّخريب، لا لهذه الأصولية الّتي تكفر حكّـام العـرب المسـلمين لمجـرّد أنّهم حكمـوا بالقـانون من غـير أن يعتقـدوا أن القـانون خـير من القـرآن، لا لهذه الأصولية الّتي تقتل العسكري أو رجل الدّولـة، لمجـرّد أنّه ينفذ حكم القانون. انتهى كلامه الضّال.

وهـذه الفرقة الخبيثة بـدأت تغـزو كثـيراً عقـول الشّـباب المغـترب في أوروبّا وأمريكا وأستراليا، مع ما لهذه الفرقة من أثر سيّء في لبنـان حيث كـانوا هم اليد القـذرة الّـتي تنفّذ سياسة الدّولة الخبيثة الكـافرة سـوريا، ولذلك فإنّي أنصح الاخوة في كلّ مكـان أن يحـذروا هـذه الفرقة ويحـذِّروا منها الشّباب لئلا يقع في حبالهم، وهذه الفرقة لها طريقة خبيثة في جـذب الشّباب إليها، فهي أوّل ما تبدأ معهم في تكفير الأئمّة الأعلام كـابن خزيمة والآجـرّي وعبد الله بن أحمد بن حنبل والبربهـاري وابن تيمية وابن القيّم ومحمّد بن عبد الوهاب وسيِّد قطب وغيرهم من أئمّة الهدى والدّين.

وكثير من الفضلاء العلماء يقع في الـوهم والخطأ حين يقسِّـم الصّـوفيّة إلى قسـمين أو أقسـام، فيظنّ أن هنـاك صـوفية سـنّية وصـوفيّة مبتدعـة. ولعلّ هذا التقسيم جاءهم من عـدم دراسـتهم المتعمّقة للصّـوفية كما هي عند أصحابها، لأن الصّوفيّة أنفسهم يرفضون هـذا التّقسـيم، ويتعـاملون مع الجميع على أنّهم طائفة واحـــــدة لا طوائف على اختلاف مشـــــاربهم ومشايخهم وطـرقهم. وبدراسة متأنِّية نسـتطيع أن نجـزم أن الصّـوفيّة هي تلك التّربة النّجسة الّـــتي نمت فيها ومنها الكثـــير من أفكـــار الضـــلال والانحـراف كالشّـيعة الـرّوافض، وأهل الكلام الزّنادقة وغيرهمـا. وقد يقع بعض أهل الخير كذلك في خطأ آخر حين يظنّ أنّ الصّوفي هو ذلك الرجل الـذي ينتسب إلى صـوفيّة، أو مشـيخة صـوفية، وهـذا حـق، لكنّ الصّـوفية تعدّت كونها ابتـداعاً في العبـادات والنّسـك، إلى كونها طريقة حيـاة ومنهج تفكـير، وأسـلوب عمـل. ولـذلك قد يقع بعض من يكـثر حديثه عن بـدع الصّـوفية وانحرافـاتهم في منهـج التّفكـير الصّـوفي في فهمه للحركة والحياة.

الصّوفية طريقة منحرفة، أفرزت في حياة المسلم طريقة حياة، ومنهج حركة، علاوة على أنها دين يحمل عقيدة تصورية مبناها على وحدة الوجود، وطريقة عبـادة، فيها من بـدع الخلـوة والجـوع والسّـهر، وإنّ كثـيراً من الفضلاء تأثّروا بالمنهج الصّوفي في التّغيـير والحركـة، ولعـلّ أوضح عبـارة أطلقت في هذا الزّمان عبّـرت عن هـذا المنهج الصّـوفيّ هي الكلمة الّـتي صارت شعاراً لبعض التّجمعات والتّنظيمـات الإسـلامية، هـذه العبـارة هي: "أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم، تقم لكم على أرضكم". وكذلك مثل هذه الدعوة أصحاب دعوة التصـفية والتربيـة، بـالمفهوم التّربـوي الّـذي يطرحه

أتباع هذه الشّعارات، وقد استساغ بعضـهم أن يسـمّي بعض الجماعـات أو الشّخصيات بأنّه سلفيّ العقيدة، إخـوانيّ الطريقـة، وهو لفظ شـاع وانتشر للدّلالة على بعضهم بأنّه لم يتلبّس بالسّـلفية الشّـاملة، فإنّنا نسـتطيع بكـلّ جـرأة أن نسـمي أصـحاب هـذا الشّـعار: "أقيمـوا... تقم..." وهم أصـحاب التّغيير عن طريق التصفية والتّربية أنّهم: سلفيّة العقيدة، صوفيّة المنهج.

هـذا مع تنبيهنا الضّـروري على أنّ هـذه الثّنائية المتناقضة لا وجـود لها على أرض الواقـــع، إذ لا يمكن للرّجل أن يكـــون ســـلفيّاً في عقيدته كما يزعمـون وإخوانيّا في طريقته ومنهجـه، كما أنّه لا يمكن كـذلك أن يكـون سلفياً في عقيدته وصوفيّا في طريقته ومنهجه، والسبب الّذي يدعو هـؤلاء القوم إلى هذا التقسيم الخرافيّ، هو أنهم لم يفهموا من السّلفية إلا شـيئاً جزئياً في البنـاء الشّـامل للمنهج السّـلفيّ، مثل ظنّهم أن السّـلفي هو من يعتقد بمنهج الأســـماء والصِّـــفات الإلهية على طريقة الأوائل من أئمّتنـــا، فظنُّهم هـذا يـدعوهم أن يقولـوا عن فلان أنّه سـلفيّ في عقيدته (عقيـدة الأسـماء والصَّـفات) وإخـوانيّ الطّريقة والمنهج، مع أن السّـلفيّ لم يكن يوماً من الأيام شـعاره الّـذي يتميّز به عن غـيره موضـوع عقيـدة الأسـماء والصّفات فقط، بل السّلفي هو ذلك الشّخص الّذي يحمل المنهج الشّـامل في عقيـدة التّوحيد بشـقّيها: توحيد الشّـرع وتوحيد القـدر، ويحمل المنهج الشّـامل في توحيد الإتّبـاع، كما بسط هـذا في مـواطن عديـدة من كلام الأئمة الهداة كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغيره. لكن لا بأس من اسـتعمال طريقة هـؤلاء المحرّفة في هـذا التّقسـيم الثّنـائي: سـلفيّ العقيـدة، صـوفي المنهج، حين لا يكـون أمامنا إلا أن نسـلك الصّـعب من الأفكار مع هذا الغثاء الذي يملأ الفضاء ممّن تغرّهم الشّعارات، وتستهويهم لعبة الألفاظ والعبارات.

صوفيّة أقيمـوا دولة الإسـلام في قلـوبكم تقم لكم على أرضكم:

الصّـــوفيّة في تاريخها مع المســـلمين بنت نفســـها على بعض الأركـــان المنحرفة من العقائد الزّائغة التي انتسبت للإسلام زوراً وبهتاناً، وأهمّ هـذه الأركـان المنحرفة الّـتي اسـتغلّتها الصّـوفية عقيـدة الإرجـاء، وهي مناقضة لتوحيد الشّرع، وعقيدة الجـبر وهي مناقضة لتوحيد القـدر، وخلاصة عقيـدة الإرجــاء المنحرفة أنّها تقــدِّم إسـلاماً بلا تكـاليف، وتجعل منـاط التّكليف الإيمانيّ تصوّر القلب واعتقاده، وأمّا أعمال الجـوارح فليست إلا مظهـراً لا قيمة له في عالم الحقائق، فهي عقيدة تـدفع صـاحبها دومـاً إلى الانتكاسة نحو الدّاخل (القلب) دون الاهتمـام بحركة الجـوارح، ولمّا كـان لابد من أن تقدّم هذه العقيـدة تفسـيراً لحركة الحيـاة وما نـراه من الارتبـاط السـنني الظاهر فإنها لجأت إلى عقيـدة الجـبر، وهي تفسـير حركة الحيـاة تفسـيرا غيبيّاً خرافيّاً لا وجود له في الحقيقة، وتجعل وقوع الأقدار مربوطاً بالباطل الإرجائي، ولا قيمة للظاهر من أعمال الجوارح، وقد علم المسلم المبتـدئ أن حركة القلوب ليست هي المؤثّر في حركة الحياة، بل المـؤثّر هو حركة الجوارح، مع علمه الأكيد أن حركة الجوارح لا تقع إلا بحركة القلب (إرادات الباطن)، وحين نفسّر هذه الكلمات المثال نقول:

إذا أراد الإنسان - أيّ إنسان - أن يبني بيتاً، فإن البيت لا يُبنى إلاّ بحركة الجوارح، بكلّ ما يطلب هذا البيت من أركـان وشـروط وتحسـينات، مع أن هـذا الإنسـان لا يمكن أن يبـني الـبيت إلا إذا أراد ذلـك، والإرادة هي حركة القلب، لكن لا يصح أن يقـول قائـل: إن الّـذي يبـني الـبيت هي الإرادة، بل الصّــحيح أن الإرادة هي الــتي تنشئ العمــل، الــذي هو حركة الجـــوارح وبالعمل يُبـــنى الـــبيت، وكلّها من حركة الإنســـان: من إرادة قلبية وعمل الجـوارح، فالإنسـان يريـدها في قلبـه، ويعملها بجوارحـه، وليس هو مكلّف بإرادة القلب ليقوم غيره بعمل الجوارح.

ولنعد الآن إلى العبارة المصيبة: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم.

هــذا الشِّــقّ من العبــارة يــبيّن لنا أن المكلّف بإقامة دولة الإســلام هو القلب (الانتكــاس نحو الــداخل)، مع أن الــواجب أن نقيم دولة الإســلام بجوارحنا، أي عن طريق حركة الجوارح الّتي تؤثّر في حركة الحيـاة، أي أن نقيمها في الخارج، وكان لنا أن نحسن الظنّ بهذه العبارة البدعيّة الضّــالّة، لو لم يأت الشِّقّ الثّاني جازمـاً لنا أن لا نحمل معناها إلا على هـذا المعـنى البــدعيّ الضّــال، فلو قــال القائـل: أقيمـوا الدولة في قلـوبكم (بـإرادتكم الجازمة) لتقيموها (بجوارحكم العاملة) في أرضكم، لقلنا له صــدقت، ولما عَدَت أن تكون هذه الكلمة مفسّرة لحركة الحياة القدرية، ولن تكون بحال من الأحوال شعاراً لمنهج شرعه صاحبه لينصح به أتباعه بسلوكه واتِّباعه.

لكن الشق الثـاني حـدد لنا المـراد بما تقـدم من الفهم المنحـرف، لأنّه قــال: تقُم على أرضــكم. ولو ســألناه من ســيقيمها لنا على الأرض؟ فلن يكون الجواب أبداً نحن، لأننا نحن مكلّفون فقط بأن نّقيمها في قلوبنــا، بل الجــواب المجــزوم بقوله هــو: اللــه. وهـذا الجــواب مع ضـلاله الشّــرعي ومخالفته لأمر الله، إلا أنه للأسف يسـتهوي بعض النّـاس حين يظنّ أن في ذلك تعظيما لشأن الله تعالى، وما درى أنّه اسـتخفاف بتوحيد الله سـبحانه وتعـالى، وهو جــواب جــبريّ ينـاقض توحيد القــدر وأوصل إليها كما تقـدّم: الضـلال في توحيد الشّــرع حين جعل حركة الجــوارح ليست هي المطلوبة في الشّــريعة. بل المكلّف بـذلك هو القلب وهو قـول مـذهب أهل الإرجـاء الضّال.. فالعبارة كما هي عند أصـحابها: أقيمـوا دولة الإسـلام في قلـوبكم (إرجاء بدعي) تقم لكم على أرضكم (جبر بدعيّ).

والآن أين هذا من دين الصّوفية؟.

شعار الصّوفية الذي يسعى الصّـوفي الملـتزم لتحقيقـه، هو خروجه من إنسانيته، بتحرره من الإرادة، ومن أهم الشّعارات لديهم: أريد أن لا أريــد.. وعامّة مجاهداتهم الباطلة تسعى إلى هذا المقـام، وهو تحـرره من الطّبـاع الإنسيّة، وهي الّـتي يحلو لهم، ولبعض من تـأثّر بهم أن يسـمّيها بالبهيميـة: ومن أمثلتها: حبّ النّساء، شهوة التّملّك والاقتناء، حاجة المأكل والمشــرب والملبس، فطرة الاجتماع والمدنيّة والعمران، وهي أمور بشــرية فطرية لا يمكن للإنسان أن ينخلع منها، ولا أن تذهب عنه، لكن سعي الصوفيّ الدائم إلى التّحــرر منها أوصـله إلى الجنـون، وهو الّـذي لاحظه الإمـام الشّـافعي قديماً فيهم حين قال: لم يتصوّف رجل عاقل قط واتت عليه صــلاة العصر إلاّ وهو مجنون، فالصّوفي يسعى إلى تحرره من الإرادة البشرية فيه، ولما دخلت الصّوفية إلى الإسلام حـاولت أن تجد لها الـدّليل الإسـلامي لبـدعتها هذه، لتستخدمه في نشر أفكارها وشـعارها، فكـان مـذهب الجـبر هو خـير

معين على ذلك، وخاصة حين صار الجبريّة، وهم الأشاعرة، أئمّة المسلمين في عصور التّخلّف والانحطاط، والأشاعرة يقولـون بمـذهب الكسـب، وهو يعني احترام وجـود إرادة قلبية للإنسـان لا تـأثير لها ولا قيمة لوجودهـا، أي إرادة غير مؤثّرة.

صوفية دعاة التّصفية والتّربية:

دعاة التّصفية والتّربيـة، صـوفية المنهج والطّريقـة، وللطّرافة فـإن هـذا السّلفيّ الصّوفي سلفي مزعوم يلتقي مع الصّوفي في نقـاط عمل كثـيرة تجمع بين منهجيهما، ومن هذه النّقاط:

1 - الصّــوفيّ شــعاره: السّياسة تياسة (نســبة للتّيس وهو لفظ يطلق للدّلالة على الغبــاء)، والسّــلفي المزعــوم شــعاره: من السّياسة تــرك السّياسة (قالها السّلفي في بعض أشرطته)، فكلاهما يحـرّم السّياسة على أتباعه، ويجعلها رجسا من عمل الشّيطان.

2 - الصّوفيّ شعاره: كلامنا إمّا فوق السّـماء، وإما تحت الأرض، ويعـني بها أنّ حديث الصوفي لا ينبغي أن يكون إلاّ في أمور الغيب (فوق السّماء: كالملائكة والعرش) وتحت الأرض (القبور والأمـوات)، وهو يـدل على أنّه لا ينبغي للصّوفي أن يتحدّث في شـؤون الأحيـاء لأنّها تشـتّت الهمّـة، وتفـرّق القلب، وتحبّب الحيـاة الـدُّنيا، والسّـلفي المزعـوم شـعاره ودينه محاربة الأموات من أصحاب القبور، وأتباع البدع المنسيّة الغائبة.

3 - شعار السّلفي المزعـوم المعاصـر: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله (قالها محمد شـــقرة، وهو ســـلفي مزعـــوم في كتابه "هي السّـــلفية")، والصوفي هو الّـذي نشر في أمّتنا مقولـة: قيصر ظـلّ الله في الأرض، من أهان سلطان الله أهانه الله.

التّصوّر الصّحيح لمفهوم التّصفية والتّربية عند أهله وأصحابه،في حقيقته صـورة جديـدة للصّـوفية في مفهومها للتّربيـة، وقبل أن نسـتعرض هـذا المفهوم الخـاطئ، علينا أن نتكلّم عن مفهـوم التّربية في الطّـرح السـننيّ المهتدي، كما هو مفهوم من الكتاب والسنّة، ثمّ بعد ذلك نرى قــرب الفهم الجديد لهذا المفهوم السننيّ المهتدي. التّربية في الكتاب والسنّة:

قـال تعـالى: {هو الـذي بعث في الأمّـيين رسـولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتـاب والحكمة وإن كـانوا من قبل لفي ضـلال مـبين} الجمعة. فهـذه الآيـات ومثلها الّـتي في البقـرة (129) وآل عمـران (164)، تدلّ على أن عنوان البعثة النّبوية تحقيق التّزكية في نفوس أتباع الشّــريعة المهديّة، والتزكية هي التطهير، وهي البراءة من النّقائص واجتناب الرّذائل، ومجمل شريعة محمد مجموعة في الآية السّابقة وهي:

1 - تلاوة الحقّ على النّاس/ البلاغ.

2 - التّزكية / التطهير / التربية.

3 - تعليم الكتاب والسنّة / الفقه.

وقد علم الطالب المبتدئ في ديننا الحقّ أن الإسلام هو استماع الحــقّ، ومعرفته والعمل به، أي: استماع- علم- عمـل. وهي نفسـها المـذكورة في الآية تلاوة وتعليم وعمل. وقيام العلم في الإنسـان دون العمل مـذموم في الكتاب والسّنة، كذلك قيام العمل دون العلم مذموم في الكتــاب والســنّة، وأدلة ذلك مبسوطة في كتب العلم.

فما هي التّزكية إذاً؟.
إنّها ممارسة الأمر.
ومعنى ذلك أن المتبع لهدي الإسـلام هو مَن تـربّى وتـزكّى بامتثاله لأمر الله تعــــالى، ومثاله أنّ من أراد تربية نفسه وتزكيتها فعليه أن يطبق أمر الله تعالى، ومعلوم أن كلّ أمر له أثر تربوي خاصّ به، فللصّـلاة أثر تربـويّ لا يحدثه الصّيام، كما للصّيام أثر تربوي لا تحدثه الصّلاة، وللزّكاة أثر تربويّ لا يحدثه الصيام ولا الصّلاة، وهكذا.
فالتّربية تقع من الإنسان حين يمتثل أمر الله تعالى ويطبّقه في نفسه.

ما هو المفهوم البدعيّ للتّربية؟

التّربية في أذهان بعضهم مرحلة تسبق تطبيق الأمر. فالمرء يحتـاج إلى فترة سابقة حتّى يصل إلى مرحلة ما (أختلف عليها) فيصبح بعد ذلك مربّياً ليستحقّ بعد ذلك الدّخول في الأمر الإلهي وتطبيقه.
وسئل بعض هـؤلاء القـوم عن الدّرجة الـتي يمكن لنا أن نسـمّي عنـدها المسلم: مربّياً؟. فأجاب: لقد شغلني هذا السؤال كثيراً، وتسـاءلت مـرارا: ما هي الحالة الّتي ينبغي أن نسعى إليها ونتوقّف عندها حتّى نَشْرع بالجهاد القتاليّ، فهُديت إليه. قال هذا السّلفي المزعـوم (وهو "عـدنان عرعـور"): هو أن نصل إلى درجة ذلك الصّـحابيّ الّـذي قـدم زوجته للآخر عن طيب نفس.ا.هـ. وهو يشير إلى هذه الحادثة المـذكورة في صـحيح البخـاريّ بين المهاجر والأنصاري رضي الله عنهما !!. فهؤلاء كما ترون يطرحـون التّربية كمرحلة تسـبق تطـبيق الأمر الإلهي، والحـقّ الـذي قـدّمناه؛ أن التّربية هي تطبيق الأمر الإلهيّ نفسه.
ونلاحظ على هذه الطريقة من التّفكير النّقاط التّالية:
1 - أن هـذا الخطـاب المتقـدّم يقـرّ به على الإجمـال أصـحاب التّربية المعاصـــرة، فـــإنّهم يقولـــون إنّ مرحلة التّربية تتمّ عن طريق الأعمـــال الصّالحة من صلاة وصوم وذكر وقيـام وأعمـال صـالحة أخـرى، لكنّهم حين يكـون الأمر متعلّق بالجهـاد من اجل إقامة الحق الإلهيّ في الأرض، فـإنّهم ينتكسون ويقولون إن على المسلمين أن يتربوا قبل أن يجاهدوا، والسّؤال الموجّه إليهم: لو قال لكم قائل: على المسلمين أن يتربّوا قبل أن يصــلّوا، أو عليهم أن يتربّوا قبل أن يصوموا، فماذا سيكون الجواب ؟ قطعا سيقول السّامع: إنّ هذا الكلام يهرف به صاحبه ولا يعقل ما يقول، لأنّ الصّـلاة هي نفسها تربيـة، وكـذلك الصّـيام، وكـذلك الزّكـاة، وجميع الأعمـال الصّـالحة، فلماذا يختلف الأمر حين يكون الحديث عن الجهاد؟.
أليس الجهاد أعظم مسالك التّربية؟.
وهل الجهاد إلا مرحلة من مراحل إعداد المرء المـؤمن لـدخول الجنـان يوم لقاء الله تعالى؟.
أليس في الجهاد فتنة للنّفوس لتتخلّص من حبّ الدّنيا ومن الأنانيّة؟.
أليس في الجهـاد تحصـيل لأعظم درجـات التّوكّل واليقين على موعـود الله تعالى؟.
وعلى هــذا فالتّربية بتطــبيق الأمر الإلهي بالجهــاد وليست هي مرحلة تسبق الجهاد في سبيل الله تعالى.

وقد يقتنص بعضـهم حادثة أو حـوادث من ممارسـات المجاهـدين غـير المنضبطة ليتّخذها ذريعة إلى قوله، فإنّه قد يقع بعض المجاهدين في بعض الأخطاء الشّرعية، وهذا أمر يقع في كلّ التّجمّعـات (حـتى التّجمّع من أجل صلاة الجماعة)، فيسارع هؤلاء إلى تضخيم الحـدث، وتسـويقه بين النّـاس، وإشاعته عن المجاهدين حتّى ينفر النّـاس منهم، وليـدلّلوا بهـذا الحـدث أو الحوادث على صـواب رأيهم أن الأمّة لم تبلغ بعـدُ المرحلة الّـتي ينبغي أن تجاهد عندها.

والجواب على هذه التّصوّرات الّتي يقع بها هؤلاء من وجوه، أهمّها:

أولاً: من المعلوم في علوم أهل السنّة أنه قد يجمع الرّجل الواحد إيماناً وضلالاً، صلاحاً وفساداً في آن واحد، لأنّ الإيمـان عنـدنا يتجـزّأ، وعلى هـذا فقد يجتمع في الرّجل المسـلم المجاهد بعض الصّـفات المذمومـة، وهـذا واقع في كلّ أطوار البشرية وفي كلّ تجمّعاتها. فما هو السّـبيل الحـقّ في معالجة هذه الحالة؟.

أهل الانحراف من أصحاب مفهوم التّربية العصريّة يطـرحون الأسـلوب التّـالي: ينبغي على الشّـخص أن يـترك الجهـاد (الخـير) حـتى يتخلّص من الشّر.

وعلى قاعـدتهم هـذه، فـإنّ من جمع ضـلالاً وصـلاحاً فـالواجب عليه أن يترك الصّلاح فيه حتى يذهب الباطل فيـه؟!!، وهو قـول يـردّه العاقل حين تصوّره له.

وأمّا الحكم الشّـرعي في هـذه الواقعـة: فهو تثـبيت الحـقّ لديه ودعمه وتجذيره، مع محاولة تقويمه وإرشاده بالإقلاع عن الباطل الذي لديه.

ثانياً: لو أردنا أن نقتنص السيّئات في هذه التّجمعات التي تـزعم التّربية المعاصـرة أو نعـدّه عليهم لملأت الكـراريس والـدّفاتر، وحينئـذٍ فسـيّئاتهم تكون مضاعفة لأنّهم يزعمون التّربية بخلاف غيرهم.

ثالثـاً: قـال الرسـول صـلى الله عليه وسـلم: ((**كـلّ ابن آدم خطّـاء وخير الخطّائين التوّابون**))، وعصمة الأفـراد والتجمّعـات من الأخطـاء لن تكون في هذه الدّنيا.

التّربية ليست مرحلة زمنيّة ثمّ تنتهي، بل هي تزكية للنّفس حتّى الممات، ولا تتوقّف عند حدٍّ معيّن كما هي في الدّين الصّوفي، فهؤلاء حين يتصوّرون إقامة الإسلام عن طريق تربية النّفس الـتي تسـبق هـذه الإقامة مخالفون لأبجديّات هذا الدّين العظيم.

أين هذا من دين الصّوفيّة؟.

قـال الصـوفي في تفسـير قوله تعـالى: {**واعبد ربّك حـتى يأتيك اليقين**}، قال: اليقين هو المعرفة وعلى هذا فإنّ الصّوفي يسمّى سـالكاً مادام لم يصل إلى درجة اليقين، وهي عنده تعني الوصول للحظة الكشف والجذبـة، كما هو عند السّـلفي المزعـوم: الوصـول إلى درجة أن يقـدّم المسـلم زوجته لأخيه المسـلم، وحين يصـبح الصّـوفيّ واصـلاً فإنّه حينئـذً يكـون معرّضا للجـذبات الإلهية (وهي في الحقيقة شـيطانية)، بل وحينها تسقط عنه التّكاليف الإلهية، لأنّ الإنسـان أمُر بها حـتى يصل درجة اليقين، وأمّا بعدها فلا.

فالصّوفي لا بدّ أن يسـلك حتّى يصـل، والسّـلفي المزعـوم يـتربّى حتّى يصل، ونحن على العتبات ننتظر.

بعضهم كالدّكتور **صلاح الصّاوي** طوّر مفهوم التّربية الفاسد هذا فطبّقه على جانب التّحضير لحصول الغلبة والظّفر، فقال إنّه لا يجوز للجماعة المسلمة أن تشرع بقتال الطّوائف الحاكمة في بلادنا حتى تستكمل أدوات الغلبة والظّفر، وذهب بعضهم بعيدا حين قال: علينا أن لا نجاهد حتّى نجهّز كلّ شيء حتّى نصل إلى درجة تحضير الوزراء بحقائبهم على أبواب الوزارات (وينسب هذا القول **لمحمد سرور زين العابدين** وقد سُمِعت قريبا من هذه العبارات من بعض القريبين منه).

وجزماً هؤلاء يفكّرون بعقليّة أهل القمر، وليس بعقلية النّاس والبشر، وسيؤدي بهم قولهم هذا (الممتنع وجوده قدراً) إلى اليأس من العمل الجهادي وحصوله، وبالتّالي إلى شتم العنب (كما حصل للثّعلب حين عجز عن الوصول إلى العنب لعلوّه عن قدرته فذهب يشتمه).

أهل الرأي - الأرآئيون

على الرّغم من أنّ هذا الوصف يطلق بتوسّع في كثير من الكتب على كل من اشتغل بالفقه، وأثر عنه الفتوى (حتّى أن ابن قتيبة في كتابه المعارف ذكر الإمام مالك رحمه الله تعالى من أهل الرّأي)، إلا أننا نقصد بأهل الرّأي هنا: **من آثر عقله على نصّ رسول الله، فاستحسن قولاً أو مذهباً والنصّ بين يديه على خلافه**.

اعلم أخي في الله أن الكتاب والسنّة (بنصوصهما) تستوعب الزّمان والمكان، فلا يوجد واقعة أو حادثة إلاّ وفي النّصوص المعصومة ما يكشف لك أمرها بعينها وذاتها، فإنّ الله تعالى لم يبق للنّاس شيئا يحتاجونه إلا وكشفه لهم، وبيّن لهم أمره، علمه من علمه، وجهله من جهله. فالكتاب والسنّة هما دليلا الحقّ دون سواهما، وقد يظنّ البعض أن هذا القول نفي للإجماع والقياس، وليس الأمر كذلك، فكيف ذلك؟.

أمّا بالنّسبة للإجماع: فإن القول الحقيق بالقبول أنّ الإجماع يقسم إلى قسمين:

أ - إجماع قطعي: وهو ما يسمّى بالمعلوم من الدّين بالضرورة، وقد ضرب الإمام الشافعي في رسالته الأمثلة عليه، وهذا لا يجوز لمسلم مخالفته، وهو الّذي قيل فيه: مخالفته كفر، وهذا إجماع لا يقع إلاّ بنص، إذ لا يقع هذا الإجماع إلا وله أدلّة في الكتاب والسنّة، إلاّ ما ذكره الإمام الشّافعي عن مسألة القراض (المضاربة) والصّحيح أنّها داخلة في عموم النّصوص المحكمة المبيحة أمر المشاركة والتّجارة.

ب- إجماع ظنّي: وهو قول الفقيه: لا أعلم فيه خلافاً، وهو إجماع استقرائيّ، وقد رفض الإمام أحمد بن حنبل إطلاق اسم الإجماع عليه وهو المقصود بقوله: من ادّعى الإجماع فقد كذب، لعلّ الناس اختلفوا. ا. هـ.

وهذا إجماع متوهّم، وأغلبه منقوض، إن لم يكن كلّه. بل قد يكون المشهور خلافه، إذن فأمر الإجماع الحقيقي لا يقوم إلاّ على دليل، فعاد الأمر إلى الأصل.

أمّا بالنّسبة للقياس: فالمشتهر عند النّاس أمور عدّة خاطئة، وهي:

أولاً: قولهم إن القياس دليل شرعي، وهذا خطأ، والصّحيح أنّ القياس المصيب يكشف لك الحكم الشّرعي الّذي غاب (بنصه). والنّصّ يغيب عن الفقيه لسببين:

1 - لعدم معرفته له ابتداءً، كما غاب عن كثير من الصّحابة بعض الأحكام الشّرعية بنصوصها، وأمثلة ذلك كثيرة.

2 - لعدم معرفة المجتهد دلالة النّص، مع أنّه بين يديه، وذلك لسببين: إمّا لأمور تعود إلى نفس النّص، إذ أنّ دلالة النّصوص الشّرعية على الأحكام ليست على مرتبة واحدة، بل مراتب متعددة، أو لسبب يعود إلى نفس المجتهد، ككلال ذهنه، أو ضعفه في البحث والتّنقيب، لضعف بعض أدوات الاجتهاد لديه.

ثانياً: أن القياس يتم به الإلزام، وهذا خطأ، والصّحيح أنّه لا إلزام بالقياس.

إذا تبيّن لك هذا علمت أنّ القياس لا يذهب إليه لعدم وجود النّصّ في الحقيقة، ولكن لعدم معرفة المجتهد لهذا الدّليل (النّص).

وعلى هذا فإنّ القائل من أهل الأصول: إنّ الشّريعة - بنصوصها - لا تفي عشر الحوادث والوقائع هو قول واهم مخطئ، دفعه له عدم توسّعه في الإطلاع على كتب الحديث، ومعرفتها معرفة صحيحة.

لماذا يُردُّ النّص من قبل (الآرائي)؟:

أسباب الإعراض عن النّص من قبل المفكّر أو الفقيه عديدة (ونحن هنا نتكلّم عن الإسلاميين) أهمها:

1 - ظنّ المفكّر أو الفقيه أنّ النّص يخالف العقل، أو بعبارة بعض الفقهاء: هذا نصّ على خلاف القياس، وبعبارة أهل الكلام: تعارض العقل مع النّقل.

وقائلوا هذه العبارات يقعون في هذه الأخطاء الفاحشة لعدّة أسباب منها:

أن هؤلاء المفكّرين قد يغلب على ظنّهم صواب بعض القواعد العقلية الوافدة، ويجعلونها يقينيّة، فيلتفتون إلى النّصّ الشّرعي فيرونه مخالفاً، فينشأ لديهم هذا التصوّر الفاسد.

ومن أسباب هذه الأخطاء كذلك: عدم قدرة هؤلاء المفكّرين على التّمييز بين النّصّ الثابت والنّص الضّعيف، فيصبّون جام غضبهم على النّص الضعيف، وبه يتّهمون النّص بمخالفة العقل أو القياس.

2 - ظنّ المفكّر أو الفقيه تحقيق المصلحة بعيداً عن النّص:

وهؤلاء لمّا رأوا مجموع النّصوص داعية إلى اعتبار المقاصد والمآلات، ظنّوا أن تحقيق المآلات هي إصدار الحكم الشّرعي، ونكتفي هنا بإيراد المقصود الصحيح لقوله صلى الله عليه وسلم: ((لا ضرر ولا ضرار)).

اعلم أخي في الله أنّه لا يوجد حكم شرعي ثبت في الكتاب والسّنة إلا وهو بذاته يحقّق المصلحة للعباد في الحال والمآل، ثم اعلم أن المصالح تتعارض فلا بدّ من تقديم الأقوى على الأضعف، ولهذا لا يمكن معرفته عند تفاوت العقول إلاّ بالنّص، ثمّ اعلم أنّ المصلحة لا يمكن تحقّق حدوثها ومآلها إلاّ بالوعد المحمول داخل النّص.

هذه الأمور وغيرها الكثير ترشدك: أنّ العصمـة للنّص وهي القادرة على معرفة الضّرر والضّرار، والعقل تتفـاوت مراتبه وتقديراته فالإحالة عليه إحالة على غير ثابت.

3 - ظنّ المفكّر أو الفقيه عـــدم كفاية الثّبـــوت في ذات النّص كقـــول بعضهم: حديث الآحـاد لا يفيد العلم، وهـذا قـول أهل الكلام. والتّفـــريق بين القطعيّ والظّنّي على هـذه الصّـور المعروضة حادثة لا تعـرف عند الأوائل، وهي من إفرازات أهل الرّأي والكلام.

هذه الأسباب الظّاهرة (العقلية) التي يطرحها صاحب الـرّأي لـردّ النصّ المعصوم كافية عند أهل السـنّة والجماعة لاعتبـار الرّجل متـأولاً مع أنّه مخطئ ولا شكّ.

لكن ماذا عن الأمور الباطنيـة؟ الـتي تـدفع المفكّر أو الفقيه لـردّ النّص المعصوم؟.

هناك أسباب نفسية عدّة تدفع المفكّر لهذا المسلك البدعي أهمّها:

أ - عدم الخلوص من أهواء النّفوس، لأنّ العبوديّة لله تعالى تعني تجـرّد العبد من جميع أهوائـه، وأعظم الأهـواء في هـذا البـاب هو أن يعتـبر الإنسـان أنّ له قـولاً ورأيـاً، وأنّه صـاحب شخصـيّة معتـبرة، ينسب لها القول، ويشار إليها بالاعتبار والتقدير.

ب - محاولة تليين الإسلام وليّه ليوافق رغبة الإنسان وهــواه، أو ليوافق الواقع، وهذا نراه في أغلب آرائيّة زماننا، فإنّهم لهزيمتهم النّفسيّة أمـام اسـتعلاء الكفر واسـتكباره في هـذا الزّمـان يعمـدون إلى ليّ أعنـاق النّصـوص لتوافق رغبـات النّـاس وأهـوائهم، والشّـيخ المصـري محمّد الغـزالي خـير دليل على ذلـك، وخاصّـة كتابه "السـنّة النّبويّة بين أهل الفقه وأهل الحديث"، فقد رأينا هذا الأزهـري يشـرح لقرّائه عجـزه عن تقديم الحكم الشّرعي المستمدّ من قول النّبيّ صـلى الله عليه وسـلم: ((لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة)).

فهو يقـول: كيف نسـتطيع أن نقـدّم الإسـلام ومنه هـذا الحـديث لأهل بريطانيا مثلاً وقد اســتطاعوا أن يحقّقـــوا بعض مطـــامحهم، برئاسة "مارجريت تاتشر" ؟!.

فالنّتيجة عند هـذا الشّـيخ وأمثاله هي أن نضع أيـدينا على هـذا الحـديث خجلاً منه (كما فعلت يهود بآيات الرّجم مع رسـول الله صـلى الله عليه وسلم) وذلك من أجل أصحاب العيون الزرق من الإنجليز وغيرهم.

إن هـذه الانهزامية في تقـديم الإسـلام الحـقّ كما أراده الله لنـا، سـبب رئيسي تـدفع هـؤلاء القـوم إلى الإعـراض عن بعض النّصـوص النّبويـة، ودفع النّصوص له طرق كثيرة عند هؤلاء الآرائيين.

4 - عظم التكـاليف الشّـرعيّة، وكونها فتنة للنّـاس، وعـدم تحمل المـرء على ترك عوائده، فرغباته النّفسـية تدفعه إلى البحث عن المخـرج من هذه التّكاليف.

ومن أمثلته تلك الصّورة المعروضة للجهاد من أجل تحقيق الحقّ الإلهيّ في الأرض، وما فيه من سـوء للنّفـوس المريضـة، وما فيه من امتحـان وفتنة للنّـاس، فلو عـرض لهـذه النّفس مخـرج آخر مع توهّمه أنّ فيه تحقيقاً لرغبات النّفس وأهوائها فإنّها تطير إلى هذا البديل الرّغيد.

اعلم أنّ هناك التفافاً يحصل من هؤلاء الآرائيين حـول كثـير من حقـائق أهل العلم المتقدّمين، ومن أهمّ هذه الحقائق الـتي يتمّ الالتفـاف حولها في هذا الزّمان الحقيقة التّالية:

من المعلـوم أن إصدار حكم شـرعي ما لواقعة مـا، لا ينبغي أن يتمّ إلاّ باستكمال شروط وأدوات علمية تؤهل المرء لخوض مثل هذا المعترك، وهـذه الشّـروط الـتي اصطلح سـلفنا الصـالح على تسـميتها: بشـروط الاجتهاد، ومع أنّ عصور الانحطـاط المتـأخّرة قد أفـرزت بعض الأقـوال الهزيلة في موضـوع الاجتهـاد، مثل قـول بعض أهل العلم: بـإغلاق بـاب الاجتهاد، وأنّه لا يجوز بعد القرن الرّابع لأحدٍ أن يقول قولاً من اجتهـاده، بل لا بـدّ أن ينسب نفسه إلى إمـام سـابق، كـأن يقـول عن نفسه أنّه حنفيّ أو شافعيّ أو مالكي أو حنبليّ ومن أجل هذه البدعة المبيرة صار بعضهم يشـدد في شـروط الاجتهـاد، ويضع عوائق في طريق أهل العلم ليمنعهم من إطلاق قدراتهم لتحصيل الحكم الشّـرعيّ من مظانّـه، ولأن كلّ فعل يؤدي إلى فعل مضادٍّ يعاكسه، فإنّ النتيجة القدرية لهذا القـول الخاطئ هو ما حصل في بداية هذا القـرن، وذلك عنـدما انطلق النّـاس يبحثون في أنفسـهم عن سـبب انحطـاطهم وتـأخّرهم وهـزيمتهم أمـام أعدائهم، فكان ممّا اكتشفوه مبكّرا هذا الموضوع، فسارع النّاس بالنداء لتحرير العقل المسـلم من أغلال التخلّف - ومنها إغلاق بـاب الاجتهـاد - فتعالت الصّيحات في كلّ مكان تدعو إلى فتح هذا البـاب، والولـوج فيه بقـوّة، وبـدأ النّـاس يمارسـون اختيـار الأحكـام الشّـرعية بأنفسـهم من مصادرها، وحاول فريق آخر أن يحافظ على مكتسبات عصر الانحطـاط وذلك بأن يمنع هذا الحـادث الجديـد، تحت دعـوى أنّ اللامذهبية قنطـرة إلى اللادينيــة، لأنهم رأوا أنّ الـدّعوة إلى فتح بـاب الاجتهـاد قد وافقت زمن انفلات النّاس من أحكام الشّـريعة، وانتشـار الإباحية الفكرية وهي التي تسمّى عند أئمّتنا القدماء بالزّندقة، وكذلك الإباحيّة السّـلوكية مثل دعوات تحرّر المرأة، وميوعة الشّباب وتحرّرهم من أحكام الشّريعة.

ولكنّ هذه المواقف المضـادّة من (المحـافظين) كـانت الأضـعف صـوتا ودليلاً ولم تفلح شـيئاً أمـام السّـيل الهـادر المنطلق من عقاله نحو الانفلات من التّقليد والمذهبيّة. ووجد بعض النّاس رغبـاتهم متحققة في هذه الدّعوة، فاسـتغلّوها بإخراجها عن طريقها الصّـحيح وأخـذوا بها إلى آفاق ومواقع كانت محرّمة حتّى في أزهى عصور الازدهـار والتحـرر من التقليد، فبدأوا يمارسون الاجتهاد على الثّوابت واليقينيّات المستقرّة في دين الله تعالى، وكلّ هذا تحت دعوى الاجتهاد.

هـؤلاء القـوم هم أئمّة أهل الضّـلال في هـذا العصـر، وهم يريـدون أن يقلبوا صورة هذا الدين من الصّورة التي اسـتقرّت عليها الشّـريعة، إلى صـورة أخـرى تلائم واقعهم، وهو واقع بـئيس ومنحط بلا شـكّ، بل واقع مهزوم ولا يفرز إلا آراء الهزيمة، ويحـاول بكـلّ جهـده إصـباغ الشّـرعيّة على هذه الهزيمة.

الفصل الثاني

الفقيه والسلطان والاجتهاد

"إن كان المـرء العـالم في كفـاف من العيش، من وجه مرضــي، فليحمد الله عز وجـــل، وليقنع بــه، وليعمل لـــدار القـرار، ولا يسـره الإكثـار من أحجـار وخـرق يتركها عما قـريب، أو تتركـه"
ابن حزم

المجتهد والمفكر:

من أجل اسـتتمام الأمر على صـورته الكاملة انطلق هـؤلاء المنهزمـون تحت شعارات عدة، وإلى مواقع عـدة لخدمة هـذا الانحـراف: من هـذه الشـــعارات الـــتي اســـتخدموها شـــعار (الفكر الإســـلامي) و(المفكر الإسلامي) هذا الشعار بدأ استخدامه كبـديل عن صـورة "المجتهـد" في اصطلاح أئمتنا.
مصطلح المجتهد يحمل في ذهن المسلم مجموعة من الشروط التي لا يقبل أن يتنازل عنها بسهولة، مع أننا نعترف أن كثيرا من هذه الشـروط ليست صحيحة، لكن هذه الصورة على العموم لا تسمح للمدعي أن يلج إلى هــذا المصــطلح ويتلبس به بســهولة، ومما اســتغله أصـحاب هــذا الشـــعار، أن الفقه الإســـلامي باعتبــاره مصــطلحا، صــار قاصــرا في موضـــوعه على مجموعة من الأبحـــاث لا يتعـــداها، مثل العبـــادات والمعاملات، وهكـذا فـإنهم اقتصـروا في اجتهـاداتهم على هـذه الأمـور، فالفقيه الإسلامي في هذا العصر هو الذي يتكلم في شئون فقه الصلاة، وفقه الصوم، وفقه الزكـاة، وفقه الحج، وأحكـام الـدماء والطهـارة وما جرى على هذا المنوال، وأما المفكر الإسـلامي فهو الـذي يبحث فيما لا يدخل في اختصـاص الفقيه الإسـلامي (حسب قسـمة عقلية الانحطـاط المتـأخرة). ومن هــذه الأمـور الـتي ولج فيها المفكر الإسـلامي بقـوة: مســائل السياسة الشــرعية، فهو يتكلم عن الديمقراطية في الإســلام، والاشـــتراكية في الإســـلام، والعدالة الاجتماعية في الإســـلام، ونظـــام الحكم في الإسلام...الخ هذه القائمة الطويلة، وهذا المفكر بهـذه اللعبة الغريبة سمح لنفسه أن يجتهد في أعظم مسـائل الـدين والفقـه، ولكن تحت دعـــوى أنه مفكر إســـلامي، وليس فقيها أو مجتهـــدا، مع أنه في الواقع فقيه ومجتهد (ولكن ليس كل مجتهد مصـيبا) وباسـتخدامه كلمة المفكر أسـقطت عنه الكثـير من المسـدلات والعوائق الـتي سـتقع لو أطلق على نفسه وصف الفقيه أو المجتهـد، وحـتى تتضح لك الصــورة أكثر خذ هذا المثال: الشيخ المجتهد الفقيه راشد الغنوشــي، (أظن أنك لن تستسيغ هذه الأوصاف لهـذا الرجـل، لكنها الحقيقة على كل حـال)، ويقابله في الصورة الأخرى: المفكر الإسلامي عبد العزيز بن بــاز (أظن أنك لن تستسيغ هذا الوصف كذلك، لكنها الحقيقة على كل حال).

والسؤال: لماذا لم تستسغ هذه الأوصـاف؟، رما هو الشـيء الاجتهـادي الذي يخوض فيه الأول ومحرم على الآخـر؟. وما هو الشـيء الاجتهـادي الذي يخوض فيه الثاني ومحرم على الأول؟.

راشد الغنوشي: فقيه ومجتهد ولا شك، وهو يصول ويجـول في أكـثر مسائل الدين والعبادات تعقيدا، (ويغوص) حتى أذنيه في مسـائل فقهية كان كبار الأئمة يتورعون عن الاقتراب منها. ولكن كيف اسـتطاع تمرير أفكـاره؟ وكيف اسـتطاع إسـقاط المسـائلة عنـه؟. إنه برفعه شـعار: المفكر الإسـلامي. فهو لا يتكلم في مسـائل الصـلاة والصـوم والزكـاة، ولكنه يتكلم في الفكر الإسلامي.

إن رفع شعار (الفكر الإسلامي) على هذه الصـورة، وهـذا المنـوال لعبة ضلالية - قصد أصحابها أو لم يقصـدوا - وهم به سـمحوا لهـذا الـدين أن يصبح ألعوبة بيد الصبية، يلغون فيه كما يشاءون، وإلا فمن الـذي سـمح **لفهمي هويدي** أن يتكلم في عظائم الشريعة، ويقول فيها ما يحلو له ويسقط أحكام أهل الذمة من كتب الفقه؟.

ومن الذي سمح **لمحمد عمارة** أن يتكلم في عقائد المسلمين فيصلح منها البالي كعقائد المعتزلة ويرمي في المزبلة الحق والصواب؟.

ومن الذي سمح **لحسن الترابي** أن يجـدد في أصـول الفقـه، ويجعل البرلمان الإسلامي صورة الإجماع التي لها الحق في نسخ الشريعة؟.

ومن الذي سمح **لجـودت سـعيد** أن يجعل مـذهب ابن آدم الأول يلغي دين محمد بن عبد الله صـلى الله عليه وسـلم، ثم يتجـرأ بعد ذلك بـأن يجعل الحكم القـدري (الواقع) هو الـذي يفسر النصـوص في وليس البيان العربي؟.

ومن الذي سمح لخـالص جلـبي أن يجعل مـذهب **غاندي** أحب وأسـلم من دين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

من الـذي سـمح لهـذا الغثـاء - من المفكـرين - أن يقـودوا الحركة الإسلامية ويصدروا الأحكام فيها.

أي فكر هذا؟. وما هي شروطه؟.

وما هي ضوابط الحكم عليه؟!.

أجيبونا يا أهل الرأي والفكر.

التحـــالف بين الفقيه (المتخلـــف) والمفكر (المتحرر):

لما بدأ الشباب المسلم يتساءل عن هذا الكم الهائل من المفكرين، وما هو السـلطان الـذي ملكـوه ليتكلمـوا في دين الله كما يشـاءون؟ وهل يحق لهؤلاء المفكرين أن يقودوا الحركة الإسلامية ويتهادوا بها بين خطر الحياة ودروبهـا؟ ولكن هـذه الأسـئلة وللأسف قد بـدأت بعد أن تشـرب الناس من الشـباب المسـلم أفكـار هـؤلاء القـوم، واصـطبغت عقليتهم بالصـبغة الـتي يتحـدث بها المفكـر، وهي صـيغ أقل ما يقـال عنها أنها لا تتحدث كما تتحـدث الشـخوص المهتدية في القـرآن الكـريم، حيث فقد هذا التيار عبارات الشرع المحكمة، وتغيرت موازين الحكم والقضاء في رحم هـذه العبـارات، فبـدل أن يتحـدث النـاس (الشـباب المسـلم) عن الجهاد، بدأوا يتكلمون عن الثـورة، والكفـاح السياسـي، وبـدل أن يلقـوا

على النـاس عبـارات: العبودية والعبـادة صـاروا يتحـدثون عن الـواجب الوطني، والحس القومي، والضـرورة الاجتماعيـة، وبـدل أن يسـتخدموا دوافع محبة الله، والخوف من الله، ورجاء الـدار الآخـرة، صـار الحـديث عن: مكتسـبات الحركـة، والأمن الاجتمـاعي، والأمن الغـذائي، ووحـدة التراب، القومي، وبدل أن يتحدثوا عن حق الله المفقود بتطبيق شـرعه وحــدوده صــار حــديثهم عن الحرية الاجتماعيــة، والعــدل الاجتمــاعي، والظلم، والدكتاتورية.

فهذه العبارات تبين فقدان الاقتداء بحركة الهـداة والـدعاة كما شـرحها القرآن الكريم.

اقـرأ هـذا النمـوذج: "إن الحركة الإسـلامية ليست حركة فئة معينة من الشــعب، إنها ضــمير الأمة المتحــرك وأعماقها الثــائرة، ومن ثم فهي ترفض مقولة الصراع الطبقي، وتعتر أن الإسلام، والإسلام وحـده قـادر على إزالة كل ألــوان المظــالم والاســتغلال داخل المجتمــع، ولكن في مجتمع لا يطبق الإسلام حقيقــة، تتولد الفــوارق الطبقية والحركة عندئذ تجد نفسها في صف الفقراء والمضطهدين كما كان النبي عليه الســلام يفعل إذ يرفض الأغنياء الجلـوس مع الفقـراء فينحـاز إلى الفقـراء بـأمر من الله {**واصــبر نفسك مع الــذين يــدعون ربهم بالغــداة والعشي يريــدون وجهه ولا تعد عينــاك عنهم تريد الحيــاة الدنيا**} ولقد استطاعت الحركة الإسلامية المعاصـرة أن تحـرر إلى حد ما الإســلام من الطبقة الحاكمــة". انتهت العبــارة عن كتــاب مقــالات لراشد الغنوشي التونسي، ومثلهـا: وما كـان للإمـام الخميـني أن تلتحم القوى الشعبية في إيران وتسلمه قيادتها وتجن حتى الموت... وما كـان له أن يطوي كل أحـزاب المعارضة ورجـال الـدين فيـدفعها مـرة أمامه ويجرها أخــرى لو لم تجسد حركته أمل الجمــاهير العريضة في التحــرر والعدالة والعــزة والاســتقلال، وكــذلك المــودودي فقد رسم للشــعب الباكستاني خطة الحرية والعزة والاستقلال، فاستجابت له الأمة.ا.هـ.

هـذا الخطـاب المصـاغ له مشـكاة لن تكـون أبـدا من مشـكاة القـرآن والسنة، حـتى الآيـات القرآنية الـتي يستشـهد بهـا، لا تعـود إلى المنـاط الذي سيقت من أجله، فالآية التي استشهد بها النموذج المتقدم لم تـرد أبـدا لبيـان انحيـاز النـبي صـلى الله عليه وسـلم إلى صف الفقـراء ضد الأغنياء، بل انحياز النبي صلى الله عليه وسلم لصف {**الـذين يـدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**}.

فتكرار هذا النوع من الخطاب أفقد العبـارات القرآنية والنبوية نضـارتها وحضورها في نفسية الشاب المسلم المعاصر، فأين عبـارات: الإيمـان، والتوحيــد، والكفــر، والــردة، والجهــاد، والشـيطان، والخـير، والشــر، والفسق، والذكر، والإنابة، والإخبـات، والحب، والـولاء، والـبراء، وغيرها من العبارات التي تحمل في داخلها المفاهيم الإسلامية كما تعامل معها السلف.

أصبح الشباب المسلم بعيدا كل البعد بسبب هؤلاء المفكرين (الآرائيين) عن هـدي الكتـاب والسـنة، وقد اكتشف بعضـهم فقـدان هـذا الخطـاب الآرائي أثره على قطـاع من الشـباب، إذ بـدأ الشـباب ينفلت من حركة المفكــرين المنحرفــة، وصــار يتوجه إلى ما يســمى بــالكتب الصــفراء،

وأسباب هذا الاكتشاف، وعوامل تنميته له جوانب كثيرة ليس هذا مجال ذكرهـا، لكـني أسـتطيع أن أقـول إن أثر دعـوة الشـيخ محمد بن عبد الوهـاب ثم كتب الشـهيد سـيد قطب كـان لها الأثر القـوي في هـذا الاكتشاف وإحياء الخطاب الشرعي الصحيح الملائم للحق القرآني.
هـذا الاكتشـاف والتوجه الجديد بـدأ يهز العـروش النخـرة من سـلطان الآرائيين فكان لابد من معالجة هذا التوجه بما يناسبه، فتوجهت بسـرعة حركات الرأي الضلالية إلى أصـحاب إلا العمـائم القديمـة، لتقـنين هـذه الأفكـار الـتي صـدرت من الآرائـيين في صـورة فقهيـة، تناسب التوجه الجديـد، فبـدا أصـحاب العمـائم (الفقهـاء) يفتشـون في بطـون الكتب الفقهية ليساندوا هؤلاء الآرائيين بأقوال الفقهاء القدماء:
المفكر ينفي حد الردة، يأتي الفقيه ليقول له إن حد الردة كـان سياسة وليس تشريعا دائما، وإن شئت فاقرأ كتاب "الفـروق" للإمـام القـرافي المالكي لـترى الفـرق بين فعل النـبي صـلى الله عليه وسـلم كمشـرع وفعله كقائد دولة وسياسي.
المفكر ينفي وجود أهل الذمـة، وإن وجـدت فهي تسـمية لا تبعة عليهـا، فأهل الذمة لهم الحق في تـولي السـلطات، والمسـلم يقتل بالكـافر، فيسارع الفقيه إلى أقوال الفقهاء لتنجده.
المفكر ينفي الجهــاد الهجــومي (جهــاد الطلب) فيســارع الفقيه إلى التدليل على رأي المفكر. وهكذا اكتشفنا بقدرة قـادر، أن ما يقوله هـذا الغثاء من المفكرين الآرائيين لم يكن بـدعا من القـول، ولكن هنـاك من أئمتنا من قال به، حتى أن من فقهائنا القـدماء من قـال: بجـواز الغنـاء، وجـواز تـولي المـرأة القضـاء والإمامـة، بل وأعظم من ذلـك، فلمـاذا العتب؟.
نعم لمـــاذا العتب؟ وجـــاز للعقلاء حينئذ أن يقولـــوا: إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب.
اقـرأ هـذا التحـالف: "ولقد راجت أنشـطة (الفكر الإسـلامي) في الآونة الأخيرة، رواجا كاد أن يحلها محل (العلـوم الإسـلامية)، تنبهت إلى هـذه المشكلة ووقفت عندها طويلا، عندما قال لي الأخ الأستاذ جودت سعيد ذات يــوم وكنا نتحــدث عن الجهــاد والعنف وحرية الفكــر. في تواضع وصراحة نـادرتين: إنـني مقتنع فكريا بما أقـول، ولكـني مفتقر إلى دعم قنـاعتي بالمؤيـدات الفقهية الـتي يجب الاعتمـاد عليهـا. إن هـذا الكلام بالإضــافة إلى ما يشع فيه من روح التواضع والصــدق مع اللــه، يلفت النظر إلى مشــكلة كــبرى في حياتنا الإســلامية اليــوم، هي باختصــار مشكلة إحلال الفكر الإسلامي محل العلم بحقائق الإسلام، والـتزود من أحكامنا الفقهيــة، ومنذ ذلك اليــوم أجمعت العــزم على إخــراج كتــاب يتضمن بيان حقيقة الجهاد الإسـلامي وأنواعـه، وأهدافه وضـوابطه، من خلال عرض الأحكام الفقهية المتفق عليها..." الخ. اهـ.
هـذه العبـارات الجميلة - وليس كل جميل نـافع - مع ما فيها من توزيع عبـارات المـدح الممجوجـة: بـروح التواضع والصـدق مع اللـه، تواضع وصراحة نادرتين، وكقوله عن جـودت سـعيد في مقـام آخر من الكتـاب أنه صـاحب: صـدق كبـير وتحـرق على الحـق،... عبـارات خزفية رقيقة يطلقها بـوق كبـير يتقن فن الصـخب اسـمه البـوطي كقولـه: "كــبرى

اليقينيات الكونية"،(وانتبه إلى كلمـة: "كـبرى" فإنها ضـرورية) وكقولـه: "أبحاث في القمة" (وانتبه إلى كلمة: "في القمة" فإنها ضـرورية)، هـذا الرجل هو الشـيخ الفقيه المجـدد الإمـام الحجـة، خاتمة المحققين، بقية السلف هو "محمد سعيد رمضان البوطي"، قال العبـارات السـابقة في كتابه الفريد الـــذي - لم يعتمد فيه على رؤية فكريـــة.. وإنما وضـــعت الموازين الفقهية التي لا مجـال لرفضـها، حكما عـدلا يهـدي إلى الحـق، وينهي جدل الأفكار الذاتية المتعارضة - الكتـاب الـذي ختمه بقولـه: إنى أعيش - ولله الحمد - في وضع يجعلـــني أشد نفسي إلى الحكم الـــذي تؤيده دلائل الشرع والتقت عليه كلمة أئمة المسلمين.ا.هــ. وقـال قبلها في الكتاب: لقد آن لنا أن نستيقن بـأن انتصـارنا على هـؤلاء الغاصـبين والمتحكمين بحقوقنا وديارنا رهن بعودة صادقة منا إلى الإسلام، عقيـدة وخلقا وسلوكا، وقد أعلن ذلك الرئيس صـراحة، مع الـدلائل والمؤيـدات لفريق من الصحفيين الأمريكيين. انتهى الإبداع.

جــودت سـعيد يفكر ومقتنع بما يفكـر، ويسـتنجد لـدعم فكـره بالفقيه (صاحب اللفة): محمد سيد رمضان البوطي فيلبي الفقيه (آية الله على خلقه)، ويستشهد بالأدلة القاطعة من كلام الرئيس المـؤمن، أمين الأمة في هذا الزمان - وهي أوصاف من البوطي - للرئيس حافظ الأسد.

يا الله: طف الكيل، وبلغ السيل الـزبى، وإذا لم تسـتح فاصـنع ما شـئت (إلهي لا تحرمنا من الحياء).

لعلي نسيت أن أخـبركم اسم الكتـاب، إنـه: "الجهـاد في الإسـلام، كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟، والضـمير يعـود في "نفهمـه" و"نمارسـه" إلى الحكومة السورية بقيادة حافظ الأسد.

هناك وصـفة طبية مضـحكة لعلها تنفعك وقت الضـجر هي كتـاب محمد الغزالي المصـري: "السـنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحـديث"، فهي تغني على مزمار المفكرين في المعهد العالي للفكر الإسلامي.

الفقيه والسلطان:

سـدنة الحكـام المرتـدين وكهنتهم: أصـحاب العمـائم النخـرة، والوجوه القبيحة، والفتاوى المدفوعة الثمن، مثلهم {**كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**}.

يحـاول بعض السـذج من المنتسـبين للعلم والـدين أن يسـتخدم بعض الأحاديث والآثار السلفية، في التنفير من الاقتراب من السـلاطين وذلك بإنزالها على الواقع المعاصر، وهذا خطا قبيح فج، فإن الواقعـتين بينهما من الاختلاف ما لا يمكن حمل الواحدة على الأخرى، فالسلاطين الـذين تكلم الأئمة الأوائل عنهم، وحذروا من الاقتراب منهم، هم أولا وقبل كل شيء مسلمون، خلطوا عملا صـالحا وآخر غـير ذلـك، لكنهم كـانوا على الدوام بيضة الإسلام وحماته، ودرعه الذي دفعت به عوائد الحياة ومحن الزمن، وطوارق الأعـداء، وكـانوا على الـدوام خاضـعين لأحكـام الملـة، وقواعد الشريعة، ولم يألوا جهدا في إصابة الحق وتحريه.

فأين حكامنا من هؤلاء؟ **!**.

حكام هذا الـزمن خرجـوا من الإسـلام من جميع أبوابـه، فهم معرضـون عن دين الله رادون لأحكامه مستهزئون بالدين وشرائعه وأهله، موالون

لكل ملة سوى ملة الإسلام، فأي عمى هذا الذي أطبق على أعين الناس حتى جعلهم لا يكتشفون ردة حكامهم؟ فهل نستطيع أن نقول أن امتناع جمع من (السدنة) المنتسبين للعلم والفقه من تكفر هؤلاء الحكام بسبب شبه علمية؟.
إن الشبه العلمية التي يستحق أن تختلف حولها الأنظار والعقول، هي تلك الشبه الخفية الدقيقة، أما تلك التي يصطدم بما الأعشى، بل الأعمى لعظمها وكبرها، فلا تستحق أن تسمى شبها.
إن السبب الحقيقي لموقف هؤلاء (السدنة) في الحقيقة شهوات النفوس. إنها شهوة المال والمنصب، وخوف ذهاب الاسم من سلم الوظائف الحكومية. نعم إنها تنافس البلوغ لتحقيق الشهوات.
نستطيع أن نقول إن الطاغوت المعاصر قد استطاع بسط ألوهيته الباطلة على الأرض بعدة عمد وأركان، ومن هذه الأركان: صك الورق النقدي، ووثائق إثبات الشخصية ومنها وشقة السفر (جواز السفر)، والشهادات الدراسية.
هذه أهم مقومات الطاغوت المعاصر وبها استطاع أن يفرض سلطانه على الناس ويربط مجرى الحياة به ومن خلاله، فهو يستطيع أن يمنع ويعطي، وبإرادة واحدة منه يجعل الورقة المهينة التي لا قيمة لها ولا وزن ورقة نقد تحنى لها الرقاب وتذل لها النفوس وتكتسب قدرة خارقة لتحصيل المال والطعام والمسكن والملبس ورغد الحياة، وبها يصبح ربا مزيفا، يمن على هذا ويمنع هذا.
ومثلها كذلك وثائق إثبات الشخصية فمن خلالها يستطيع أن ينفي الإنسان من الحياة، ويجعه له أثرا بعد عين لا وجود له، ومن خلالها يستطيع أن يثبت نسبك لتلك البلد أو يسلبها منك، وبها تستطيع أن تتنقل بين البلاد، ومثلها الشهادة المدرسية (ولشرح هذه الأركان مواطن أخرى).
وفي سابقة غريبة لم تعهد في أمة من الأمم السابقة ربط الطاغوت المعاصر به حق اللقب العلمي، فهو يستطيع أن يجعل فلانا عالما، صيته يملأ الدنيا وعالم الناس، أو يغيبه في ظلمات الحياة، لا حس له ولا خبر، فأنت أخي المسلم لو سئلمت عن أسماء علماء بلد ما فإنه سيتبادر إلى ذهنك فورا تلك الأسماء اللامعة ببريق تزيين إعلام الطاغوت لها، فهذا عالم من تلك البلد تعرفه أنت لأن الطاغوت أرادك أن تعرفه، فهو الذي جعله عضوا في هيئة كبار العلماء، وهو الذي أطلق عليه لقب مفتي البلد، وهو الذي جعله وزيرا للأوقاف، وهو الذي جعله قاضي القضاة، وهو الذي عينه إماما للمسلمين، وهو.. وهو.. إنه صناعة الطاغوت.
كان على الدوام شيخ الأزهر في مصر يتم انتخابه من قبل هيئة علماء تجتمع وتتداول فيما بينها عن أحق الناس بلقب شيخ الأزهر، ليوسد هذا المنصب العلمي إليه، أما الآن فشيخ الأزهر يعين من قبل الطاغوت، فبجرة قلم، وبنفخة طاغوتية غير مباركة يصبح المسخ الصغير شيخا للأزهر، تصدر عنه الفتاوى العلمية، والأبحاث الفقهية المميزة، ويتدافع ركب الجهل من الناس ليستقوا من معين علمه الذي لا ينضب، وكل ذلك لم يقع إلا لأن الطاغوت سلّك له طريق اللقب العلمي. ولأن

الطـاغوت لن يقبل من أتباعه إلا الخضـوع والإذعـان، والتأليه لـه، ولن يـدخل في حاشـيته إلا كل سـاحر يـزين له ملكـه، ويـدفع عنه عاديـات الزمن، (وهذا شـرط صـحة لا تنـازل عنـه) فـإن اللقب العلمي سـيكون قاصرا على من تتحقق فيه هذه الشروط.
فصار الناس لا يرون عالما إلا وهو سائر في ركب الطاغوت، ورجل من رجالاتــه، وســقطت من أعين الشـباب المسـلم قيمة العلم والعلمـاء، فصار جل هم الشباب شـتم العلمـاء والتنفـير منهم. والحق أن هـؤلاء - كل من دخل في ركب الطـــاغوت - لا يســـتحق أن ينسب إلى العلم، وأهل العلم على الحقيقة هم من قـاموا بحق العلم عليهم، وتـبرءوا من الآلهة الباطلــة، وعضــوا على الحق وإن كــان مــرا. وهــؤلاء - للأسف الشـــديد - لا يعرفـــون إلا من قبل من فتش عنهم، وبحث عنهم أشد البحث، وهم كـثر بفضل الله تعـالى، ولكن الطـاغوت المعاصر سـترهم عن أعين النـــاس، وغيبهم عن لقب العلم واســـمه، فـــالواجب على الشباب المسلم، أن يقتصر في طلبه للعلم، وفي سؤاله عن أمـور دينه على هؤلاء العلماء الصادقين، المغيبين عن حياة البشر.
لقد جع كل طاغوت حوله مجموعة من السدنة الفقهاء، يستخدمهم في تمرير كفره، وتـزيين حكمـه، ويسـتغرب المـرء حين يـرى أن الجمع هو الجمع، والسدنة هم السدنة.
وهكـذا فـإن كل طـاغوت له حاشـية وسـدنة، من المنتسـبين إلى العلم يتخذهم كما يتخذ أحذيته، ويجمعهم في مؤتمر سـنوي، حيث يقـدم لهم، بعض الاحترام والتقدير، ويبـارك جمعهم الخـبيث بخطبة عصـماء، يزينها ببعض الآيــات والأحــاديث، وبشــيء من التعــالم الغث يشــرح لعلمائنا الأفاضل بعض أصول الدعوة الإسلامية، وطـرق نشر الإسـلام وتحسـينه للنـــاس، فيحضـــهم على الحكمة في الـــدعوة إلى الله ويـــرغبهم في مسايرة ركب الحضارة، ويشرح لهم ما فتح الشيطان عليه، وهم خشب مسـندة، يبتسـمون كالبلهـاء ويهـزون رؤوسـهم، ويطلقـون بين الفينة والأخرى عبارات الإعجـاب، أو يشـتد بهم الوجد فيصـفقون طربا وتيهـا، وكأنهم أمام الخليفة الراشد أو مهدي آخر الزمان.
ولكن الطـاغوت لا ينسى أن يشـير بعصى التهديد كما أشـار من قبـل، بجزرة الترغيب، لأن هذا من أصول تربية القرود.
اقـرأ هـذا النمـوذج: "إن مما يشـغل بالنا وبـال كل مسـلم غيـور على إســلامه، حـــريص على صـــفائه وإيمانـــه، هو ما بـــدأ ينتشر في بعض الأوسـاط من انحـراف عن مبـادئ ديننا الحـنيف، منحـرفين بـذلك عن الطريق القـويم الـذي لاعـوج فيـه... وإن إدراكنا العميق ووعينا الكامل بخطر الغزو الفكري الهادف إلى المس بقيمنا الروحية، وكياننا الأخلاقي القائم على مبادئ الإسلام، وتعاليمه الرشـيدة، ليزيد من شـعورنا بعبء المسـئولية الملقـاة على عاتقنا كـأمير المؤمـنين، وحـامي حمى الملة والدين، في هذا البلد الأمين".ا.هـ. هذا جـزء من رسـالة الحسن الثـاني إلى المؤتمر السابع لرابطة علماء المغرب.
وفي خطاب له. بمناسبة تأسـيس المجلس العلمي الأعلى، والمجـالس العلمية الإقليمية يحـــذرهم من التـــدخل في السياسة قـــائلا: "ليست دروسا للسياسة، حينما أقول السياسة، أقول السياسة اليومية... إيـاكم

والدخول فيما لا يعنيكم، فيما إذا ارتفع سـعر الوقـود أو سـعر الـدخان" ا.هـ.
وفي خطاب آخر له أمام جمع السدنة: "لا نغلق أندية، ولا نغلق مسابح، ولا نرجع إلى الـوراء أبـدا، أنا أتكلم فيما يخص العبـادات، المعـاملات، والســيرات لا تهمكم، لا تهمكم الســيرة في الأزقــة، والعربــدة في الطريق، وغير الحشمة في الطريق".ا.هـ.
هذا الكلام يقال أمام السدنة، فلا يوجد قائم لله بحجة يثبت للشباب أن فيهم من يستحق أن يسمى "عالما". وإذا تكلمنا عنهم قالوا عنا: "هؤلاء قوم لا يحترمون العلماء، أو شباب متهور". نعم نحن لا نحـترم السـدنة، بل نتقرب إلى الله بكشفهم.
روى الإمام أحمد بسند حسن عن عبادة بن الصامت قال: قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: « ليس منا من لم يجل كبيرنـا، ويـرحم صغيرنا، ويعـرف لعالمنا حقه ». فقد أمر النـبي صـلى الله عليه وسـلم بتقـدير العلمـاء واحـترامهم، وعـدم منعهم حقهم من التوقـير، والسـتر ودفع الأذى عنهم، وكـان علمـاء المسـلمين على الـدوام حمـاة الـدين، وحفظة نصوصه ومفاهيمـه، دفع الله بهم المحـاولات المتكـررة لـتزوير معالمه، وطمس هديه، وهؤلاء العلماء لم يدخروا وسعا في القيـام بحق الله عليهم، وحق العلم كذلك، وحتى لا نبتعد كثيرا في إصدار العمومات التي ما عادت تشـفي غليلا، ولا تطب عليلا، فإنا سنسـير معك أخي في الله في اكتشاف معالم الهدى الحقـة، وصـفات العلم والعـالم في كلام الله تعـالى وفي سـنة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، وفي كلام السلف الصالح، لأن أدعياء العلم قد كثروا، وتغيرت مـوازين النـاس في الحكم والقضاء، وصـار إطلاق لفظ العـالم ألعوبة لا ضـابط لـه، وكـذلك سلب صفة العالم من أهله ومسـتحقيه، وقبل أن نـبين صـفة أهل العلم والعلماء فإنا سنمر على مزالق أهل الجهل ومـوازينهم في هـذا البـاب، وهي مزالق قلما خلا منها فئة من النـاس إلا من رحم الله تعـالى، فمن أشـهر هـذه المـوازين الخاطئة في تقـييم النـاس والحكم عليهم بـالعلم والفقه:
أولا: إن مما طم وعم أن أغلب النـــاس - إلا من رحم الله تعـــالى - لم يعد يميز بين الخطيب المفوه، صاحب الصـوت الجهـوري، وبين العـالم، ولأن الناس على الأغلب لا يترددون إلى مساجدنا إلا يوم الجمعة، وأيام الدعوة إلى النـدوات الـتي تسـمى بالنـدوات الفكريـة، ولأنهم كـذلك ما عـادت تشـغلهم أحكـام الـدين وشـرائعه بمقـدار انشـغالهم بسـماع التحليلات السياسـية، أو الأخبـار والحكايـات، وصـار فـرحهم يشـتد، وغبطتهم تظهر بمقـدار ما يـرون ويسـمعون من صـوت عـال، أو شـتم لفلان وعلان، وهـذا جر على النـاس خـراب أمـزجتهم ورداءة أحكـامهم على الأشياء والأفعال، فأعرض الناس عن الدراسات الهادئة، والأبحـاث العلمية، والتقريرات الشرعية، وأقبلوا على هؤلاء القـوم الـذين يتقنـون فن الصخب الهادر، والأصـوات المرتفعـة، وأعرضـوا عمن يحملهم على العمل ويحضهم على الشريعة، ويبين أحكام الدين والفقه.
وعلى هذا صار أهل المنابر قسمان:

1 - أصـحاب الطحن بلا طحين، والكلام الكثـير بلا علم ولا فقـه، بل هو بدل أن يدفع الناس إلى الكتاب والسنة، وبـدل أن يـزين خطبته بـالعلم الحق - الكتاب والسنة - صـار جريـدة جديـدة تسـمى (جريـدة المنـبر)، فقبل أن يصـعد المنـبر يختـار هـذا الخطيب لنفسه خـبرا صـحفيا ويعلق عليـه، وتـروج تجارتـه، وتنفق بضـاعته حين تـنزل بالمسـلمين نازلـة، أو يكتشف مؤامرة وهمية سربت إليه، فحينئذ هذا أسـبوع الفـرح لأنه وجد لنفسه مـادة دسـمة لخطبتـه، وبها يسـتطيع أن يشد الآذان إليـه، ومنها ينطلق إلى عالم النجومية والشهرة، هؤلاء على الجملة من أكثر النـاس حـــذرا في إطلاق الأحكـــام الشـــرعية المحـــددة، بل كلامهم دائما في العمومات، التي لا يستطيع الناس بها أن يلزموهم بموقف يؤخذ عليهم، فهؤلاء القوم هم أهل العلم عند بعضهم.

2 - لما رأى بعض طلبة العلم فساد أمزجة النـاس بسـبب القسم الأول من الخطباء، ثم إعراض الناس عن الفقه والعلم، ورأوا أن الحديث في المنابر صار على صورة جريدة أسبوعية، هـالهم هـذا الأمر ودفعهم إلى موقف مضاد، ومختلف مع الأول في كل شيء، هذا الموقف هـو: عـدم الكلام إلا فيما يخص الفـرد المسـلم، أي: فيما يجهل من أحكـام الـدين والفقه العامة، فهو يأبى أن يتحـدث إلا في بر الوالـدين، وآداب الزيـارة الشرعية، أو أحكام العقيقة وبدعة صوم النصف من شعبان، وقد يتقدم قليلا فيحدث الناس عن الأوائل وفتوحات الآباء، وزمن العزة، وهكذا.

ولم يعد المســلم العــادي إلا ألعوبة بين هــذا وهــذا، وعامة الخطبــاء يتجنبون البحث والكلام في الأحكام الشرعية التي تلزم المسلم بموقف محــدد من أحــداث معاصــرة عم بلاؤها الصــغير والكبــير، وربى عليها المسلمون حـتى صـارت جـزءا من حيـاتهم، فمن القليل النـادر أن تجد الخطيب الـذي يقـدم للنـاس الأحكـام الشـرعية الـتي تلـزمهم بموقف محـدد من نـوازل الحيـاة العامـة، أو الـتي تـدفعهم إلى حركة شـرعية منضبطة، فأين الحديث عن حكم المبـدلين لشـرع اللـه؟ وأين الحـديث عن وجوب جهادهم قبل جهاد الكفار الأصليين؟ وأين الحـديث عن عـدم جـواز الـدخول في وظـائف طائفة الـردة كالـدخول في البرلمانـات أو الشرطة؟.

نعم يوجد ممن ملأ الدنيا جعجعة بوجوب تحكيم الإسـلام، أنه هو الحـل، نعم يوجد الآلاف من هؤلاء، لكنا كنا نتمـنى ألا يتكلم هـؤلاء المخـادعون لأنهم تحدثوا عن وجوب تحكيم الشريعة، وصرخوا بملء أفواههم بـــذلك أمام الناس، لكنهم دخلوا في وزارات الحكم بغير ما أنزل الله من بـاب آخـر، وقـالوا للنـاس عن وجـوب الشـورى وتحـدثوا عنها حـتى بحت أصـواتهم، لكنهم صـاروا عمـدا في المجـالس الشـركية، فـاهتزت هـذه المفـاهيم في أذهــان النــاس وعقــولهم، وإلا فكيف نســتطيع أن نقنع المسـلم العـامي أن الحكم بغـير ما أنـزل الله وأن اسـتبدال شـريعة الرحمن بشـريعة كفرية هو كفر بالله العظيم، ومـوالاة أهلها كفر وردة، وهم يرون الذي يتحدثون أمام النـاس ويثـيرون عـواطفهم لتأييـدهم هم الذين يظهرون في التلفزيون ويتحدثون أمـام هـؤلاء الحكـام وبطـانتهم بالأدب والتوقير، ويقولون لهم: نحن معكم في كل كلمة قلتموها.

على المنابر تعريض وقدح وذم وفي الخلف تأييد ونصر وموالاة.

هـذه الصـور وأمثالها أسـقطت من حس النـاس قيمة هـؤلاء الخطبـاء، واهـتزت الثقة بهم مع أن الطامة الكـبرى وهي الأهم: ضـياع مفـاهيم الإسلام وأحكامه الواضحة من أذهان الناس وعقولهم.
لكن علينا أن لا ننسى أن قوما من الخطبـاء ما زالـوا يعيشـون خـارج واقعهم ويفكرون بالمعارك الفائتة، ويتصـورون أنفسـهم في زمن محنة خلق القـرآن، أو في زمن الخصـومة بين الأشـاعرة والحنابلـة، فهـذا خطيب من خطبـاء المسـجد المكي وقت أزمة الخليج حين سـلط الله حبيب الكويت على أهل الكـويت، وجـاءت قـوات الصـليب لـترد قـوات المرتـدين، وانقسم النـاس بطريقة غثائية إلى مواقف ما أنـزل الله بها من سلطان، وكـان أهل الشـام على الجملـة، وخاصة غثـاء أهل الأردن وفلسـطين، قد شـايعوا صـدام وحلمـوا به أنه المنقذ وشـبهوه بصـلاح الـدين، ودارت بهم سـماديرهم حـتى رأوا صـورته في القمـر، وصـارت المساجد بخطبائها موقد فتنـة، ومصـدر شـر، وكـان في الجهة المقابلة لهم أهل الخليج والجزيرة، حين حلفوا بـرأس بـوش تأليها له وتقديسـا، وأعلن الشيخ الإمام أبو بكر الجزائري قـائلا: "جـزى الله أمريكا خـيرا"، وصار الأمريكي والإنجليزي الكافر أحب إليهم من بني جلـدتهم المسـلم في تلك الفتنة العمياء، يقوم خطيب المسجد المكي ليفسر للناس واقع المعركة فيقـول: "مـاذا ينقم علينا أهل الشـام، أينقمـون علينا أننا أهل توحيـد؟ وأننا أصـحاب العقيـدة الصـحيحة؟". ا.هــ. فأهل الشـام ومعهم أهل العـراق في ذهن الخطيب الإمـام، هم أهل البـدع، لأنهم صـوفية أشاعرة، وأهل الجزيـرة موحـدون حنابلـة، ولـذلك لم يقم صـدام بغـزو الكويت ولا التحضير لغزو الجزيرة إلا للقضـاء على المـذهب الوهـابي!! ونشر الطرق الصوفية والعقيدة الأشعرية!.
ثانيا: وإن من الموازين الخاطئة في مـدح البعض، وإطلاق اسم العلمـاء وصـفة العلم عليهم، ظن الجاهل أنه بمقـدار تفـرغ المـرء عن أخبـار الحياة، وبعده عن أحداثها، وتوحـده، وعزلتـه، وانشـغاله ببطـون الكتب. يعيش معها وبهـا؛ يكـون العـالم عالما حقـا، وإماما يقتـدى بـه، فـالمرء يأخذه العجب حين يرى أحدهم يسوق عن شـيخه، أو إمامه أو محبوبـه، على جهة المدح والتعظيم أن شيخنا - بفضل الله تعالى - بعيد كل البعد عن الدنيا، فهو - رضي الله عنه - لا يجد الوقت لسماع أخبـار الحيـاة، و لم تدخل الجريدة يوما بيته، بل هو - حفظه الله ورعاه - لا يقتـني جهـاز مذياع، بل جل وقته في طلب العلم، وفي تعليم طلبة العلم.
ثم يأخـذه العجب ويشـتد به الوجد فيسـوق لك الأخبـار تلو الأخبـار في إعراض شيخه عن معرفة ما يدور حوله، فشـيخنا -حفظه الله تعـالى -، إذا حاول بعضهم أن يذكر شيئا من أمور السياسة، وأخبـار السياسـيين، تجهم، وتغير وجهه، وتكلم معه بكلام بليغ، وذكر هـذا (الآبق) أن طـالب العلم عليه أن يصـــرف كل وقته للعلم، فهو يستشـــهد دوما بمقولة السلف: "إذا أعطى الرجل كل وقته للعلم، أعطاه العلم بعضه".
وهكـذا تـدور هـذه الكلمـات على ألسـنتهم، ويظنـون أنهم بهـذا قـدموا صورة جميلة عن شيخهم، وهم في الحقيقة لم يزيدوا سـوى أن عرفـوا الناس: أن شيخهم هذا هو من أجهل خلق اللـه، وأن شـيخهم هـذا يجب أن يحجر عليه فلا يسأل، ولا يستفتى، لأن من شرط المفـتي أن يكـون

بصيرا بحال أهل زمنه، عالما بمـداخل الحيـاة وسـبلها، وإلا فما هو هـذا العلم الـذي أنزله الله على رسـوله صـلى الله عليه وسـلم؟ ولم جـاء العلم؟.
أجاء العلم ليكون حبيس السراديب؟.
أم ليتمتع به بعضهم في خلواته؟.
ومن غرائب هؤلاء الشيوخ وعجائبهم وكذلك من غـرائب تلامـذتهم أنهم إذا سئلوا عن الأمور العظيمة في الحيـاة لم يتورعـوا أبـدا عن الخـوض فيها بألسنتهم الطويلة، وتكلموا فيها وهم لا يدرون شـيئا، وخاضـوا فيها وهم من أبعد الناس عنها فهما ومعرفة.

الخلط بين السياسي والمجاهد والفقيه:

على ضوء هذا التفكير المنحط، وهذا السلوك الجاهل، ظهرت في عالم المسـلمين ثنائيـات لم تكن معروفة لـدى الأوائـل، وقد حـاول بعضـهم بشـيء من التعـالم الغث أن يجعل هـذا من وضع الاختصـاص المعاصر الذي لا بد منه، مع أن هـذا الاختصـاص إذا وقع فقد كل طـرف ما حمل من خصوصيات.
هذه الثنائيات هي:
أولا: التفريق بين السياسي والفقيه: فالسياسي عند النـاس هو البصـير بـأمور الحيـاة، القـادر على تفسـير أحـداثها، وهو من يستشـار ويسـأل عن تفسـير الكونيـات والوقـائع، وهو كـذلك من له حق قيـادة الحياة ورعاية شؤونها، وهـذا من خلال ما أعطي من قـدرات سياسـية، وأما الفقيه فهو حـــبيس الكتــــاب ولا يســـأل إلا فيما يخص الغيب، فالسياسي له عالم الشهادة، والفقيه له عالم الغيب، وهذه ثنائية باطلة لم تكن معروفة لـــدى الأوائـــل، بل إن كلمة الفقه لا تقع إلا إذا اجتمع أمران:
1 - إدراك الحيـاة على ما هي عليـه، ومعرفة أحـداثها، وهـذا من أعظم الفقه، فإن الله تعالى قال: {وتلك الأمثال نضربها للنـاس وما يعقلها إلا العالمون} العنكبـوت، فالعـالم هو من فسر الأمـور على طريقة سـننية لها تمام الوضوح في عالم الشهادة، ولا تغيب عنه الآخـرة، فهو الجـامع بينهما.
وإن من طامـات مشـايخنا في كلامهم على وقـائع حياتنا أنهم يعتمـدون على مبدأ الكشف الصوفي، ولا ينسـون أن يفتح الله عليهم بـالفهم في تفسـير الأحـداث، وهـذا كله باطل من القـول وزورا فـإن معرفة المـرء للحــدث لا تقع على وجهها الصـحيح إلا إذا درسه دراسة عقلية سـننية، ونظهر إليه كما هو في عـــالم الشـــهادة، فحينئذ ينطق إلى الأمر الآخر وهو:
2 - معرفة حكم الله في هــــذه الواقعــــة، أي يـــأتي بعد ذلك الحكم الشــرعي، ولا يمكن لأحد أن يطلق حكما شــرعيا صــحيحا إلا إذا فهم الواقع فهما صحيحا، فالخلق أولا، ثم الشرع، قال تعـالى: {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} الأعراف. وبعد أن يدرك تطـابق الخلق والأمر لابد أن تصدر منه كلمـات التسـبيح والتعظيم والتقـديس، فـيزداد

يقينا بحكمة الخـالق، وتترسخ مبادئه في حكمة الشـريعة. حينئذ تخـرج منه {تبارك الله رب العالمين}.
فلو أننا قلنا إن السياسي هو من أدرك الأمر الأول فقط (عـــــالم الشهادة) وغـاب عنه الأمر الثـاني (معرفة حكم الله فيـه) فـإن هـذا لن يكون سياسيا مسلما، وستنطلق رؤاه في التعامل مع الأمور على مبـدأ المنفعة الـتي ليس لها ضـابط سـوى النظر إلى الفردية الذاتيـة، أو الشهوة الـتي يعـود مآلها إلى فسـاد الحيـاة، وإذا قلنا إن الفقيه هو من أدرك الحكم الشـرعي دون معرفته بوقـائع الحيـاة على ما هي عليه فسيكون علمه هذا حبيس ذهنه وعقله، وليس له من أمر الحياة شـيء، حينئذ سيقتصر دوره على الوعظ الكنسي الذي يحتاجه النـاس يوما في الأسبوع لتخرج منهم زفرات الضيق ارتقابا بانتهاء غثائية الشيخ.
وعلى هذا فإن الفقيه لن يكـون فقيها في ديننا ولا يسـمى فقيها وعالما إلا إذا كـان سياسـيا بكل ما تحمل هـذه الكلمة من معـنى ووقع على النفوس، وعلى الشباب المسلم أن يسـقط من حسه ومن احترامه من يقول: إن من السياسة ترك السياسة، لأنه حين يكون كذلك، أي حين لا يكون سياسيا لن يكون فقيها بل يكـون شـيخ جهل وتجهيـل، وعلى مثل هـؤلاء الشـيوخ الجهلة يعتمد الطـاغوت في إمـرار باطله على النـاس، وفي إصباغ الشرعية على نفسه، فشـيوخنا كمخـدرات الـبيوت، يلقـون على أنفسهم الحجاب، ويرفع حجابهم عنـدما يبـدأ مسـرح الـدجل أمـام الطـاغوت، ليقـرأ عليهم نصـوص الحكمة ليـدلل لهم على أنه الـوفي للإسلام وأهله، وإلا ففسروا لنا مـاذا نسـمى هـذا القطيع البهيمي الـذي يتحلق حـول الطـاغوت وقد زين الـرؤوس بعمـائم خربـة، ولم ينس أن يطلق شـــعرات الخديعة على لحيته (ولعله نسى أن يحلقها في ذلك اليوم لاضطرابه)، ثم يخرج من عنده وهو يمـدح ويثـني ويقسم الأيمـان المغلظة على أن حاكمنا هو ولي الأمر الشرعي الذي يجب طاعته.
أهكذا يصنع الفقه بأهله؟.
أم هكذا يكون العلماء؟.
أم أن الفقيه كل الفقه هو عمر بن الخطاب حين يقـول: "لست بـالخب ولا الخب يخدعني"، وكـذلك صـاحبه حذيفة حين يقـول: "كـان أصـحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسـألون عن الخـير وكنت أسـاله عن الشر مخافة أن يدركني".
من هو الفقيه والعالم في ديننا؟.
أهـذه النمـاذج الجاهلة الـتي تعيش في عصـرنا أم أولئك الـذين سـادوا الدنيا وحكموا الوجود؟.
إن هؤلاء الجهلة الذين لا يدرون عن الحياة وما يدور فيها، ولا يسـمعون تصريحات قادتهم أمام الأعـداء، ولا يعرفـون شـيئا عما يقـال عن حركة دولهم وإلى أين تسير، هؤلاء من العـار على أهل ديننا بمكـان، وإنه مما يخجل منه أن يكونـوا هم العلمـاء، ولو رضـينا أن نطلق عليهم وصف العلم والفقه لكان هذا شـتما وقـذفا لـديننا، لأننا علمنا النـاس أن عـالم هذا الدين، وفقيه هذه الشريعة جاهل بالحيـاة، غـبي بـالزمن، ومن أجل ذلك لأن نشتم هؤلاء القوم ونخرجهم من زمرة العلماء، خير وألف خـير من أن نصبغ في أذهان الناس صورة قذرة عن الفقيه المسلم.

ثانيــا: التفريق بين المقاتل والفقيه: كنت أعجب زمنا طـــويلا، لماذا يلبس هؤلاء الشيوخ هـذا الـزي الكهنـوتي، طربـوش على الـرأس (ثقيل نوعا مـا)، طيلسـان (رداء فضـفاض)، له أكمـام تتسع لقطة أبي هريرة رضي الله عنه كما يزعمون، لكني أدركت الآن شيئا من سر هذا اللبـاس المقـرف، ولعل من أسـباب ذلك أن ينطبع في أذهـان النـاس وقبل ذلك في أذهان أصحاب هذا اللباس أنهم لا يصلحون لشيء سـوى الكلام.

فدور مشايخنا محصـور فقط في الكلمـة، ومن المسـتهجن الغـريب أن يكون الشيخ قائدا عسكريا، أو مقاتلا شديدا، فهـذا محمد الغـزالي يعلن بكل صراحة غريبـة: أنه لا يطيق رؤية دم دجاجة وهي تـذبح، لكنه قطعا يفرح هو وإخوانه المشايخ في رؤية الدجاج على مائدة الطعام.

هـذه الصـورة المنكوسة للشـيوخ جعلت الشـباب يتسـاءلون: لمـاذا خلا تاريخنا من العلمـاء المقـاتلين؟ وشـبابنا على الجملة يحـترمون شـيخ الإسلام "ابن تيميـة" - رحمه الله تعـالى - لأنهم رأوا فيه صـورة العـالم الفقيه المقاتل، وظنوا أنه لا يوجد له مثال وشـبيه، وهـذا خطأ فـإن من القليل النادر أن تجد عالما من علمائنا الأوائل إلا وهو مقاتل من الدرجة الأولى، بل إن بعضهم كان في مرتبة القيـادة العسـكرية، مثل **أسد بن الفــرات**، وإن الكثــير من أئمة الحــديث قد صــنفوا كتبهم، وعقــدوا مجالس التحديث في الأربطة القتالية، على ثغور المسلمين.

ومثل هــذه الثنائيــات الباطلــة، التفريق بين الإداري والفقيــه، والقائد والفقيه، وغير ذلك مما أعطت صورة غثائية عن الفقيه المسلم.

الاجتهاد والتقليد:

لقد حرصت الشـريعة على لسـان مبلغها الأول رسـول الله صـلى الله عليه وسلم على التحذير الشديد الواضح من الوقـوع في المثـال الخطأ عن صـورة الشـريعة والـدين، ذلك لأن النـاس بحاجة دوما في فهمهم لفكرة ما، أو لموضوع معين أن يتمثل هذا الموضوع، وأن تشخص هــذه الفكرة بصورة عملية أمامهم، ليشدهم هذا المثال وهذا التشـخيص إلى التطبيق العملي، وليقرب لأذهانهم حقيقة هذه الفكرة، فإن النـاس وإن اختلفت عقولهم في تفسـير شـيء عـرض عن طريق البيـان، وتعـددت نظراتهم في تحديد المراد منه لاتساع معاني البيان الواحــد، إلا أنهم لن يخطئوا في تفسير هذا البيان حين يتمثل أمامهم بصورة عملية واقعيـة، ولذلك كانت السنة بتفصيلاتها البيانية والعملية في شـخص النـبي صـلى الله عليه وسـلم وفي حيـاة الصـحابة كواقع عملي قـرر من قبل النـبي صلى الله عليه وسلم كانت قاضية على الكتاب البياني المجرد كما قال الكثير من أئمة العلم والدين.

ولما كانت الصـورة عـادة تقل في وضـوحها عن الحقيقـة، والمقتـدي لا يبلغ درجة المقتــدى به إذا كـانت صــورة الاقتــداء تتم فقط عن طريق الأسوة العملية دون الرجوع المـرة تلو المـرة إلى الحقيقة كما عرضت في أول مـرة، فإنه ولا بد أن يتم التشـويه والتحـوير في كل مرحلة من مراحل تطـبيق الفكـرة، وهـذا واقع مع أي فكـرة وأي مثـال، والتـاريخ الإسلامي مع الإسلام كان نموذجا حيا لهذا المثال، مع أن الإسـلام حـذر

من هذا الخط البيـاني النـازل على مـدار التـاريخ الإنسـاني، إلا أن هـذه الأمة لم تخـرم -للأسف - هـذه السـنة، على الـرغم أنها سـنة سـيئة ولا شك. ولنقل أنها لم تخرمها بضابطين:

أولهما: إلى الآن، فالبشـــائر النبوية تعلمنا أن هـــذا الخط النـــازل في تطـبيق المثـال سـيعود إلى الصـعود في آخر الزمـان، "ثم تكـون خلافة على منهاج النبوة". لكن هذا المثال. وللأسف مرة أخـرى. لن يكـون إلا بمثابة الإفاقة الأخيرة والنهائية لهذا الوجود، وهي بمقدار إفاقة من كـان في النزع الأخير.

ثانيهما: أن هـذا الـنزول في مجمـوع الفكـرة ومجمـوع الأمـة، وإلا فـإن التوقف في النزول حينا أو الصعود حينا يكون مرة في جزئية الفكرة أو جزئية الأمة.

والإسلام حذر من هذه السنة، وهي اتخاذ الأسوة عن طريق المثـال بعد غياب الحقيقة أو ما قاربها في القرون الأولى، وشدد على العــودة دوما إلى الحقيقة البيانية مع حقيقة التطــبيق الأولى، واعتــبر أي نــزول في المثال انحراف عن جادة الصواب، وابتعاد عن الحقيقة.

ومن هذه التحذيرات الواضحة وهي كثيرة قوله صلى الله عليه وسلم:

1 - ((خير الناس قـرني، ثم الـذين يلـونهم، ثم الـذين يلـونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحـدهم يمينـه، ويمينه شـهادته)). وفي روايـة: "خـير الناس قرني، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم يجيء قـوم لا خـير فيهم". وهـذا الحـديث وإن كـان بصـيغة الخـبر، إلا أنه يحمل في طياته أمـرا توجيهيا وتحذيريا، توجيهيا للمسلم بمن يقتدي، وتحذيريا للمسلم ممن يتقي.

والحديث نموذج للتحذير الذي قدمناه وهو أنه بعد القرن الثـالث (الجيل الثالث)، ينبغي على المسـلم أن تتوقف لديه صـورة الامتثـال والاقتـداء عن طريق الأسوة العملية، لأنها لن تكون واضحة في شـرح الفكـرة ولا هي واضحة في تمثلهـا، والأخذ بهـذه الصـور الحادثة تعطي عن الفكـرة صورة ناقصة أو مشوهة فحينئذ لا بد من العودة إلى الأصل وهو يساوي البيان مضافا إلى النموذج الأول.

2 – "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضـلالة". وبعيـدا عن خلاف السـلف. عليهم رحمة اللـه. في قيمة قـول الصحابي إلا أن السنة التشريعية بإجمـاع أهل الملة قاصـرة على النـبي صلى الله عليه وسـلم لا يشـركه فيها أحـد، أما السـنة الـتي يقتـدى بها فمما لا شك فيه أن النمــوذج القــدوة للســنة التشــريعية هم الخلفــاء الراشــدون، وهو نمــوذج قاصر عليهم وعلى المســلم أن لا يتعــداه في تمثيل البيان عن طريق قدوة ومثال مهما بلغت درجة هـذا الآخـر، وفي الحديث إشارة إلى الحوادث المهلكة في إنزال مرتبة القدوة حين قال: "وإياكم ومحدثات الأمور"، فالصورة العملية صورة حادثــة، ولا شك أنها بمجموعها ستحوي بعض التشويه والنقص، فمن أراد الفوز فليرجع إلى: البيان مضافا إلى النموذج الأول.

وهناك بعض العوارض في أذهان بعضهم تقـدح في هـذا الأمـر، وتسـمح بجعل المرتبة المتـــأخرة نموذجا للقــــدوة، وقبل أن نتكلم على الأدلة الموضوعية التي يسـوقها هـؤلاء القـوم، أعلم أن بـواعث هـؤلاء البعض

في إنزال مرتبة النموذج بواعث نفسية، وأهم هذه البواعث فقدان روح التمرد، والرغبة في التقليد المريح الذي يسقط عن المسلم الكسول الخامل تبعة المساءلة الأخروية، وتبعة ثمن التضحية في مخالفة عوائد الناس وإيلافهم. وهؤلاء وإن رفضوا مقولة العوام: "قلدها لعالم فتخرج سالم". إلا أنهم في الحقيقة يعيشونها شعورا حاضرا لا يغيب عن أذهانهم، وهؤلاء أبعد الناس عن الدخول في زمرة التجديد والإحياء، أو الولوج إلى شعار تصفية الحق من دخن العقول والأهواء.

والآن ما هي أدلة هؤلاء القوم؟:

أدلة هؤلاء القوم تقسم إلى قسمين، قسم فرضته عوائد العلماء كما يزعمون، وقسم نصي يسترشد به في دعم الفكرة، وليس في تأصيلها.

القسم الأول: جامع لجراميز أدلتهم وهو قولهم: إن العلماء على الدوام رفضوا اسم العلم أن يلتصق بفرد أو جماعة أخذت علمها من مصدر البيان مباشرة، بل لا بد من أفواه العلماء، والجلوس على الركب أمامهم، وهذا يدل على أن تواصل العلم عن طريق الرجال، مشافهة، ولا شيء في ذلك.

وقولهم هذا لا يعدو أن يكون حيدة عن موضوع البحث، لأن هذا القول هو في البداية حجة تراثية، والخصومة حولها وعليها، والاختلاف يدور حول حجية التراث والتاريخ، والأمر الآخر هو أن هذا الذي قيل وجد في السنة ما ينقضه ويبدده، خاصة حين يصبح ويصير لكل طائفة رجالا، تتخذهم الطائفة قدوة وأئمة، وتزعم أن مجرى الهدى على محياهم، ومنبع النور من أفواههم، فلا بد من قطع علائق الفتن بالعودة إلى الأصل وهو: البيان مضافا إلى النموذج الأول.

والسنة التي مدحت العودة إلى الورق دون النظر إلى الشخوص والمثل هي القاطعة لحجة هذا الفريق، هذه السنة هي قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوما: ((أي الخلق أعجب إليكم إيمانا؟. قالوا: الملائكة، قال: وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم؟. قالوا: الأنبياء، قال: وكيف لا يؤمنون وهم يأتيهم الوحي؟. قالوا: نحن، فقال: وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟. قالوا: فمن يا رسول الله؟. قال: قوم يأتون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بها)).

وفي بعض ألفاظه: ((بل قوم من بعدكم، يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به، ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرا)).

وفي لفظ آخر: ((يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا)).[1]

فالحديث بوضوحه يمدح أخذ العلم عن طريق الورق المعلق، بل جعل هؤلاء القوم هم أعظم الناس أجرا، وأفضل أهل الإيمان إيمانا، وهذا يدل على أن العصمة عند اختلاف الزمان، وسقوط النماذج الفاسدة الحاملة لاسم العلم والعلماء زورا وبهتانا، هو العودة إلى الورق، ولن يضر هؤلاء (المتمردين) قول فلان وعلان، ورأي زيد وعمرو فإنه لا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل أو عجز أو غرض فاسد كما قال ابن تيمية، وهذا الطريق، وهو أخذ العلم عن طريق

---

[1] - انظر "الباعث الحثيث" بتعليق أحمد شاكر، هامش ص 125.

الورق المعلق - وهو طريق شـرعي - هو الـذي يمنع زلة العـالم من أن تقفز إلى ذهن التابع فتستقر تحت اسم العصمة والدين.
والقصد من الوسائل دوما تحقيق المقاصـد، والانشـغال بالوسـائل دون النظر إلى المقاصد هو ســبيل أهل العي والضـــعف، والأصل في دلك كلـه، ومقصد الطلب تحصـيل الحق أبلجا كما هـو، فحـرص الأوائل على حفظ هذا الأصل دفعهم لوضع شروط حول هذا الحال والأمـر، وما دروا بمصيبتنا مع جهلة هذا الزمان فكان لا بد من البيان.
وإن مما يحتج به أهل التقليد في العصـور المتـأخرة لأئمتهم المتـأخرين قوله صلى الله عليه وسلم: « لكل قرن سابق » وله لفظ آخـر: « لكل قرن من أمتي سابقون » وهو حديث صـحيح رواه أبو نعيم في الحليـة، الأول من حــديث أنس رضي الله عنــه، والثــاني من حــديث ابن عمر رضي الله عنهمـا. وهـذه الأحـاديث وغيرها الـتي تـدل على بقـاء الخـير ودوامه في أمة محمد صــلى الله عليه وســلم، وأن الله تعــالى تكفل بحفظ هذا الدين، وأنه ستبقى طوائف من أهل الحق وفية لـه، لا تعـني أبدا إلا البشارة بذلك، وأما أمر الاقتداء بالهـدي واتبـاع النمـوذج القـدوة فليست لأي مرتبة من مـــراتب هـــذه الأمة إلا للمرتبة الأولى والجيل الأول، ودوام النظر إلى ذلك النموذج الصـادق الصـالح يمنع من الوقـوع والعثار، وهو يمنع من الزلـل، وما تلك الصـور الحادثة وإن كـانت رفيعة عالية إلا صــور قاصــرة لا تمثل الصــورة بتمامها وحقيقتهــا، ولعل من أسـباب هـذا العثـار عـدم اجتمـاع الخـير في جيل كما اجتمع في الجيل الأول، وها أنذا أضرب لكم الأمثلة ليتضح البيان:
درج بعض أهل العلم الأوائل على تــأليف كتب تجمع في طياتها ســير أئمة أعلام، فبعضـها جعل الخيط الجـامع لهـؤلاء هو الصـلاح والتقـوى، وبعضـهم جعل الخيـط: هو الجهـاد والشـجاعة والقتـال، وبعضـهم جعله الفقه والرأي، وبعضهم جعله الحديث والرواية، وهكذا تنوعت التقاســيم في هذه السير في عرض النماذج القدوة في العصـور المتـأخرة. وكـان بعض (الرواة) يبالغ في ذكر صـفات هـؤلاء الأعلام حـتى يخـرج بهم عن حد الاعتــدال البشــري، فلو قــرأ المتــأخر في كتب طبقــات الأصــفياء والأوليــاء. كما في كتــاب الإمــام أبي نعيم الأصــفهاني: "حلية الأوليــاء وطبقــات الأصــفياء". نموذجا من هــؤلاء الأوليــاء لــرأى فيها العجب العجاب، فهـذا ولي من الأوليـاء إذا دخل بيته فـذكر الله تعـالى سـبحت معه جــدران بيتــه، وآنية المطبخ في بيتــه، وســبح معه فراشه حــتى يســمعها كل من حضــر، وهــذا ولي آخر يــرى بــأم عينيه ذنوبه وهي تتساقط مع قطر ماء الوضـوء، وهـذا ولي آخر يتـورع عن أكل ما حضر في السوق، ويرفض أن يشتري منه ويأبى الأكل إلا من القفـار والخلاء، وهذا ولي لم يتزوج، وآخر لا ينـام، وولي لا يضـحك، وغـيره لا ينظر إلى السماء وغيرها من الصور الحادثة التي لا تعبر أبدا عن حقيقة هذا الذين ولا عن واقعه الصـحيح، وقـارئ هـذه النمـاذج يصـاب بخيـالات وأوهـام تســتقر في ذهنه عن النمــوذج (الــولي) مما يجعلــه: إما دائم الســعي للوصـول إلى هـذه المـراتب، ولن يصـل، وإما في يـأس من بلـوغ هـذه المرتبة، والنتيجة هي القعود وترك العمل.

وطامة أخرى يصاب بها المتـأخر: وهي أن كثـيرا من هـذه النمـاذج (من طبقات الأوليـاء) يراها ممدوحة معظمة في جـانب الولاية والصـلاح في كتب بعضـهم، فـإذا اطلع على كتب أخـرى. ناقـدة ممحصـة. رأى فيها أخبارا تزري هذا الولي، وتقذفه بأشد أنواع الحماقات والغفلة، فلو قرأنا مثلا عن أبي يزيد البسطامي (طيفـور بن عيسـى) فهو الـولي في بـاب الولاية حتى أنه يسمى بسلطان العارفين، وهو يجاهد نفسه على الدوام حتى أنه قال عملت في المجاهـدة ثلاثين سـنة. الحلية (10/36). ثم في موطن آخر تقرأ عنه أنه من زنادقة الصوفية فهو يقول: سبحاني"، و"ما في الجبة إلا الله"، ما النار؟! لأسـتندن إليها غـدا وأقـول اجعلـني فـداء لأهلها وإلا بلعتهـــا، ما الجنـــة؟! لعبة صـــبيان، ومـــراد أهل الـــدنيا. ما المحـــــــدثون؟! إن خــــــاطبهم رجل عن رجل فقد خاطبنا القلب عن الرب.ا.هـ. ميزان الاعتدال للـذهبي (2/246)، فهـذا كلام زنـديق لا كلام عارف ولا ولي.
وهكذا على هـذا المنـوال جـرى كل قـوم في مـدح رجـالهم وتعظيمهم، فأهل الحـــديث والـــرواة يبـــالغون في تعظيم أئمتهم فيســـوقون عنهم الأخبار التي لا تعقل، مثلما ذكر بعضهم عن الإمام البخـاري رحمهم الله تعالى في قصة قلب الأحاديث عليه في بغداد. قـال الخطيب البغـدادي: "فـإنهم اجتمعـوا (أهل الحـديث في بغـداد) وعمـدوا إلى مائة حـديث. فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا لإسناد آخر، وإسناد هــذا لمتن لآخر ودفعوها إلى عشـــرة أنفس. تقـــول الروايـــة: فلما قرأها رد كل حديث إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، ولم يرج عليه موضع واحد مما قلبـوه وركبـوه، فعظم عنـدهم جـدا، وعرفـوا منزلته في هـذا الشـأن". وهي قصة لا تصـح، ونبه إلى عــدم صـحتها الإمــام الــذهبي رحمه الله تعالى.
وكذلك من مبالغات أهل الحـديث في رجـالهم قـولهم عن الرجـل: (كل حديث لا يعرفه فلان فليس بحديث). وهذه العبارة كثر ترديدها في مدح بعض المحدثين، وهذا لا يقع أبدا، فإن الإمام الشافعي رحمه الله تعـالى نبه في كتابه العظيم "الرسـالة" إلى خطأ هـذا القـول، وقـال ص 139: "والعلم به (أي لســان العــرب) عند العــرب كـالعلم بالســنة عند أهل الفقه... لا نعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء".
وصار نموذج المحدث المتفرغ للحديث هو النموذج المقتــدى، فهو رحل لا تشــغله شــاغلة، وليس له من هم إلا الرواية وجمع الأســانيد، فهــذا الإمام أبو بكر (الخطيب البغدادى) عليه رحمة الله تعـالى، كـان حريصا على علم الحديث، وكان يمشي في الطريق وفي يده جزء يطالعه.[1]
وهو نهم مشروع بل محبوب عند الله تعالى، ولولا هـذه الهمة العالية ما وصل إلينا دين الله تعالى، ولكن السؤال: هل أبو بكر الخطيب البغدادي هو نموذج المسلم في كل زمان؟ وهل إذا وقعت بالمسلمين المصـائب والرزايا ووجب على المسلمين جميعهم واجب، لم يكن لهم أن يخرجوا عن مثال الخطيب رحمه الله تعالى؟.
وهل علينا أن نصنع كما صنع أبو حامد الغزالي وقت الحروب الصـــليبية، عندما اعتزل في بيت المقدس السنين الطوال وهو متفــرغ لــذكر اسم

---
[1] - انظر المنتظم لابن الجوزي (8/267).

الله المفرد للوصول إلى لحظة العرفان والجذبه، والمسـلمون يـذوقون أقصى البلايا على يد الصليبيين الكفرة؟!.

وكذلك عندما يقرأ المرء هـذه السـير يسـتقر في ذهنه صـورة مشـوهة وقاصــرة، ولا تكشف لك ســير الحيــاة الصـحيحة للبشر في حــركتهم ومعيشـتهم لأنها تقتصر في أخبارها على ما تريد من شخصـية المـترجم له، فالعابد لا تساق لك من أخباره إلا العبادة فلو سألت مثلا: كيف كـان يأكل هـذا الرجـل؟ وهل تـزوج؟ وهل كـان يعاشر زوجته وأبنـاءه؟ وهل كـان يتـاجر؟ وهل مـاكس في سـعر بضـاعته؟ وهل خاصم أحـدا؟ وهي أمور لا يمكن أن تخلو منهما بشرية إنسان كائنا من كـان، وهي لا تـذكر في ســير هـؤلاء الأئمة لأنها ليست بشــيء، ولا قيمة لـذكرها. ولكننا لو عدنا إلى النموذج الأول وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى التراجم الحقيقية لهم وليست تـراجم المتـأخرين الـتي غلب عليها المبالغة والتهويل، لرأينا الصورة الحقيقية لحركة الإنسان، وهي الصورة الحقيقية لمثال الإسلام الصحيح.

وقد سـيقت أخبـارهم - رضي الله عنهم - وأخبـار إمـامهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم مع ما فيما من بشرية حقيقية، ومثــالا جامعا لأنها دين، وهي تشريع لكل زمـان ومكـان، فحينئذ لا تـرى التهـويلات الـتي لا مكان لها في حياة البشر، فليس هناك الصـحابي الـذي لا يضـحك أبـدا، وليس هناك الصحابي الذي لا يخاصم أحدا أبـدا، وليس هنـاك الصـحابي المعـتزل حيـاة النـاس وحـركتهم، وليس هنـاك (مدينة المـوت) الـتي لا يوجد فيها صخب الأسـواق وخصـومة الباعة ومنازعة الحقـوق، بل تـرى الحيـاة بكل صـخبها وكل حركتهـا، وتـرى بشـرية الإنسـان بما فيها من نـوازع ورغبـات وشـهوات. فلو قـرأت صـحيح الإمـام البخـاري وصـحيح مســلم لــرأيت الحيــاة الحقيقية والنمــوذج الحقيقي الواضح للإنســان النموذجي، وللإسلام عندما يطبق.

حينها ترى عبادة العباد بصورة صحيحة وتـرى جهـاد المجاهـدين بصـورة صحيحة، فأنت حين تـرى المسـجد وما فيه من عبـادة الصـحابة، تـرى فيها بشرا يضحكون ويتسامرون ويختصمون، بل ويتضاربون بالنعال.

وأنت حين ترى المجاهـدين تـرى شـجاعة القـوم ببشـرية حقيقيـة، فهم يتألمون حين يصـابون، ويصـرخ أحـدهم من الألم، وهم ربما هـرب المقاتل منهم فهو يصــارع نفسا بشــرية قد تغلبه وقد يغلبهـــا، ثم هم يغنمـــون فيختصـــمون على الغنيمة وتعلو أصـــواتهم، وهم يـــبيعون ويشـــترون ويختصــمون ويحتــاجون إلى من يحكم لهم، وقد تخــرج من فم أحــدهم الكلمات (كلمات البشر حين الخصومة)، وقد يتنازعون حــتى يحلف الواحد منهم أن لا يكلم صاحبه، بل ربما مات أحدهم وهو مخاصم لأخيه.

وأنت ترى الزوج في بيته في حركة حقيقيـة، فهـذا يشـتهي زوجته وهي قائمة تصلي، وهذا يضـرب زوجتـه، وهـذا يـداعب أولاده، وهم مع ذلك كله أوليــاء الله تعــالى. إنه النمــوذج الحقيقي للإســلام الصــحيح والبشــرية الحقيقية، هم أولياء الله حقا، والنخالة في غيرهم.

السلفية والتقليد:

لما كـان التقليد شـرا من كل وجـه، ويكفي أنه يعطل أعظم نعمة لله على عباده، وهي إطفاء نور العقل الذي يتميز به الإنسـان عن غـيره، فـإن سـبيل الشـيطان في تحجيم دور الحق في نفـوس أتباعـه، ثم إماتتـه، عن طريق الخمول والكسل اللذان استعاذ رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم منهمـا، والـدعوة السـلفية في أصـلها إحيـاء للقواعد الـتي أحيت في الأمة روح البحث، وفجرت في نفوس الأمة عوامل البناء والنظر المبدع، وهكـذا ينبغي أن تكـون، ويجب على أصـحابها المحافظة عليها من عوامل الـدخن والتشـويه، فالـدعوة السـلفية هي إحيـاء المنهج العلمي وتجريـده من الشـوائب الفاسـدة، والعوامل الدخيلـة، وهي كـذلك تحطيم لأغلال الإرادة المعوقة لاسـتقلال الإنسـان في البحث والنظـر، فتجريد المنهج العلمي، يحمي المرء من الظن الفاسد، والوهم الكاذب، وتحرير الإرادة يمنع المرء من الوقـوع في الهـوى، والهـوى في أهل التقليد هو الكسل الآمن، وهو الـذي يـدفعهم إلى ربط عقـولهم بدعة واطمئنـان في أيـدي غـيرهم دون تمحيص ومجاهـدة، وقد جع الله تعـالى الظن والهـوى في آيـة، وجعلهما مقابل الحق الـذي بعث به رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال الله تعـالى: {**إن يتبعـون إلا الظن وما تهـوى الأنفس، ولقد جـاءهم من ربهم الهدى**}.

وقد بدأت الـدعوة السـلفية بكل قـوة بتحطيم أوهـام الظن، ومعوقـات الهـوى في بداية أمرهـا، فنشـأت بـوادر التحقيق العلمي قريبا من النص المعصوم، وبعيدا عن الآراء والاجتهادات الواهمة، وشنت الغارة تلو الغـارة على معاقل التقليد والعصبية والمذهبية وبدأت عملية إحيـاء المنهج العلمي على صـورة تطبيقـات لمسـائل أغلبها قد بحثت عند المتقـدمين، كتحقيق الصلاة النبوية الصحيحة، وكذلك حقيقة الحج ومسائله، والزكـاة ومسـائلها، والجنائز وما يتعلق بها، وبدأ المرء يقرأ حديث رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ومنه مباشـرة يتعامل في أخذ الحكم الشـرعي، وكـان مما دافع به بعض مشـايخ السـلفية هـذه الاجتهـادات، حين اتهم خصـوم السـلفية من المـذهبيين والمتعصـبين أن على هـؤلاء المجتهـدين الجـدد (السـلفيين) أن يبحثوا في المسائل الجديدة الحادثة، ويجتهدوا في إعطاء الأحكام للنوازل، لا أن يتعبوا أذهانهم، ويصرفوا جهودهم للمسائل الـتي أشـبعت بحثـا. كـان جـواب السـلفيين على هـذه الانتقـادات يقـول: إننا نتمـرن في الاجتهـاد والبحث العلمي في هـذه المسـائل الأولى والـتي من خلالها نـترقى في الوصول إلى عظائم المسائل ودقائق الأحكام.

وهذا جـواب منطقي صـحيح، وهو اعـتراف أن هـذه الأعمـال تطبيقـات مرحلية وليست النهاية ولا منتهى الطلب.

وقد شن السـلفيون غـاراتهم الموفقة على الكتب المذهبيـة، وأسـقطوا عصمتها حين كشفوا للناس أن هذه الكتب لا تملك الـدليل المعصـوم وهي في أغلبها آراء وأقـوال رجـال، لا يملكـون العصـمة في أنفسـهم، بل هم عرضة للصـواب والخطـأ، فـأعرض طـالب العلم عن كتب الآراء والفقه المجرد عن الدليل، وبدأوا يوجهون قلوبهم وعقولهم إلى كتب النصوص، أو إلى كتب الفقه المشبعة بالدليل، وبدأت صـور من المعـارك نحو اكتسـاب الأهداف من الأطراف المتناقضة في هذه المسائل وغيرهـا، وبـدأ الشـباب

المجتهد يقيم المعارك في المساجد والجلسات واللقـاء ات لتحقيق المنهج السـلفي الصـحيح، حـتى تحقق له الكثـير من المكاسـب، وغنم الكثـير من الأهـــــداف، وهي مكاسب تحققت عن طريق المناقشـــــات الحامية في المسـاجد حـتى كـاد الأمر يصل إلى ما لا يحمد عقبـاه من رفع الأصـوات والتقاذف بـالتهم والـرمي بالجهل وعـدم احـترام العلمـاء، وكـذلك تحققت كتب حوت أبحاثا علمية مجردة إلا من الأحاديث، أو الاجتهـادات المصـاحبة للدليل.

وفي النهاية أوجد هذا التيار الجديد القديم مكانا ووجودا وبدأت علامـات الزهو والغرور تستقر في عقله ونفسـه، فبـدأت الانتكاسة في نهاية الـدور الأول لهذا الوليد الحي. فما الذي حدث لهذا التيار الجديد؟.

أراد هذا الوليد أن يربط المسلم بالنص من خلال طرحه لمسـائل يومية ملحة عليه ويتعامل معها دوما، فهناك صفة صلاة الرسـول صـلى الله عليه وسلم كأنك تراها، وهناك أحكام الجنائز، وهناك أحكام الحج، وهناك أحكـام المولــود، وهنـــاك.. وهنـــاك.. وهي كتب أرادت إحيـــاء النص ليتعامل معه المســـلم مباشــرة، وما إن أقبل الشـــباب المســـلم عليها بلهف وشـــوق، ولعوامل قدرية سننية كـان البعض من المشـاركين في هـذه الكتب يجـني بعض المغانم المادية، وللقاعـدة المتبعة في اتهـام الخصـوم (تغيـير شـكل من أجل الأكل) فإن الفكرة ما لبثت أن ماتت في مهـدها، فظهـرت الكتب المذهبية الجديدة، والعصبية المتطورة فكتاب صـفة صـلاة الرسـول صـلى الله عليه وسلم صار مختصر صفة صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

و قد يتـــوهم ســـلفي أن المختصر إنما هو الاقتصــــار على ذكر النص الحديثي فقط، وبدون زيادة، أي من غـير ذكر الاجتهـادات الخاصة والـرؤى الذاتية ولكن خـــاب ظنهم، فقد كـــان المختصر هو إزالة النص المعصـــوم والإبقاء على متن هو خلاصة رؤى ذاتية واجتهادات خاصة، ولما سأل سائل لم فعلتم هذا؟ كـان الجـواب: من أجل أن لا نشـغل العـوام بما لا يعـنيهم، ولتقريب الفقه إلى غمـار النـاس، ومن أراد معرفة الـدليل فليرجع إلى أم الكتاب وأصله.

وهكذا صنعت الكتب الأخرى كأحكام الجنـائز وغيرهـا. وعـادت السـلفية مذهبية وتقليدا.

وهــــذه الحجج الـــتي قيلت هي هي بعينها حجج أهل التقليد الأوائــــل، فالإمـام السـلفي محمد بن إدريس الشـافعي حين ألف كتابه القيم "الأم" وهو كتـاب فقهي جـامع للنص واجتهـادات الإمـام من تصـحيح حـديث ومن استنباط مسألة، وهو إمام عظيم كان ينهى أتباعه عن التقليد، وبدأ تلاميذه يعلقــون على كتابه ويزيــدون وينقصــون، وبعد طــورين أو ثلاثة من وفــاة الإمام نشط بعض أتباعه بتقريب فقه الشـافعي للعـوام، فما كـان منهم إلا أن اجتهدوا فاختصروا الكتب بأن أبقوا على نصـوص الإمـام، وأزالـوا الأدلة وقالوا للناس ما قاله أتباع المذهب الجديد، وعلى ضوء هذا تشكل مــذهب الشافعي، وهو من هو في نهي الناس عن التقليـد، ولو استشـير في زمانه أن يكتبوا رأيه بلا دليل لاستشاط غضبا، ولبين لهم ضلال فعلهم وصــنيعهم، ومثل مـذهب الشـافعي تشـكلت كثـير من المـذاهب الفقهية الأخـرى من حنفي ومالكي وحنبلي إلى غير ذلك، وهم على كل حال تشـكلت مـذاهبهم

بالصـورة المقيتة بعد وفـاتهم، وجزما بعد وفـاة تلامذتهم المباشـرين لهم، ولكن مذهبيتنا المعاصرة تشكلت في عصر أئمتنا ومشايخنا.

ولما سـقطت صـورة التقـديس الباطلة من نفـوس الشـباب نحو الأئمة وغرست في نفوسـهم مقولـة: أنهم بشـر، يخطئـون ويصـيبون، فصار من الأمر المعتاد، والمشـاهد المألوفة أن تجد طالبا مبتـدئا أتقن مسـألة علمية وبحثها بحثا مقبـولا أن يكتشف خطأ أبي حنيفة أو غـيره من الأئمـة، فيعلن بكل صراحة أن مذهب الحنفية أخطأ في هذه المسألة، وهي صورة لا تنكر إن قـامت على سـوق صـحيحة، ولكن مـذهبيتنا الجديـدة صـنعت قداسة جديدة لأئمة محدثين، وصار من الجرم الذي لا يغفر، والذنب الذي لا يتـاب منه أن تقترب من حمى الشيخ، أو أن ترد عليه.

وقد جاهـدت السـلفية الأولى أن تعمم الفقه خـارج دائـرة المـذاهب الأربعة فصار من العلم وسماته أن يذكر المرء رأي ابن حـزم الظـاهري أو رأي أهل الحديث كالبخاري ومسـلم، ولكن عباقرتنا الجـدد يـأبون علينا أن نخرج عن لفظ الأربعة، فلا رأي يقبل ولا قول يحترم إلا إذا خـرج من تحت عمائم الشيوخ "السلفيين" وعددهم أربعة، قد يتفقـون على اثـنين أو ثلاثـة ثم يختلفـون في البـاقي. هـذا ما كـان من أمر الظن والتقليـد، أما تحرير الإرادة فلها مجال آخر.

دعوى تطوير الخطـاب الـديني بين العلمـانيين والآرائيين:

بنظـرة يسـيرة نـدرك أن أمتنا فيها أمـراض ذهنية وأمـراض نفسـية، والعلاقة بينهما علاقـة تضـامنية ومطـردة، كل مـرض يـدفع المـرض الآخر للارتقاء والتنمية، النفس تمد العقل بالهوى، والعقل يـبرر هـذا الهـوى على صـورة أفكـار تحمل سمة العلم والبحث، ومنشـؤهما: الظن والهـوى {**إن يتبعـون إلا الظن وما تهـوى الأنفس، ولقد جـاءهم من ربهم الهدى**}، وجذور الأمراض النفسـية هي نفسـها جـذور الأمـراض الفكريـة، لكن الغريب أن سـبب هـذه الأمـراض هو الـدعوى أن الأمة بحاجة لمنـاهج جديـدة وطـرق جديـدة لصد الخصـوم الخـارجيين. وتحت دعـوى تطـوير الخطاب يتم تطـوير المضـمون (أي حـرف المضـمون)، فيتجـدد الـدين أي يصبح شيئا جديدا لا يعرفه الأوائل.

كيـــف نشـــأت دعـــوى تطـــوير الخطـــاب الـــديني؟:

نحن أمام تجربة سـبقت في تمرير مفـاهيم بدعية ضـلالية، وقد قاومتها الأمة أحسن مقاومة ولكنها اسـتطاعت لأسـباب قد نـأتي على ذكرها يوما أن تقتحم السور وتستقر في داخله كممثلة وداعية للإسلام الصافي.

مضمون الدين مرتبط بطريقة الخطـاب ارتباطا حتميـا، وما من محاولة يقـوم بها أهل الأهـواء لتطـوير الخطـاب إلا ويكـون القصد (ويقع بالفعـل) حـرف الـدين عن مفاهيمه الصـحيحة، وما من محاولة لحـرف الـدين عن مفاهيمه الصحيحة إلا ويضطر أصحاب هذا الانحـراف إلى اسـتخدام ألفـاظ جديدة وبنى للخطاب الديني، وخلال مسيرة التحريف يرفع أصحاب الأهواء راية التقدمية والعقلانية وينــبزون خصــومهم بألقــاب الرجعية والحشــوية والتزمت.

وعلى الرغم من أن أهل الأهواء في هذا الباب تتفاوت مراتبهم وتتبــاين درجاتهم إلا أن أغلبهم يريد أن ينشئ فقها جديدا، وتسيير بدعة جديــدة بين المسلمين.

مراتبهم تتفاوت من نبز الخصوم (والخصوم هنا هم أهل الحديث والأثر) بالعقلية الفقهية، إلى درجة تسميتهم بالأرثوذكسية الإسلامية.

أصحاب الأهـواء هـؤلاء ليسـوا بدعة نابتة في يومنا هـذا، بل لهم امتـداد زمني منذ (1200) سـنة هجرية مضت ودعـوى الإبـداع هي دعـوى خبيثة لا جذور لها، بل هي قائمة على الكذب والتضليل.

فالمعتزلة يسمون أهل الحديث بالحشـوية، وقصـدهم من ذلك أن أهـل الحديث لا يعملـون عقـولهم في النص، بل دورهم التقليد والاتبـاع وهو دور العوام وضعاف العقول من الناس. وسموهم كذلك غثاء وغثراء (أي سـفلة النــاس). وكــذا قلد المعتزلة المتكلمـون من أشــاعرة وماتريديــة. أما هم فذهبوا يتقنعون بأردية الألقاب الرنانة كأهل العدل والتوحيـد، وأهل الحكمة والنظر، وأبصر الناس بمقاصد الشريعة، ومآلات الأمور.

أما تفاوتهم الذي تكلمنا عنه فهو واقع ولا شك في عصرنا هــذا، ولكنهم كلهم مجمعـــــون على تحطيم الذهنية الفقهية في التعامل مع الأمــــور، ويــأنفون من الأبحــاث الأصــولية الــتي تنهج الطــرق الســلفية في البحث والنظر.

إن العقلية الفقهية هي التي تحمي المرء من الانزلاق في الأهواء الردية تحت دعـوى حرية البحث وتجديد الخطاب الـديني، أو تحت دعــوى وجــود اختلاف وجهات النظر الفكرية.

وقبل أن أضرب الأمثلة على هـذه الطريقة الخبيثة فـإن علينا أن نتـذكر أن هؤلاء القـوم يزعمـون أن قيـامهم بهـذا المطلب - وهو تجديد الخطـاب وبالتالي تجديد المضمون - إنما هو لحرصهم الشـديد على إعطـاء الإسـلام قوة وآلية جديدة لتستطيع الوقـوف أمـام المد التغـريبي العـاتي. لقد سمح المبتدعة الأوائل لأنفسهم هذا الابتداع وهذا التطـور المزعـوم تحت دعـوى موافقة الشريعة للحكمة اليونانية، حتى لا ينشـأ في عقـول العـوام اهـتزاز من صلاحية الشريعة وصواب مقولاتها.

التفــاوت يمتد من العلمانية المائعة (وهو اصــطلاح يطلقه العلمــانيون الملحدون والذين يرفضون التبرير للعلمانية من خلال مرجعية مقدسة مثل القرآن والســنة، وإنما مرجعية العلمانية عنــدهم هو الإنســان مســتقلا، والمقصود عندهم بالعلمانية المائعة الـذين يـبررون للعلمانية ويحتجـون لها بالكتـاب والسـنة والـتراث) وهـذا الأسـاس يـدخل في قيـده كم طائل من المثقفين والمفكرين (كما يحلو للناس أن يسموهم) وعلى رأسهم:

1 - **حسن حنفي**: ومشــروعه الــتراث والتجديــد، وانظر كتابه "من العقيدة إلى الثورة".

2 - **محمد عابد الجابري**: ومشروعه نقد العقل العربي ويقصد العقل الإسلامي.

3 - **محمد أركون**: ومشروعه نقد العقل الإسلامي.

وغيرهم الكثير.

قلنا إن التفــاوت كــذلك يمتد من العلمانية (المائعــة!) إلى الآرائية من مفكري الإسلام وبعض فقهائه المتميعين أمثال:

1 - راشد الغنوشي.

2 - حسن الترابي. 3 - محمد الغزالي وغيرهم الكثير.

بل يصل هذا الأثر إلى بعض المنتسبين إلى مسميات السلفية والجهادية وغيرها، فقد نشأ في هذه المسميات من يقدح ويستهزئ بالعقلية الفقهية، والمنهجية السلفية في البحث العلمي والتحليل.

وقد يكون من المشاريع الهامة جدا في هذا الظرف نصب المجانيق وتجهيز الجيوش لغزو هؤلاء المبتدعة ودك حصونهم، وكشف مآلات أفكارهم وضلالها، من أجل إعادتها إلى جحورها مهزومة خاسئة كما فعل أسلافنا.

صحيح أن هؤلاء فقدوا أسباب النصر ومن أهمها عدم توفيقهم لخطاب الفطرة كما هي طريقة القرآن الكريم والسنة النبوية والسلف الصالح فبقي خطابهم نخبويا أكاديميا لا ينزل إلى مستوى حركة الشعوب والتأثير على الإنسان إلا أن خطورته تكمن في آثاره التي ستبقى عالقة في أذهان بعض قادة الحركات الإسلامية مما يجعل المرحلة القادمة تتهيأ لنصر هؤلاء المتكلمين الجدد. وذلك كما انتصر المتكلمون القدماء في كسب الساحة إلى صالحهم.

لقد فشل المعتزلة فشلا ذريعا، وخرجوا من المعركة مع أهل السنة بخفي حنين حتى أن تراثهم لم يبق منه إلا شيء يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، ولم يبق من كلماتهم وأفكارهم إلا التي حفظت كتب المقالات والفرق، ولكن أفكار المعتزلة وطروحاتهم ومناهجهم تطورت مع جماعة من المبتدعة، إذ تشربوا منها بعض نفثاتها وأصابوا من أفكارها كما أصابت الأفكار منهم فنشأ ما يسمى بالمتكلمين من الكلابية والأشاعرة والماتريدية، وبقليل من الجهد والتحالف مع الفكر الصوفي الغنوصي استطاع هؤلاء المتكلمون أن يحكموا سيطرتهم على النتاج الإسلامي والساحة السياسية والمنهجية في العالم الإسلامي.

وبصورة أوضح نقول صحيح أن عمرو بن عبيد والجهم بن صفوان والغزال وأبا هاشم الجبائي وأبا علي الجبائي وغيرهم من مشايخ المعتزلة لم يتقلدوا قيادة الأمة، ولكن مهدوا الطريق، وسهلوا المهمة لمن جاء بعدهم من أفراخ المعتزلة، حتى صار هؤلاء المخانيث (أي أفراخ المعتزلة من أشاعرة وماتريدية) هم قادة الفقه والفهم في تاريخ أمتنا، وبالتالي لنا أن نطلق صرخة التحذير مع عدم خوفنا من تقلد العلمانيين المائعين لقيادة الشباب المسلم والتيارات الإسلامية في البلاد، ولكن صرخة التحذير من تولي أفراخهم ومخانيثهم لهذه القيادة في الزمن الحاضر والمستقبل.

إننا نرى بعض أثار هذه الأفكار بدأ يغزو وبقوة وبطء الشباب المسلم، وبدأت مظاهره على صورة احتقار الخطاب الفقهي الصارم: هذا حلال، وهذا حرام، إلى دعوى جديدة وهي احترام وجهات النظر، والسماح بالتفكير إلى أبعد الحدود وفي المقدسات.

دعـــوى حضـــارية الخطـــاب العلماني الآرائي وتخلف الخطاب السلفي الأثري:

لقد بدأ بعض الشباب ينبز العقلية الفقهية والخطاب السـلفي بـالتخلف، وأنه خطـاب غـير حضـاري، ولا يلائم هـذا العصر ولا يوافقـه. لكن علينا أن نتـذكر نقطة مهمة ومهمة جـدا وهي أن الخطـاب الفقهي هو الذي يحفظ لهذا الـدين جـوهره لأنه يحمل في ثنايـاه - بل في كل ثنية فيه - وكل لفظ فيه حقيقة هذا الدين، وأن هذا الدين هو خطاب الـرب لعبيـده، وأن القصد من هذا الخطاب هو تحقيق الدين في العبد، بأن يصبح متدينا تدينا إسلاميا، وإن أقـل ما يصـنع هـذا الخطـاب البـدعي المنحـرف رجلا مفكـرا تفكـيرا إسلاميا، ويظهر هذا واضحا بين شخصيتين ومثلين، فلو نظـرت إلى صـورة نموذجية لهـؤلاء المبتدعة الجـدد لـرأيت أن مجـرد الحـديث عن الالـتزام العلمي بالإسلام داخل في حـديث النكتة والطرافـة، وإن رجلا من رجـالات الفكر الإسـلامي **كالعقـاد** مثلا كـان يعقد ندوته الأسـبوعية وقت صـلاة الجمعة، وهو مثال عليك أن تضربه بعشرة هذه الأيـام لتعلم مقـدار الـتزام هؤلاء المفكرين بالإسلام وتشريعاته.

الخطـاب الحضـاري المزعـوم القصد منه إفـراغ الإسـلام من حقيقته وجـوهره وأنه دين جـاء للنـاس ليمتثلـوا أمـره، ويخضـعوا لـه، الخطـاب الحضـاري المزعـوم يصـنع شخوصا تؤمن بالإسـلام الحضـاري على صـورة أفكار ممتعة نتداولها في سهراتنا وندواتنا وأحاديثنا.

لقد بـدأت بـذرة الخبث تطل برأسـها من احتقـار الحـديث عن الفقه وأحكامـه، وعن المجـال الـذي يهم الإنسـان الفطـري وهو العمـل، إلى الحديث عما لا فائدة فيه سوى كونه متعة مشروعة إذا كان بعد العمل.

إن أئمتنا كانوا يكرهـون من الحـديث ما لا يتبعه عمـل، وقد ألف الإمـام **الخطيب البغدادي** كتابا سماه "اقتضاء العلم العمل". وقد كـره السـلف الكلام في الخطـرات والوسـاوس، حـتى أن الإمـام **أحمد** بـدع الحـارث المحاسبي لكتابته هـذا النـوع من العلـوم لأنه لا عمل تحتـه، وهو إشـغال الناس بشيء لا فائدة فيه، أو لنقل فائدته أقل من غيره.

العقلية الفقهيـة، والمنهج السـلفي يحفظ لنا اسـتقلالنا، ويعرفنا بـأقرب طريق ماذا يريد الله منا، وإن معرفتنا لمراد الله من أجل العمل هو مقصد خلقنا.

دعاة التجديد والتحـرر المعاصـرين يجمعهم قيد واحـد، وينتظمهم سـلك جامع هو دعوتهم إلى تجديد أصول الفقه، لأنه بتغـير أصـول الفقه سـتخرج نتـائج مختلفة عما خـرج به الأوائل من أحكـام وأوامر فهموها من الكتـاب والسنة، وقبل أن أخوض باختصار في جذور هذه البدع فإني أنبه إلى نقطة مهمة وهي أن كتب الأصـول الحديثـة، والتي كتبت من قبل المعاصـرين لا نستطيع أن نعدها كتب أصول كما هو إطلاق الأوائـل، فكتب الأصـول هـذه عبارة عن مصطلح أصول الفقـه، أي شـارحة لمصـطلحات أصـول الفقـه، فهي تعرفنا بأدلة الأحكـام الإجماليـة سـواء كـان المتفق عليها كالكتـاب والسنة والإجماع والقياس، أو المختلف عليها كقول الصحابي والاستحسان والعــرف وغيرهــا، ثم هي تعــرف القــارئ بمــراتب الأحكــام من واجب ومستحب ومباح ومكروه وحرام، وهكـذا هي تشرح فقط مصـطلحات هـذا

الفن العظيم، ولا تعالج آلية عمل هــذه الأصــول في اســتخراج الحكم الشرعي، بمعنى أن هذه الكتب لا تنشئ أصوليا، وبالتـالي لا تنشئ لقارئها ذهنية وعقلية قـادره على اسـتنباط الحكم الشـرعي أو الـترجيح بين الأدلة (أي الملكة الأصـولية)، فكتب الأصـول هـذه هي كتب مصـطلح فن أصـول الفقه فقــط، وهي بهــذا على خلاف الكتب الحديثية القديمة في أصــول الفقه وعلى رأسها كتاب الإمام الشافعي "الرسالة".

أصول الفقه السلفية مأخوذة من منبعين اثنين:

أولهما: اللسان العربي وأساليبه.

ثانيهما: العلاقة بين المخاطِب (بكسر الطاء) والمخاطَب (بفتح الطاء).

ولنضرب على ذلك مثالا:

لو جاز للنـاس أن يختلفـوا في دلالة الأمر في أصل اللغة العربيـة، وهل يفيد الوجــوب (كما هو رأي الجمهــور) أو يفيد غــير ذلك أم أنه لا يفيد إلا مجـرد الطلب، قلت: لو جـاز للنـاس أن يختلفـوا في أصل الوضع اللغـوي لصـيغة الأمر هـذا الاختلاف لما جـاز لهم أن يختلفـوا على دلالة الأمر في الكتــاب والســنة، وســبب ذلك أن العلاقة في هــذا الخطــاب بين الآمر والمأمور هي علاقة العبودية - سيد يأمر وعبد يطيع - وهـذه العلاقة تـوجب على الدارس أن يحمل صيغة الأمر على الوجوب وعلى الفـور كـذلك، فلو طلب صـديق من صـديقه - علاقة متكافئة - شـيئا واسـتخدم صـيغة الأمر فإنها لا تحمل في طياتها دلالة الوجوب، لأنها لم تقع على صـفة الاسـتعلاء، والأمر في الكتـاب والسـنة وكـذا النهي إنما يقعـان على وجه الاسـتعلاء - سيد يأمر وعبد يطيع -.

ولما كـان القـرآن والسـنة لغتهما عربية فـالمرجع في الفهم هو العربية وأسـاليبها، ولما كـان - هـؤلاء المبتدعة قد تنشـقوا وتضـلعوا في غـير بيئة العرب، ونشأت دراستهم في معاهد غربيـة، فـإنهم ظنـوا أن هـذه الطـرق الجديــدة في التحليل والتفكيك - كما يســمونها - هي الأقــدر على معرفة مراد الله في كتابه ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم في سـنته، وتكـون قواعد هذه الآلية والعقلية والملكة لا تسـتند إلى القواعد العربيـة، فيشـنوا غاراتهم على أصول الفقه لوجوب تجديده - أي تغييره -.

دعاة التجديد وتهافت الخطاب:

حسن الــترابى دعا أول ما دعا إلى تجديد أصــول الفقه وخــرج بنتــائج مرعبة تطمس قواعد الشريعة وتلغي ثوابتها، وقال فيما قال: الإجماع عند الأصوليين هو اجتماع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على حكم شـرعي.. وقال: الشرط الذي وضعه الأصوليون بـأن الإجمـاع هو إجمـاع المجتهـدين شـرط باطل لأن الشـريعة جعلت الطاعة لله تعـالى ولرسـوله صـلى الله عليه وسلم ولأولي الأمر، فأولي الأمر هم العلماء والحكـام، ومحاولة جعل طبقة تسـمى العلمـاء في المجتمع الإسـلامي محاولة خبيثة (هكـذا يقـول) القصد منها تعطيل الأمة عن ممارسة حقها، ثم سـلبهم بالتـالي هـذا الحق وإعطائه للعلماء، والعلماء قد قننـوا هـذا السـلب في كتب الأصـول (هكـذا يفتري على الأئمة الأعلام). قال: وهذا الإجمـاع عند بعض الأصـوليين (وهو الصـواب في رأيـه) أقـوى من الكتـاب والسـنة، أي الأمة لو اجتمعت على شـيء وهو بخلاف ما علم من الكتـاب والسـنة فالصـواب ما اجتمعت عليه

الأمة للأثر ((لا تجتمع أمتي على ضلالة)). ثم يقول: ولما كان صعبا وصــعبا جدا معرفة آراء الناس جميعا، فالطريقة المقترحة لمعرفة هذا الإجماع هو أن يختار كل تجمع نائبا لهم ووكيلا يمثلهم، فإذا اتفق هؤلاء النواب والوكلاء على أمر فهو حكم الله تعـالى، لأنه حكم الإجمـاع، أي البرلمـان الإسـلامي هو الذي يقرر لنا الإجماع، فلو قال لنا البرلمان المنتخب حكما من الأحكام فهو حكم الله المراد ولو كان يخالف الكتاب والسنة.ا.هـ.

أرأيتم هـذا التجديد إلى أي شـيء وصـل؟!، لقد وصل إلى الكفـر، نعم الكفر بالله حيث أجــاز للنــاس أن يشــرعوا على خلاف الكتــاب والســنة صراحة، لقد حذر الإمام الشافعي من ترك الناس أصول العرب، أي أصول الفقه واتخاذهم المنطق دينا وسبيلا قال رحمه الله تعالى: ما جهل النـاس، ولا اختلفـــوا إلا لـــتركهم لســـان العـــرب، وميلهم إلى لســـان أرسطوطاليس.ا.هـ.[1]

قد يقول قائل: أنت تفتري على **حسن الترابي** باتهامه تبديل الشريعة وتغييرها، فـأقول لهـذا القائل اقـرأ معي هـذا النص جيـدا: "تراثنا الثقـافي المتمـــيز أيضا مما ينبغي أن نحفظ أصـــالته - وأن نبني عليه - تفــاعلا مع الآخرين، وتجديدا له وتجاوزا له في بعض حين".[2]

نعم: وتجـاوزا له في بعض حين، وهـذا الحين غـير مقيـد، ولا ضـابط له بكونه قليلا أو كثيرا، فما كان قليلا عند الآخرين هو كثير عند البعض الآخر.

مـــــــــاذا تقـــــــــول العلمانيـــــــــــة المائعـــــــــــة؟:

محمد أركون هو أكـثر هـذه الزمـرة أدبـا، وهو يعلن في كل كلمة أنه لا يتحاوز الكتاب والسنة ولكنه يقـدم آلية وملكة تعلمها من المعاهد الغربيـة، وبهـــذه الآلية سيجعل الفكـــر الإســـلامي يخـــرج من قمقمه الصـــدئ ومن أرثوذكسيته - كما يقول - إلى رحاب العالمية.

شـــرح محمد أركـــون شـــيما عن مشـــروعه في كتابه "أين هو الفكر الإسلامي المعاصـر" (ناشـره دار السـاقي) يقـول في المقدمة الحزينة له حيث يشرح فيها نفسه: ولذا لم أزل منذ ما يزيد على ثلاثين سنة أدعو إلى إحياء الموقف الفكري الديناميكي المتفتح لهـؤلاء المفكـرين القـدماء وألح في الوقت نفسه على ضرورة التخلي عن مبادئهم ومقـدماتهم ومنـاهجهم وإشكالياتهم ونظرتهم إلى العالم والتاريخ والمجتمع والإنسان لأن ذلك كله داخل في الفضاء المعرفي الخاص بالقرون الوسـطى عند المسـلمين كما عند المسيحيين واليهود وسـائر الثقافـات المعروفة في العـالم . انتهى من المقدمـة، ومـراده أن يصل إلى النتيجة التالية وهي: المعـارف الـتي وصل إليها أسلافنا من قبل هي إسـقاطات فكرية متخلفة كما هي في منـاهجهم المتخلفـــة، وإذا أردنا أن نصل إلى معـــارف جديـــدة فلا بد أن نفهم هـــذه التعــاليم من وجهة نظر تاريخية وليست مطلقــة، وعلى هــذا فــإن الــذين يحـــاولون أن يجبرونا على الفهم القـــديم (كما يـــزعم) هم في الحقيقة أرثوذكسية طارئة وحادثة.ا.هـ. واعلم أخي القارئ أن هـذه الورقـات تقصر عن ذكر المصطلحات الجديـدة الـتي لم يعرفها الأوائـل، وهي مصـطلحات لعلم الأصول الجديد الـذي يزعمه هـؤلاء، وسـأذكر لك بعضـها كـأفراد دون

---

[1] - أورده بدر الدين بن جماعة في تذكرتـه. انظر كثيرا من هـذه النصـوص في "صـون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام" للسيوطي.

[2] - وثيقة حسن الترابي إلى المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي.

شرح: المخيال، المعرفة القصصية، المعرفة التاريخية، المعرفة العلمية، المعرفة الفلسفية، السوسيولوجية، الأنثريولوجية، البنيوية، التفكيكية وهكذا..

عليك أخي المسلم القارئ ألا تتهم نفسك بالجهل لعدم علمك بهذه المصطلحات فهم (أهل البدع المكفرة)، يعترفون بعدم فهمهم لها، فمترجم الكتاب هاشم صالح (دكتوراه فلسفة من جامعة فرنسية) اعترف في مقدمته الاعتراف التالي: أنه لم يستطع أن يفهم هذه المصطلحات إلا بعد (10) سنوات وبعضها بعد (3) سنوات من الدراسة في المعاهد الفرنسية حتى استطاع أن يتصور معناها كما أراد مستعملوها، وكم أتمنى لإخواني أن يقرأوا هذه الاعترافات ليدركوا مقدار معاناة هؤلاء العلمانيين في محاولاتهم المرهقة لفهم أصول التحليل والفهم عند المستشرقين من أجل ماذا؟ من أجل فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم {ألا ساء ما يزرون}...

إن الادعاء بأن البيئة من زمان ومكان هي التي جعلت فقهاءنا الأعلام يخرجوا لنا بهذه النتائج العلمية محاولة خبيثة القصد منها إلغاء هذا الفقه وتطويره ليلائم هذا العصر، أي بمعنى أوضح لنجعل الإسلام يلائم الواقع ويساير المجتمعات لا أن نحاول جاهدين مجاهدين لتغيير ترتيب الواقع والمجتمعات لتوافق الإسلام وتلائمه.

الشيخ الغزالي عندما يرد على الحكم الشرعي الذي يقوله جهور العلماء بتحريم الغناء فإنه لا يعالج هذه المسألة بطريقة أصولية حديثية، ولكن يذهب إلى أن تحريم الغناء هو فقه أنتجه الفقه البدوي (البيئة البدوية)، وهو بهذا الترجيح والتعليل يمارس التاريخية (وتعني منهجا يتعامل مع الأحكام من خلال كونها أتت في ظرف تلائمه ولا تصلح لكل زمن، وهي بخلاف قواعد الشريعة وأنها صالحة لكل زمان ومكان) ويعلل الفقه بها، مع أن الشيخ في هذا الباب ومن وجهة نظر إنسانية بحتة قد أخطأ خطأ شنيعا، بل كان دوره كالببغاء يردد الكلام دون فهم، لأن تفاعل الإنسان بالغناء وأدواته لا تختلف بين بيئة وبيئة، فما من إنسان إلا ويهتز للغناء وأدواته (وليس كل تفاعل واهتزاز مباح) بل إن الدواب تطرب للغناء وأدواته، والبدو فهموا هذا الأمر قبل مدينة وحضارة الشيخ الغزالي المعمم، لكن هكذا تظهر بوادر تغيير أصول الفقه.

كما أن كثيرا من البحاثة (تجاوزا) جعلوا النتائج التي وصل إليها الأستاذ سيد قطب وليدة معاناة شخصية أسقطها على كتاب الله تعالى، فخرجت معه نتائج تلائم القهر الذي عاشه وعاناه، أي أن سيد قطب تعامل مع تفسير القرآن بأصول خاصة وليس مع قواعد مطلقة فوق الزمان والمكان، وهم بهذا يريدون القول أن تفسير القرآن هو تفاعل خاص وذاتي وغير ملزم، لكن السؤال: متى يكون هذا التفسير ملزما وكيف يثبت خطؤه؟.

الجواب معروف عند أهل السنة والجماعة، وهو أن القرآن يفسر وهو أفضل التفاسير، ويفسر بالسنة ولا يتعداها إذا وجدت ثم بأقوال الصحابة ثم باللغة العربية.

فعلى هـؤلاء أن يثبتـوا خطا القـول لا بإلغـاء القواعد ولكن بالتعامل مع هــذه القواعــد، لكن هــؤلاء لهم قواعد وأصــول لا تمت إلى اللغة العربية بصلة، ولا إلى قواعد الأسلاف برابطة.

إن هؤلاء المبتدعة يريدون جعل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم نهبا لكل أحـد، يتكلم فيـه كما يشـاء وبقواعـده الخاصـة، ويفتي كما يريد، ويرجح من الأقوال ما يشتهي، ويدفع من الآراء ما يكره.

ألم تسمعوا برجل اسمه جهاد الخازن صحفي ونصراني - صـار مجتهـدا من مجتهدي الإسلام ويرجح ويعدل ويضعف؟.

ألم تســمعوا بــاليهود والنصــارى الــذين صــار لهم الحق أن يقولــوا للمسلمين ما هو الصحيح من الإسلام وما هو الخطأ؟.

نعم هذه هي نتائج هذا الإبداع المبتدع.

مناهج الآرائيين في فقه الخطاب:

الآرائيـون المنهزمـون أمـام حضـارة الشـيطان الحادثـة، الراغبـون بليّ الشريعة وتغيـير أحكامها لتوافق هـذه الحضـارة، لهم طـرق وأسـاليب في تحرير أفكـارهم وفقهم الغـريب، وهـؤلاء القـوم يسـتقر في قلب أحـدهم الحكم ويشـتهيه ثم بعد ذلك يتوجه شـطر كتب الفقه ليبحث له عن قــول يوافق رأيه، وهؤلاء القوم ترى في أحكامهم وأبحاثهم أنه ليس لهم ضــابط يضبطهم، ولا قاعـدة يتعـاملون معهـا، ولو أراد المـرء أن يسـتخرج أصـول فقههم من الفروع التي يتبنونها ويعتنقونهـا لخـرج بـالعجب العجـاب، وليت أحد الباحثين - وأتمنى أن أفرغ لهذا - يقوم باستخراج الأصول من الفــروع - على طريقة الأحنــاف - من كتــاب راشد غنوشي "الحريــات العامة في الدولة الإســلامية" وكتــاب "الجهــاد في الإســلام كيف نفهمــه؟ وكيف نمارسـه؟" **لمحمد سـعيد رمضـان البـوطي**، وكـذا **فهمي هويـدي والغـزالي والقرضـاوي والإخـوان المسـلمين** على الجملـة، وإني لأجزم أنه سيخرج بنتـائج مذهلـة، وبقواعد أصـولية ما قالها أحـد من قبـل، وإن كـان أكثرها يقـوم على قاعـدة التلفيق والحيـل، لكن بنظـرة سـريعة نسـتطيع اكتشـاف بعض قواعـدهم وأصـولهم العجيبـة، وها أنا أمر واحـدة منها.

يكثر الآرائيون المنهزمون الاحتجاج بالعمومات، وخاصة القواعد الفقهية للتدليل على أحكامهم المتبناة والعجيبة جدا، وحتى لو أتى أحدهم بقول لم يأت له فيه سلف فإن قاعدة "لا يُنكر تغير الأحكـام بتغـير الأزمـان" سـعة لهم ليقولوا تحتها ما يشاءون وما يستحسنون وما يشتهون!!، وإن كـان ثم حركة أو فقه جديد توافق هوى القائد أو الرئيس أو الحزب والتنظيم، فـإن باب المصلحة مخلـوع الأبـواب، مهـدم الجـدران يتسع لكل حكم، وقاعـدة: "حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله" فيها السعة أن ننسب لشرع الله ما نريد، والحقيقة أن الخلاف بين هؤلاء القوم - الآرائيـون المنهزمـون - وبين العلمــانيين خلاف لفظي فقــط، فما من باقعة وطامة ومصــيبة تفعلها الأحزاب العلمانية إلا وهذه الأحزاب والشخصيات والمفكرون الآرائيـون قد أتـوا بها وفعلوهـا، وقبل ذلك نسـبوها لشـرع الله تعـالى، أي ازدادوا ظلما على ظلم وهو التقــول على الله تعــالى {**ويقولــون على الله ما لا يعلمون**} والفارق بين الطرفين هو إسناد هذا الحكم، فالعلماني منسـحم

مع نفسه عند نسـبته الحكم لمصـدره، حيث يقـول: هـذا حكم اقتضـته المصلحة الإنسانية، والإنسان مصـدر الأحكـام، فهو حكم صـحيح. وأما هـذا المنتسب للإسلام فيدخل الإسلام في وسط معادلـة، ولكنها تبقى ثابتة (أي المعادلة بطرفيها) المقدمة والنتيجة، ولكن يقول: وحيث ثبت هذا فالإسلام يقر ذلك ويقول به، فأعطى هذا الحكم غطاء شرعيا، ولـذلك أنت تـرى أن الفجوة الفكرية والعلمية ثم النفسية بين هذين الطرفين صـارت ضـيقة بل هي قد تلاشـت، فـالترابي والغنوشي والبـوطي والإخـوان المسـلمون وغيرهم. والكثير صارت بـرامجهم متحـدة مع خصـوم الإسـلام العلمـانيين، وصارت تجمعهم المؤتمرات والشعارات والبرامج والتحالفات، ولقد كـانت بعض المؤتمرات صدمة هائلة لدى هؤلاء العلمانيين حيث صـاروا يسـمعون أن الخلاف بينهم وبين الإسـلاميين خلاف مفتعل أوجدته القـوى الأجنبية لضرب الوحدة الوطنية والمصلحة العليا للوطن، نعم: فعنـدما حضر جـورج حبش ونايف حواتمة وكثير من قـادة الكفر في المـؤتمر القـومي الشـعبي الإسـلامي صُـدموا من خطـاب حسن الـترابي، حيث تطـوع بإضـفاء صـفة الوطنية والقومية والنضال عليهم، وضيّق الفارق بين الإسلاميين وبينهم.

ولعل الظاهرة الأخيرة في ترشيح محفوظ النحناح على منصب الرئاسة الجزائرية كشف للنـاس عـدم وجـود الفـارق بين سـعدي ونحنـاح وزروال وبوكروح، كلهم يتكلم بنفس التطلعات والأحكام التي يريد نشـرها، والعمل على تحقيقها والفارق الوحيد بين نحنـاح وبين البقية هو اسـتخدام النحنـاح لغة الإسلام في جذب الجمهور، وتركيبه اللحية على ذقنه، فالبرامج واحدة والأحكام واحدة، فقط النحناح لا ينسى أن يزين خطابه بشـيء من النفس الإسـلامي، ولكن لا فـرق جـوهري، وعلى ضـوء هـذا فإنه يحق للعلمـانيين (الصلبين) اتهام الإسلاميين بالوصولية، واستخدام الإسلام لمقاصد شخصية ولمآرب ذاتية، لأن العلماني لا يرى عند الإسـلامي!! قيما جديـدة يطرحهـا، ولا مفاهيم محددة تفترق عن الآخرين يدعو إليها.

القواعد الفقهية والحـــديث النبـــوي (الكلي والجزئي):

ما هي القواعد الفقهيــة؟ وهل يجــوز الاحتجــاج بهــا في الاستدلال؟.

على الجملة هؤلاء لا يقيمـون شـأنا للحـديث النبـوي، ومن السـهل رده وعدم الأخذ به: فهـذا حـديث آحـاد، وهـذا على خلاف العقـل، وهـذا اختلف حوله العلماء، وهذا قد ضعفه بعض النـاس، وهـذا فيه إشـكال، وهـذا راويه ليس فقيها، وهكذا... وصدق فيهم من قال: إيـاكم وأصـحاب الـرأي فـإنهم أعـداء السـنن، أعيتهم الأحـاديث أن يحفظوهـا، فقـالوا بـالرأي فضـلوا وأضلوا.[1]

أما القواعد الفقهية فهي ليست كليــة: أي لا يــدخل فيها جميع أجزائها وأفرادها بل هي أغلبية كما قال صاحب الفروق الإمام القرافي (1/36)، أي لا يــدخل في القاعــدة جميع أفرادها من الفــروع، ولهــذا فحفظ القواعد الفقهية لا يغـني المـرء من النظر إلى الـدليل الخـاص، بل الـواجب عليه النظر في الدليل الخاص في المسألة، ولذلك كثيرا ما يقول السيوطي في

[1] - وهو منسوب لعمر رضي الله عنه، انظر السنة للالكائي رقم 201.

الأشباه والنظـائر عند ذكر القواعـد: والـترجيح مختلف في الفـروع، ولهـذا أنشأ القرافي كتابه الفـروق، إذ قد تـدخل بعض الفـروع في قاعـدة ولكنها تفترق عنها لوجود بعض المؤثرات الأخرى لتجـاذب العلل والمـؤثرات على الفـرع الواحـد، ولـذلك اتفقـوا على عـدم الاحتجـاج بالقواعد الفقهية على الفروع، يقول ابن نجيم: إنه لا يجوز الفتوى بما تقتضيه القواعد والضوابط، لأنها ليست كلية بل أغلبية.[1] وجاء في شرح مجلة الأحكام: فحكـام الشـرع ما لم يقفوا على نقل صريح، لا يحكمـون بمجـرد الاسـتناد إلى واحـدة من هذه القواعد.[2] ولذلك نبه الشاطبي (المظلوم بنسبة قاعـدة المصـالح لـه) إلى عدم جواز الاحتجـاج بالمصـالح على الأحكـام، قـال الشاطبي: إذا ثبت في الشـريعة قاعـدة كلية في هـذه الثلاثة أو في آحادها (أي الضـروريات والحاجيات والتحسـينيات) فلابد من المحافظة عليها بالنسـبة إلى ما يقـوم به الكلي، وذلك بالجزئيـات.[3] ولــذلك يســتدل للحكم من مصــادره وهي الكتــاب والســنة والقيــاس، وليس من مصــادره من القواعد الفقهيــة، والقواعد الفقهية أخـذت من الجزئيـات وليس العكس، فالأصل هو الـدليل الخاص، فلا ينبغي للنـاتج المكمل (القواعد الفقهيـة) أن تعـود على الـدليل (الجزئي) بالإبطال.

قاعدة المصالح:

لو رجع الناس إلى ما قاله الشاطبي جملة دون تخـير بـالهوى لـرأوا أن ما يقوله الزاعمون من نظرية المصالح البشرية محض هراء نفسي لا دليل عليها من دين أو عقــل، وازن بين كلام أهل الأهــواء وبين هــذا قــول الشاطبي: المنافع الحاصلة للمكلف مشوبة بالمضار عادة، كما أن المضـار محفوفة ببعض المنافع: كما نقول: إن النفوس محترمة محفوظة ومطلوبة للإحيــاء، بحيث إذا دار الأمر بين إحيائها وإتلاف المــال عليهــا، أو إتلافها وإحياء المال كان إحياؤها أولى فإن عارض إحياؤها إماتة الدين، كان إحيـاء الدين أولى، وإن أدى إلى إماتتها، كما جـاء في جهـاد الكفـار، وقتل المرتد وغير ذلك.[4]

فالمقاصد الــتي يتكلم عنها الشــاطبي هي مقاصد ومصالح الشــريعة المبنية على النظر الأخروي كما قال في عدة مواطن ومنها قوله: المصالح المتجلبة شـرعا، والمفاسد المسـتدفعة إنما تعتـبر من حيث تقـام الحيـاة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصـالحها العادية أو درء مفاسدها العادية.[5]

وكـذلك قولـه: إن المصـالح هي بنظر الشـارع لا بنظر المكلـف، أي أن حكم الله تعالى في الجزئي (الـدليل الخـاص) هو الـذي يحقق المصـلحة، وإن فاتت بعض المصالح لدى النظر القاصـر.[6] ومن قوله كـذلك: إن الكلي لا يقدح بالجزئي. أي أن المصلحة لا تلغي الحكم الخاص بالمسألة، وإن بدا للناظر التعارض، لأنه ما من مسألة إلا ويتجاذب فيها عدة قواعد، فالشارع

---

1 - القواعد الفقهية للندوي ص 292.
2 - المرجع السابق ص 294.
3 - الموافقات 2/6.
4 - الموافقات 2/92.
5 - 2/27-28.
6 - المرجع السابق.

يلحقها بالأشبه، ولا يعرف الأشبه إلا بالــدليل النقلي لا العقلي، ويغلف ذلك كله أن من مقاصد التشريع ومن مصلحة الشريعة هو حصول الابتلاء. قــال الشاطبي: الشارع إنما قصد بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هـواه حتى يكون عبدا للـه.[1] فـأين هـذا الـذي يقوله الإمـام الشـاطبي رحمه الله تعــالى من قــول أهل الأهــواء الــذين جعلــوا الشــريعة ألعوبة بيد النــاس يستصلحون منها ما يشاءون، ويردون منها ما يريدون.

وكلامي هنا لا يعني رد القواعد وعدم اعتبارها عند الـترجيح والنظـر، ولا إلغــاء المصــلحة الشــرعية، ولكن القصد من ذلك هو أنه لابد من اعتمــاد الأدلة الشرعية في الاحتجاج وليس مجرد التشهي والهوى، ففرق كبير بين من نظر إلى مقاصد الشــريعة من جهة أنهــا تســعى لتحقيق الآخــرة وأن المقاصد الأخروية هي الغاية وبين من نظر إلى الأحكام على اعتبار دنيــوي فقــط. انظ قــول جــودت ســعيد فى إلغائه هـذه القاعـدة في التعامل مع الشريعة والناس، يقـول: "الكفر ليس ذنبا دنيويـا، الكفر ذنب أخـروي، الله يحاسبه، الكافر له حق أن يعيش، والملحد له الحق أن يعيش محترما، وإن اسـتطاع الملحد أن يقنع النـاس بإلحـاده لا حـرج عليه لكنه لا يفـرض رأيه بالقوة، ويجب أن نزيل التنابز بالكفر.[2] وهو قول حسن الترابي في إسقاط حد الــردة، وهو قــول راشد الغنوشــي، وهو قــول محمد ســعيد رمضــان البــوطي في نفيه الجهــاد الهجــومي، وهو قــول الإخــوان المســلمين في رسالتهم القبيحة المسماة "هذا بيـان للنـاس" عنـدما نفـوا العنف تحت أي اسم كان، حتى لو كان باسم الإسلام (وهي كلمة مكفرة).

وهذا القول الذي قالوه إنما كان استجابة لضغط العلمانيين ومحــاولتهم للتوفيق بين الإسلام ومذهبهم الإنساني، فإن العلمانيين يتهمـون الحركـات الإسلامية بأنها تمارس ســكرتريا القيامة[3]، أي أنهم يطبقــون إرادة الله في البشر، وهذا المعنى حق فإن الإسلام هو أمر الله للمســلمين بــأن يطبقــوا أحكام الله على الناس، فمن أحبه الله أحبوه ووالــوه وأحســنوا إليــه، ومن أبغضه الله أبغضـــوه وعـــادوه، نعم ينبغي على المســـلمين أن يمارســـوا سـكرتيريا القيامة - ولكن الحمد لله في ديننا الغنـاء عن هـذا الغثـاء وهـذه الألقاب - فهذه منطلقات القوم في تحديد هوية هذا الـدين وهي المصـلحة الدنيوية وعدم النظر إلى مصلحة الدين والآخرة والــذي هو أولى من جميع الضرورات والمصـالح بإجمـاع أهل الملـة كما قـال الشـاطبي رحمه اللـه، فمصـلحة الـدين مقدمة على أي مصـلحة، وضـرورة الـدين أرجح من كل ضرورة، ولذلك لا قيمة لحظ الإنسان أمام أحكام الشريعة.[4]

وقد يسـأل سـائل: وبعد هـذا الـذي قلتـه، هل تخصص المصـلحة الحكم الشرعي؟.

قلت: بعد فهم المصلحة فهما صحيحا فإنها تخصص الحكم الشرعي في موضوعين:

أولهمـــا: ما قـــال ابن القيم: ما حـــرم ســـدا للذريعة أبيح للمصـــلحة الراجحة.[5] وشرح هذه القاعدة له مقام آخر.

---

[1] - المرجع السابق ص 153.
[2] - النزعة المادية في العالم الإسلامي ص 170 لعادل التل.
[3] - العنف الأصولي ص 233.
[4] - انظر الموافقات 2/176.
[5] - انظر إعلام الموقعين 2/142 وزاد المعاد 3/88 وروضة المحبين ص 93.

ثانيهما: ما قال الشاطبي: المقاصد الشرعية ضـربان أصـلية وتابعيـة، فالأصـــلية لا يـــراعى فيها حق المكلـــف، وأما التابعية فـــيراعى فيها حق المكلف.[6] وهي لها مقام آخر.

قاعدة كل مجتهد مصيب:

من القواعد العجيبة التي يستخدمها الآرائيون للتلعب بالشريعة والقـول عليها ما ليس فيها رضوخا لضغط العلمانيين قاعـدة: "كل مجتهد مصـيب" وعدم حسم القضايا الـتي دخلت على دين الله تعـالى من قبل المتكلمين، مما جعل للعلمـانيين سـبيلا للتلعب بـدين الله تعـالى، ووجـود ثغـرات لهم لنفي أصلها ورد حقيقتها.

مما يعلمه كل دارس لهذه الشريعة - أصولا وفروعا - أن الزمن قد أخذ حظه منها، وأن الكثير من المحاولات للـدخول في تأويلها نجحت وأثمـرت، بل واستقرت في داخلها، إلى درجة التمثيل والاسـتحقاق، أي صـارت هـذه التأويلات في نظر النـاس هي الحقيقة الوحيـدة لهـذه الشـريعة، مع غيـاب المفهوم الأول الـذي فهمه الصـحابة رضـي الله عنهم منهـا، وهو المفهـوم الصـحيح لهـذا التنزيل الحق ((خـير الناس قرني)) وقد قـامت خلال هـذا الزمن محاولات جهادية مضنية لتحقيق التأويل الحقيقي لهـذا الـدين، ونفي هذا الـتزوير، وقد آتت ثمارها لكنها موضـعية، أي بقي المد الأقـوى للتأويل الفاسد الدخيل، فكـانت محاولة ابن تيمية رحمه الله تعـالى ثم تلاميـذه ثم تلاميـــذهم، ثم محاولة محمد بن عبد الوهـــاب وما أثمـــرت في العـــالم الإسلامي، لكن كما قلنا بقي التجديد موضعيا محصورا.

الخليط الـذي قاله بعض القـادة الأوائل - صـوفية سـلفية - وما هو جـار مجراها فتح باب التلفيق وعدم حسم القضايا، وبالتالي بـاب التميع والجمع بين المتناقضـات في الشخصـية الواحـدة، سـواء كـانت هـذه الشخصـية حقيقية أم اعتباريـــة، تبـــدأ النظرية بـــأن كل المعـــروض حـــق، وهو فقه إسلامي، أي جائز الأخذ به، وليس هذا القول بأولى من الآخر قبـولا أو ردا، وبالتـــالي علينا التخـــير بما يلائم واقعنا وحياتنـــا، أو بما يقـــدر أن يعيننا في مناظرتنا وحجاجنا لخصوم الإسلام، وأنا هنا لا أتكلم فقط عن الفروع ولكن القضـية الأولى والأبـرز في هـذا الموضـوع هي القاعـدة الـتي يعتمد عليها هؤلاء الآرائيون وهي أن الشـريعة كـانت لينة في استجابتها للتغيـير بسـبب دخول علل جديدة على حياة الناس وأفكارهم.

الشيخ محمد سـعيد رمضـان البـوطي في كتابه "السـلفية مرحلة زمنية مباركة لا مــذهب إسـلامي" في استجابته للخصــومة بينه وبين السـلفيين اضـطر البـوطي أن يـبرر بدعة العقيـدة على يد الأوائـل، وأن يجعل البـدع الـــتي قاتلها السـلف ونفـروا النــاس منها ما هي إلا الحقيقــة الأولى عند الصحابة، وإنما تطورت استجابة للواقع ولرد الشبه التي أحـدثها المولـدون (المسلمون الجـدد)، أي أن مـذهب الخلف هو مـذهب السـلف (لا يزيد ولا ينقص) ولكن تطور ليوافق الواقع المعيش.

ومع أن البوطي يستدل بالكوني المتغير والمتطور (والصحيح المكتشف والمســتثمر) على الشــرعي (وهــذا منتهى الفجاجة والجهالــة) إلا أنه في

---

[6] - الموافقات 2/ص 176 وما بعدها.

النهاية يفتح هـذا البـاب (مع إخوانـه) على جـواز تطـور الشـريعة لتوافق الظروف الجديدة.

الآرائية جسر العلمانية: (أوجه التشابه)

لقد مدح هؤلاء الآرائيون منهج البدعة التي حـذر منها رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حين قـال: ((عليكم بسـنتي وسـنة الخلفاء الراشـدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجـذ، وإيـاكم ومحـدثات الأمـور، فـإن كل محدثة بدعـة، وكل بدعة ضـلالة))،[1] فجـاء هـؤلاء ليقولـوا أن ما فعله الأوائل من بدعة هو منتهى الحـق، لأنهم اسـتجابوا لظـروف حيـاتهم، ثم ذهبوا يبررون الفارق بين علم السلف وعلم الخلف لا على أساس ما فعله الخلف - أنه سبب انحطاط الأمة وذهاب قوتها وعزها - ولكن على أسـاس مدح المبتدعة بأنهم قدموا الإسلام الجديد للوضع الجديد.

هذه القاعدة التي يقولها هـؤلاء القـوم هي عين القاعـدة الـتي يحتج بها العلمانيون على طريقتهم المبتدعة والجديدة في دراسة الشـريعة، صـحيح أن الكثـير من النتـائج مختلفة عند الفـريقين لكن القواعد بين الفـريقين قواعد مشتركة.

لو قرأ المـرء كتـاب عزيز العظمة "العلمانية من منظـور مختلـف" وهو من أوقح العلمـانيين في طـرح ما يريد كما في كتابه المـذكور، لـرأى أن موقفه من تبني العلمانية خـارج - رغم أنفه - من رؤيته لتطـور الإسـلام وتغييره (استجابة للسلطة لا كما يعتقد البـوطي)، وقوله هـذا نفس مخـرج محمد أركـون حين بـرر لنفسه ابتـداع أصـول فقه جديد لفهم النص، وهو نفس قول ومخرج نصر حامد أبو زيد،[2] وهي القاعدة الـتي ذكرها البـوطي في كتابه "السلفية".

القاعـدة واحـدة وهي أن الأوائل أولـوا النص، وداروا بـه، وحـاوروه، واستجابوا في تفسيره للأفكار الجديدة الوافدة، وهؤلاء الأوائل لم يخرجـوا من دائرة الإسلام، ولم يعنفهم أحد، بل عدهم الناس أئمة وقـادة، وعلمـاء، ومجـددين، فلمـاذا يحـرم علينا هـذا الفعـل، ولمـاذا لا نطـور النص بقواعد جديدة، ونفهمه بآلية حديثة؟.

هذه هي القضية وهي إحـدى مشـتركات العلمانية مع الآرائية الحديثة أو هي إحدى ثغرات الآرائية للبناء العلماني.

الأمثلة على هـذا المشـترك كثـيرة، ولعل القـارئ البـاحث لا يعجـز عن رؤية الكم الهالل من المداحين لأئمة التغيير والتبديل في التاريخ الإسلامي حيث تصـبغ عليهم عبـارات هائلة من المـدح والتعظيم، وتطلق عليهم أوصاف العقلانية والتجديد، وأنهم كانوا الأقـدر على فهم الإسـلام وتطويره ليوافق ويحاكي الثقافات الوافدة.

هل يعجـز المـرء أن يـرى قصـور المـدح الشـامخة على شخصـية مثل الفـارابي والكنـدي وابن سـينا، وجمهـور الفلاسـفة المشـائين في العصـور الإسلامية السالفة؟.

---

[1] - حديث حسن من حديث العرباض بن سارية رض الله عنه.

[2] - انظر مقدمة كتابه "مفهوم النص".

هل يفوت المرء رؤية الإشادة العجيبة بكل من حاول أن يذلل الشريعة للوافد الجديد من الثقافات الوضعية كابن رشد الحفيد كما في كتابه "فصل المقال"؟

الواضح من كل هذا أنهم يريدون أن يجعلوا الشريعة مجالا للحوار الفاتح أبوابها لتخرج لنا أحكاما جديدة تناقض ما عرفه الأوائل.

لقد وقف السلف الصالح موقفا صلبا أمام الغير، وحذروا منه أشد التحذير، حذروا من موضوعه وحذروا من أسلوبه، لأنهم أيقنوا أنه ما من خير إلا في هذا الدين بمصدريه الكتاب والسنة، وليس هناك من معرفة - مما تسمى معرفة إنسانية حسب تعبيراتهم - إلا في هذا الدين الكفاية لها، لكنها قد لا تجد لها رجالا، وإنه لمنتهى الشقاء السماح للعقل المسلم أن يفتح بابه للغير طلبا للهدى والرشد، ولقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك حين غضب من عمر رضي الله عنه وقد رأى في يده ورقات من التوراة وقال: ((**أمتهوكون أنتم؟، والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي**))، ولم يكن إعراض السلف عن هذه العلوم تخلفا ولا رجعية، ولا من قصور في الفهم، ولكن لشدة عقلهم وإدراكهم أن شرها أكثر من خيرها، ولو كان فيها الصلاح والهدى لنفعت أصحابها، ولذلك فإن هذا الذي يسميه البوطي والغنوشي وطارق البشري ومحمد عمارة وفلول الهزيمة، وجماعة التصفيق: تقدما وحضارة؛ إنما هو منتهى الهزيمة، وقمة الانحدار والرجعية.

إن علم الكلام الذي مدحه هؤلاء، وإن الفلسفة الإسلامية المزعومة هي التي عطلت العقل المسلم عن الإبداع، وفرغت نفسيته من كل احتمالات النهوض والتقدم.

نعم لقد أوجد علماء الكلام وكذا الفلاسفة المشائين الأرضية الفكرية للانحلال الديني والذي أفرز آثاره التشريعية والاجتماعية والسياسية وبالتالي الهزيمة العسكرية، وإذ الإقتصار على الوحيين - الكتاب والسنة - في صياغة الإنسان المسلم هي التي توجد في كل عصر شخصية المسلم الصحابي المتجددة في كل وقت وحين، والتي تملك القدرة على صياغة الحياة على أسس جديدة، ولا ترى احتمال الترقيع والتلفيق، والذي يسميه بعضهم استلهاما (كما سماه طه جابر العلواني في كتابه "الأزمة الفكرية المعاصرة")، لأن هذا التلفيق مبدؤه الشعور بالنقص من كمال (النظام المعرفي) المعطى من الكتاب والسنة، وإنه لن يصيبنا الخجل من تمسكنا بكمال مصدرنا واقتصارنا عليه حتى لو أطلق هؤلاء الخصوم على هذا التمسك تخلفا أو انتحارا.

لقد وضع الأستاذ سيد قطب يده على مفتاح شخصية الصحابي الأول وهداه الله إلى إدراك سرها كما ذكر ذلك في كتابه "معالم في الطريق"، فصل "جيل قرآني فريد".

يجب علينا أن ندرك أن كثيرا من مجالات الإبداع الممدوحة من قبل هذه التيارات هي قمة البدعة والانحطاط والذم، فليس من إبداع الإسلام العمارة الإسلامية، إذ أن هذه العمارة والتي يفتخر بها هؤلاء الآرائيون هي قمة الانحطاط والرذيلة، فهذا الذي يأتي ليمدح لنا مثلا قصر الحمراء ليدلل على إبداع العقل المسلم وحضارته هو في الحقيقة يقدم الدليل على أن عصور الانحطاط أو بدايتها هي قمة الإبداع لهذا الدين الرباني،

فليس من الإسلام هذا البذخ وهذا البناء الباذخ، وليس من الإسلام ما يسمى بالفنون الإسلامية مثل فن الموسيقى، وفن العمارة الباذخة والتطاول فيها، وغيرها من الفنون المذهبة لحقيقة وجود المسلم على هذه الأرض، وبالتالي مقصد وجود الإنسان كذلك.

نعم سيعودون علينا بزمزمة الأوائل مدعين أن هذا مذهب الحشوية وهو مذهب العوام وهو طريقة الوعظ والإرشاد، وكما يسمونها طريقة الحكمة والموعظة (كما سماها الفلاسفة) وأما هم فهم أهل البرهان والمنطق والنظر الثاقب (كما يسميها الفلاسفة كذلك).

دعوى تطوير الشريعة (من التأويل إلى التلوين):

نعود إلى ما بدأنا به من الإشارة إلى دور الآرائيين من فتح باب تطور الشريعة حين سموا البدع الحادثة من متصوفة ومتكلمين وفلاسفة أنها فعل مجيد رائع ممدوح، وذلك حين أرادوا أن يبرروا تأويل الشريعة وتغيير مفاهيمها لتساير الوقت والزمن، فجاء العلمانيون وبنوا على هذه المقدمة النتيجة التي يسعون إليها حين توجهوا إلى التراث (كما يسمونه) ليدرسوه حسب معطيات هذا العصر ونتائج مكتشفاته من علوم اجتماعية ولسانية وإنسانية ليخرجوا بنتائجهم التي أوقفوا أنفسهم عليها يبدونها حينا ويرطنون بها حينا آخر.

إن هذه الشريعة هي دين الله تعالى أنزلها للبشر ليحققوا العبودية له، بتصديق خبرها وامتثال أمرها وإن أعظم الناس فهما لها، وإدراكا لمرادها هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كل خير في اتباعهم وكل شر في مخالفتهم وتنكب طريقهم.

علينا أن لا نبقى نردد أن ما يمدحونه من ثورات المعتزلة الفكرية - وتجديدية الفلاسفة - كالكندي والفارابي وابن سينا وإشراقية الصوفية وهي ثورات على الإسلام، وليست منه ولا تلتقي معه لا في الجوهر ولا في الأسلوب.

قال اليافعي في "نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية": لما سعي بالصوفية إلى بعض الخلفاء، أمر بضرب رقابهم فأما الجنيد فتستر بالفقه. [ص 422].

قال الشافعي- رحمه الله -: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.[1] ظاهرة اختراق الوضع البشري وخيالاتهم للوحي الرباني ممتدة منذ القدم، وقد نجحت مع الأديان الأولى، ولم يكن الإسلام خارج هذه الدائرة، فإنه منذ بدايته بدأت هذه المحاولات، وترتيب ظاهرة الاختراق يبدأ بالرفض والتنفير، حيث يكتشف الأوائل أصل النحلة الوافدة، وآليتها، وأبعادها الشركية والوثنية، وبالتالي يعلن العلماء للمسلمين أن هذه النحلة وهذا الدين هو دين شركي وثني فلا يجوز للمسلم أن يقترب منه أو يدور حوله، بل الواجب أن يفر وينفر منه، وفي المرحلة التالية يبدأ البعض بالنظر إلى الجوانب التي تتفق هذه النحلة في بعض آليتها وأعمالها مع الإسلام، فيبدأ بكشف جوانب اللقاء،

---

[1] - صون المنطق والكلام للسيوطي.

ويفخم الأحــاديث والآثــار الــتي تشــير إلى رياضــات الطريقة وأعمالها وفرائضـها حـتى إذا وجد لهـذه النحلة الجديـدة القبـول عن طريق العـرض الجــزئي لها ومدحه وتقريــره، يصــبح التعــاطي معها جــزءا من الإســلام والانتسـاب إليها لا يغض أو يخـدش في الانتسـاب إلى الإسـلام، ولنا على ذلك مثلان هما: نحلة التصوف ونحلة الفلسفة.

الاختراق (تلوين الشريعة قديما):

المثل الأول هو التصـــوف: ثبت أن التصـــوف عنـــدما دخل على المسلمين أعلنوا استنكارهم ورفضهم لـه، وأدركـوا الصـوفية على حقيقتها وأنها دين جديد، وبالتالي تعاملوا معهم على أنهم كفـار، فـأفتوا بقتلهم ردة وزندقـــة، لأن المـــذهب الجديد والنحلة الوافـــدة تظهر في بداية أمرها بصورتها الحقيقية وتعرض نفسها بوجهها السـافر، والصـوفية دون تقية هي مــذهب ونحلة كفريــة، عقيدتها وحــدة الوجــود (أي لا فــارق بين الخــالق والمخلوق)، ولها رياضات (طريقة) لتحقيق هذه العقيدة تقوم على: السهر والجوع والخلوة، ولها بعض المنشطات الأخرى كالذكر مثلا، فبعد أن تواجه من قبل المسلمين بالرفض والتكفـير، تبـدأ المحـاولات التالية على صـورة تكــييف المــذهب والنحلة على وجه يوافق الإســلام، وذلك بعــرض بعض الموافقات بين الإسلام والمذهب (كالصـوفية مثلا)، فالجنيد تسـتر بالفقـه، وعملية تضخيم جوانب اللقاء هذه الرياضـات الصـوفية من خلال الأحـاديث النبوية الصحيحة والضعيفة، فيبدأ الكلام عن الخلوة تحت باب الزهد، ويبـدأ الكلام عن السـهر تحت بـاب قيـام الليـل، والكلام عن الجــوع تحت بـاب الصيام، وبالتالي تسـلم الصـوفية (حسب تعبـيراتهم) أو يتصـوف الإسـلام، والجهل هو أرضية هذا الزرع والنتاج، وبالتقادم مع عاملي التكـرار والـزمن تسـتقر الصـوفية داخل الإسـلام وتصـبح جـزءا منـه، وتصـبح من واجبـات المسلم الدينية أن يصبح صوفيا، والخارج عنها خـارج عن الإسلام، فيصـبح للصوفية فقه جديد، وكتب خاصة، وطرق ومشـايخ ومؤسسـات، ولم تعجز الصوفية من التقاط بعض الأذكيـاء إليها ليقومـوا بالمهمـات الصـعبة وعلى رأسها صياغة الإسـلام من خلال الـدين الصـوفي، كما قـام بكثـير من هـذا العبء أبو حامد الغزالي كما في كتابه "إحيــاء علــوم الــدين"، حيث مــزج الفقه والتوحيد والأخلاق الإســلامية بالتصــوف حــتى صــار شــيئا واحــدا، والنتيجة الويل كل الويل لمن حاول أن يقول للناس الحقيقـة، والشـأن كل الشأن لمن يقول:

ومالك وسائـر الأئمـة   كذا أبو القاسم هداة الأمـة
فواجب تقليد حبر منهم   كذا حكى القوم بلفظ يفهم[1]

فصار تقليد أبي القاسم واجبا من واجبات الدين.

المثل الثاني هو الفلسفة: والفلسفة صناعة بشـرية عمادها نبذ الـوحي، وهي وافد لها عقيـدة خاصة ورياضة خاصة (أي دين مسـتقل)، وقد عـانت الفلسـفة وإفرازاتهـا الفكرية الكثير عنـدما جـاءت إلى الصف الإسـلامي، وحكم العلمـاء الأفـذاذ عليها بـالكفر والزندقــة، وكـانوا يلاحقونها بسـيف الشـرع والإسـلام، وقد قتل الكثـير من رجالها بفتـاوى أهل الـدين والحـق، لكنها تسـتكن حينا ثم تــبرز على الطريقة الــتي شــرحناها مع الصــوفية،

---

[1] - جوهرة التوحيد.

فتسلم الفلسـفة أو يتفلسف الإسـلام، وتصـاغ الفلسـفة بطريقة إسـلامية، ويصبح علم الكلام، والذي يعد من أبرز إفرازاتها في المجتمع الإسلامي هو راية الإسلام، ورأسه، وعقيدته، حـتى قيـل: والعجب ممن يقـول: ليس في القرآن علم الكلام،[1] وبالتالي تصبح الفلسفة مسلمة، أي تسـلم الفلسـفة، وينتهي الأمر إلى: أن الحكمة (أي الفلسفة) هي صـاحبة الشـريعة والأخت الرضـــيعة، فالأذية ممن ينسب إليها هي شر الأذيـــة، مع ما يقع بينهما من العـداوة والبغضـاء والمشـاجرة، وهما المصـطحبتان بـالطبع، المتحابتـان بالجوهر والغريزة.[2]

ولسنا الآن في معرض نقاش الآثار الشنيعة السيئة لهذا الاخـتراق، فـإن شرح آثار الصوفية المجرمة على العقل المسلم وعلى المجتمع الإسـلامي تحتاج إلى مجلدات، وكذا الفلسفة وإفرازاتها فـإن هـذه المـذاهب الوافـدة قد دمرت الأمة الإسلامية، وما هذه الثمار السـيئة الـتي نعيشـها إلا صـورة مصغرة من آثار هذه الوافدات الخبيثة.

لماذا أذكر بهذا؟ وما هو فائدة هذا التنبيـه؟ ليس الحـديث عن الصـوفية والفلسفة باعتبارهما مثلين لهذا الاختراق إلا مدخلا لهذه الاختراقـات الـتي نراها في هذا العصر الذي نعيشه، مع أن التذكير بهذه الاختراقات مهم جدا لأننا مازلنا نعيش آثار هذه الأفكـار القديمـة، فما زالت الصـوفية تعمل فينا وفي عقليتنا وفي اختياراتنا، وكذا المنطق وعلم الكلام والفلسفة، ولكن ما يهمني هنا هو أن نتمثل القديم لنعرف حقيقة ما يجري حولنا من اختراقات شركية، ومحاولات تـدمير عن طريق الوافـدات الجديـدة ولنتـذكر أن مبـدأ الاختراق يقوم على التفريق بين معتقد المـذهب وبين وسـيلته، فالصـوفية عقيدة وطريقة وكذا الفلسـفة، وحين يريد أصـحاب هـذه المـذاهب إدخـال هذه الوافـدات على الإسـلام فـإنهم يفرقـون بين الطريقة والعقيـدة وهـذا منتهى التدليس والتقية.

أهل الاخـتراق يشـعرون المسـلمين دائما بحاجة الإسـلام إلى الطريقة لإعطائه الفاعلية والحركة، هكذا صنعت الصوفية وهكـذا صـنعت الفلسـفة وهكذا تم اختراق الإسلام ومفاهيمه.

الاختراق (تلوين الشريعة حديثا):

جاءت الاشتراكية بارتباطها العقدي وطريقتها الاقتصادية وزورت لباسها على المسـلمين بهـذا التفريق (أي التفريق بين العقيـدة والطريقة)، ومع أنها في بداية الأمر ككل المذاهب والنحل الوافدة طرحت نفسها بصـورتها الحقيقية وبأبعادها الشـاملة فلما سل عليها حكم التكفـير والزندقة عـادت لتتخفى بهذا التفريق المذكور، فانطلت الحيلة وصـار الإسـلام اشـتراكيا أو بالمصـطلح الـذي ذكرنـاه: أسـلمت الاشـتراكية، وبالتـالي أصـبح الإسـلام: الطريقة =صوفية، الحكمة = فلسفية، الاقتصاد = اشتراكية.

ثم جـاءت الديمقراطيـة، وكـانت عند أصـحابها دينا إنسـانيا لها بعـدها العقـدي (الأيـديولوجي) ولها بعـدها السياسي الليـبرالي، وكما قـال الأوائل عن الصوفية الأولى وعن الفلسـفة الأولى أنها كفر وزندقـة، وسـلت عليها سـيوف العلم والجهــاد، حيث قــالوا عنها أنها دين جديد له كل خصــائص

---

[1] - من كلام أبي القاسم القشيري.

[2] - "فصل المقال" لابن رشد الحفيد.

الدين، وأنها طريقة وعقيدة، عـادت وتخفت وخـرجت لنا بـالثوب الجديـد، وهو التفريق بين الديمقراطية كدين وبين الديمقراطية كوسـيلة (طريقـة)، مع أن ارتبـاط الحقيقة (العقيـدة) بالطريقة (الوسـيلة) هو ارتبـاط حتمي وعضـــوي، والتفريق بينهما هو تزوير للحقيقة والواقـــع، لكنهم بعد هـــذا التفريق صـــيروا الإســـلام ديمقراطيا أو بـــالتعبير الســـابق: أســـلمت الديمقراطية.

هـــل يمكن تصـــور عـــدم تـــأثر العقيـــدة مـــع تغـــير الطريقـــة؟.

الجواب ابتداء: لا وألف لا، فإن هذه الطريقة هي طريقة خداعية لتمرير القضية خطوة خطوة، وهكذا مذهب إبليس وطريقته - خطوات الشيطان - فعنــدما يــرفض النــاس المــذهب جملة واحــدة فلا مــانع من إعطائه لهم جرعات متفرقة بدءا بالأخف وانتهاء بالأشد.

نعم استقرت الصوفية في الإسلام، وصارت هي الإســلام، والإســلام هو الصوفية، وليس من حرج أن نكرر مرة أخرى - أسلمة الصوفية أو تصـوف الإسلام - ولكن هل استقرت الصـوفية في الإسـلام كطريقة فقـط، أم أنها بعد ذلك حملت الناس من الطريقة إلى العقيدة؟ لقد اسـتعملت الصـوفية التقية في موضـــوع العقيـــدة، وبقيت تظهرها بعد أن يبلغ المـــرء منتهى الاستسـلام، ولـذلك ليس مسـتغربا أن يـأتي لنا شـيخ محـدث مثلا ليجعل عقيدة الإسلام هي وحـدة الوجـود، انظر كلام الغمـاري في شـرحه حـديث ((من عادى لي وليا)) ورده على الإمام الـذهبي - والشـيخ من المعاصـرين -، هـذا غيض من فيض، لقد سـيطرت الصـوفية بعقيدتها مع طريقتها على عقائد جملة من الناس تحت اسم الإسلام والاهتداء بالكتاب والسنة.

وكـــذا فعلت الحكمة الفلســـفية، أدخلت المنطق إلى طريقة التفكر والنظـر، واسـتقر المنطق في كتب العقائد[1]، واسـتقر بعد ذلك في أصـول الفقـه،[2] وبعد أن تم لها هـذا لم تجبن في عـرض عقيـدتها بعد أن صـار لاسمها الاحـترام والتقـدير، فـانتهى الأمر أن العقيـدة الفلسـفية هي نفس العقيدة الإسلامية.[3]

والآن جـاءت الديمقراطيـة: المشـايخ يطرحونهـا باعتبارها طريقة حكم، ووسـيلة سياسـة، ويفرقـون بينها وبين عقيـدتها (العلمانيـة)، ويقولـون إن الديمقراطية هي لب الإســلام وجــوهره، حــتى أن الشـيخ المعمم يوسف قرضــاوي لم يخجل من القــول إن الإســلام يســتوعب الديمقراطية بكل تجلياتها.

ولكن، هل هؤلاء في الحقيقة لا يعتقدون عقيدة الديمقراطيـة؟ الجـواب يظهر من تصـريحاتهم وبيانـاتهم وأنهم صـاروا يعتقـدون العقيـدة الإنسـانية التي تعطي الإنسان استقلالية حياته في هذه الدنيا عن الغيب والآخرة.

صار الإسلام إنسانيا أي لم يعد الإسلام الذي عرفه الصـحابة رضـي الله عنهم، والـذي جعل هـذه الـدنيا محطة للآخـرة، وأن الإنسـان عبد اللـه، بل صارت الدنيا هي غاية المنى وعلى ضوء أحكامها ومصالحها يستنبط الناس الأحكام والتشريعات دون النظر إلى المقصد ا لأخروي.

---

[1] - انظر شرح المقاصد.
[2] - انظر "المستصفى" للغزالي.
[3] - انظر "تهافت التهافت" لابن رشد.

وكما حارب الناس قديما من حارب الصوفية، وكما حارب الناس قـديما من حارب المنطق وعلم الكلام فها هو التاريخ يتجـدد على هـذا النسق مع الديمقراطية، إذ صار المسلم المتنـور والمفكر الـذكي الـواعي والمسـتنير هو المفكر الديمقراطي، وحتى الذين يعرفـون منشأ الأسـلوب (الطريقـة) الديمقراطيــة، ويعرفــون منبتها وعقيــدتها فــإنهم يفرقــون بين العقيــدة والطريقــة، وهــذا عنــدهم منتهى الأصــولية، أي أننا أمــام نــوعين من المسـلمين: مسـلم يـؤمن بالديمقراطية وجميع تجلياتهـا، ومسـلم يـؤمن بالطريقة ويكفر بالعقيـدة، لكنا نقـول كما قـال سـلفنا: كلاهما كفر وردة وحكمنا فيهم أنهم زنادقة.

قال الشافعي ومالك رحمهما الله: علماء الكلام زنادقة.

قاعـدة التفريـق بين الطريقـة والعقيـدة (الـدين وسـيلة أم غايـة..؟!):

من أسـاليب أهل البـدع الآرائـيين التفريق بين الطريقة والعقيـدة، فهم يمــررون المــذهب الجديد والنحلة الوافــدة تحت بــاب إضــفاء الفاعليــة والحركة على هــــذا الـــــدين، وذلك بأخذ الطريقة من المــــذهب والنحلة الوافدة، كما رأينا هذا واضحا مع الصوفي والفلسفة سابقا، وهذا هو الواقع مع الديمقراطيــة، فــإنهم لأسـلمة الديمقراطيــة أو لتحريف الإسـلام في البداية فرقوا بين العقيدة الديمقراطيـة وبين أسـلوبها، فهم يزعمـون أنهم أخـذوا الديمقراطية بآليتها وحركتها وتنظيمها وأسـلوبها ورفضـوها عقيـدة (وأيدلوجيــة)، وهــذا التفريق مــرحلي عند البعض، وإلا فــإن الكثـير صــار ديمقراطيا باعتقـــــاده، أي أنه ذهب يفسر الإســـلام من خلال أصل النحلة الديمقراطية وعقيدتها، فصـار الإسـلام إنساني الوضـع، دنيـوي الأحكـام، لا علاقة له بــالآخرة، ولا قيمة لضــــرورة الـــدين والرضى الإلهي، وهــذا قد بسطناه قليلا فيما سبق عند ذكرنا لمفهوم المصلحة الشـرعية والمصـلحة في عرف الآرائيين.

وإن من أخطر هـذه المظـاهر لهـذا الاخـتراق هو الحـديث عن الإسـلام باعتباره دينا نافعا لا بحقيقة أنه الدين الوحيد الصحيح، وشرح المسـألة كما يلي:

مبـدأ العلاقة بين المسـلم وبين الإسـلام هي التعبـد، وأنه ما خضع لهـذا الدين إلا لكونه صادرا ممن له حق الأمر والنهي، فلو أمر الله تعالى عبـاده بما فيه ضررهم وعـذابهم فعلى العبـاد أن يطيعـوه ويمتثلـوا أمـره كما أمر الله تعالى عبده وخليله إبـراهيم عليه السلام أن يـذبح ابنه إسـماعيل عليه السـلام -، وأسـاس ذلك تصـديقهم خـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه صادر من الله تعالى ولو لم تحتمله عقولهم، نعم كان من رحمة الله تعالى بعبـــاده أنه ما من أمر أمــــرهم إيـــاه إلا وفيه تحقيق لمنفعتهم في الـــدنيا والآخــرة، وما من خــبر أعلمهم إيـاه إلا وفي عقـولهم القـدرة على فهمه وإدراك معنـاه، وهـذا هو لب دين الإسـلام ومعنـاه وجـوهره، وأما المبتدعة الجدد والآرائيون والحـداثيون فلهم تصـور آخر مع هـذه الحقيقة وسأسـوق قصتين بهما أستطيع إيصال هذا الفارق لإخواني:

القصة الأولى: من المعلوم أن الشيوعية لا تؤمن بالأديان السـماوية، وتنفي عالم الغيب بكل ما فيه، ومن هذا الغيب الله سـبحانه وتعـالى، وقد حــاربت الشــيوعية الأديــان كلهــا، ولها تعامل خــاص مع الإسـلام وأهلــه، فالشيوعيون يكنون حقدا وعداء خاصا للإسلام ولا نريد أن نأتي على شـرح

أسباب هذا الخصوص، أقول: ومع أن الشيوعية تنكر الأديـان، لكن هـذا لم يمنع سـتالين من أن يفتح الكنـائس ويسـتدعي القساوسة ليـدخلهم إلى جبهات القتال، ويفتح لهم أمـاكن الاجتماعـات ليواجهـوا الرعايا وذلك خلال الحرب العالمية الثانية، وعندما اجتاح هتلر روسيا، وسـبب ذلك أن سـتالين رأى في الـدين عـاملا مهما لتحقيق النجاحـات والانتصـارات ضد هتلر والألمان والنـازيين، فهو لا يعتقد بالأديـان ولكن رأى أنه يمكن اسـتغلال الدين في هذه المرحلة لدفع الناس للمقاومة والجنـود للحـرب، ولهـذا أمر بالكنـائس أن تضـرب النـواقيس، وللقساوسة أن يأخـذوا دورهم في التحريض والمقاومة، فأنت تـرى أن سـتالين لم يكن يهمه صـحة الـدين أو عدم صحته وصواب الدين أو عـدم صـوابه، بل رأى في الـدين عـاملا نافعا لهذه المرحلة.

القصة الثانية: الجـنرال بـاتون الأمـريكي، أحد القـادة في الحـرب العالمية الثانية كان بحاجة في إحدى معاركه إلى يـوم صـحو لتحقيق بعض الإنجازات العسكرية ضد الألمان، فاستدعى رجل الدين النصراني المرافق للجيش، وطلب منه أن يكتب له صيغة صـلاة ليسـأل فيها ربه لتحقيق يـوم صحو، وبالفعل كتب له صيغة الصلاة وقدر الله أن يكون اليـوم الـذي طلبه صـحوا، وبعد المعركة اسـتدعى الجـنرال بـاتون القس العسـكري وقلـده وساما خاصا لحسن علاقة القس مع ربه كما قال الجنرال.

القصة حقيقية وتظهر لنا أن الـدين بالنسـبة لهـذا النـوع من البشر هو لتحقيق مقصد دنيوي، به تحصل المنفعة، وهي صورة تتكـرر في اسـتخدام الـدين باعتبـاره يحقق مصـلحة لا باعتبـاره دينا حقـا، يحقق العبودية لـرب العباد، كما استخدم الجيش المصري شـعار "الله أكـبر" في معركة أكتـوبر ضد اليهـود، وكما تضع الكثـير من المؤسسـات العلمية والاجتماعية بعض الشعارات الدينية، سواء كانت إسلامية من آيـات قرآنية أو أحـاديث نبويـة، أو غير إسلامية.

فالـدين إذا عند هـؤلاء هو أحد العوامل الـتي تسـتخدم لتحقيق الهـدف الدنيوي، لا أن الدين بنفسه هو الهـدف، وهو شـبيه برفع الدولة السـعودية شـعار لا إله إلا الله محمد رسـول اللـه، ورفع صـدام البعـثي شـعار "الله أكبر"، وغيرها من الأمثلـة، فالـدين عنـدهم وسـيلة لا غاية لتحقيق العبودية لرب العباد التي هي غاية الغايات بالنسبة للمسلم الصادق، ولذلك مصلحة الذين تقدم على أي مصلحة، وضرورة الدين لا تعادلها ضـرورة، فـالنفوس تموت من أجل الدين، والأموال تنفق لرفعة الدين، وكل المصالح تنهار في سبيل تحقيق إقامة الدين وإعلائه.

قراءة في التحالف الآرائي العلماني:

كيف نقرأ هذا التوجه في لهم الدين عند الآرائيين المبتدعة؟.

في اللقاءات الـتي تقع بين هـؤلاء المبتدعة وبين القومـيين والوطنـيين، وكـذلك في مـؤتمرات الأديـان، نـرى أن القضـية تجـاوزت، بل لم تعد تجد الاهتمام في عقـول المبتدعة في أمر دعـوة الخصـوم إلى الإسـلام، وبيـان حق الله تعالى على العبيد {**يعبدونني لا يشـركون بي شـيئا**}، {**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سـواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله...**} بل صارت هذه اللقاءات تعقد للاتفاق على ضرورة اسـتخدام كل

طرف لقواه الفاعلة لتحقيق أهداف مشتركة، مثل الوقوف أمام الإلحاد، أو تحقيق الوحدة الوطنية، أو تعميق مبادئ الديمقراطية والحرية أو الوقوف ضد الطغيان الأجنبي وإليك الأمثلة:

في بيروت من تاريخ (10-12 تشرين الأول / أكتوبر سنة 1994) تم عقد المؤتمر القومي الإسلامي، وبتمثيل من الجانبين القومي والإسلامي كونت مجموعة من الشيخ غير المعمم راشد الغنوشي والدكتور خير الدين حسيب، والدكتور أحمد صدقي الدجاني، ومن عصام نعمان (ممثلا عن الدكتور حسن الترابي)، قدم الإسلاميون[1]، قلت قدم المبتدعة ورقة عمل بتكليف من اللجنة المذكورة، وكان ممثلو التيار الإسلامي هم: فهمي هويدي، محمد سليم العوا، محمد عمارة، يوسف القرضاوي، وقالوا الكثير من الضلالات في ورقتهم وما يهمنا هنا هو البنود والتوصيات ا لتالية:

8 - (حسب تسلسل الورقة المقدمة) ولأن التحديات على درجة من الخطورة غير مسبوقة في تاريخنا المعاصر، والانهيارات في الجبهات العربية تتوالى بسرعة مخيفة، فإن التيار الإسلامي لا يرى أي جدوى من إنفاق الأوقات التي تخصص لهذه اللقاءات في مناقشة الماضي، أو محاولات كل تيار لتبرئة ساحته مما يرميه البعض به من تهم، وإنما الذي نراه مجديا ومؤثرا هو أن يتطلع المفكرون والقياديون المجتمعون إلى الحاضر والمستقبل، يحاولون في الحاضر مقاومة الاستسلام الرسمي لمحاولات الاستتباع والإضعاف وقهر الإرادة الوطنية، ويحاولون في المستقبل صنع ا لوسائل الكفيلة بتغير الواقع المر باستعادة السيادة الوطنية واستقلال القرار العربي وفرض الحق على الناكبين عنه والرافضين له.

قلت: لا يوجد في هذه النقطة ولا في كل الورقة إشارة إلى صراع الإسلام باعتباره دين الله تعالى مع أديان الشيطان ومذاهبه، ولا قضية التوحيد مع الشرك، ولا يوجد إشارة ولو خفيفة إلى أساس الخصومة {**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**}.

13 - ويفتح هذا اللقاء أبواب التفاهم الاستراتيجي بين التيارين القومي والإسلامي حول القضايا التي يجب حسمها في سبيل صياغة مشروع للنهضة العربية في مواجهة محاولات ترسيخ الاستذلال والاستتباع للصهيونية والغرب.

قلت: التيار القومي مدعو إلى المشاركة في صياغة مشروع النهضة العربية وهو التيار الذي صنع الكثير من المصائب السياسية والاقتصادية والفكرية، وما الحزب القومي السوري وأعمدته عنا ببعيد، فإن أغلب العلمانيين الحاقدين على الإسلام من نتاج هذا الحزب وهذا التيار، فهل يقال بعد هذا أن القوميين الكفرة مدعوون لصياغة مشروع النهضة للأمة المحمدية، سبحانك هذا كفر صريح.

14 - وأولى هذه القضايا هي قضية المرجعية الإسلامية العامة لهذه الأمة، فالتيار الإسلامي يرى أن هذه المرجعية لا تكون إلا للإسلام، وأن عوامل القوى الأخرى للاعتزاز القومي بالتاريخ وبالنضال والأبطال

---

[1] - حسب تعبيرات العلمانية الصلبة، يعنون بما الإسلاميين الأصوليين، وإذا كان راشد والترابي من الأصوليين فقد هزلت وبان هزالها حتى سامها كل مفلس.

وبالمواقف يجب أن تكون إضافة مقدرة إلى رصيد المرجعية الإسلامية ولا يجوز أن تكون تحت أي ظرف خصما من هذا الرصيد أو عبئا عليه.

قلت : أرأيت أخي المسلم ما هو مفهوم الإسلام عند هـؤلاء المبتدعـة؟ إنه إسلام التاريخ، والانتساب الحضاري، لا إسـلام الاستسـلام لـرب العبـاد، واعلم أن هـذا الـذي يقولـون هو عين ما يقوله البعـثيون والقوميـون عن الإسلام وهو نفس قول ميشيل عفلق النصراني البعثي عن الإسلام، ولهـذا لا تعجب من التحالفات التي تقوم بين هؤلاء المبتدعة وبين المرتدين.

15 - والانتقــال من القاعــدة الديمقراطية إلى الواقع العملي يــبين أن الإسلام هو الطاقة الأقدر على تحريك الجماهير نحو موقع حضاري متقدم، وهو القــوة الدافعة لنضــال مســتمر يخــرج بالأمة من نكبتها الحالية إلى الموقع الحضاري المناسب.

قلت: إذا هذا هو الإسـلام الـذي يـدعو إليه المبتدعة الآرائيـون، الإسـلام النافع لا الإسلام الصحيح الوحيد.

وبودي لو ذكرت شيئا من ورقة القوميين، ولكن ضيق المساحة يمنعـني من هذا، ولكن البيان الختامي كان بمثابة تحقيق لما قلناه وهو أن الإسـلام كان مستخدما نافعا لقضايا الشعوب بعيدا عن تدينهم، وبعيدا عن عبوديتهم لرب العباد، فاستخدم الإسلام لقضـية تجميع الطاقـات لمواجهة التحـديات الراهنة ورد الهجمة الحضــارية الغربية بإنشــاء نمــوذج حضــاري متمــيز بالعروبة والإسلام.

وهكذا يصـبح الإسـلام دينا نافعا لتحقيق أهـداف الأحـزاب والتنظيمـات، وليس هو الدين الصحيح، والحق الوحيد، وما عداه كفر وضلال.

{**قل يا أيها الكـافرون، لا أعبد ما تعبـدون، ولا أنتم عابـدون ما أعبـد، ولا أنا عابد ما عبـدتم، ولا أنتم عابـدون ما أعبـد، لكم دينكم ولي دين**}، {**ومن يبتغ غــير الإســلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخـرة من الخاسـرين**}، {**ودوا لو تـدهن فيـدهنون**}، {**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الـدين حنفـاء، ويقيمـوا الصـلاة ويؤتـوا الزكـاة وذلك دين القيمة**}، {**إن الـدين عند الله الإسـلام**} هـذه الآيـات القرآنية وغيرها من آيـات شـاهدة على ذلـك، أن الدين الـذي يعتقـده هـؤلاء المبتدعة في واد وهم في واد آخـر، {**متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون**}.

الاختراق والتاريخ (تأسيس التلبيس):

ظاهرة سرقة الشعار والدعوة تتكـرر على مر الأزمـان والعصـور، حيث يبدأ صاحب الدعوة على عقيدة ما ومنهج ممـيز قد يكـون مكتملا في ذهنه وقد يكــون عائما مســطحا، فيتجمع حوله الأنصــار والمؤيــدون، كل منهم دخلها لمقصد خاص له وبفهم خاص كذلك، فيتلقفها رجل ممـيز في قدراته وعقليته فيستطيع بهذه القدرات والمميزات أن يجـير الـدعوة إلى حسـابه وفكرته، فيبقى الشـعار على الوضع الأول حديـديا مصـمتا جامـدا - ويتغـير المحتوى والمضمون، حتى إذا شاع هذا الشعار مع المضـمون الجديد صـار أمر المصلحين عسيرا متعبا في رد الناس إلى الأمر الأول.

هذه الظـاهرة حـدثت في دين الله تعـالى الـذي أنزله على عيسى عليه السـلام، فعيسى عليه السـلام دعا إلى التوحيـد، وإلى إفــراد الله تعــالى

بالعبادة، وأخبر عن صفات الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء، وأن العــرش وما دونه مخلوقات لله تعالى، والله مستغن عن العرش وعن عبيده، وحذر العباد من الشرك والكفر، فحذرهم من عبادة الصـور والتماثيـل، وحـذرهم من اتخاذهم الناس أربابا من دون الله تعالى، كل هذا كـان واضـحا وضـوح الشمس في دعوة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، فلم يكن في دعــوة عيسى عليه السلام ما يحتمل التأويل، في هذا الجانب، لأن هذا الجانب هو أس الدعوة وعمادها، فلذلك لا بد أن يكون صريحا واضـحا، فتبعه أصـحاب له هم خـيرة النـاس يـوم ذاك، واصـطفى منهم خواصا صـاروا حــواريين وأصفياء لـه، ثم رفع عيسى عليه السـلام إلى السـماء، وشـبه على اليهـود فصــلبوا غــيره، كل هـذا كــان واضــحا في ذهن وعقلية الأصــفياء، فكيف انحرفت الدعوة وتغير مضمونها بعد ذلك؟.

بعد أن رفع عيسى عليه السـلام إلى السـماء نشط أتباعه بالـدعوة إلى دين الله تعالى، وكلما ازدادت الدعوة نشاطا وقـوة كلما ازداد غضب الشر عليها، فازداد اضطهاد اليهود لها، وازداد عذابهم لأتباعها، وكـان هنـاك رجل قد تمـــيز في بيت المقـــدس (حسب الروايـــات) في عذابه وبغضه لهـــذه الدعوة، كان هذا الرجل يهوديا يسـمى شاؤول، وقد اسـتطاع أن يسـتخرج فرمانا من الحـــاكم الرومـــاني في بيت المقـــدس لقتل جماعة من أتبـــاع عيسى عليه السلام في دمشق، حمل شاؤول الفرمـان ووجه وجهه سـائرا إلى دمشــق، تقـول الروايــة: إنه دخل دمشق مؤمنا بـدعوة المسـيح عليه السلام، وادعى أنه رأى رؤيا في الطريق تدعوه إلى اتباع دين عيسى عليه السلام، كان خوف الحواريين منه شديدا، فتخوفوا منه ابتداء لكنه استطاع أن يكسب ثقتهم بعد مـدة قصـيرة من الـزمن، ونشط معهم بالـدعوة إلى الدين الجديد، كـان أكـثر الحـواريين صـداقة معه هو برنابا رضي الله عنـه، حيث تصاحبا في كثير من أسفارهما ورحلاتهما إلى القرى والمدن للـدعوة إلى الـدين الإسـلامي الـذي أتى به عيسى عليه السـلام، وفي رحلة طويلة لهما قصدا إلى شمال الدنيا وصل الاثنان إلى أنطاكية وهناك انفصـلا، حيث وجه برنابا وجهته إلى جزائر البحر، وواصل شاؤول (الذي غير اسمه بعـدما ادعى الإسلام وسمى نفسه بولس) مسيرته إلى بلاد الرومان حيث اسـتقر المقام به في عاصـمة بلاد الرومـان ومقر الإمبراطورية رومـا، وهنـاك بـدأ التحريف والتزوير.

ما إن وصل إلى روما واستقر به المقام حتى بدأ يدعو إلى دين الإسلام الذي أتى به عيسى عليه السلام بمحتوى جديد ومضمون مختلـف، فـادعى هناك في روما أن عيسى تميز عن البشر، وأنه ليس بشرا بل هو ابن الله، وأن الرب (أباه) قد صـلبه من أجل أن يخلص البشر من خطايـاهم، فبهـذا تم فـداء البشر وانعتـاقهم من ذنوبهم ومعاصـيهم، وبـدأ يكسـب الأنصـار والمؤيدين للدين تحت الشعار الأول ولكن بمضمون جديد، وفحوى متغيرة، يقـال لهم من أنتم؟. يقولـون: أتبـاع المسـيح. ما دينكم؟. فيجيبـون بأجوبة الشرك واعتقاد الكفر.

كثر الأتباع وانتشر الخبر حتى وصل إلى الحواريين، كان أكثرهم صـــدمة بهذا الحدث هو سمعان الصفا رضي الله عنه هو بطرس، (وبطـرس تعـني الصـخرة الـتي يقـام عليها الـدين)، حمل بطـرس نفسه ماشـيا من بيت المقدس إلى روما يمشي حينا ويعان حينا بدابة حتى وصل إلى روما ليعلن

للأتباع هناك ضلال هذا الدين وكذبه بنسبته إلى عيسى عليه السلام، تقـول الروايات أن مشقة بطرس وصلت خلال مسيرته أنه تعـرض للمـوت جوعا وعطشا مرات كثيرة، وأن رجليه نزفتا مرات كثيرة، لكن إخلاصه في بيـان كذب بولس (شاؤول) دفعه لمواصلة الطريق إلى روما، عنـدما وصل روما بدأ يعلن ضلال وكذب شاؤول، فاسـتعدى أتبـاع شـاؤول عليه الدولة هنـاك فقبضت عليه بعد أسبوع واحد من وصوله روما وحكموا عليه بالقتل فقتل، وواصل شـاؤول دعوته في روما إلى الشـرك والكفر تحت دعـوى وشـعار دين عيسى عليه السلام.

تقول الروايات أن برنابا أرسل مجموعة رسـائل إلى الأتبـاع الجـدد في روما يحـذرهم من انحـرافهم وشـركهم كلها لم تنفـع، واسـتغلها شـاؤول اسـتغلالا سـيئا، بل إن قتل الرومــان لبطــرس قد اسـتغله شـاؤول في استدرار العطف والشفقة عليه وعلى أتباعه حيث نسبوا بطرس لمـذهبهم ودينهم وأنه قتل شهيدا من قبل الطغاة الرومانيين.

وهكذا بقي الشعار والعنوان والنسبة إلى عيسى عليه السـلام وانحـرف المضمون وتبـدل المحتـوى، واسـتمر الصـراع بين الموحـدين في الشـرق وبين الوثنيين في روما قائما حول - من أحق بهذا الـدين الجديد - واسـتمر على هـذه الحالة سـنين طويلـة، حـتى اسـتطاع الوثـنيون المثلثـون كسب إمـبراطور رومـاني إلى صـفهم هو قسـطنطين (والـتي يسـميه النصـارى بقسطنطين الكبير أو القديس قسطنطين مع أنه لم يدخل في دينهم قـط، فبعض الروايات تقول أنه تعمد نصرانيا على فـراش المـوت وبعضـها ينفي هذا التعميد كلية) حيث أعانوه في تحقيق انفـراده بالسـلطة ضد خصـومه، فحفظ لهم هذا الجميل وبدأ يدعم مـذهبهم واتجـاههم، وكـذلك اسـتطاعوا التــاثير على أمه هيلانة حيث اسـتمالوا قلبها إلى الــدين الوثــني الجديــد، فاسـتغلوا السـلطة الحاكمة في القضـاء على خصـومهم من الموحـدين، تنصـــــــــرت الدولة الرومانية على الطريقة الوثنية وبدأ تنكيلها وقتلها للموحدين في الشرق مما اضطر أصحاب التوحيد إلى الهـرب إلى الجبـال والقفــار بعيــدا عن بطش الدولة الرومانيــة، وبقي قلة منهم على طريق التوحيد حتى جاءهم الإسلام ودخل إلى بلادهم فدخلوا فيه وأسلموا، وهكذا سرق الشعار، وتحولت الدعوة بفعل رجل واحد غير الملة والدين، واستغل أتباعه السياسة والحكم فعاونتهم في القضاء على خصومهم وإبعـادهم من الطريـق، وها هو الـدين المنسـوب لعيسى عليه السـلام يملأ أتباعه فجـاج الأرض وليس فيهم موحد لله تعالى.

كاد هـذا الأمر يحـدث مع دين الله تعـالى الـذي أنزله على محمد صـلى الله عليه وسلم، وما حادثة الردة التي كانت في آخر حياة النبي صـلى الله عليه وسلم ثم انتشرت بعد وفاته إلا مثالا لمحاولة الاختراق، ولولا أن اللــه تكفل بحفظ دينه، وأن الله أقام لهذا الدين هذا الصنف الرائع من الرجـال، كأمثـال أبي بكر الصـديق رضـي اللـه عنه وبقية المؤمـنين لصـار دين الله تعالى أثرا بعد عين، ولصار إسلام التوحيد، إسلاما آخر بمحتـوى جديـد، فيه الإيمان بمسيلمة وسجاح.

وتكرر هذا الحـدث مع الصـديق الثـاني أحمد بن حنبل رحمه الله تعـالى في محنة خلق القـرآن، حيث تقلد القضـاء أئمة الاعـتزال، (وخطبـوا على المنابر ودخل الخليفة في دينهم ومذهبهم)، فضـيق على الموحـدين، فقتل

منهم من قتل، وهرب منهم من هرب، وأجاب بعضهم تقية، ولم يصمد في المحنة إلا أحمد رحمه الله تعالى، حيث حفظ الله به هذا الدين وهذه الأمة من الانحراف والردة.

عصمة الأمة:

من الممتنع ردة جميع الأمة أو انحرافها وتغييرها تحت اسم الإســـــلام، فقد تكفل الله تعـالى ببقـاء جماعة على الحق لا يحيـدون ولا يضـطربون. قال صلى الله عليه وسلم: ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدولهم ينفون عنه تحريف المغـالين، وانتحـال المبطلين، وتأويل الجـاهلين))، وقـال فيهم الإمـام أحمد رحمه الله تعـالى في خطبة كتابه في "الـرد على الجهميـة": الحمد لله الـذي جعل في كل زمـان فـترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى هدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنـور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيـوه، ومن ضـال جاهل قد هـدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم.ا.هـ. أما أن تنحـرف جماعة وترتد وهي ترفع شــعار الإســلام وتنتسب لمحمد صــلى الله عليه وسلم فهذا قد وقع منه الشيء الكثير:

فالإســماعيلية والقرامطة لهم دين عجيب غـريب، ليس فيه شـيء مما يصح انتسابه للكتاب والسنة ومع ذلك فإنهم ينتسبون للإسلام ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وها هم اليزيديون عبدة الشيطان ينتسـبون للإسـلام ولأمة محمد صـلى الله عليه وسلم ومع ذلك يعبدون الشيطان ويدينون له بالطاعة والولاء.

وهاهم القائلون بوحدة الوجود (لا فرق بين الخالق والمخلوق) ينتسبون للإسلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم.

وها هم أهل البدع يرفعون شـعار أهل السـنة والجماعة كعبـدة القبـور، والقائلين بالجبر والتأويل والتجهم.

وأنت لو أنعمت النظر في الطريقة التي حصل فيها هذا الـتزييف وهـذه السـرقة لوجـدت أن أغلبها يتم بالطريقة الـتي قـدمناها مع شـاؤول في تزييفه لـــدين الله تعـــالى (انحـــراف رجل داعية ثم تـــدخل السياسة في نصرته).

مسالك التزييف والتحريف:

اعلم (حفظك الله) أن هناك مزالق ومسهلات يتخـذها هـؤلاء المزيفـون في تمرير بدعتهم أو كفرهم أسوقها لك على عجل:

1 - أهم هذه المزالق الشيطانية التي يتخذها هؤلاء المزيفــون هو الزهد وادعاء الفقر والمسكنة، فأنت لو قرأت مبتـدأ جميع الـدعوات البدعية في التاريخ الإسلامي لوجدت أن الطريق الأول في بنـاء الأتبـاع هو اتبـاع الزهد والذلـة، فهـذا حمـدان قرمط (مؤسس القرامطـة)، وهـذا ميمـون القـداح (مؤسس دولة العبيـديين)، وهـذا حسن الصباح (مؤسس قلعة الحشاشـين في قلعة ألموت)، وهذا مؤسس الـدين اليزيـدي عبـدة الشـيطان وغـيرهم كلهم بدأوا بإظهار الزهد والمسكنة.

2 - حسن السمت، وهذا الـذي يسـميه البعض بنـور الوجـه، فـالمغفلون من البشر تغـرهم وضـاءة الوجه وحسن السـمت، ولا يناقشـون الحقـائق،

وأنت لو سألت الكثير من أتباع الطـرق الصـوفية عن دليل صـدق طـرقهم لأجابك: بأن شيخنا حفظه الله له وجه مشرق نير.

3 - القــدرة الخطابية والتمكن من البلاغــة، وكــذا يلحق بها التمكن من المحاورة أو كما سماها بعضهم بإتقانه: من أين تؤكل الكتف.

4 - الانتســاب لشــرف المنبت والأصــل، كالانتســاب لآل الــبيت عليهم السلام مثلا.

وهـذه الـتي ذكرناها قد يسـتخدمها المحق ويسـتخدمها المبطـل، وهي ليست أدلة إثبـــات الحق ممن دليله في داخلــــه، فعلى داعي الحق أن لا يفوتها لأن الكثــير من النــاس تغــرهم المظــاهر والرســوم، ولا يعــيرون الدراسة والفهم أدنى قيمة كما قال صلى الله عليه وسلم: ((الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة))، وكما قال علي رضي الله عنـه: "وأكـثرهم همج رعاع يتبعون كل ناعق"، ولـذلك هـذه المزالق تسـتحق أن تسـمى "مزالق المغفلين".

تحريف المعــــنى وتزييف اللفظ (الســــلفية / الجهاد):

ما قدمته من أمر قصدت منه الوصول إلى انحـراف اسم عزيز علينـا، له وقع حبيب على نفوسنا، وما زلنا نتنازعه مع قـوم صـرفوه عن حقيقتـه، وألبسوه ثياب الزور والبهتان، هذا الاسم هو "السلفية".

عنــــدما تصل الحركة الجهادية إلى درجة من الوضــــوح في العلاقة مع الآخرين فهذا أكبر دليل على أنها على الحـق، مع أن الـدليل الأول والأكـبر من ذلك كله هو أنها تنطق من الحق المطلــق، أي الكتــاب والســنة على فهم الصــحابة رضي الله عنهم، هــذه العلاقة الــتي كشــفت الواقع على حقيقته، فعرت المرتدين وكشفت سوآتهم، وصـاروا أمـام النـاس من غـير محسنات باطلة ودعاوى فارغة، وعرت الحركات الإسـلامية المبتدعة الـتي زورت الإسـلام وشـوهت وجهه الجميـل، وبـدأ ضـعاف النفـوس بالسـقوط وأعيـاهم طـول المسير، وحطمت الشـعارات الجوفـاء والألقـاب الرنانـة، وصدعت بالحق غير آبهة بالسفن التي تحــرق، أو المصالح الموهومة الـتي تفوت من غير رجعة، أليس هذا الواقع الذي تصنعه الحركـات الجهادية في نفـوس النـاس هو أكـبر دليل على أنها تمثل في هـذا الزمـان عصا موسى عليه السلام والتي أكلت ما أفرزه السحرة والمشعوذون.

لقد قـال ابن عبـاس رضي الله عنهمـا: والله ما أظن على ظهر الأرض اليوم أحدا أحب إلى الشيطان هلاكا مـني. فقيـل: كيـف؟. فقـال: والله إنه ليحـدث البدعة في مشـرق أو مغـرب فيحملها الرجل إلي فـإذا انتهت إلي قمعتها فترد عليه.[1] وهكذا هي والله حركـات الجهـاد السـلفية في العـالم ، تكشف للناس الحقائق، وتبين نفوس الناس ومستويات عقولهم.

النـاس راكــدون راقــدون، والطــرق مبهمــة، والسـماء غائمـة، وهنـاك شخوص اتخذهم النـاس صـوى ودلالات، يرقبـون نـدى فجر يرطب جفـاف حلــوقهم، لكنهم أيقنــوا بعد مــدة أنهم في ســراب، وأن كل ما يعيشــونه مـزور، باطـل، يتخفى بالأقنعة لكنها لم تعد مقنّعـة، فيـأتي البشـير النـذير، رجل يحمل في قلبه التوحيد، وفي يــده بندقية أو قنبلة فيفجرها في وسط

---

[1] - السنة للالكائي ج 12.

هذا الركود، فيفيق الناس من أحلامهم الخادعة، وأوهامهم الوادعة، فيدوك الناس ويضطربون أما الفطـري فيحمد الله ويـدعو الله أن يبـارك في هـذا الصنيع إذ رأى فيه صورة نفسيته وفطرته السليمة، ولكن هنـاك قـوم بنـوا قصورهم على الواقع الآسـن، ورفعوها علالي شـاهقات، فخـافوا عليها من الزوال، أو جزعوا من أن يروا النـاس يكشـفون أن هـذه القصـور إنما هي من ورق لا تصمد أمام العاديات، ولا يدفع به حر أو زمهرير.

راية الجهاد ومقصده تحكم على صوابه وخطاه، وقد رفعت راية الجهـاد كثيرا ولكنها لم تكن سـوى تحـريض عـاطفي لتحقيق مقاصد باطلة وتنفيذ مآرب غير إسلامية. وما فترة قبل الاستقلال (الوثني) إلا دليل حقيقي على هذه المقولة، فالوطنيون والقوميون على اختلاف ألوانهم العقدية اسـتغلوا هذا الاسم الجميل، والراية الرائعة "الجهاد" لتحقيق الوصول إلى أهـدافهم عن طريق سوق الناس إلى التضحية والفـداء والرغبة في الشـهادة، حـتى إذا تم لهم المراد قلبوا ظهر المجن للإسلام وأهله وبانت الحقائق أن هــذه الدعاوى لم تكن سوى قناع زائف يتستر خلفها أعـداء الله وأعـداء رسـوله صلى الله عليه وسلم.

القتال والجهاد: الوسائل والمقاصد

لماذا نقاتل؟ وتحت أي راية نقاتل؟: هذان سـؤالان لا بد أن يستعرضـها المرء قبل أن يحمل البندقية ويقدم روحه في هذا المضمار وهذا السبيل.

الراية أولا:

الراية هي الغاية والحديث النبـوي الشـريف يجعلهما شـيئا واحـدا: ففي مسند الإمـام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعـالى من حـديث عـوف بن مالك الأشجعي قـال: قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: ((هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيسيرون إليكم على ثمانين غاية. قلت: وما الغاية؟. قـال: الرايـة، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا، وفسـطاط المسـلمين يومئذ في أرض يقال لها دمشـق)). وفي رواية له من حـديث أبي الـدرداء بلفظ: فيسـيرون بثمـانين بنـدا. وعنـده وعند غـيره بلفـظ: فيـأتونكم تحت ثمـانين رايـة، تحت كل راية اثنا عشر ألفـا، وهو عند البخـاري من حـديث عوف بن مالك بلفظ: فيأتونكم تحت ثمانين غاية، كل غاية اثنا عشر ألفا.

قال ابن حجر في "فتح الباري" (2/3176): غاية أي راية، وسميت بـذلك لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف.

فانظر (حفظك الله من كل شر وسوء) إلى مقاصد القتال وأنه مربـوط بالراية التي تقاتل تحتهـا، وكيف أن الراية تحـدد المقصد لأن السـائر تحتها سـيقف حيث وقفت، ويمتثل أمر ورودها وصـدورها لا يتعـداها ولا يخالفها في أمر من الأمــور، ومن هنا فإننا نسـتطيع أن نحكم على الراية بمعرفة الغاية، وكذلك نعرف الغاية بمعرفتنا للراية، لأن الراية الظـاهرة هي مظهر المقصد الخفي، والغاية المعلنة باللفظ والتصريح هي التي تحـدد لنا الراية التي يقاتل المرء تحتها.

ومعلـوم أن الجهـاد في سـبيل الله قد يكـون لمقصد واحد من مقاصد الشـريعة، وقد يكـون مطلقا لنشر الإسـلام وتحكيم الشـريعة، فقد يجاهد المرء مـدافعا عن عرضـه، وقد يجاهد مـدافعا عن مالـه، أو عن نفسـه، أو

لفك أسـير مسـلم أو ذمي (على قـول بعض أهل العلم) وكل ذلك داخل تحت المقاصد الشرعية الصحيحة التي تدخل هذا الفعل في مسمى الجهاد في سبيل الله تعالى.

أما القتال تحت الرايـات الكـافرة أو البدعية بدعة مكفـرة، أو في وقت الهـرج الـذي لا يـدري المـرء على مـاذا يقاتـل، أو لأي شـيء يقتل فهـذا لا يدخل في باب الجهاد في سـبيل الله تعـالى، قـال صـلى الله عليه وسـلم: ((من قتل تحت راية عميـة، يـدعو إلى عصـبية أو ينصر عصـبية، فقتلته جاهليـة)).[1] أي إن مـات تحت هـذه الراية فقد مـات جاهليـا، والعمية من العمى وهي الغواية والضلال كالقتال في العصبية والأهواء، وحكى بعضـهم فيها ضم العين "عمية"، وسئل أحمد بن حنبل - رحمه الله - عمن قتل في عمية؟. قال: الأمر الأعمى للعصبية لا تستبين ما وجهه. قـال أبـو إسـحاق: إنما معنى هذا في تحارب القوم وقتل بعضـهم بعضـا. يقـول: من قتل فيها كان هالكا. قال أبو زيد: العميـة: الـدعوة العميـاء فقتيلها في النـار. وقيل : العمية: الفتنة، وقيل الضلالة.[2]

فالراية العمية إذا على معنيين:

المعنى الأول: الراية التي لا وضوح فيها فهي غير بينة ولا واضحة، وإنما انسـاق المـرء فيها كالدابة لا يـدري فيما يتقاتل النـاس عليـه، ولا على أي شأن يتقـاتلون، ولـذلك هي راية لم يسـتبن المـرء أمرهـا، ولم يتحقق من أهدافها.

المعنى الثاني: الراية البينة الضـلالة، الـتي لا تقاتل على الإسـلام ولكنها تنتصر لمعاني الجاهليـة، كالتعصب للقبلية أو العصـبة أو الوجهة دون هـدي من كتاب أو سنة، ويلتحق بهـذه الراية الرايـات البدعيـة لأنها رايـات غواية وضلال ليس عليها نور الهدي النبوي، ولا الحق مسفر بوجهه علينا.

فمن قتل تحت هـاتين الرايـتين فهو على سـبيل هلكة وفي النـار، والحـديث إنما هو تحـذير للمسـلمين أن لا يقـاتلوا إلا من أجل إسـلامهم ودينهم، وأن لا يفرطـوا بـأرواحهم في سـبيل الهـوى والشـهوة والحزبية والعشائرية والقطريـة، وليس في الحـديث بيـان حـال من قاتل تحت راية كفرية شـركية فـإن من قاتل تحت راية الشـرك مشـرك، ومن قاتل تحت راية الكفر كـافر، ولا ينفعه احتجاجه بصـلاح قلبه ونيته ودليل ذلك قوله تعالى: {إن الذين توفاهم الملائكة ظـالمي أنفسـهم قـالوا فيما كنتم قـالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهـاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجـال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا} النساء، وفي تفسـيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسا مسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على النـبي صـلى الله عليه وسـلم (أي يـوم بـدر) فيـأتي السهم يرمى به يصيب أحـدهم فيقتلـه، أو يضـرب فيقتل فـأنزل الله {**إن الذين توفاهم الملائكة**}...

ولعكرمة: فقتلوا ببدر كفارا ورجعـوا عن الإسـلام.[3] وقد عامل الصـحابة رضـي الله عنهم أسـرى هـؤلاء كما عـاملوا بقية الكفـار، فقد أخـرج ابن

---

[1] - رواه مسلم من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.
[2] - انتهى "باب الياء فصل العين".
[3] - الطبري.

إسحاق من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يا عباس افد نفسك وابن أخويك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو فإنك ذو مال. قال (أي العباس): إني كنت مسلما ولكن القوم استكرهوني، قال صلى الله عليه وسلم: الله أعلم بما تقول، إن كنت كما تقول حقا إن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا)).[1]

وقد نص العلماء على هذا الذي قلناه، فقد قال ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى: ولو أن كافرا مجاهرا غلب على دار من دور الإسلام، وأقر المسلمين بها على حالهم إلا أنه هو المالك لها المنفرد بنفسه في ضبطها وهو معلن بدين غير الإسلام لكفر بالبقاء معه كل من عاونه وأقام معه وإن ادعى أنه مسلم.[2]

واعلم أن ابن حزم في قولته هذه قد جعل شرط التكفير لأمثال هؤلاء الذين يقاتلون تحت راية الكفر هو علمهم بكفر الحاكم الذي يقاتلون تحت رايته. حيث قال "كافرا مجاهرا" فمن ستر كفره ولم يعلم أمره فهو معذور إلا أن يكون قادرا على تبين حاله ولكن لم يفعل، فهو داخل في قتال الراية العمية، لأنها راية غير واضحة كما تقدم.

حال من قاتل تحت راية خيار الشعب والمسيرة الانتخابية الشركية:

اعلم أن راية الديمقراطية راية كفرية شركية، وقد علم القاصي والداني أن الإسلام والداني أن الإسلام والديمقراطية دينان مختلفان، فأما الإسلام فهو حكم الله لعباده، والديمقراطية حكم البشر بعضهم لبعض، واعلم أن محاولة البعض مساواة الإسلام بالديمقراطية هي محاولة الزنادقة الذين يريدون أن يبدلوا دين الله تعالى موافقة لأهواء البشر، فإنه وإن التقت الديمقراطية والإسلام في حق اختيار الأمة لحكامها، فإن الإسلام يكفر من خير الناس في أحكامهم، إذ يجب على الناس أن يحكموا بالإسلام وأن يكون الأئمة مسلمين، أما الديمقراطية فهي تجعل للناس حق اختيار أحكامهم وتشريعاتهم، وهذا هو لب الديمقراطية وجوهرها وحقيقتها، فمن جعل الإسلام كالديمقراطية فحاله حال من سوى بين الإسلام واليهودية بجامع أن كلا منهما يعترفان بنبوة موسى عليه السلام، ويقران بوجوب خضوع الناس لسياسة الأنبياء وامتثالهم لأمر النبي المرسل، وشتان بين الإسلام واليهودية {أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون}.

إذا تبين لنا هذا فإن من قاتل تحت هذه الراية فإنه كافر مشرك ويقاتل مقاتلة المشركين (بعد إقامة الحجة الرسالية عليه).

وقد يقول قائل: إن هؤلاء القوم المعنيون يريدون أن يقاتلوا لإعادة الناس إلى البرلمان من أجل أن يحكموا بالشريعة، إذا تبين بالواقع أن حكم الإسلام هو المقصود.

فنقول: إن تطبيق حكم ما عن طريق البرلمان ومجلس النواب لا يدخله في مسمى الحكم الشرعي وإن التقى معه في الصورة، وقد قدمنا هذا سابقا، حيث تبين لكل من عقل وفهم دين الله تعالى أن الحكم لا

---

[1] - والحديث في المسند (1/353) من حديث ابن إسحاق إلا أن فيه رجلا مبهما ما بين ابن إسحاق وعكرمة والحديث له شواهد وأصله في صحيح البخاري (كتاب المغازي) بغير هذه الزيادة. انظر شرح أحمد شاكر على المسند (2/3310).

[2] - المحلى 11/200.

يسمى شرعا إسلاميا وإن كانت صورته تلتقي مع الحكم الشرعي حتى يطبقه المرء بتوصيفه الشرعي، وهو كونه حكما صادرا عن الله تعالى، والحكم الصادر عن البرلمان الشركي هو حكم شركي وإن كان ظاهره يلتقي مع الحكم الشرعي، فالآن قد تبين أن هؤلاء القوم يقاتلون من أجل حكم الشعب لا من أجل حكم الله تعالى، هذا هو حال من قاتل الأجنبي ليحكم الوطني الكافر، فهو يقاتل من أجل راية الوطنية لا من أجل حكم الإسلام الذي أمر الله تعالى بالقتال من أجله كما قال صلى الله عليه وسلم: ((**اغزوا باسم الله، وقاتلوا من كفر بالله**)) ولقوله صلى الله عليه وسلم: ((**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تعالى**)).

فجماعة يمثلها رجل لأنه اختير من قبل الشعب، وجماعة ترى أن الصراع في بلدها هو صراع للعودة إلى المسار الانتخابي الذي أوصل بعض رجالهم إلى قبة البرلمان، فهل تسمى هذه الجماعة بأنها جماعة إسلامية مجاهدة؟ أم أنها جماعة بدعية وبدعتها مكفرة ومخرجة من الملة؟. اللهم إنها جماعة تقاتل مقاتلة الكفار والممتنعين عن الشريعة.

وهنا تنبيه مهم وهو أن الطوائف المقاتلة لا تعامل معاملة أفرادها الجهلة أو حسني النية، بل تعامل معاملة الراية والقيادة كما تقدم سابقا إذ لا يقدر عليها إلا بالقتال، واعلم حفظك الله أن قول من قال: إننا نقاتل من أجل إعادة رجالنا إلى البرلمان هو إسقاط وإهمال لكثير من الآيات كقوله تعالى: {**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**}، والدولة الديمقراطية لن يكون فيها الدين كله لله، بل إنها ابتداء تقوم على إلغاء حق الله تعالى في التشريع والحكم والقضاء، فباسم الشعب لا باسم الله تصدر الأحكام وتطبق في القضاء والمحاكم.

سبيل أهل السنة والجماعة: نقد التزييف

أذكر نفسي وإخواني بأن الفتن كاشفة للرجال، كما قال الرجل لسعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: يا سعيد في الفتنة يتبين لك من يعبد الله ممن يعبد الطاغوت.[1] وقوله هذا حق فإنهم في الوسع يرفعون شارة الإسلام ورايته، وكلهم يزعم أنه وليه وصاحبه، ولكن بعد الامتحان والاختبار يعرف الناس حقائق أنفسهم وعقائدهم. فهؤلاء المتمسكون بشعار جبهتهم وحزبهم، هذا الحزب الذي لم يعلم قادته وأفراده قط التوحيد الصافي، فبعضهم صار وزيرا في دولة الردة، وبعضهم نهق بعداء المجاهدين، وبعضهم ارتمى في أحضان الشرق أو الغرب، فأي توحيد علمهم حزبهم هذا وتجمعهم هذا. ثم يأتي بعد ذلك من يأتي متبجحا قائلا: إن راية هذا الحزب والتجمع هي راية أهل السنة والجماعة"، فلا أدري عن أي سنة وجماعة يتكلمون!!.

واعلم وفقك الله لأرشد أمرك أن هذه المسألة جد خطيرة، وليست هي بكثرة الناعقين والمرجفين، ولا بكثرة العمائم المدورة، والشهادات العالية المزركشة بل هي بالدليل والبرهان، ثم عليك أن لا تطمع كثيرا بهداية أهل الأهواء والبدع، فإن البدع قد دخلت في كل مفاصلهم وشربتها قلوبهم حتى الثمالة، ثم اتفقوا وتمالؤوا على الكذب والبهتان فالصدق

---

[1] - "الابانة الكبرى" لابن بطة 2/769.

منهم كعنقــاء مغــرب غرابة وقد صــدق أبو بكر مســلم الزاهد ذكــر يوما المخـالفين وأهل البـدع فقـال: "قليل التقـوى يهـزم العسـاكر والجيوش". وصدق الشاعر حين قال:

من كان يخلق ما يقول فـحيلتي فيه قليلة

فاهرب من هـؤلاء المبتدعـة، ولا ترخي لهم سمعك لئلا يمرضـوا قلبـك، قـال ابن عبـاس رضـي الله عنهمـا: "لا تجالســوا أصـحاب الأهـواء فـإن مجالستهم ممرضة للقلب"، وأي مـرض أعظم من أن يـذهبوا بك إلى دين يضـــاد دين محمد صـــلى الله عليه وســـلم من كل وجه (أعـــني دين الديمقراطية) فإياك وتسللهم في قلبك.

عن حــبيب بن أبي حــبيب قــال: شــهدت خالد بن عبد الله القســري بواسط في يوم أضحى وقال: ارجعوا فضـحوا تقبل الله منكم، فـإني مضح بالجعد بن درهم، زعم أن الله لم يتخذ إبــــــراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله علوا كبيرا عما يقول الجعد بن درهم، ثم نزل فذبحه.[1]

وقد مدح الأئمة الأعلام فعل القسري عند ذبحــه الجعـد، قـال ابن القيم في نونيته:

وكذاك قالوا ماله من خلقـه أحــد يكون خليله النفسان
وخليله المحتاج عندهــم وفي ذا الوصف يدخل عابد الأوثان
الكـل مفتقر إليه لــذاته في أسر قبضته ذليل عـــاني
ولأجل ذا ضحى بجعد خــا لد القسري يوم ذبائح القربـان
إذ قال إبراهيم ليس خليـله كلا ولا موسى الكليم الـداني
شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك مـن أخـي قربــان

شرح الأبيات: هذه الأبيات في أوائل نونية ابن القيم في العقيـدة[2] حيث بــدأ ابن القيم يعــدد خصــال الجهمية المعطلة[3] ويقصد بالمعطلـــة: أنهم يعطـون صـفات الله تعـالى وينفونها ويزعمـون أن الله ذات مجـردة، وهم وإن كانوا متأولين إلا أن نهاية قولهم هو القول بتطيل الخالق، إذ لا يتصــور العقل ذاتا من في غير صفات إلا لمن لا حياة له، أو نهاية أمـره هو القــول بوحــدة الوجــود، وهو أن الله هو كل موجــود، وقد ورث الأشــاعرة هــذه العقيدة (التعطيل)، مع أنهم ينسبون هذه الصـفات إلى الله تعـالى إلا أنهم يجردونها عن حقيقتها بتأويلها فينسبون لله صفة المحبة ولكنهم يفســرونها أنها إرادة الخير من الله للإنسان. فابن القيم يقـول عن الجهمية أنهم نفـوا عن الله تعالى صفة الخلة وهي صفة جاءت في الحديث: ((لو كنت متخــذا من الأرض خليلا لاتخــذت أبا بكر خليلا، ولكــني خليل اللـــه))، والخلة هي أعلى مراتب المحبة لأنها لا تقال إلا إذا تخلل الحـبيب كل القلب، كما قـال الشاعر:

تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

---

[1] - رواه البخاري في الرد على الجهمية (ح رقم 3) وفي "التاريخ الكبـير" (1/1/14) الدارمي والأجري في "الشريعة".

[2] - سميت بذلك لأن قافيتها نون.

[3] - أتباع جهم بن صفوان الخزري وقيل الترمذي ثم قتل زندقة لأقواله هذه.

ولهذا سمي إبراهيم عليه السلام خليل الله تعالى.

فالجهمية نفت صفة الخلة وجعلوا الخلة هي حاجة المرء لربه، فرد عليهم ابن القيم أن هذه الصفة لا يتميز المسلم بها عن الكافر لأن جميع الخلق (مؤمنهم وكافرهم) محتاجون إلى الله تعالى، وجميع الخلق في قبضته وأسره.

وبسبب نفيهم صفة الخلة عن الله تعالى وقولهم بتعطيل صفات الله تعالى كالكلام وكذا علوه على خلقه استحقوا القتل، وقد قتل القسري الجعد بن درهم لقوله بهذه العقيدة الفاسدة.

وقد مدح العلماء (أهل السنة) صنيع خالد القسري هذا وكذا مدحه ابن القيم بقوله: "لله درك من أخي قربان".

لقد احتاج الشباب المسلم المجاهد قفزة نفسية هائلة حتى استقرت في أذهانهم مصطلحات السلف، وصاروا يستعملونها دون حرج ودون شعور بالنقص، نعم كانت الدائرة التي يتوقف عند حدودها الشباب في المناقشة حول القرب من الصواب، فمن أصوبنا؟ ومن أقربنا إلى الحقيقة؟ وهذا بسبب التربية البدعية التي نشأوا عليها والتي تجعل كل قول ينتسب إلى الإسلام قولا إسلاميا، وأنه يجب اعتباره واحترامه وتقديره، واختلط في أذهانهم عدم الفرق بين المسائل الاجتهادية والمسائل الخلافية فلم يعودوا يفرقون بينهما، فكل مسألة اختلف أهل الإسلام حولها هي مسألة يصح فيها اعتبار الأقوال وعدم العيب فيها على المخالف حتى صرنا نسمع بوجود مصطلحات غريبة عن الفقه الذي كتبه علماؤنا مثل مصطلح الثوابت ومصطلح المتغيرات، ولم يعد الشباب الذين ربوا تربية بدعية في بعض التنظيمات يعرف الحد الفاصل بين ما هو ثابت وما هو متغير، لأنه قد سمع من قادته ومشايخه أنه لا فرق بين أهل السنة والشيعة في القواعد والأصول فربنا واحد ورسولنا واحد وقبلتنا واحدة وفقط (هذه هي الثوابت عندهم وغيرها من المتغيرات)، إلى هذا الحد وصل تجريد الإسلام عن حقائقه وتعريته من أصوله وقواعده، وتفريغه من مضمونه، ولهذا وجب على كل الدعاة إلى الله أن يقرأوا كتب السلف الصالح وأن يتربوا عليها لأن هذه الكتب هي التي تصنع المزاج السني زيادة على المنهج السني، فإن المزاج السني يحتاج إلى طرق ومهمات تربوية لإعادة صياغته وبنائه وإصلاحه من الدمار الذي أصابه، والتشويه الذي لحق به.

هناك كتب سلفية لا ينبغي للمرء المسلم السني المجاهد أن تغيب عن ناظريه، بل يجب عليه أن يعود لها المرة تلو المرة حتى يستقيم منهجه ويصح مزاجه، ومن هذه الكتب العظيمة:

1 - كتاب "السنة" للإمام أحمد الله بن أحمد بن حنبل.
2 - كتاب "الرد على بشر المريسي" للإمام الدارمي.
3 - كتاب "الرد على الجهمية" للإمام البخاري.
4 - كتاب "الإبانة الكبرى" لابن بطة العكبري.
5 - كتاب "الشريعة" للآجري.
6 - كتاب "التوحيد" لابن خزيمة.

ففي هـــذه الكتب وما نسج على منوالها تستطيع أن تـــدرك الفـــارق العظيم بين ما نحن فيه من أخطاء وعيوب وبين ما كـان عليه السـلف من نصاعة ووضوح.

في هذه الكتب المزاج السلفي الصريح بهجران المبتدعة وتنفير النـاس منهم وتحذيرهم من الاقتراب منهم.

هـــذه الكتب تعينك على فهم ضـــلالة المفكـــرين الآرائـــيين حيث أنهم يرومون هدم الإسلام من قواعده وتدمير أركانه حيث جعلوا شعار الإسـلام من حق كل أحد قال أنا مسلم.

هـذه الكتب تصـنع مزاجا حقيقيا لقيمة السـنة وعظمتها ومحبة أهلهـا، وتصنع مزاجا حقيقيا ببغض المبتدعة والبدعة، وتدفعك بقوة إلى قول كلمة الحق دون مواربة أو تقية.

تهافت المبتدعة (السلف والخلف):

المحدثون المعاصرون يريدون منك حاملا لقاعدة الحق النسـبي: أي أن الحق الـذي تحمله من فهم السـلف الصـالح لـدين الله هو حق نسـبي لا مطلق، فعليك أن تعترف لغيرك بالوجود، ولغيرك بأنه يملك رؤية عليك أن تحترمها وتقدرها فـإن خلافك مع المبتدعة لا يفسد للـود قضـية، وأننا علينا أن نتعاون على ما اتفقنا عليه (حـتى مع الشـيعة الـروافض) ويعـذر بعضـنا بعضا فيما اختلفنا فيه (حتى لو اختلفنا حول هل شيء هو إسـلام واجب أم هو كفر غليظ الديمقراطية والدخول في العمل البرلماني).

وها أنا قد سقت لك مقدمة من تعامل السلف مع المبتدعة، حيث مـدح أهل السنة والدين قتل خالد القسـري الجعد بن درهم، ولو حـدثت الحادثة في هذه الأيام لتصايح الآرائيون بأن هؤلاء (أهل السـنة) يقتلـون مخـالفيهم ولا يحتملون وجود الرأي الآخر، هؤلاء منغلقـون ومتحجـرون ومتخلفـون!!. هذه عبارات الآرائيين.

وأنا أذكـــرك بـــأن ما قاله الجعد بن درهم أهـــون ألف مـــرة مما يقوله مبتدعة هذا الزمان، ألا ليت مبتدعة هذا الزمان كشـــجاعة الجعد بن درهم، وليتهم قائلون للحق أمام الطواغيت كالجهم بن صفوان.

إن معايير السلف قد ضاقت في عقولنا إلى درجة هائلة، ولو أننا تعاملنا مع موازينهم في الرجال والحركات لكان ما يقوله هؤلاء المبتدعة في هـذا الزمان عند الأوائل زندقة:

فلو أن رجلا قـال أمـام الإمـام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعـالى -: إن حديث الذبابة لا آخذ بـه لأن محمـدا صـلى الله عليه وسـلم ليس متخصصا في الكيمياء، فماذا سـيحكم عليه الإمـام أحمد رحمه الله تعـالى؟!!، بل لو عرض هذا القول على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فماذا سـيرد عليـه، هل سيرد عليه بأن يقـول: هـذا قولك وأنا أخالفـك، وخلاف الـرأي لا يفسد للود قضية، أهذا هو دين الله الذي انتصر به السلف أم هو دين الزنادقة.

ولو أن رجلا قال أمام الإمام البخاري رحمه الله: إننا لن نحكم بالإسـلام حتى يقبل الناس هذا الحكم، فلو اختار الناس الإلحاد لجاز لهم أن يحكمـوا بـه، فهـذا الرجل أيصـنفه الإمـام البخـاري مع الجعد بن درهم أم مع ابن الراوندي؟.

يا قوم قليلا من تقدير الله تعالى، وقليلا من احترام فهم الصحابة لـدين الله تعالى.

هذه القفزة النفسية الرائعة بتسمية المبتدعة بأسمائهم احتاجت إلى جهد شاق من القراءة المتتابعة لكتب السلف، ثم احتاجت إلى بصر واع للواقع الذي يعيشه الناس وإلى معرفة واقع القوم الذين يـزورون دين الله تعالى باسم الإسلام والدين.

قـال أبو عبد الله (أحمد بن حنبـل): ما أبـالي صـليت خلف الجهمي والرافضي أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلم عليهم، ولا يُعادُون ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبـائحهم. قـال عبد الـرحمن بن مهـدي: هما ملتان (دينان يفترقان عن دين الإسلام) الجهمية والرافضة.[1]

قولـه: لا يعـادون: لا يـزارون في مرضـهم، وقوله لا يشـهدون: أي جنائزهم.

كـان شـأن سـلفنا الصـالح رضي الله عنهم عظيم، مع أهل البـدع، ولا يرون شيئا أضر على دين الإسلام منهم، والقارئ المتمعن لكتب السلف لا يرى هـذه الهنـات النفسـية الـتي وقع فيها الخلف من الإخـوان المسـلمين وحزب التحرير، ولا يـرى فيها التنـازلات المقيتة الـتي وقع فيها المتـأخرون من أصحاب التجمعات البدعية، والسلف من أهل الحـديث والسـنة لم يكن عنـدهم هم التجميع والتكثـير على حسـاب المنهج بل كـان المنهج قبل كل شـيء، والتوحيد بجلائه ووضـوحه هو أسـاس المحبة والـولاء، والبدعة والشـرك هما منـاط البغض والعـداء والـبراء، لكن لما هـانت السـنة على النـاس، وصـار الحـديث عند أصـحاب الفهم الحضـاري للإسـلام عن الجنة والنـار والغيب والآخـرة والثـواب والعقـاب هو حـديث السـذج من النـاس، ضاعت معالم الدين واندرست آثاره، وبدأت المصـطلحات الجديـدة تغشى الإسـلام وشـعاره المجـرد فصـار هنـاك الإسـلام الحضـاري، والإسـلام الديمقراطي، والإسلام الليبرالي، وصـار مقـدم القـوم هو من يحسن لـوك الألفـاظ المفخمـة، ويتقعر في حديثه متجنبا السـنة وآثارهـا، فتضـخمت الـرؤوس بالأفكـار، والألسن أصـابها داء السـرطان فطـالت مرضـا، وقل العمـل، وضـعفت عبودية النـاس لـربهم، وقل الشـوق إلى الآخـرة، حينئذ ضرب الله قلوب الناس بالشبه والأهواء، فالعبقري الذي لا يفـري فريه هو من يحسن رد السنة بالهوى، ومن يقدم الجنة للناس بلا تكاليف، هذا حـال أهل الرأي الذين جعلوا الوحي حضارة والنص الغيبي فكرا، فتأنس الإسلام على أيديهم، إذ صار الإسلام هو مصلحة الرجل والجماعة لتحقيق شهواتهم في الـدنيا، وكل تكليف ومشـقة تلحق النـاس في عمل من الأعمـال ردوه بحجة الضـرورة ورفع الحـرج، فتوسع النـاس في التأويل وحفظ الـرخص ومزالق العلماء وأخطائهم.

وقوم آخرون زعموا التمسك بالسـنة وبفهم السـلف الصـالح، وأخرجـوا النـاس من تقليد الأوائل ولكنهم لم يـبرأوا من جرثومة التقليد فـأخرجوا الناس من تقليد الشافعي إلى تقليد ابن باز ومن تقليد مالك إلى تقليد ابن عـثيمين ومن تقليد أحمد إلى تقليد الألبـاني، تحـاور الرجل منهم السـاعة والسـاعتين وتلقي بوجهه الـدليل تلو الـدليل فلا يجد في قلبه من الشر إلا أن يقول لك: ولكن الألباني يقول بغير ذلك!!، ولكن ابن باز لم يقل هـذا!!،

---

[1] - "خلق أفعال العباد" للإمام البخاري 53، 54.

هل قال بهذا ابن عثيمين وابن باز والألباني؟، من قـال بهـذا؟، ولو قلت له قـال الأئمة العظـام لعـارض هـذا القـول في نفسه ما يقـول هـؤلاء الـذين اتخذهم آلهة من دون الله، لا يقـول إلا ما يقولـون، ولا يـدين إلا بمـذهبهم، وكأنهم أنبياء هذا الزمان، وكان من مقت الله تعالى لهؤلاء القوم أن مسخ الله قلوبهم وعقـولهم حيث جعلـوا الإمامة (وهي أعلى المـراتب وأشـرفها في هــذه الــدنيا) من حق من مسخ الله قلبه وأتى المكفــرات العظيمــة، فانتسابهم للسلف لم يعلمهم التوحيد الـذي يـوجب عليهم الـبراءة من كل طــواغيت الأرض، وإني لأعلم عالما (ســلفيا!!) اســمه يطــرز على كتب الحديث تحقيقا وتخريجا ومع ذلك هو في حزب علمـاني من أهل بلـده، ولا يرى الحرج في ذلك فأي قوم هؤلاء؟! وأي سنة صحيحة ينتسبون إليها؟!!.

هذا حال المتدينين في هذا الزمـان، وأهل السـنة والحـديث كـالملح في الطعـام؟ غربـاء بين أهل الإسـلام، ولـولا أن الله برحمته يـرطب قلـوبهم بالإخلاص وذكر الآخرة لضاقت بهم الحياة وانفطرت قلوبهم حزنا وغما.

إن حدثوا الناس بالسنة والعمل قال أهل النفاق: هؤلاء أهل القشور.

وإن حدثوا الناس بكفر الحاكمين بغير ما أنزل الله وطوائفهم قـال أهل النفاق: هؤلاء خوارج.

وإن حدثوا الناس بالجهاد في سبيل الله ضد المرتدين قال أهل النفـاق: هؤلاء متسرعون لا يفقهون السياسة.

وإن حدثوا النـاس بكفر الديمقراطية وكفر العمل البرلمـاني التشـريعي قال أهل النفاق: هؤلاء غلاة.

وإن حــدثوا النــاس بوجــوب تجريد الأتبــاع ونبذ الأغيــار قــالوا: هــؤلاء متكلسون.

فأي نصر يرجونه من الله ؟!! وأي تأييد إلهي سيقع عليهم؟!!.

لقد جاءت الفرص الكثيرة والكبيرة جدا لتحقيق أماني المسلمين بوجود دولة لهم ترعاهم، وبيضة تمنعهم وتحميهم، وملاذا يؤوبون إليه، ولكن خيب الله ظنونهم، وضاعت هذه الفـرص من أيـديهم لأنهم لا يسـتحقونها، ولعلم الله تعالى أنهم أدنى من أن يقع عليهم المن الإلهي بـالفوز والظفـر. وإني لأعتقد أن الله قد خبـأ هـذا الخـير - دولة الإسـلام - لمن يسـتحقه من أهل التوحيد والســنة والجهـاد. وإن جــاز لنا أن نحمد هــؤلاء القــوم على عــدم توفيقهم لحمدناهم، ولكن لا يحمد المرء على جهله، فإنهم لو وفقــوا لدولة لهم يحكمونها لساموا أهل السنة والحديث والجهاد سوء العذاب.

فلو أن الإخـوان المسـلمين حكمـوا دولة من الـدول، ثم جـاء الخميـني بدولته الرافضية اللعينة فماذا سيصنع هؤلاء المبتدعة؟.

لقد علمنا صـنيعهم، ورأينـاهم وهم يتراكضـون عليه يؤممونه ويسـيدونه ويوسدونه، حتى قـال قـائلهم وهو يخطب في جمع من الغثـاء بعد أن عـاد من إيران الرافضية وتنعم بالسلام على اليد "المباركة"، يد الإمام الشـيعي آية الله الخميني، قال: لقد رأيت في وجهه صورة عمر بن الخطاب رضــي الله عنه، فلو أن مثل هـؤلاء القـوم حكمـوا بلاد المسـلمين فمـاذا سـتكون النتيجــة؟، النتيجة أنهم سيســلمون رقابنا إلى إمــامهم الأكــبر وســيدهم الأعظم الخميني فيفعل بأهل السـنة الأعـاجيب، كما صـنع أسـتاذه وسـيده ابن العلقمي نصر الدين الطوسي في أهل بغداد عنـدما فتح بغـداد لهولاكو فاستباح دماء الناس وأعراضهم حتى قتل أكثر من مليون شخص.

قدر الموحدين:

إني أعتقد أن الفضل الإلهي بدولة الإســـلام الناصـــعة، القائمة على التوحيد الصافي والاتباع المجـرد لله لن يصـيب - إن شـاء الله تعـالى - إلا أهله، ولكن بشرط (وشرط أكيد) أن لا يضعفوا، ولا يتنازلوا عن شـيء من السنة والدين مقابل مصالح موهومـة، أو من أجل هم التجميع والتكثـير، أو بسبب طول الطريق وكثرة المعوقات.

نعم يا أهل التوحيد والجهـاد لقد ضـاقت بكم السـبل وقل الناصر وكـثر الخصـوم فلا تغفلـوا عن بـاب الله المفتـوح لكم في كل حين، وهو أوسع الأبواب وأرحمها وأرحبها.

نعم يا أهل الحق لم نصل بعد إلى أن ننشر بالمناشـــير، ولم نصل إلى أن نقول بل نصرخ: متى نصر الله؟!!.

نعم يا أهل التوحيد والجهـاد أئمتنا يسـجنون ويقتلـون ويقتنصـون لكنها ضريبة الطريق، وحتمية السنن.

نعم يا أهل التوحيد والجهاد عمر عبد الـرحمن يسـجن ويقيـد، وأصـحاب العمائم النخرة يلهـون ويلعبـون ويتحـدثون أمـام الطـواغيت عن فضـائلهم التي لم تكتشفها الشعوب إلى ا لآن.

نعم يا أهل التوحيد والجهــاد لقد رمــاكم النــاس عن قــوس واحــدة، وتكـالبت عليكم قـوى الشـرق والغـرب، وتـبرأ منكم أهل البدعة والفرقة والشقاق، لكنها إرهاصات النصر إن شاء الله تعالى.

فإياكم والوهن والتبديل والتغيير، وإياكم ثم إياكم أن يأتيكم المـوت وقد بدلتم وغيرتم.

أليس من سننية النصر أن يفـترق النـاس إلى فـريقين، وينقسم النـاس إلى معسكرين: معسـكر إيمـان لا نفـاق فيه ومعسـكر كفر لا إيمـان فيـه؟ فكيف يحصل هذا بدون محنة وبلاء وعـذاب ومشـقة؟ لكن اعلمـوا أن أهل البدعة والضـلالة وإن ملكـوا الأمـوال والمناصـب، وإن سـارت بأسمائهم الركبــان، وإن فتحت لهم الســدود والحــدود فــإن ذل المعصـية والبدعة مضروب على جباههم، معلق على صدورهم، فها هو الطاغوت يتلعب بهم، ويلهو الشيطان لهم، ويدحرجهم كما تدحرج الكرة، فكفى بذلك لك عــبرة، فإيــاك أن تمر بك الآيــات دون نظر وعــبرة: {إن في خلق الســماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعــودا وعلى جنــوبهم ويتفكــرون في خلق الســماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار}.

واحـذروا من زمزمة القـراء، وكـثرة المتشـدقين، قـال صـلى الله عليه وسلم: ((أكثر منافقي أمتي قراؤهـا))، وعليك بالسـنة والأثر والرجـوع إلى فهم السلف ومنهجهم فهم أعلم الناس بدين الله تعالى.

معوقات الدعوة: المثالية والواقعية

إن من بين المعوقات التي تمنع الكثير من طيبي القلوب وحسـني النية من متابعة تأييدهم ومشاركتهم للأعمـال المـؤثرة في حيـاة البشر هو أنهم يعيشون حالة من التسـامي مع الأفكـار والمبـادئ، ويشعرون بجمالها وهي تحاور على الورق أو تنـاقش في النـدوات والجلسـات الممتعـة، لكنها حين تخرج من حيز القول والاعتقاد إلى عالم التطـبيق والحقيقة فإنهم يصـابون

بالصدمة النفسية إذا لم يكونوا يربطون بين جمال الأفكار المجردة وبين صورتها الواقعية والعملية، وهؤلاء على الدوام يخسرون التأثير وكذلك يكثرون اللوم والتقريع.

حين يأتي شيخ ويتحدث عن حكمة وعظمة التشريع في حد الزاني المحصن، وأن الرجل أو المرأة يشدان إلى ثيابهما ويوضعان في وسط الناس، وتحضر لهما الحجارة فيقوم الناس برمي الزاني والزانية بهذه الحجارة حتى يتم موتهما، هذا المنظر بكل انفعالاته الواقعية، وبكل ما يحمل من مدلولات وتأثيرات على النفس، إذ عليك أن تتصور صراخ المحدودين ونزيف الدماء، وصياح الناس، وتفاوت النفوس في رؤيتها لهذا الحدث، فهذا محب للمرجوم فهو يبكي على حالته، وقد تضطرب نفسه فيصاب بما يصيب أمثاله إن كان من ضعاف النفوس في موقفه أمام هذه الأحداث فقد يشهق شهقة، وقد يرتفع عويله وصراخه فيقع منه الهذيان، وقد يجتمع أطفال الزانية أو أولاد الزاني فيبكون فقيدهم، مثل هذه الصور قد لا يستطيع الشيخ الذي يتحدث عن عظمة التشريع وحكمته أن يواصل النظر إلى الحدث حتى نهايته، وقد لا يطيق رؤية الدم وهو يخرج كالنافورة من رأس المرجومة فيصاب بالغثيان أو يخر صريع الغيبوبة، فهناك فارق كبير بين جمال الأفكار وبين واقعيتها.

حين يتحدث الناس عن الجهاد في سبيل الله تعالى، فهذه كلمة جميلة وجميلة جدا - الجهاد في سبيل الله تعالى - ولكن واقع الجهاد ليس جميلا كله في كل أحداثه، فالجهاد ليس هو هذه الخطب الرنانة، وليس هو تلك الكلمات الجميلة، وليس كله غنائم وسبايا، وليس كله نصر مؤزر، وليس كله خطب نارية، بل فيه موت الحبيب، وفيه جرح الصديق، وفيه تطاير الأشلاء وفقد المال، وفقد المعين، وبمعنى آخر فيه جانب من المشقة، بل المشقة العظيمة، ثم فيه اختلاط الجنود وحصول الخصومات بين الناس، فهذا ضرب هذا، وهذا خاصم هذا، وهذا شط على هذا، فهو حركة بشرية، وفيه أخطاء واجتهادات، وتأويلات بعضها يستساغ وبعضها ليس كذلك، فهناك حد فاصل بين جمال الفكرة وسموها وبين واقعيتها.

لو أخذنا تصور الناس وخيالهم لواقع الدولة الإسلامية، لوجدنا أنها أقرب ما تكون في أذهانهم إلى عالم الأحلام، عالم مليء بالصور الجميلة، والفراشات الطائرة، والألوان الزاهية، والسماء تنزل غيثها على الدوام، والضرع مليء في كل حين، والأعداء يخافون جانبنا لما يعلمون من نزول الملائكة معنا في القتال، فهم يتصورون دولة الإسلام التي لا فقير فيها، ولا مريض فيها وكل من طلب شيئا فهو بين يديه، ولكن لو نظرنا لدولة النبي صلى الله عليه وسلم لما وجدنا هذه الجنة، بل لوجدنا أن معاناة الصحابة رضي الله عنهم في دولة الإسلام في المدينة أشد من معاناتهم وهم في مكة.

فهل حصل للصحابة رضي الله عنهم في مكة ما حصل لهم في غزوة الخندق {إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا} في دولة الإسلام زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وابتلاء كالزلزال بل هو الزلزال نفسه.

قارن بين هذه الصورة وبين الصـورة الـتي يحـاول رسـمها مشـايخ هـذا الزمـان لدولة الإسـلام، فهم يعـدون النـاس بالدولة الـتي لا خـوف فيها ولا مشقة، بيت لكل إنسـان، طعـام لكل بطن، والنـاس يـدخلون في الإسـلام لمجرد رؤيتهم لنا ولدولتنا، وعلى هذا فالناس يأتون إلينا (إلى جماعتنا) لأن في أذهانهم أننا الحـزب الـذي سـيؤمن لهم من النعيم الـدنيوي أكـثر مما تؤمنه الأحزاب الأخرى.

لكن لو قلت لكم: إن ثلاثة من الخلفـاء الراشـدين مـاتوا قتلا، وعلى يد أناس لم يحتاجوا لكثير من التخطيط لقتلهم:

- فعمر بن الخطاب رضي الله عنه قتله عدو الله أبو لؤلـؤة المجوسي وهو قائم في صلاة الفجر، بين يدي شـيوخ المسـلمين وعلمـائهم وقـادتهم ورؤسائهم.

- عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه انطلق الهوجاء وسـيطروا على المدينة حتى دخلـوا وهو يقـرأ القـرآن على الخليفة الصـائم رضي الله عنه وذبحوه في بيته وهو يقرأ القرآن.

- علي بن أبي طـالب رضـي الله تعـالى عنـه، قتل في وسط المسـجد وهو قـائم يـدعو النـاس إلى صـلاة الفجـر، وبين طائفـة، يأتيه ابن ملجم الخارجي فيضرب هامته بالسيف بتصـرف فـردي وباتفـاق مع آخـرين على قتل معاوية وابن العاص، وهـذا عصر الخلافة الراشـدة وما أدراك ما بعـده ولـذلك علينا أن نقـول: إن الـذين يتصـورون عـالم الإسـلام العملي (حركة المرء المسلم في الحياة) هو عالم لا يمت إلى عالم البشر، وهو خارج عن حركة الحياة برمتها هؤلاء واهمون، ويعيشـون توهيمـات وخيـالات فبمجـرد اصطدامهم بالصورة الحقيقية لهذه الحياة ستجدهم ينقلبون على أنفسهم، يعلنون اعتزالهم وعدم قدرتهم على تحمل هذه الحياة.

إن العيش مع الكتب وبين الكتب، ومع الأفكـار والقلم والـورق ليس هو الإسلام إنما الإسـلام هو حركة الحيـاة، حركة البشر (الإنسـان) بما فيه من صواب وخطأ، فالصواب يقوى ويدعم، والخطأ يقوم ويصلح، فعالم الإسلام العملي فيه الصواب وفيه الظلم، فيه الصدق وفيه الكــذب، وكل له مقامه في الإسلام.

الإسلام يعترف بوجود الخطأ كونا، ولا يلغيه في الخلق والوجـود ولـذلك أنزل الله تعالى الحدود وأنزل العقوبات، وأنزل الأحكام، والخطاب الرباني في ذلك كله للمجتمع المســلم الموحد المجاهد وليس هو خطــاب لغــير المسلمين.

على الـرغم أن عصر الفتنة بين علي رضي الله عنه وخصـومه (عائشة ومعاوية رضـي الله عنهمـا) هو عصر نكل فيه أصـحابه إلى الله تعـالى، ولا نقـول فيه إلا ما جاءنا عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم من أحكامه كقوله صــلى الله عليه وســلم لعمــار: (تقتلك الفئة الباغيــة) وغــيره من الأحاديث، لكن لو حاولنا استطلاع ورؤية الواقع عن قـرب (وهو عصر مبكر وقريب من القرون الخيرة بل هو منها) لرأينا هولا، ولرأينا من الأمور الـتي تشيب لهولها الأطفال، انظر:

1 - الخـوارج (أربعة آلاف رجل مقاتل قـرروا قتـال علي رضي الله عنه وثلاثة آلاف في الكوفة قرروا عدم قتاله ولا القتـال معـه) طلب منهم علي رضــي الله عنه أن (نمضي إلى قتــال عــدونا وعــدوكم معاويــة)، لكنهم

يرفضون حتى يعلن اعترافه بالكفر والتوبة عنه، فيقيم لهم علي رضي الله عنه ملحمة في النهــروان بعد قتلهم عبد الله بن خــباب بن الأرت وزوجته الحامل، فقتلهم ولم ينج منهم سـوى (400) رجل جريح.

2 - معركة الجمل في الخريبــة قــرب البصــرة (حسب رواية عمر بن شــبة) وهي معركة بين مســلمين بل بين القبائل نفســها (مضر ضد مضر وربيعة ضد ربيعة ويمن ضد يمن) إخوان في الـــدين والمنهج والنســـب، وقتل فيها طلحة والزير (المبشرين بالجنة).

3 - معركة صــفين بين على ومعاوية رضــي الله عنهمــا، معركة حصل فيها مجـزرة مع أن بعض النـاس حرضـوا على الصـلح وقـالوا: "من لثغـور الشــام بعد أهل الشــام؟ من لثغــور العــراق بعد هلاك أهل العــراق، من للذراري والنساء، ألا تذكرون الأرحام؟" وبعيـدا عن ضـعف الروايـات الـتي ذكرت الهول في القتلى لكن بلا شك أن القتل كان عظيما.

4 - "ردة بعض النصـارى بعد إسـلامهم حـتى قـالوا: والله لـديننا الـذي خرجنا منه خير من دين هؤلاء الذين هم عليـه، ما ينهـاهم دينهم عن سـفك الدماء وإخافة السبيل وأخذ الأموال. (الطبري) وقاتلهم علي على الردة.

ثم بعد ذلك كله عام الجماعة، ثم حرب عبد الله بن الزبير، ثم... ثم...

فهذا جانب من حركة الإنسان (أي الإنسان) لا ينبغي أن ينسى أو توضع عليه الأيدي لنفهم النـاس أن حيـاة المسـلم كلها قيـام ليـل، وصـيام نهـار، وعفو متكرر، وعطاء متكرر، وخـير دائم حـتى اصطبغت صـورة الـولي في خيال الإنسان المسلم على هيئة الغاز المثالي، الذي لا وجود له.[1]

الولي هو إنسان.. وهو.. بشر.

المجاهد هو إنسان.. وهو.. بشر.

أما تصوير صورة الإسلام العملي وعالم الإسلام والمسلمين على صورة أفلام الكرتون أو عالم الجن والملائكة فهي صـورة تهين الإسـلام أكـثر مما ترفعه.

إننا نقـول هـذا لأولئك القـوم الـذين يعطلـون عظـائم الأمـور ويوقفونها لمجرد بعض الأمور الصغيرة، فحساسيتهم أمـام الأخطـاء تجعلهم يضـعون العصبة على عيونهم لحجبها عن رؤية الخير والنعمة والفضل الإلهي.

إن الجهاد في سبيل الله تعالى حركة بشرية، وحركة من أجل السلطان والملك، ففيه تتـداخل كل انفعـالات الإنسـان، ومن دعا للسـيف أو حـرض على الســيف، فلا ينتظر أن يناقشه النـــاس ويحـــاربوه بـــالخطب الرنانة والـورق الصـقيل، بل عليه أن يحضر نفسه ليـذوق حـر السـيف، هـذه هي سنة الله تعالى، وللذكر فإن الخلفاء الثلاثة (الشـهداء) ما مـاتوا بيد الكفـار بل ماتوا بيد مسلمين (فسـقة، مبتـدعين) فـأبو لؤلـؤة الفارسي ليس من أهل الشرك (ومحاولة إثبات مجوسيته دونها خرط القتـاد وإن نسب إليهـا) وأبو ملجم من الخوارج (و لم يكفر أوائلهم إنما الخلاف فيمن أتى بعدهم)، والثائرون على عثمان (بعض قادتهم صـار من قـادة جيش علي رضـي الله عنه).

ولذلك من وضع رجله ويده في هذا السبيل، سـبيل إعـادة سـلطان الله تعالى على الأرض بالجهـاد في سـبيل الله تعـالى، ووقف نفسه للتحـريض

---

[1] - انظر "المتهاجرون"، أي من مات من الصحابة والتابعين وهو مهاجر لصاحبه حـتى مات في المعارف لابن قتيبة ص 550.

ضد الطواغيت، وإزالة عروشهم، ودك طغيانهم، فهذا رجل نهايته معلومــة، وإن لم يحضر نفسه لذلك فهو رجل مستريح (أي لا عقل لـه) فهـذا طريق نهايته إما برد العدل أو حر السيف.

نعم يسعك أن تنشئ مجلة أو نشرة لتكون حزبا معارضا، وحزبا ترقيعيا تطلب الإصلاح وتنتظر الفرج بإخراج المساجين، أو مرت ملك ليـأتي غـيره فربما يكـون خـيرا منـه، فحينئذ أمـرك سـهل وهين، فـأنت رجل سياسة وكلمة، وملفك عندهم لا يعدو أن تكون معارضا محترمـا، أي تحـترم حـدود المعارضة السياسية.

أما وقد قلت: الجهاد والقتال، فما عليك إلا أن ترتقب، فلست أنت بخير من أسلافك الأخيـار، ولست أنت بخـير من أقرانـك، فليس عبد الله عـزام عنك ببعيد، وليس الشـيخ عمر عبد الـرحمن عنك ببعيـد، وليس الشـيخ أبو طلال القاسمي عنك ببعيد، وليس الشيخ أنور شعبان عنك ببعيد، وليس أبو عبد الله أحمد عنك ببعيد، وليس سفر الحوالي وسلمان العـودة عنك ببعيد وليس... القائمة طويلة يا عبد الله ويكفيك هذا.

فهذا أمر تشـيب له الولـدان، وليس له إلا الرجـال، ففكر كثـيرا قبل أن تخوض، وإياك أن تقـول: لقد ورطـوني، فما ورطك أحـد، فنحن لم نضـمن لك حصـــول الـــوزارة والمنصـــب، ولم نضـــمن لك ملائكة تجاهد معك لا يخطئـون، ولم نضـمن لك مسدسا يـنزل من السـماء يعـرف المـؤمن من الكافر والسني من البدعي، ولم نضمن لك نبيا قائدا يوحى إليه، فقد نقول لك اليوم قولا ونرجع عنه غدا، ونقول لك: هـذا ما رأينـا، وما شـهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين، فإن أردت (الغاز المثالي) اصعد إلى القمـر، فـإن أعجـزك فـالكثير من النـاس قد سـلكوا سـبيل السـلامة وجلسـوا كالعصافير مع أبنائهم في أعشاشهم، يأكلون ويشربون ويرقبون الحياة من وراء زجاج بيـوتهم، هـذا في وقت المـدافع، فـإذا سـكنت سـيخرجون علينا بمواعظم العظيمة ليقولوا لنا: لقد قلنا... وقد توقعنا... وقد أنذرنا... وقد.. وقد... ألسنة طويلة نسأل الله تعالى قطعها.

{سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير}.

إن الكثير من المقعدين يتقنون نقد لاعبي كرة القـدم، ولكنهم أصـحاب أصـــوات عالية في قيـــادة المعركة على كرسي النظـــارة، وهم يعرقـــون ويتصببون عرقا وتبح أصواتهم لكنهم ليس لهم من اللعب إلا الوصف.

الجهاد والاجتهاد بين الظن واليقين:

قال صلى الله عليه وسلم: ((إنكم تختصـمون لـدي ولعل بعضـكم ألحن بحجته من غيره فمن قضيت له بشـيء من حق أخيه فلا يأخـذه إنما أقطع له قطعة من النار)).

اعلم يا عبد الله أن مبـــنى أعمـــال البشر وأفعـــالهم قائمة على الظن وغلبتـه، وليست على اليقين والقطـع، لأن أعمـالهم قائمة على الاجتهـاد، والاجتهـاد كما هو معـروف في كتب الأصـول لا يفيد إلا الظن، وقد تعبـدنا الله تعالى بالاجتهاد - كما قال الشافعي - مع أنه غير مـأمون الخطـأ، ومن معوقـات الطريق عند حسـني النية وطيـبي القلب أنهم يـتركون الأعمـال مخافة الخطأ، وهذا منتهى السلبية والعجز، فها أنت ترى رسول الله صـلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم بين احتمال وقوع الخطأ لعـارض من

العــوارض، ولكن هــذا لم يمنعه من القضـــاء وفض الخصــومات بحسب الظاهر والاجتهاد، بل إنه صلى الله عليه وسلم اجتهد في أمور ثم ثبت أنها على خلاف الصــواب كما اجتهد في أســارى بــدر من المشــركين ثم نــزل العتــاب الإلهي {لــولا كتــاب من الله ســبق لمســكم فيما أخــذتم عــذاب عظيم} (الأنفال)، فقال صلى الله عليه وسلم: ((لو عذبنا في هذا الأمر ما نجا غــيرك يا عمــر))[1]، والجهــاد عمل من أعمــال الإنســان المســلم، فهو يقــارب ويســدد ويبغي وجه الله تعــالى، ويجتهد بحسب وســعه في إصــابة الحــق، فــإن أصــاب فله أجــران وإن أخطأ فله أجــر، لأن التكليف لا يقع إلا بــالظن الغــالب كما قــال أهل الأصــول، وقد نقل عن الشــافعي رحمه الله تعالى قوله: في كل واقعة ظاهر وإحاطــة، ونحن ما كلفنا بالإحاطــة.[2] فمن هذا الذي يستطيع أن يحيط بالأمر من جميع جوانبه؟!! ويعلم أصله وفصله ومآلــه؟!! ولــذلك يكفي المســلم أن يعمل بالظــاهر، والظــاهر يتوصل إليه بــالنظر في الأمــارة، والأمــارة قد يــدخلها العطب والتشــويش أو التعظيم والتحســين (ألحن بحجتــه)، ولكن هــذا (القيــد) المحتمل لا يمنع العامل من العمل وإلا لبطلت الشـــريعة وتعطلت الحـــدود، وتـــرك النـــاس دينهم وأعمالهم.

ثم اعلم أن الكثــير من الأحكــام الشــرعية مبنية على غلبة الظن لا على اليقين، لأن مبناها على السنة، وثبوت السنة يتم باطمئنان المســلم لثبــوت هذا الحديث عن طريق صدق راويه وضبطه، وهي أمــور نســبية لا قطعيــة، فثبت أن فروع الشــريعة ثبتت بغلبة الظن، وتصــحيح المســلم عمله يكــون بغلبة الظن، وقد عاب أهل العلم طلب اليقين في موطن الظن، واعتــبروا أن هذا الفعل من أسباب هلاك الدين وفرط عقد الشريعة، وتــرك مهمــات الأمـــور، قـــال الجويـــني في الغيـــاثي، وهو يتكلم في بـــاب "الإمامـــة" و"السياســة": معظم مســائل الإمامة عرية من مســالك القطــع، خلية عن مدارك اليقين.[3] ويقول: كل ما لم يصــادف فيه إجماعا اعتقــدناه واقعة من أحكام الشرع، عرضناه على مسالك الظنون وعرضناه على سائر الوقــائع، وليست الإمامة من قواعد العقائد (أي الـــتي تتطلب اليقين) بل هي ولاية عامة، وعبارة معظم القــول في الــولاة والولايــات العامة والخاصة مظنونة في محل التوخي والتحري. فقرة 72 ونفسها في فقرة 221، حيث يقــول: "والذي يجب الاعتناء به تمييز المقطــوع به عن المظنــون، ومســتند القطع الإجمــاع، فما اتفق ذلك فيه تعين في الاتبــاع، وما لم يصــادف فيه إجماعا عرضناه على مسالك النظر، وأعملنا فيه طرف المقاييس وأدرنا فيه سبل الاجتهــاد"، بل إن الجويني يعتــبر أن الفقه هو التــدرب على مآخذ الظنــون وإدارتها حتى يتبين لك الترجيح. يقــول: "أهم المطــالب في الفقه التــدرب على مآخذ الظنون في مجال الأحكام، وهذا هو الــذي يســمى فقه النفس، وهو أنفس صفات علمــاء الشــريعة"، والجويــني يعلق ســلاك الأمة وتجنبها منهج الاقتصاد بذلك: والســبب الظــاهر في ذلــك، أن معظم الخائضــين في هذا الفن يبغون مسلك القطع في مجــال الظن، ويخرجــون عقــدهم باتبــاع

---

[1] - الطبري في تفسيره وهو في صحيح مسلم رحمه الله تعالى.
[2] - المحصول 6/34.
[3] - فقرة 96.

الهوى، ويتهاوون بالغلو على موارد الـردى، ويمرحـون في تعاليل النفـوس والمنى.[4] نعم والله إن هؤلاء القوم يمرحون في تعاليل النفوس والمنى.

أصناف المكلفين: سلوك العامل والخامل

لقد مارس بعض المسلمين عمليـات جهاديـة، وسـبلا دعويـة، وحيث لم تكتمل أسباب النجاح لعجز أو كسل فتقدم منهم من تقـدم إلى ربـه، وراح إليه وهو مجاهد شهيد، وأصيب من أصيب فخرج منها ناقص العضو إذ قـدم بعض أجزائه إلى الآخـرة، وبعضـهم خـرج وهو شـاكر لربه أن وفقه لعمل الخيرات وصرف الوقت في الخير والجهاد، وبعضهم خرج يضرب كفا بكف وهو يبكي على سـنين عمـره الـتي ضـيعها ولم تثمر النتيجـة الـتي حلم بها وملأ بها جوانحه، وخرج بنفس مبتـورة تشك في كل شـيء، وتشك في كل طريق، وساعده في الوصول لهذه النفس المبتورة دعـاة الإرجـاف وأعلام الهزيمة والخذلان حيث استقر في ذهنه قولهم، وانطبعت في قلبه شبههم: هاهي تجربتكم الجهادية في مكان كذا وكذا، وهاهي نتائجها، فانظروا إليها، أما تعلمتم؟ أما اتعظتم؟!!، فيقع في الـتردد والحيرة والشك وحينئذ يكـون كما قـال الجويـني: "ويمرحـون في تعاليل النفـوس والمـنى"، أي أنه يقف جامـدا بلا حركة ولا نشـاط يعلل نفسه ويمنيها بـأن يقع فيها القطع اليقين على شيء أو عمل أو حركة يجـزم بنتيجتهـا، ولا يـأمن ضـياعها أو تغيرهـا، هـؤلاء نـراهم لا يثقـون إلا بأنفسـهم، ويربطـون خـير الأمة بقيـادتهم، فـإن سـبقهم في غـيرهم إلى عمل أو حركة ذهبـوا يرفعـون راية التشـكيك، ويحرضـون قلاع التخـذيل ويصـيحون: رويـدكم فما هـذا الـذي ترونه إلا كسـابقته وقد جربنا هـذه الحركـات وهـذه الأعمـال فلم تعد تخـدعنا، وقد جربنا وجربنا، وإني لأحس في هذه النفوس النفاق من وجهين:

الوجه الأول: أنهم لا يرون الخير إلا في أنفسهم، ولا يثقون إلا بـذواتهم، إذ امتلأت أنفسهم برؤية الذات وتعظيمها وهذا منتهى النفاق.

والوجه الثاني: أنك تحس في أنفسهم تمنى وقوع الشر الـذي توقعـوه، ويرغبون من كل جوانحهم أن لا يقع الخير الذي تمناه غيرهم، فهم يرجـون الشر للأمة لتصح توقعاتهم وما أساؤوا فيه الظن.

وهناك قسم آخر من البشر، يكيل بمكيالين، ويزن بمـيزانين: مـيزان ما يقوم به ويؤيده، وميزان ما يقوم به غـيره أو يؤيـده غـيره، (والتأييد جـانب نفسي أكثر منه شرعي مبني على دليل): إن كان ما يقـوم به ويؤيـده فهو لا يحس إلا بـالجوانب الحسـنة، ولا يـرى إلا الجمـال وعينه عن الأخطـاء معطوبة وكليلـة، فهو يحسن كل ما يقع ويسـبغ الشـرعية على كل حـدث، ويناور ليثبت مراده، وإن كـان الآخر فهو على العكس تمامـا: تشـكيك دائم ونقد دائم، وعيوب ظاهرة: وعين الرضى عن كل عيب كليلة...

والجـانب الصـحيح أن يكـون الرجل منصـفا في الحب ومنصـفا في البغضـاء: أحبب حبيبك هونا مـا، عسى أن يكـون بغيضك يوما مـا، وابغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما.

لقد قاتل النـاس مع الأفغـان وأحسـنوا فيهم الظن إلى أبعد حـد، فوقع بعض الخير وتخلف بعضه فماذا كان؟.

---

[4] - فقرة 69.

لقد قاتل بعضهم مع عزت بيجوفيتش في البوسنة، حيث جالسوه فرأوا فيه المسلم التقي، وظنوا فيه من الخير إلى أبعد حد، فهل كان أمرهم مبنيا على الظن أم على اليقين؟ فوقع بعض الخير وتخلف أكثره فماذا كان؟.

لقد جاهد من جاهد، واجتهد من اجتهد، وهاجر من هاجر، وابتلي من ابتلي، وتعلم من تعلم، واستشهد من استشهد، فهل هذا مما يوسف عليه أم أن هذه هي الحياة التي ينبغي أن يعيشها أهل الإسلام؟.

ثم اعلموا حفظكم الله أن حصول تمام ومنتهى النصر لا يقع دفعة واحدة، وإن النصر النهائي هو محصلة نهائية لحركة حياة جهادية كاملة، فيها النصر، وفيها الهزيمة، فهل فتح مكة ثم بين ليلة وضحاها؟ أم أنه وقع بعد سنين من المعاناة: نصر في بدر، وهزيمة في أحد، فتن وآلام وملاحم في الخندق، مناورات عسكرية ودعوية في الحديبية، ثم وقع الفضل الإلهي بفتح مكة، لكنه بعد مقدمات كثيرة، فهل الوصول إلى القمة يتم بقفزة واحدة كما يفكر أهل التصوف الفكري المعاصر من أصحاب نظرية العصا السحرية: ضربة واحدة فإذا نحن في بلد الإسلام وبلد العزة والهجرة، مالكم كيف تحكمون؟!!.

المسلم لا يعلم الغيب لكن إن قدر لبعضنا أن يعيش ويرى الثمرة النهائية وهي تسقط على أصحاب الفضل الإلهي سيدرك أنه ما من حركة قام بها أهل التوحيد والجهاد إلا وكانت لبنة في البناء النهائي: {**ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء**}.

لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدركون أن صلح الحديبية فتح من الله، وهو مقدمة فتح الفتوح مع وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم، ومع أنه هو الذي عقد العقد، وأنشأ الصلح، إلا أن نفوسهم لم تكن تحتمل هذه الواقعة، ولكن سبق علم الله علمهم، وكان ما أراده الله لهم.

نحن على الطريق نسدد ونقارب: نعمل ونصبر ونبقى في مواقعنا لا نتزحزح عنها حتى يأتينا أمر الله ولن نعتذر عن عمل بنيناه على الاجتهاد، ورجونا خيره، وحصول ثمرته الكلية، فإن وقع ما أملنا فهذا فضل الله وحده، وإن كانت الأخرى: فيا الله يا صمد، يا عالم السر وأخفى ويا من بيده ملكوت السماوات والأرض، أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تقبضني إليك، فلا أرى ولا أسمع ضحكات التشفي والغرور.

فلسفة العجز قديما وحديثا:

كثيرة هي المرات التي يتخلف الناس فيها عن الحق بسبب الهوى وشدة تكاليف الثبات على الطريق، ولكن قليل هي الحالات التي يعترف فيها هذا المتخلف بهذا السبب، فإن المتخلفين لابد لهم من ستر هذا الهوى وهذا الضعف بصور من التبريرات التي يحاولون بها إقناع الناس أن تخلفهم له من الأسباب المقنعة والموضوعية، فأول ما يفعلونه أنهم يذهبون إلى الحق لشتمه وتزوير حقيقته، أو لتعظيم بعض الجوانب السلبية على الحقيقة الظاهرة، والقرآن الكريم كشف لنا هذه الأساليب خير كشف، وعراها لنا لنكون على بصيرة ونور من هذه المكائد النفسية، وليعلمنا أن محاولاتهم هذه مكشوفة غير مستورة، وأنها وإن تقنعت بقناع

حاجب، فهو في الحقيقة قناع زائف يشف ما تحته، ويبين ماوراءه لمن تمعن فيه ولم تغره الصور الظاهرة.

في قوله تعالى عن المنافقين في أول سورة نقرؤها فيها ذكرهم: {**وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون**}.

هذه الآية عظيمة في كشف النفاق والمنافقين، وطريقتهم في التنفير من الحق، وهي كلما سمعتها أو قرأتها تمثل لي أولئك القوم الذين مروا على مدار التاريخ الإسلامي وإلى يومنا هذا في ادعاء الفهم الثاقب، والعقل السديد، والإدراك العظيم للقضايا التي تطرح أو تعالج، وهم مع هذه الدعوى ينبزون الأثريين والسلفيين بضيق الأفق، وقلة المعرفة، وسذاجة الفهم، وبسبب هذا ينفرون عن الحق بسبب سهولته، ويتعاظمون نفاقا عن الحق بسبب أنه حق عملي له تأثيره على الواقع.

في التاريخ وجد الفلاسفة الذين يحللون الخبر ولا يصنعونه، ويدرسون التاريخ وهم خارج حركته، ولهذا قلما ما نجد فيلسوفا استطاع أن يكون قائدا عسكريا، أو إداريا ناجحا أو سياسيا خبيرا، حتى صار في عرف الدارسين قولهم: الفيلسوف لا يصلح للسياسة، وكذا لا يصلح للقيادة فنشأت ثنائية الفيلسوف والقائد، والفيلسوف والإداري، والفيلسوف والسياسي.

والسبب كما هو واضح أن الفيلسوف يعيش أوهام عقله، ويحلق بأجنحة الفكر فوق السحاب، ولا يتقن السير على طريقة البشر فوق الأرض.

هذه ثنائية توجد في عالم البشر والناس، وكم شكى القادة العسكريون وكذا السياسيون من أوهام الفلاسفة والمفكرين.

في العالم الإسلامي تاريخا وحاضرا:

القرآن سماهم منافقين وقال لهم: (آمنوا كما آمن الناس}، وانظر إلى قوله تعالى: (الناس)، هو الإيمان على صورة واحدة وحقيقة واحدة يعيها الناس جميعا بفطرهم على حقيقة واحدة دون تفاوت في أصلها، يا قوم آمنوا كما آمن الناس، فهذا هو الذي أرتضيه منكم، وهذا هو أمري لكم، فلا تغالوا، ولا تتقعروا، ولا تتعمقوا تعمقا ممقوتا، آمنوا كما آمن بلال، وكما آمن ياسر، وكما آمن البدوي والحضري، فإن سألتم ما الإيمان وما تعريفه وما حده، قال لكم ابتداء: هو شيء تعرفونه في أنفسكم فلماذا تسترونه، وهو شيء يلفح قلوبكم بحرارته فلماذا لا تعترفون به؟.

وأنت أمام هذا تتذكر أمر الله تعالى لليهود: (**إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**}.

فالمؤمن لا يتقعر، ولا يداري ليستر الحقيقة، ولا ينشغل بالحد عن المحدود، أي باللفظ عن الحقيقة، ولا بالاسم عن المسمى، بل هو يفهم من القول أن يتحرك ليذبح بقرة، أما كون لفظ الذبح له معنى خاص ووقع خاص وله شواهد في لغة الشعراء، فهذا لا يفكر فيه ابتداء، بل يستقر في قلبه إرادة الحركة لتحقيق الفعل: أن يذبح بقرة. هكذا يتلقى المؤمن أمر الله تعالى، يتلقاه ليعمل به، فإذا عمل به شعر بحلاوة الإيمان في قلبه، وازداد ألق العلم في نفسه، وفتح الله عليه المعارف التي تؤيد صلته بالله تعالى.

أما اليهـود، من أهل السفسـطة والجهالـة، فكـان وقع الأمر عليهم على صورة أخرى:

هـذا أمر جميـل، لكن لا بد أن نوقعه على طريقة لا تتلاءم مع ما يفهمه (الناس)، فالساذجون هم فقط من يفهم البقرة أنها البقرة، فهل كل بقـرة تصلح لأن تقدم لتنفيذ أمر الله، فتعالوا إذن نسأل عن البقرة؟.

كان شان اليهود يـوم ذاك أنهم يعيشـون وبين يـديهم نـبي يـوحى إليـه، فصـاروا يراوغـون ويحـاورون حـول صـفة البقـرة، لكن لنتخيل أمر أولئك اليهود في زمن لا يوجد فيه نبي.

قيل لهم: {**إن الله يـأمركم أن تـذبحوا بقـرة**}، فمـاذا سـيقول أصـحاب السفسـطة (أو السـفهاء كما سماهم القـرآن): قطعا سيجلسـون أمـام هـذا الأمر محـرفين ومـؤولين لحقيقته لصـرفه عن كونه دافعا لهم للعمل والامتثـال،كلما ابتعد ولكن المـرء عن الحقيقة الأولى الـتي تسـتقر في ذهنه لا بد أن يزداد رهقا وتعبا، فلما زاد اليهود في السؤال ازداد ضيق الأمر عليهم {**فذبحوها وما كادوا يفعلون**}.

قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس.. قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء.

هي كما ترى أخي في الله تقع على معنيين:

الأول: أنهم رفضـــوا اتبـــاع الحق بســـبب أن أهل الضـــعف والفقر والمسكنة قد سبقوهم إليه، فأنفت نفوسـهم الخبيثة أن يسـاووا بينها وبين أولئك القوم الذين أكرمهم الله تعالى بنـور الإيمـان وبـرد اليقين، فرفضـوا الإيمان وتنكبوا عنه، وقد صـدر منهم ما يـدل على كـبرهم هـذا، وذلك أنهم طلبوا من رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أن يجعل لهم يوما خاصـا، أو مجلسا منفردا يحدثهم فيه عن الإسلام والإيمان، فلما هم ومال لهذا القول طمعا في هـدايتهم قـال الله تعـالى لـه: {**واصـبر نفسك مع الـذين يـدعون ربهم بالغـداة والعشي يريـدون وجهه ولا تعد عينـاك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هـواه وكـان أمـره فرطـا وقل الحق من ربكم فمن شـاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**}، وهكذا سلب الله من الناس القـدرة على أن يجعلـوا للحـق قيمة من عند أنفسـهم، بل الحق قوته تكمن في نفسه لأنه من الله تعـــالى {**وقل الحق من ربكم**} فـــالحق لا تـــزداد قوته بإقبالكم، ولا تضعف قوته بإدبـاركم، الحق تكمن القـوة فيه بسـبب أنه من الله تعالى، وأنتم الذين تنتفعون به وليس هو الذي ينتفع بكم.

الثاني: أنهم استكثروا على أنفسـهم أن يفهمـوا الحقيقة على صـورتها الأولى دون تأويل يبطل حقيقته، فراحـوا يشتمون الفهم الأول والـذي يعيه الناس جميعا بحجة أنه فهم سـاذج، وطريقة لا تليق بعقـولهم العظيمة كما يزعمون، فلما انشغلوا بالتأويل المتعمق والتقعر الفاسد فاتهم نور الإيمان الذي لا يستقر في القلب ولا يشعر به إلا بعد الإقرار والتصديق، وحينئذ بدأ الشيطان يأخذهم إلى شبهات العقول فأفسد عليهم عقولهم.

فـالمعنى الأول يـدخل فيه أهل المناصب والأمـوال ممن يـأنفون عن الحق بسبب اتباع عوام الناس له فهم أهل الشهوة، والمعنى الثاني يـدخل فيه أهل السفسطة ودعاة التعمق والتفكر فهم أهل الشبهة، وهم داخلـون في التقرير الأول: {**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر**

وما هم بمؤمنين يخـادعون الله والـذين آمنـوا وما يخـدعون إلا أنفسهم وما يشعرون}.

هكذا هي القضية: قضية أقوام أعيتهم الأعمال، وأرهقهم الاتباع، فراحوا يزعمـون العلو في الـدنيا مـادة ومعـنى، ولكن ليتـذكر أولئك أن عامة أهل الجنة هم الفقراء.

وليتذكر أولئك أن عقول غيرهم أكبر من عقولهم، ولكن لا يصنع التـاريخ إلا العاملون، فاللهم اجعلنا منهم.

كم هو عظيم هذا الإسلام، وكم هو يحتاج لرجال عظمـاء يرفعـوا شـأنه في هذه الدنيا!.

حينما يستقر في نفس رجل مـؤمن أن عليه أن يبـذل نفسه وروحه في سبيل هذا الدين، فإن عليه واجب النظر الصحيح والتفكير الصائب أن سنن الله تعــالى لا تحــابي أحــدا ولا تختلف بســبب نفســيته الجميلة {**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به**} فالسـنن الإلهية حاكمة على البشر جميعا مـــؤمنهم وكـــافرهم وما أعظم ابن تيمية رحمه الله تعالى حين قال: "إن الله لينصر الدولة الكافرة العادلة ويـديمها ويهزم الدولة المسلمة الظالمة ويزيلها"، وهذا من تمام فقه الرجـل، فـإن العدل هو قوام الملـك، وبهـذا نعلم أن السـنن سـتعمل عملها بـإجراء الله تعـالى لها رغم أنف البشر جميعا قــال تعــالى: {**إن تكونــوا تــألمون فــإنهم يــألمون كما تــألمون وترجــون من الله ما لا يرجــون**} فالمسلم يألم ويقع عليه ما يقع على النـاس من جريـان السـنن الإلهية ولا تتخلف عنه بحجة أن نيته طيبة ومقصـده حسن وغايته جليلـة، وهـذا داخل في شـروط العمل الصالح (أي متابعة السـنة وعـدم معارضـتها) فـإن من شروط العمل الصالح أن يكون موافقا لسنة النـبي صـلى الله عليه وسـلم التشـريعية، وما السـنن التشـريعية إلا موافقة للسـنن الإلهية الكونيـة، فما من سنة أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهي تعالج سنن هذه الحيــاة وتحقق للمــرء إرادته الصــالحة ونيته الطيبــة، فبهــذا يحقق الوعد الإلهي لتحقيق المصالح في الـدنيا وتحصـيل الأجر الأخـروي يـوم القيامـة، فهو سعيد في دنياه وسعيد في أخراه، ولكن لا يظنن أحد أن سعادة الـدنيا تتم بتحقيق كثرة المال والعرض والمنصب، فهـذه ليست بشـيء في إرادة الرجل المسلم، فإن إرادته معلقة بنيل الشـهادة، وهكـذا يتقلب المـرء في سنة الله بمتابعة سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

السنن الإلهية كونا وشرعا:

إن السـنن الإلهية لا تحـابي أحـدا ولا تتخلف لأمنية رجل كائنا من كـان، وهـذا من تمـام رحمة الله بعبـاده، فـإن الـدنيا دار سـنن لا يجـوز تركها أو معارضــتها، فهي تطحن من وقف أمامها أو تلعب بها أو تغاضى عنها بحجة انشغاله بصلاح قلبه أو بأوراد ذكره وعبادته، والغفلة داء مهلك وهو يعــتري أكـثر طيـبي القلـوب من هـذه الأمـة، وكـان من شـكوى أهل الحـديث في تحقيقهم لصـحة الأحـاديث أن أكـثر الأحـاديث الصـحيحة تسـري بين هـذا الصنف من النـاس، ولـذلك صح عن الإمـام مالك رحمه الله تعـالى قولـه: "إني لأرد أحـاديث أقـوام وأرجو دعــاءهم لي"، فهو يـرد حـديثهم لغفلتهم ويقبل دعاءهم لكثرة ذكـرهم وعبـاداتهم، ومن هنا وقف الكثـير من النـاس

موقف العــداء من الناصــحين لإخــوانهم بإحســان العمل وإتقانه على وجه يتطابق مع سنة الله تعالى بحجة أن هـذا لا يعـرف من فقه السـلف، وفقه السلف هو ليس فقه أهل الفقه والحديث، فإن هذا فقه الأحكام الشرعية، أما كيف يكـون العمل موافقا لسـنة الله التكوينية فهـذا يرجع فيه إلى أهل الخــبرة والتجربة ممن درسـوا هـذا الأمر وعرفـوا تكوينه على وجه يوافق الوضع الإلهي له في قدره وخلقـه، وعلى هـذا ففقه السـلف الحقيقي في هذا الباب هو فقه الصحابة رضي الله عنهم لأنهم وحدهم من جمع الإتقــان السـنني للكونيـات والفهم السـنني للشـرعيات فاسـتحقوا الولاية الدينية والولاية الكونية، وما حدث بعده هو الافـتراق بين هـاتين الولايـتين كما ذكر شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله تعـالى، ولهـذا واجب على أهل الولاية الكونية أن لا يتمادوا في دراساتهم بعيدا عن أهل الولاية الشرعية، ولا أهل الولاية الدينية أن يترفعوا عن الإذعـان والتعلم من أهل الولاية الكونيـة، ولا تصح ولا تكون رفعة الإسـلام إلا باجتمـاع هـاتين الولايـتين، واجتماعهما في شخص واحد في مثل هذه الأزمان اجتمـاع صـعب، ولكن رحمة الله تعـالى ليست ببعيدة في تحقيق الوعود الإلهية بالهداية التامة لبعض عبـاده، ولكن لتشعب الحياة وكثرة ما فيها من جديد من اكتشـاف النـاس لسـنن الكـون تجعل اجتماع الوعي الكامل عسيرا على العقل الواحد.

وهذا الذي شرحته وبينته كتب الأصول وهي شاهدة عليه فإن ما يسمى عند أهل الأصــول بتحقيق المنــاط هو في حقيقته يعــني معرفة الشــيء وفهمه على حقيقتــه، حــتى تتعــرف صــفته وهيئته وما فيه من ســنن الله تعـالى، وهـذا لا يسـتلزم في تحقيقه أن يكـون الرجل صـاحب ولاية دينيـة، وقد ذكر هذا الإمام الشاطبي - رحمه الله تعـالى - في "الموافقـات"، وقد ذكر ابن القيم في "الإعلام" وغــيره أنه لا تجــوز الفتــوى حــتى يتم للفقيه معرفة الواقع، والواقع ليس هو أخبار الواقع ولكنه سنن الله تعـالى وخلقه وكونه.

افتراق الولايتين: الولاية الدينية والولاية الكونية تصـنع فصـاما نكـدا في حياة المسلمين، ولـذلك كـان الحكـام والقـادة على الـدوام بحاجة إلى نصائح العلماء وفقهم وإرشاداتهم، وكان العلماء بحاجة إلى سـيف الحكـام لحمايتهم وإقامة شؤونهم وتسهيل معاشهم وحماية بيضة الأمة.

أما هذه الأيــام فــالأمر جد مخز مختلف ومعيب، كل فريق رضي لنفسه الإمامة الناقصة فوقع المحظــور بتخلف النصر الإلهي والوعد المــرتجى، ولن يكـون للأمة قياما ورفعة إلا بعقل جمعي يشـرك غـيره في الشـورى والبحث ويكون رأيه ملزما في ما يفهم فيه ويتقنه، فليس هذا عصر الرجل الـذي يعـادل ألف رجـل، وليس هـذا زمـان الرجل الـذي يكـون صـوته في الجيش خـير من ألف رجل مع أن وجـود هـذا الرجل ضـروري وواجب في الجيش والحركة، ولكن فهم مثل هذه الأحـاديث على درجة الاسـتقلال في تحقيق النتائج فهم صبياني ساذج، فإن الشجاعة هي قوة الإرادة وهى شق من شــقين لتحقق العمل ووقوعه والشق الآخر هو القــوة، بل إن الإرادة القوية لا تنتج إلا بشـقين هما قـوة الرغبة والعلم، إذا فقــوة جنـان الرجل وشجاعته هي جـانب وحيد من جـوانب متعـددة في تحقيق النصر أو الوعد الإلهي، فانظر لهذا وتفكر فيه، وإياك والشعارات الـتي لا تسـمن ولا تغـني من جوع وعليك بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسـلم وصـحابته

رضي الله عنهم فإنهم هم الرجال، وهم الذين يقتدى بهم في فهم دين الله تعالى وكيف يتحقق في الأرض.

عوامل التمكين: الإرادة والإدارة مع العلم والقدرة

لقد كتب من كتب من الأوائل في إبراز عامل الشجاعة وحب الدار الآخرة في تحقيق النصر وقلما رأينا من كتب في إبراز عامل الفهم والتعامل مع السنن الإلهية والقيادة الواعية في تحقيق النصر، ومن هنا فالمعركة إدارة وليست طلقات فقط وتحسم المعركة، ولكنها طلقات تسير ضمن قانون سنني دقيق تجمع معها إدارة شاملة وحنكة راقية ووعيا رفيعا وهداية ربانية ودعاء مظلومين والتحاء الصالحين لسيدهم في الأسحار كل هذه أجنحة مهمة لتحقيق الموعود الإلهي.

إني على ضعفي وقلة حيلتي وقلة إدراكي فإني أقول إننا مازلنا في القاع، ولم نخرج بعد من الفهم الغنوصي للسنن والحياة، وبيننا وبين الفهم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم أميال وأميال، ولما نفهم فهما صحيحا لكي تتحرك إرادتنا بعلم صحيح (للشرعي والكوني) ورغبة في الدار الآخرة ونملك ما أمر الله تعالى به من القوة حينها ستفتح علينا خزائن الله متفجرة بتحقيق الوعود والمبشرات.

لسنا على استعداد أن نتوقف ويكفينا أن نذهب إلى الأخدود كما ذهب أصحاب الأخدود وعلينا أن نحضر أنفسنا لذلك، فالطريق ما زالت بعيدة عن التمكين في الأرض، ولكن لنجعل الطريق إلى السماء بحصول الشهادة (وهي طريق جد قصيرة) خطوة ندفع بها إسلامنا إلى الأمام لتأتي الأجيال القادمة فترى طريقا معبدا، ومعالم واضحة، فتأخذ بها لتحقيق التمكين في الأرض.

مقاصد الشارع ومقاصد المكلف من التمكين:

من المهمات العظمى لهذا الدين إخراج المرء من دواعي هواه إلى دواعي تحقيق العبودية لرب العالمين، ومن صور هذه المهمة أن الإنسان بطبعه تقصر نظرته إلى الواقع الضيق الذي يعيش فيه، ويكون همه أن تفرج عليه بمقدار هذا الواقع والهم الضيق، ويظن أن منتهى الطلب وغاية المنى هو تحرره من ضيقه الآني وحفرته الصغيرة، وهذا هو هم نفسه وغاية هواه، ولما يخرج المرء من هم نفسه وغاية هواه إلى مقصد الرب من نفسه وغاية الإله من ذاته فإنه وإن كان الإنسان المسلم في لحظة من اللحظات يعيش هذا الهوان وهذا الضيق فإنه متطلع إلى غايات عظمى ومقامات جليلة وهي مقاصد الرب التي تتلاءم مع قوته وعظمته، مع أن غايات الإنسان الضعيف تتلاءم مع ضعفه وعجزه.

فالمسلم في سجن من السجون، وهو يذوق أصناف العذاب ويلاقي أشد الهوان، فإن مقصده، بل أعلى مطالبه أن يخرج من هذا السجن ويعفى من هذا العذاب، ويظن أن ذلك هو غاية ما يمكن أن تبلغ رحمة الله تعالى به، ولكن من سمات هذا الدين ومن مقاصده أن يرفع نظره، ويعلي درجته غايته أن يقود العالم، ويحكم الدنيا وتخضع له الأرض، ويكون ذلك

أمله وهو في هذه الحالة من الهوان، فهو يتعامل مع قوي عظيم قادر على كل شيء، ولا ينظر فقط إلى حالته وقوته هو.

عندما كان الصحابة رضي الله عنهم يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم في أشد حالات العذاب والفتنة وهم في مكة، ويشكون له هوانهم على الناس، وألم العذاب وضيق الحياة، فهم في هذه الحالة وهم في شدة من أمرهم، وضيق بدني ونفسي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع أعينهم وهممهم إلى غايات لا يحلم بها الإنسان في هذا الموطن، ولا يتفكر بها، فالموشك على الموت من الجوع لا يرجو أطايب الطعام ولا أجوده ولا أرفعه وأعلاه ولكنه يحلم بقطعة خبز، فهذا منتهى أمله وغاية مطلبه، ولكن المؤمن يتعامل مع الله تعالى، فهو مدعو ليرفع همته، ولذلك كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم وهم في مكة وهم يشكون شدة العذاب فوق ما يحلمون ويرجون: ((**والله لتسيرن الظعينة من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها ولكنكم تستعجلون**))، ويقول لهم في موطن آخر: ((**والله لتفتحن كسرى وقيصر ولتنفقن أموالهما في سبيل الله**))، كما وقع من قوله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، فالصحابة رضي الله عنهم مشغولون بالحفاظ على أنفسهم لئلا تهلك وعلى أعراضهم لئلا تسبى وتنتهك ومع ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشرهم بفتح فارس كسرى وروم قيصر.

وهذا أمر فيه الامتحان للنفوس والعقول فإن من في دينه شك وريبة سيقول: {**غر هؤلاء دينهم**}، لأنه حينئذ ينظر إلى قوته ويتعامل مع هذا الدين من خلال نفسه لا من خلال واضعه رب العزة والجلال، وأما المؤمن فهو الموقن بموعود الله تعالى ويرقبه أيقع عليه أم أن الشهادة ستكون أقرب إليه من الوعد الإلهي؟.

ثم هذا فيه هدف آخر وهو دفع المؤمن ليغير واقعه ويسعى لإصلاحه وتدمير الباطل فيه، فالمؤمن يحمل نفسية المهاجم دائما حتى وهو ضعيف عاجز، ولا يجتمع هوان نظره المؤمن مع هوان واقعه، ولا يرضى لليأس أن يصيب قلبه ونفسه، بل هو مستعل بالإيمان دائما وأبدا في أي حال كان وعلى أي موطن من درجات الدنيا كان مستقره، فإذا علم أن مهمته لا تعدو الخروج من مأزقه والانفكاك من عذابه، بل مهمته تتجاوز ذلك بأن يهاجم الباطل، لا ويصارعه ويحاربه حتى وهو صريع ضعيف، فبهذا يكون حاملا دائما نفسية المسلم العزيز بربه والواثق بنصر الله تعالى وصواب دينه، انظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسير داعيا إلى الله تعالى في مكة، فهو مستضعف معذب، وقريش تريه ألوان العذاب فهي تضع على ظهره فرث الجزور وهو ساجد في ظل الكعبة، ويبقى كذلك حتى تأتيه فاطمة رضي الله عنها فتزيل عنه القاذورات وقريش تضحك بملء فيها، ومع ذلك كله فهو يوزع عليهم النذر، ويبشر بالعذاب، ويعدد عليهم ماذا سيصنع بهم، فهو الذي قال لهم يوما وقد أساءوا الإجابة له إساءة بالغة: ((**لقد جئتكم بالذبح**))، فيرد أبو الحكم مرتعدا على هذه النذارة: يا محمد ما كنت جهولا قبل اليوم، فيجيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بل أنت الجهول))، ومن يومها فأبو الحكم هو أبو جهل، وهو الذي قال لرجل من قريش وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

يمرن مهرا من خيوله، فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: على هذا سأقتلك يا محمد، فيجيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بل أنا قاتلك إن شـاء اللـه))، فيكـون هو الرجل الوحيد الـذي يقتله الرسـول صـلى الله عليه وسلم بيده الشريفة رحمة منه لأنـه القائـل: ((**أشـد النـاس عـذابا من قتل نبيا أو قتله نبي**)).

ولهذا الأمر هدف آخر وهو هدف تربـوي وهو أن المـؤمن الصالح لا يضع خططا قصيرة الأمـد، ولا يقصـر نظـره على ما هو أمامه فهو يتعامل لا مع الخطـوة التالية فقـط، ولكن يضـع خططه لآلاف الخطـوات القادمـة، فهمّ الخطوة الأولى كيف يخرج من واقعه، ولكن الخطوة التالية هي كيف يغـير واقعــه، وبعــدها كيف ينتقل إلى غيرهــا، فهو ممتلئ النفس بالمهمــات العظمى ولا يقف عند حد، ولا ينتهي عند نقطة قاصــرة بل ينتقل من عمل إلى عمل، ومن خطـوة إلى خطـوة، وكلها في ذات الإله سـبحانه وتعـالى، قال تعالى: {**فإذا فـرغت فانصب وإلى ربك فـارغب**} فحيث انتهى من مهمة نصب نفسه في مهمة أخرى.

ثم لهـذا الـداعي هـدف آخر وهو امتلاء النفس بـأمر الله تعـالى والنظر إلى مطالبه وأوامـره ومقاصد هـذا الـدين، وليس النظر القاصر إلى نفسه وهواه ومطالبه هو فقـط، فـإن مهمـة هـذا الـدين أن يبسط سـلطانه على الأرض كل الأرض، فمن امتلأت نفسه بـذلك افـترق عن الآخـرين بلا شـك، وإذا أردت أن تنظر إلى الفــارق المهم بين الجيل الــذي ربي على هــذه الوعود العظيمة وهو حكم الأرض كل الأرض وبين الجيل الذي في ذهنه أن يكون غاية مناه أن يتوسع الضـيق عليه قليلا هو هـذا الـذي تـراه من الفقه الأعوج المرذول والذي يخـرج من أفـواه هـؤلاء المشـايخ السـحرة، أو من قبل الحركات المهترئة، فإن عامة الجماعات وكذا المشايخ الـذين يقـرأون الواقع كثـيرا، ينشـغلون بتعـداد أسـلحة أمريكا وجنـود أمريكـا، وأسـلحة إسرائيل وجنود إسرائيل، وجنود الشرق والغرب فـإن انشـغالهم هـذا دون القـراءة المتعمقة أو المعادلة لقـراءة وعـود النـبي صـلى الله عليه وسـلم وبشــاراته وقوة الله وقدرته هــذه القــراءة أوقعت في نفوســهم اليــأس والخــذلان والرهبة إلى درجة الارتعاش وبالتــالي خــرج منهم فقه الهزيمة والخنـوع، أو آراء التـبرير والتسـويغ لهـذا الواقع فهم يعرفـون قـوة القنبلة الذرية، ويعرفون قوة الصواريخ العابرة للقارات، وقـوة الطـائرات الأسـرع من الصوت، ولكن أنى لهم أن يعرفوا قـدرة الله تعـالى، أو يعرفـوا عظمة الله تعالى، أو يعرفوا قوة وقدرة جنود الله تعالى؟!!.

أنى لهـؤلاء أن يعرفـوا أن ملكا من ملائكة الله تعـالى قـادر على جعل الأرض ومن فيها نسيا منسيا؟!!.

أنى لهـؤلاء أن يقـرأوا وصف ملك من ملائكة الله ما بين شـحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة خسمائة عام؟!.

أنى لهؤلاء أن يقرأوا بشارات النبي صلى الله عليه وسلم أن هـذا الدين سيبلغ ما بلغ الليل والنهار؟!!.

أنى لهؤلاء أن يقرأوا وعـود النـبي صـلى الله عليه وسـلم بـأن جند الله سيفتحون روما ويعلقون سيوفهم على شجر قسطنطينية؟!!.

أنى لهؤلاء أن يعرفوا شـيئا عن جنـدي ضـعيف من جنـود الله تعـالى لو سلطه على قواهم لصارت أثرا بعد عين؟!!.

دعوى استعجال النصر في مواجهة الطواغيت:

سـاد في أوسـاط بعض المفكـرين الإسـلاميين (!!) وبعض الجماعـات الإسلامية(!!) دعوى غريبة الشأن، لم تـدرس بعناية من الوجهة الشـرعية، ولم تكن هـذه الـدعوى قد خـرجت إلى عقلية المسـلم من خلال دراسة موضـوعية شـاملة، هـذه الـدعوى هي الـزعم أن العـدو (المرتـدين) قد استجرنا إلى معركة خاسرة، فهو الـذي دفعنا إليها وقد اختـار لها التـوقيت والأدوات ليحسمها متى يريد وكيفما يريد، وبالتالي علينا أن لا نستدرج إلى المعركة حسب توقيته، وكذا علينا أن نملك من الصبر العـالي حـتى نتحمل عنف السلطة نحونا مانعين من حصـول المواجهة في الـوقت الـذي يريـده هو ولا نريده نحن.

والفكـرة ولا شـك جميلة في أبعادها الذهنيـة، فـإن من يملك التـوقيت المناسب للمعركة هو الـذي يسـتطيع أن يجعل في جرينه إحـدى عوامل النصر وهزيمة الخصم، ولكن هل هذه الفكـرة مبنية على أسس صـحيحة؟ وهل سبب انتكاسة الحركة الإسلامية (!!) في الوصول إلى أهدافها أنها لم تملك سـاعة الصـفر في هـذه المعركـة؟، وهل صـحيح أن ما حصل من مصـادمات سـواء كـانت جهادية أم غـير جهادية بين الحركـات (!!) وبين السلطات المرتدة هي التي جعلت هذه الأوساط المفكرة والحركية تخـرج هذه النتيجة؟.

ابتداء أقول أنه لم يحـدث قط أن اسـتدرج الطـاغوت أي حركة إلى أي مواجهة في وقت أحبه هو أو رضـيه هـو، ولم تكن هنـاك ثم معركة بين الجماعات (!!) وبين الطـاغوت كـان سـبب انهـزام الحركـات فيها هو خطأ التـوقيت في البـدء والعمـل، بل إن الطـاغوت في أي معركة نشـأت بينه وبين هذه الحركات كان يعـاني فيها الأمـرين، ويصـرخ بملء فيه اسـتنجادا ورعبا، ولكن لأن النتيجة كانت في صالحه في النهاية فإنه استطاع أن يبث خبثه وحقـده على الأمـة، فيفجـر ويعربد ويسـتغل فـورة فـوزه في تعميق جـذور الجاهلية ومحاولة إضـعاف جـانب الإسـلام في الدولة والأمـة، نعم النتيجة كانت مرعبة بالنسبة للإسـلام بسـبب هزيمة هـذه الحركـات، ولكن لم يكن سبب الهزيمة هو اختيار الطاغوت لهذه المعركة في هذا الظرف.

نحن أمام تجارب متعددة في الصدام بين الإسلام ممثلا بحركـات سـواء منها البدعية أو السـنية لكننا نسـتطيع أن نجمل هـذه الحركـات ضـمن سياقين:

الأول: السـياق السياسي وهي الحركـات الـتي لم تتبن الجهـاد كحل شرعي وحيد لهدم الطاغوت واقتلاعه، وهذا اللون فيه الكثير من الأطيـاف بـدءا بـالإخوان المسـلمين المبتدعة إلى حـزب التحريـر، ومن الجماعـات الإصـلاحية كجماعة التبليغ وإلى تيـار القاعـدة الصـلبة والـدعاة السـلفيين المزعومين وغيرهم.

السـياق الثـاني: وهي الحركـات القتالية والـتي حكمت أمرها أن هـذا الطاغوت له حل وحيد في شرع الله تعالى وهو القتال، وهذا اللـون كـذلك فيه أطياف متعددة بدعية وسنية.

والتجارب التي يحتج بما أصـحاب هـذه النظـرة يأخـذون حالة أو حـالات من الأولى وحالة أو حالات من الثانية.

أما الاحتجاج بالسياق السياسي فهو احتجاج باطل، لأن هـذه الجماعـات ليس في عقليتها ولا برنامجها مجابهة الطــاغوت ولا محاربتــه، وليس في خطط إعدادهم لكوادرهم ثم إرادة لتعليمهم أصناف السلاح وإتقان القتال. فهو احتجاج باطل من أصله.

أما الحركات الثانية فالحق أن هذه الجماعات هي التي بدأت وشـرعت، وليس الطــاغوت هو الــذي اســتفزها واســتدرجها، أما بــالنظر إلى الفهم الشرعي لهذه الدعوى فـإني قبـل أن أعـرض ما أفهم من دين الله تعـالى في تطبيق الحكم الشرعي في هؤلاء المرتدين فإني مضطر أن أبين عائقا جديدا استقر في أذهان آرائية هذا الزمان منعهم من الفهم عن الله تعـالى والفهم على رسوله صلى الله عليه وسلم.

أهل التحريف والتحليل السياســــــي: نظرية العمالة والمؤامرة نموذجا

على مدار التـاريخ الإسـلامي كـان الشيـطان يصب في عقلية التيـارات المنحرفة بعض البدع والحـوادث فيجعلها قواعد وأصـول في تلقيهم للحكم الشرعي، فلو أخذنا مثلا الصوفية فـإن بعض أئمتهم - الغزالي - في كتـاب له لتربية النفس وصقلها صوفيا وعرفانيا نبه المبتدئ في الطلب إلى عـدم قراءته للقرآن الكريم وجعل سبب هذا التحـذير أن قـراءة القـرآن تشـتت اجتماع النفس، ولا بد للطالب من جع همته والتركـيز على أمر واحد لحظة الخلوة، وقارئ القرآن الكريم تتشتت همته فإذا قرأ سورة البقرة مثلا فإنه يقـــرأ الآيـــات الأولى وفيها ذكر المؤمــــنين، ثم ذكر الكـــافرين ثم ذكر المنافقين، ثم ذكر آدم وقصته ثم ذكر بني إسـرائيل، فهـذه القـراءة لهـذه المتعددات تشتت الهمة وتوزع الفكر وهذا يفسد السالك الصوفي، فــانظر إلى هذه المعوقات الشيطانية الـتي اسـتقرت كقواعد في أذهـان أصـحاب هـذا المـذهب في التنفـير من القــراءة لكتـاب الله تعـالى وهي معوقـات ذوقية.

بعض أهل الــرأي ومتعصــبو المــذاهب منع من العمل بالحــديث حــتى يعرضه على إمام مذهبه، أو على أقوال مذهبــه، فـإن أخذ به إمامه أخذ به وإن رده إمامه رده هو.

أهل الكلام جعلوا ضابط الأخذ بالقرآن والسنة عرضها على العقل، فـإن قبلها كان بها وإن أنكرها ردت أو أولت.

والقائمة طويلـة، وللشـيطان فنـون في صد النـاس عن تطـبيق الحكم الشرعي.

أما في زماننا هذا فللشيطان مع صبية الفقه ومفكري الإسـلام ممن لم يتضـلعوا بالسـنة النبوية ولم يقرأوها ولم يتشـبعوا بها طريقة أخـرى، فإنه استدرجهم لرفض الحكم الشرعي من بـاب جديد وهو بـاب يعـادل الـذوق الصـوفي والعقل الفلسـفي والنظر البـدعي في رد الحكم الشـرعي، هـذا الباب هو التحليل السياسي.

هذه اللعبة الجديدة يمارسها أدعيـاء الفقـه، وصـبية الفكر في اتهـام أي عمل يقوم به المجاهدون أنه داخل ضمن اللعبة الدولية، وهو خادم لإحــدى قطـــبي الـــنزاع في أي منطقة من العــــالم، فإنه ما من شك لأن عالمنا (الإسلامي!!) منطقة نزاع بين أقطـاب دوليـة، وكل دولة تحـاول أن تهيمن

على جزء منه، وهناك صراع دولي على الفوز بأكبر كمية من هذه الدول الضائعة بين أقدام اللاعبين الكبار(!!).

وبالتالي فإن أي معركة يقوم بها المجاهدون، ومن خلال تحليل سياسي إبليسي، يستطيع هذا المأفون السياسي(!!) أن يجعل جهاد المجاهدين في مصلحة قطب من أقطاب هذا الصراع الدولي.

وقد سبق للناس جميعا أن سمعوا تحليل أصحاب الأهواء - خدمة لأعداء الله تعالى - للجهاد في أفغانستان حيث جعلوا الجهاد هناك خدمة لأمريكا، فبالتالي فإن عبد الله عزام في عقلية هؤلاء المأفونين خادم لأمريكا، وبعضهم يرقق العبارة ليحدث لها القبول فيجعله مغفلا نافعا - والحديث عن المغفل النافع طويل - بل إن بعض ضلال هذا التيار صار يعلق الأحكام الشرعية على مناطات يفتريها المحلل السياسي، وبالتالي فعبد الله عزام عميل أمريكي، والعميل كافر، فعبد الله عزام كافر، وقد كان بعض أصحاب هذه اللعبة الشيطانية يقولها بملء فيه، وبعضهم يقف بها إلى بعض الحدود، ولكن بعضهم توقف عن ذلك عند مقتل الشيخ عبد الله عزام، ولكنك لن تعدم وجود محللا سياسيا آخر يزعم أن أسياده هم الذين قتلوه بعد أن انتهت مهمته.

التحليل السياسي يستطيع أن يفسر لك أي حركة ربانية في هذه الدنيا ضمن مساقات دولية معينة لا دور للإسلام فيها، ولا لمصلحة الإسلام فيها ذرة.

لأهل الهوى الآرائية ضروب من التفنن المنطقي في صرف حكم الله من إيقاعه على وجهه الصحيح، فمرة يدخل عليهم من باب الذوق النفسي فيجعلونه حاكما على الشريعة، وهذا منتشر بين كثير من الناس حين يجابهون الحكم الشرعي بعدم اطمئنانهم له، فيقول لك أحدهم: أنا لا أطمئن لهذا الحكم. أو قول بعضهم: إن نفسي لا ترتاح لهذا الرأي. وليت القائل قد تضلع بالسنة، وتشربها حتى ملأت عليه جوانحه ومشاشه، بل هو رجل لم يمر على السنة إلا لماما، وأخذ منها حديثا أو حديثين، ولم يقرأ القرآن قراءة درس وفهم، بل هذًّا سريعا، فكيف لمثل هذا الرجل أن يكون رأيه قريبا من السنة، أو يكون مزاجه قريبا من الحق؟!!، وللذكر فإن من جعل ذوقه حاكما على الشريعة يحسن ويقبح من جهة نفسه وهواه كافر زنديق، فليحذر المرء من هذا الباب فإنه من باب القول على الله تعالى بلا علم، وهو أعلى مرتبته من الشرك كما قال تعالى: {**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**} (الأعراف) فانظر حفظك الله تعالى إلى ذكر مراتب المعصية وكيف رتب الله درجاتها حيث جعل أعلى المعاصي القول على الله بلا علم نعوذ بالله من الخذلان. ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام نفيس في بداية كتابه الاستقامة فارجع إليه فإنه مهم.

قلنا سابقا إن من صوارف الشيطان الظنية في إبعاد الناس عن الحكم الشرعي هذه الأيام ما يسمى بالتحليل السياسي، وهو باب غريب وللناس فيه مذاهب وطرق تحار فيها حينا وتعجب منها حينا، وقبل أن أبين معارضة هذا الظني لقواعد الأصول فإني سأمر مرورا سريعا لتحديد بدايات هذا المأخذ الشيطاني في محاولة لكشف مصدره.

أعتقد أن أوائل وأسـياد هـذا المـذهب في بلادنا هم اليسـاريون، فهم الذين فتحـوا هـذا البـاب ليخـدموا به مـذهبهم وطـريقتهم، فهم في سـبيل إقامة الثـورات ضد الحكومـات (اليمينيـة) أو الحكومـات (الرجعيـة) كما يقولـون، جعلـوا يـرددون صـباح مسـاء، وفي كل مـوطن أن حكوماتنا حكومـات عميلة للغـرب، وخاصة لأمريكا الجديـدة وبريطانيـا القديمـة، وبريطانيا ومن معها من الـدول الاسـتعمارية التاريخية ثم من لحق بما من العـالم الجديد كأمريكا لها حضـور سيء قـبيح في أذهاننـا، وهـذا الحضـور سببه تلك الآثار السيئة والـتي لا تـزال شـاهدة على هـذا السـوء إلى يومنا هذا، مثل هذا التفرق والحدود التي اصطنعتها في بلادنـا، ثم النهب السـيء لخيرات بلادنا، ثم تاريخها مع فلسطين واليهـود، فالعقل المسـلم مليء ولا شك بهـذا الواقع السـيء من تـاريخ الغـرب في بلادنـا، فبمجـرد أن يلـوح الخطيب بارتباط جماعة أو فرد بالغرب يكـون كافيا بـأن يسـقط من أعين الناس واحترامهم.

فإذا أردت تدمير عدو لك ما عليك إلا أن تصفه بالعمالة ابتـداء وبالتـالي صارت هذه الكلمة تقال جزافـا، فما أن يقـوم انقلاب في بلادنا حـتى يـبرر الانقلابيون ذلك بأنهم وطنيون، وأن سلفهم عملاء للاسـتعمار، وكفى بـذلك مبررا.

هـذه البداية الصـغيرة تطـورت في تفسـير أحـداث الكـون حـتى صـار مشـهودا بين النـاس المثل القائـل: لو رأيت السـمك يقتل في البحر ففكر بالإنجليز. ومع قليل من التهويل صـار المسـلم كلما قـرع له بالشـنان فكر بالأيدي العميلة المـدبرة لأحـداث الكـون وأحـداث الحيـاة، فليس هنـاك ثم صغيرة أو كبيرة فوق هذه الأرض وفي داخل البحر إلا وللدول الكـبرى فيها يد، وصار المجتهد الجهبذ هو من يبعد لك النجعة في تحليل الخبر وتفسيره ضمن هذا السياق في فهم هذه الأحداث، وهناك بعض الكتب سـاهمت في صنع هذه العقلية بغض النظر عن صواب بعض أحـداثها وتحليلها أم لا، مثل كتاب "حكومة العالم الخفية" وكتاب "أحجار على رقعة الشـطرنج" ومثلها كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" وكتاب "لعبة الأمم" وغيرها من الكتب، فـإن هـذه الكتب أوحت لقارئها (المـؤمن بما فيهـا) أن أحـداث الكـون بصـغيرها وكبيرها محاطة ومرسـومة من قبل عـالم خفي!، بعضـهم أطلق عليه الماسونية وبعضهم قـال هي حكومة أندية الروتـاري وغيرهـا، وعقلية المسلم المتخلفة رأت في نفسها التطور للخروج من تحليل الأحداث على قاعدة الجن والشياطين إلى عالم المؤامرة والحكومات الخفيـة، فبـدل أن تكـون صـوفية متخلفة تحلل الأمـور على أنها من فعل الجن والشـياطين وهذا تخلف، فالعلمية هي تسمية هذا العالم بالحكومة الخفية.

ولا يفهم من كلامي أني أنفي عـالم الجن والشـياطين وأن لهما صـلة بواقعنـا، أو يفهم من كلامي أي أنفي مبـدأ وجـود الأعـداء المخططين ضد الإسـلام وأهلـه، فأنا بفضل الله تعـالى مـازلت في مكـاني لم أبـرح عليه عاكفا.

أي أني أعتقد بوجـود عـالم الشـياطين في الجن والإنس، وأعتقد قوله تعالى: {يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غـرورا} ولكنني لا أعتقد أن

محمد علي كلاي كان ينتصر لأنه كـان يسـتعين بجن مسـلم يقاتل معه ضد جو فريزر الذي كان يستعين بجن كافر يلاكم معه.

المهم أن المناط الوحيد الذي صار يعلق الناس أحـداث الحيـاة عليه هو العمالة وتخطيط الحكومة الخفية، والارتبـاط بإحـدى أقطـاب الصـراع في العالم، وكان أئمة هذا الشأن من الجماعات الإسلامية هم حـزب التحريـر، فإنه ما فتئ يردد للناس من خلال نشراته أن الصراع بين أمريكا وبريطانيا على أشده في اقتسام العالم العـربي، ولم يخـرج رئيس ملعـون أو حـاكم مرتد أو رئيس قبيلة أو قائد تنظيم من هـــذه المعادلة الجديـــدة، وما من معركة تقوم ولا انقلاب يحـدث إلا ضـمن هـذا السـياق والتحليـل، فهـذا بلد محكـوم لأمريكا والانقلاب قـام من أجل عمالة بريطانيـا، وهـذا بلد عميل لبريطانيا وما الانقلاب إلا من أجل عمالة أمريكـا، وهكـذا ما من حـدث إلا ضمن هذه المعادلة، لا يخـرج عنها شـيء البتـة، وانتشر هـذا التحليل حـتى عند صغار الناس وصار الوعي الكامل والفهم الثاقب البرهنة على أن هــذا الحـدث ضـمن معادلة دوليـة، وعمالة خفيـة. وللـذكر فـإن هـذا النـوع من التحليل لا يرى للمعسـكر الاشـتراكي (يـوم أن كـان معسـكرا) وجـودا في المنطقة. وقد استخدم بعضـهم نفس الأسـلوب ضد حـزب التحرير فاتهمه بأنه عميل بريطاني، فانقلب السحر على الساحر، وصدق من قال:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

وفي المقابل هناك قوم يحللـون الأمر على جهة الحكومة اليهوديـة: هنا يهود، وهناك يهود، فهذا بلد صنعه اليهود، وهذا حزب وراءه اليهود، فـاليهود هم قادة الأحداث كلها في هذا الكون.

وقد قـابلت أقواما يحللـون كل شـيء على منـاط الشـيوعية، فكل من حارب الدول الديمقراطية واليمينية شـيوعي - علم أم لم يعلم - فهو يـرى أن الشيخ سلمان العـودة وسـفر الحـوالي صـنيعة شـيوعية لأفما يحاربـان الدولة التي ما زالت أقدامها راسخة في محاربة المد الشيوعي، وهذا تيـار موجود في الأردن وله رجاله وله مذهبه، بل إنه يرى أن كل من تكلم على الحكام وكشف شرهم وحـرض الأمة على الخـروج عليهم صـنيعة يهودية - علم أم لم يعلم - ويحللون أحداث الكون على هذا النسق وهـذه المعادلـة، وهكـذا تتغـير التفسـيرات ولكنها تبقى ضـمن إطـار واحد ونـوع واحد وهو التفسير التآمري للأحداث.

أما ما يهمنا فهو خطورة هذه الطريقة في فهم أحداث الكـون والحيـاة، وبالتالي ما يتعلق بما من أحكام شرعية.

لو نظرنا إلى أدلة هؤلاء المحللين لرأينا هشاشة أدلتهم وعدم قبولها إلا للأطفال والصبية، فبعضـهم يجعل فلانا عميلا بمجـرد أنه رآه مشـتريا مجلة فيها صورة لحاكم من الحكام، وبعضـهم يجعل فلانا عميلا لأنـه رآه اشـترى حذاء من صنع الدولة المعنيـة، وهكـذا..، فلما كـانت هـذه الأدلة لا تقبل ولا تصلح، كانت العمالة عندنا تعني الـولاء والنصـرة وبالتـالي فمن كـان عميلا لدولة كافرة هو كافر مثلها، وحكمه في دين الله تعالى هو القتل، وهـذا هو حكم الجاسوس عند جمهور العلماء، كان إطلاق لفظ العمالة والجاسوسية على رجل أو حركة خطـير جــدا لا يصلح معه اللعب والفهلــوة، نعم عليك بالحـذر والكيس والفطنـة ولكن عليك أن لا تكفر النـاس بالظنـة، فـالأمر خطير.

هذه مسألة أولى تتعلق بأولئك القـوم الـذين يضـربون بالرمل ويـدعون علم السياسة فيستسـهلون القـول بـأن فلانا أو تلك الحركة عميلة للطـواغيت، فليعلمـوا أن معـنى حكمهم هـذا هو تكفـير هـذا الفـرد وهـذه الطائفة وتجويز قتله وقتاله لأي أحد من المسلمين.. هذه واحدة.
أما الثانية: فهي ما قدمنا من إبطـال أي عمل جهـادي ضد طـاغوت من الطواغيت..

أهل التخييل: حكم قتال المرتدين

من قـرأ سـيرة الصـحابة رضـي عنهم في حـروبهم وجهـادهم رأى بكل وضوح أن جهادهم للمرتدين وخاصة قتـال بـني حنيفة أتبـاع مسـيلمة كـان من أشق الحروب وأتعبها عليهم فقد جهدوا فيها جهـدا عظيمـا، وقـال أهل السـيرة أن عـدد من قتل من المسـلمين يقـارب الألـف، وعـدد قتلى بني حنيفة (10) آلاف نفس، وكـان عـدد كبـير من القتلى من حملة القـرآن، وكـانت هـذه المقتلة سـببا في إقبـال الصـديق رضي الله عنه على جمع القـرآن، ثم من نظر في مسـيرة التـاريخ الإسـلامي رأى أن حـروب المسلمين لطوائف الزندقة كانت من أشد البلاء على المسـلمين، أشد من قتـالهم للكفـار الأصـليين، ولو تمعنا في سـبب هـذا الخصـوص في قتـال المرتدين لرأينا أن الأمر يرجع إلى سببين اثنين، وبفهمهما تـدرك جماعـات التوحيد والجهـاد أن ما هم عليه لا يقـوى له إلا الرجـال ولا يقـوم به إلا من أخلص وجهه لله سبحانه وتعالى، هذان السببان هما:
1 - إن حكم قتال المرتدين أشد من حكم قتال الكفار الأصليين:
قال الغـزالي في "فضـائح الباطنيـة" (ص 95): والقـول الوجـيز فيه أنه يسـلك بهم (أي الزنادقة الباطنيـة) مسـلك المرتـدين في النظر في الـدم والمال والنكاح ونفوذ الأقضية وقضاء العبـادات، أما الأرواح فلا يسـلك بهم مسلك الكافر الأصلي، إذ يتخير الإمام في الكافر الأصلي بين أربع خصـال: بين المن والفـداء والاسـترقاق والقتـل، ولا يتخـير في حق المرتـد، بل لا سـبيل إلى اسـترقاقهم ولا إلى قبـول الجزية منهم ولا إلى المن والفـداء، وإنما الـواجب قتلهم وتطهر وجه الأرض منهم، هـذا حكم الـذي يحكم بكفـرهم من الباطنيـة، وليس يختص جـواز قتلهم ولا وجوبه بحالة قتـالهم، بل نغتالهم ونسفك دماءهم، فإنهم مهما اشتغلوا بالقتال جاز قتلهم.ا.هـ.
فالمرتد أحكامه في القتـال أشد من الكـافر الأصـلي. وكـذلك لا يجـوز مصالحة ومهادنة وعقد الأمان للمرتدين، ويجوز مصـالحة ومهادنة وموادعة الكفـار الأصـليين: - قـال الشـافعي: إذا ضـعف المسـلمون عن قتـال المشركين، أو طائفة منهم لبعد دارهم، أو كثرة عدوهم أو خلة بالمسلمين (أي اضطراب أمور المسـلمين)، أو بمن يليهم منهم جـاز لهم الكف عنهم، ومهـادنتهم على غـير شـيء يأخذونه من المشـركين، وإن أعطـاهم المشركون شيئا قل أو كثر كان لهم أخذه.[1]
وجاء في "السير الكبير" وشرحه للشيباني بشـرح السرخسـي: وان لم يكن بالمسـلمين قـوة عليهم فلا بـأس بالموادعـة، لأن الموادعة خـير للمسـلمين في هـذا الحـال، وقد قـال الله عز وجـل: {وإن جنحـوا للسـلم

---

[1] - الأم 4/186.

فاجنح لها وتوكل على الله}.[1] وقال ابن قدامة: وتجوز مهـادنتهم على غـير مال، لأن النبي صلى الله عليه وسلم هادنهم يـوم الحديبية على غـير مـال يأخذه منهم فإنها إذا جازت على غير مال فعلى مال أولى.[2]

هذا في أحكام الكفار الأصليين فإنه يجوز للإمام وللمسلمين مــوادعتهم ومصــالحتهم وبسط أحكـام الموادعة وموجباتها مفصـلة في كتب الأئمــة، ويجب الوفــاء لهم بهــذا، ولا يجــوز الغــدر ولا الخيانة إلا أن ينقضــوا العهد والمواثيق. أما المرتدون فلا يجوز موادعتهم ولا مصالحتهم، قـال أبو الليث السمرقندي في "تحفة الفقهاء"[3]: إن أخذ الجزية وعقد الذمة مشـروع في حق جميع الكفـــار إلا مشـــركي العـــرب، والمرتـــدين، فإنه لا يقبل منهم الجزيــة، كما لم يشــرع فيهم الاســترقاق.[4] قــال كاســاني عند شـرحه لما تقــدم: بأنه لا يقبل من المرتد إلا الإســلام أو الســيف لقــول الله تعــالى: {تقاتلوهم أو يسلمون} قيل إن الآية نزلت في أهل الــردة من بــني حنيفة ولأن العقد في حق المرتد لا يقع وســيلة إلى الإســلام لأن الظــاهر أنه لا ينتقل عن دين الإســلام بعــدما عــرف محاســنه وشــرائعه المحمــودة في العقول إلا لسوء اختيار وشـؤم طبع فيقع اليـأس عن فلاحه فلا يكـون عقد ذمة.[5]

قال القرطـبي: قـال الأوزاعي: تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نـار أو جاحد أو مكذب، وكذلك مـذهب مالـك، فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيا، أو عجميا، تغلبيا أو قرشـيا كائنا من كـان إلا المرتد.[6]

قال ابن تيمية: وقد استقرت السنة بأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكــافر الأصــلي من وجــوه متعــددة، منها أن المرتد يقتل بكل حــال، ولا يضــرب عليه جزيــة، ولا تعقد له ذمــة، بخلاف الكــافر الأصــلي، ومنها أن المرتد يقتل وإن كان عاجزا عن القتال، بخلاف الكافر الأصـلي الـذي ليس هو من أهل القتــال، فإنه لا يقتل عند أكــثر العلمــاء كــأبي حنيفة ومالك وأحمد، ومنها أن المرتد لا يرث ولا ينـاكح ولا تؤكل ذبيحتـه، بخلاف الكـافر الأصلي إلى غير ذلك من الأحكام.[7] وعلى هذا فأحكام قتال المرتــدين أشد من أحكام قتـال الكفـار الأصـليين، ولما علمنا أن حكـام بلادنا مرتـدون فلا يجوز مصالحة أحد منهم أو مسالمته أو مهادنته تحت دعـوى المصـلحة، أي أنه لا يجوز لجماعات الجهاد أن تداهن أحدا من هؤلاء المرتدين أو تســالمه أو تتعاون معه في قتالها لطائفة الكفر في بلدها.

كان المسلمون الأوائل يخرجون للجهـاد وقد حضـروا أنفسـهم وجهـزوا أمورهم وهم في أرضهم وبلدهم آمنون.

أما اليــوم انظر إلى واقع الجماعـات المجاهـدة فإنهـا جـاءت إلى واقع مقفل لا منفذ لهم فيــه، وقد تــرقت الــدول العلمانية الكــافرة اليــوم في الحالة الأمنية الرقي الشديد ما لم يكن بمثل هذه الصورة المتينة في يــوم

---

[1] - 5/1689.
[2] - المغني 10/519.
[3] - وهو متن كتاب "بدائع الصنائع للكاساني".
[4] - 3/207.
[5] - 7/111.
[6] - الجامع لأحكام القرآن 8/110.
[7] - مجموع الفتاوى 28/532.

من الأيام، وليس للجماعات المجاهدة أرض ينطلقـون منهـا، ومع ذلك فهم يواصـــلون الطريق بكل آلامها وجروحها فلو أصـــابتهم مصـــيبة في لقـــاء ومعركة من المعارك فليس لهم أرض يفيئون إليها، ولا فئة ينحازون إليهـــا، فيا الله ما أعظم هذا النوع من الجهاد وما أشقه!!.

نعم إن جهاد المرتدين اليـوم جهـاد شـاق وفيه من البلاء والعنت ما الله به عليم، والرجل المجاهد ملاحق من بيت إلى بيت، وأهله تحت ســــطوة الطاغوت وقوته، أي أنه مكشوف نصفه، بل أغلبه، فهذا جهاد خاص ولذلك له أجر خـاص كما أخبرنا النـبي صـلى الله عليه وسـلم أن أجر المتمسك بدينه في مثل هذه الأزمان أجر خمسين من الأوائل، لأن المجاهدين اليـوم لا يجدون على الحق أعوانا وكان الأوائل يجدون على الحق أعوانا.

انظر اليوم كم يعاني الأخ من أجل أن يصل إلى أرض الجهاد، وكم يبذل من الجهد والفكر، وكم يلاقي من العذاب والمشــقة من أجل أن يصل إلى أرض ليجاهد فيهـا، وتفكر في هـذه القيـود الأمنية الـتي يخترقها الشـباب المسلم الموحد حـتى يطبق فريضة وعبـادة القتـال في سـبيل الله تعـالى ضد المرتدين؟.

هل مر على المسلمين مثل هذه الحالة من قبل؟.

الجواب القديم: بالقطع أننا لم نعهد قبل هذه الحالة في تاريخنا.

انظر اجتمـاع العـالم أجمع - كفـارا ومرتـدين - من أجل تطويق الجهـاد والمجاهـــدين، وهم لا ظهر يحميهم ولا دولة ترعـــاهم، ولا إعلام يوصل صـوتهم، فهل مر على المسـلمين على مـدار التـاريخ مثل هـذه الحالـة؟. الجواب: بالقطع هو النفي.

2 - وأمـا السـبب الثـاني فهو موافقة الأمر القـدري للأمر الشـرعي المتقدم وأعـني أنه لما جعل الشـارع الحكيم سـبحانه وتعـالى حكم المرتد أشد من حكم الكافر الأصـلي إنما هو لأن المرتد في نفسه وحاله يسـتحق هذا الحكم وهو ملائم له وقد أشار الكاساني رحمه الله في كلامه المتقـدم إلى هذا المعنى، وهو أن المرتد لم يقع منه هـذا الكفر إلا بسـبب انحطـاط نفسه وخبثها وعظيم شـرها، فـإن من أسـلم وعـرف حقيقة هـذا الـدين وعظمته وأثـره على النفس والحيـاة ثم انقلب عنه بغضا وكرها لما أنـزل الله تعالى فإن هذا الشخص يستحق هـذا الحكم في حقـه، وهو لا يسـتحق هذه الحياة، فليس له أن ينعم بخيراتها ولا يأكل من ثمارها.

ولما كان بغض المرتدين لهذا الـدين وكـذلك بغضـهم لأهله شـديدا كـان قتالهم للمسلمين شديدا، بخلاف الكفار الأصليين فإن الكثير منهم لا يعرف لمـاذا يقاتل ولا علام يقاتـل، بل يسـاق إلى الحـرب سـوقا، ولـذلك بعد أن تضع الحرب أوزارها فان كثيرا منهم يدخل في دين الله تعالى، وهـذا حـال الـــدول والممالك والأقطـــار الـــتي فتحها المســـلمون الأوائل رحمهم الله تعالى، فإن تلك البلاد دخل أصحابها في دين الله تعالى أفواجا.

وقد أشار الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه "ردة ولا أبا بكر لهـا" إلى حقيقة نفسية هؤلاء المرتدين، وأنها أعتى نفسية مـرت على وجه التـاريخ، بل هي اقتبست معالمها من نفســية الشــيطان ذلك أنه لما رأى نفسه قد حكم الله تعالى عليه الخلود في جهنم فإنه طلب من الله تعـالى أن يمهله إلى نهاية الـدنيا حـتى يفتن كثـيرا من النـاس فيـذهب بهم معه إلى جهنم، فإنه نقم على النـاس طهـرهم وعفـافهم وإيمـانهم، وكـذا المرتد فإنه ينقم

على الناس إسلامهم، وأذكر أن الشيخ أبا الحسن قد ذكر في كتابه نفسـية هـذا المرتد وحلل هـذا النـوع من النـاس وأنه يـرى نفسه قد ضـعف أمـام الشهوة، إما شهوة المال أو شهوة المنصب أو شهوة النســاء فـيرى نفسه حقـيرا ذليلا وهو يــرى أمامه شــابا مســلما قد ترفع عن هــذه الشــهوات وضربها بقدمه واستمسك بدينه فينقم عليه هذه الفضيلة ويستصــغر نفسه أمامه فبـــدل أن يـــؤوب إلى رشـــده ويهتـــدي إلى رحمة الله فإنه لنفسه الخبيثة يحقد على هــذا الشــاب لأنه يــذكره بضـعفه وعجــزه، فيكــون له كالمرآة، ولـذلك عنـدما تسـمع أو تقـرأ هـذه القصص الحقيقية من تعـذيب المرتدين للمسلمين تكاد لهولها أن تدخل في عالم الخيال والخرافات، لأن هذا النوع من البشر ليس له مثيل في الظلم والكفر والعدوان.

إذن قتال هذا النوع من البشر قتـال خـاص في شـدته وهوله وعظمتـه، وهو يقاتل إلى آخر رمق وإلى آخر نفس، وإني لأعجب من أصــحاب النظر الصوفي الجديد حين يأملون الهداية لهؤلاء المرتـدين، إن هـؤلاء القـوم جد واهمون ولا يعرفون حقيقة حكامهم.

محك النظر وميزان العمل: الحسنة والسيئة

إعــادة تــرتيب المــوازين المائلة في العقــول في الحكم على الأشــياء والأفعـال هي إحـدى مهمـات الأنبيـاء المرسـلين عليهم الصـلاة والسـلام، فالنظر القاصر الضعيف، والعين التي لا تـرى إلا هـذا العـالم فقط وما فيه من حركة ظاهرة لا بد أن تحكم على الأشياء والأفعال حكما قاصرا ضعيفا، فإذا أقام الناس أحكامهم ومـوازينهم على ما سماه الله تعـالى ظنا وهـوى فإن الحياة ستختل وتضطرب، والفطرة وإن كانت في أصل خلقتها سليمة معافاة وفيها الصلاحية أن تصيب الحق أو أن تتعـرف عليه حين تهـدى إليه إلا أن هــذه الفطــرة قابلة للتبــدل والتغـير بعد معافســتها هــذه الحيــاة - ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) - والهوى له قـوة دافعة لتحقيق الشرور، والظن والجهل وسوء التأويل يبرر لهذا الهوى أفعاله وحركتـه، ولا يتم وقوع هوى فاسد إلا بشبهة فاسـدة ولـذلك جمعهما الله تعـالى في آية واحدة حين قال: {**إن يتبعــون إلا الظن وما تهــوى الأنفس**} وجعل سبحانه وتعالى مقابل هذين الأمرين: الهدى، فقـال: {**ولقد جـاءهم من ربهم الهدى**} فالهدى يمنع الهوى، والهدى يمنع الظن.

إن الميزان المختل لا يقوم إلا على عمادين اثنتين هما: الهـوى والظن.. فالهوى هو الشـهوة الجامحة الـتي لا رابط لها ولا زمـام، وهي لا يمكن لها أن تنطلق من عقالها وتسرح في وديان الضلالة والغواية إلا بعمـاد يـدعمها ويــبرر لها أفعالها ألا وهو الظن وهو ضد العلم، فــدور الظن الفاسد تــبرير حركة الهـــوى وإعطائه المقـــدمات المزعومة من الموضـــوعية الكاذبة المفتراة، وإذا وقعت الشهوة المحرمة دون ظن يــبرر لها فعلها فإنها قريبا ما تتــوب وترجع عن غيها ومعصــيتها، ولكن إذا وقعت الشــهوة المحرمة (الهوى) وكان معها الظن الفاسد والجهل المؤول فإنها سـتكون حلقة ثابتة في الشر وهي كذلك تملك القوة في الدفع نحو الشرك والكفر.

إذا لا بد من التأويل الفاسد لتسـتقر المعصـية ثباتا ودوامـا، وكلما كـان التأويل (الظن والشــبهة) مقنعا بقنـــاع جميل بـــراق، أي بقنـــاع العقلانية والموضوعية كلما كان أدعى للقبول وأسلم للنفوس.

هذه واحدة.
أما الثانية فهي أن حركة الإنسان لا تقع إلا بـإرادة وهـذه الإرادة تتكـون من قوتين اثنتين هما: قوة العلم وقوة الدافع، فحاجه المـرء إلى شيء من الأشـياء قـوة لدفعه لتحقيق هـذه الحاجـة، وهـذه الحاجة اسـتقرت النفس على معرفتها معرفة حقيقية قوية، ففساد المرء (أي فسـاد عمله) إما أن يقع من جهة العلم، وإما أن يقع من جهة الدافع. وصلاح العلم يوجـد صـلاح الـدافع وقد يفترقا كما هو شـأن المبتدعة الـذين يريـدون تحقيق الرضـى الإلهي ودخول جنته بعلم باطل فاسد (أي بالجهل) كما قـال تعـالى: {**هل أتاك حديث الغاشـية وجـوه يومئذ خاشـعة عاملة ناصـبة تصـلى نارا حامية**} فهـذه نفس عاملة لكنها لا تبلغ هـدفها لأنها تعمل بجهل كما هو شأن رهبان النصارى وعباد الصـوفية وأمثـالهم، وقد يقع العلم الصـحيح مع الدافع الباطل كما هو شأن علماء السوء ممن يعوقـون الحق ويـأكلون به أموال الناس بالباطل كأحبار اليهـود من الأمم السـابقة ومن سـار على دربهم من علمـاء المسـلمين ممن يـبيعون دينهم من أجل أعـراض الـدنيا الفانية.
فركنا الضـــلالة هما الجهل والهـــوى، فلا يمكن أن تســـتقر المعصـــية (الهوى) في الأرض إلا بتبرير صاحب الجهل لصـاحب الهـوى. وليس الجهل هنا عدم العلم فقط ولكن الجهل ههنا هو ما يتعلق بالعلم من فسـاد، فـأي فساد لحق بالعلم انقلب العلم إلى جهل سواء لحق الفسـاد من جهة تـرك العمل أو من جهة اتبـــاع الهـــوى أو من جهة التأويل الفاسد أو من جهة معرفة الحق والحيدة عنه فكل هـذا وغـيره يقلب العلم الصـحيح إلى جهل وظن.
إذا عرفنا هــذا علمنا لمــاذا يحـرص أصـحاب الأهـواء من السـلاطين والحكـام دائما على اصـطحاب أصـحاب العمـائم، ولمـاذا ينفقـون عليهم الـذهب ويوسـعون لهم في المجـالس.. السـبب هو أن معصـية الحـاكم وأهواءه لا يمكن لها أن تدوم وتستقر إلا بوجود هذا الجاهل (العارف).
فالحكام والسلاطين رؤوسهم فارغة من الفهم، وألسـنتهم كلة عيية في تزوير حقائقهم للناس، فهم محتاجون دوما إلى رجل ذرب اللسان، ويمتلك القدرة على الخروج والدخول وإقناع الناس بمـراد صـاحب الهـوى، بمعـنى آخر لا بد من وجـود السـاحر، القـادر على قلب حقـائق الأشـياء في أعين الناظرين.
والمسألة ليست مع الحكـام والسـلاطين فقط ولكن هـذا أمر عـام في كل معصـــية يريـــدها إبليس أن تســـتقر على وجه الأرض، وأن يجعل لها قوائما وأرجلا وجذورا وسيقانا.
((**أخوف من الدجال على أمتي: الأئمة المضـلون**)) هكـذا نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أســـــباب الهزيمة وعوامل النصـــــر: الطاعة والمعصية

المعصـية من غـير سـتار يسـترها عارية مفضـوحة، نتنة الرائحـة، خبيثة المنظر ينفر منها كل أحد ولا يستسـيغها أحـد، لكنها حين تحف بالشـبهة وتأتي إليك وهي تنطق كلمات الله فإنها تتزين للنـاظرين، وهـذا هو مكمن

قوتها وسر قبولها ولذلك صدق من قال: كم يخيفني الشيطان حين يـأتيني ذاكرا اسم الله.

العلم الصـحيح القـائم على الحق المطلق (الكتـاب والسـنة)، وتـرك التقليد، ونبذ التعصب، ومتابعة السنة، والاهتداء بمن ماتوا على خير، وترك التعلق بالغرائب والشذوذات، كل هذه محصنات للمسلم من أن تمرر عليه ألاعيب أهل الباطل من السـدنة الكـاذبين، وعلمـاء اللسـان والسـلطان، وخطباء الفتنة.

قـال تعـالى: {**إن الـذين تولـوا منكم يـوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشـيطان ببعض ما كسـبوا ولقد عفى الله عنهم إن الله غفور رحيم**}(آل عمران).

هذه الآية من سـورة آل عمـران في عرضـها لـذكر المصـاب الجلل في غزوة أحد، وهذه الآية جامعة لكل معوقات النصر وموانع وقوعه: وإنما هي الذنوب.

{**إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا**} وبعيدا عما قاله أهل التفسير رحمهم الله تعالى حيث أكثروا فيها القول فإنما أقوالهم تعـود إلى أمر واحـد، وهو أن الشـيطان لا يكـون له على المسـلم سـبيل في تحقيق مراده منه حتى يعطي المسلم الحجة لها.

{**استزلهم الشـيطان**}: أي أوقعهم في الزلـل، والزلل هنا الهزيمة وعدم الثبات في المعركة، أي هو تعطيل النصر وعدم تحقيقه.

{**ببعض ما كسبوا**}: لقد كان للشيطان عليهم سـبيل بـأن حقق فيهم الهزيمة بسـبب أعمـالهم وذنـوبهم. فهكـذا هي سـنة الله الجارية في المسـلمين، وهي سـنة لا تتخلـف ولا تتعطل وهي أن الهـزائم لا تقع إلا بسبب أعمال يصيبها المسلم فتبعد عنه النصر وتقرب إليه الهزيمة.

وهنا لا بد من أمر نذكره وهو أن هذه المعاصي (أسـباب الهزيمـة) لا بد أن يكون لها من ارتباط سنني مع الهزيمة. أي أنها ليست مطلق المعاصي والـذنوب لكنها المعاصـي الـتي لها علاقة الحـرب والقتـال مثـل: تـرك التـدريب، والإعـراض عن الجماعـة، وعصـيان الأمير، وتـرك الأخذ بالسـنة القدرية كعدم تعيين صاحب الأمر المفيد في بابه، وهذا لا يعني التقليل من شـأن الذنوب الأخـرى لكن تأثيرها على نتيجـة المعركة تـأثير غـير مباشر بخلاف الذنوب التي لها علاقة مباشرة بعملية الجهـاد والقتـال، ولـذلك من إبعـاد النجعة حين نبحث عن أسـباب الهزيمة في معركة من المعـارك وموقع من المواقع أن نذهب فنعدد معصية عـدم صـلة الـرحم، أو معصـية أكل مـال اليـتيم كأسـباب لحصـول الهزيمة ونـترك الأسـباب المباشـرة لحصـول الهزيمـة، فلا بد أن ننتبه إلى العلاقة القدرية بين السـبب والمسبب، بين العمل والنتيجة، بين الذنب والهزيمة.

قـال تعـالى: {**إن فرعـون علا في الأرض وجعل أهلها شـيعا يستضعف طائفة منهم يـذبح أبنـاءهم ويسـتحيي نسـاءهم إنـه كان من المفسدين**} (القصص).

في هـذه الآية من سـورة القصـص يـبين الله سـبحانه وتعـالى أسـلوب الطاغوت في فـرض ألوهيته على الخلـق، وكيف حصل له العلو والإفسـاد، والعلو في القـرآن مقـارن للفسـاد: قـال تعـالى: {**وقضـينا إلى بـني**

إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا} (الإسراء).

قال تعالى: { **علا في الأرض وجعل أهلها شيعا**) فأول أمر فعله لاستتباب حكمه وإفساده هو تفريق الناس فجعلهم شيعا.

واللفظ القرآني (**جعل أهلها شيعا**) فيه من الدلالات العميقة والتي تحتاج إلى كشف وبيان: فقول الله تعالى: (شيعا) دل على أن فرعون لم يستخدم كثيرا من القهر في تحزيبهم وتشتيتهم وتفرقهم، بل استخدم شيئا من المكر والدهاء في إثارة عوامل التفرق الكامنة في نفوسهم، فالتشيع هو التناصر على شيء، فشيعة الرجل أتباعه وأنصاره، هذا التشيع حصل بإثارة كوامن ذاتية في النفوس، فيها القبول الذاتي بحصول التشيع أي الأتباع والأنصار، فصارت كل فرقة تتبع وتناصر شيئا فيه الدافع الذاتي من المحسن الخارجي، وإلا فلو كان فقط القهر الخارجي هو الذي صنع الفرقة لما جاء لفظ (شيعا) ولجاء لفظ غيره. ولكنهم صاروا شيعا بعامل ذاتي فيه القبول الذاتي والرضوخ النفسي لهذا المحرض الخارجي وهو فساد فرعون.

وقد ذكر الله تعالى عقب هذا قوله: { **يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم**} وهنا لم يذكر الله تعالى شأن الذين اتخذهم فرعون ليمارسوا القهر والذبح والسبي، فحيث اتخذ طائفة للاستضعاف فإنه ولا بد اتخذ طائفة أخرى للاستكبار والاستعلاء.

والحديث هنا في ذكر القرآن لقصة موسى عليه السلام مع بن إسرائيل، ولكن الحديث القرآني عنه في جعل الناس شيعا جاء عاما { **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا**}.

هكذا هي سنة الطاغوت في استتباب ملكه وتجذير شره في الناس: أن يكون الناس شيعا، التفرق والتنازع والتعدد.

والقران لا يذم التفرق على أساس الحق حيث يتعدد الناس إلى فرق بحسب أديانهم، بل هذا هو الواجب في دعوة الأنبياء، فإن النبي صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس، فالمؤمنون ينزعون أنفسهم من بين الكافرين ويتفرقون عنهم ويتشيعون دونهم على حقهم، وأهل السنة ينزعون أنفسهم من بين أهل البدع ويتشيعون دونهم على السنة، وهذا من أسباب تحقيق الرفعة لهم والعزة لدينهم ولسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

أما الذنب الذي لا يجبر في هذه الدنيا فهو التشيع على الباطل، والتحزب على غير الحق، والتفرق على أسس الجاهلية، فهذا الذي يجعل لزلل الشيطان فيهم موضعا.

وكذلك من الذنب الذي تعجل به العقوبة وتحصل به الهزيمة الاجتماع على غير الحق، والالتفاف على الباطل.

التحالفات المقيتة (هزيمة):

إن من أعظم ما نراه واقعا ومحققا الهزيمة للمسلمين في كل موقع هو التحالفات على أسس الوطنية المقيتة.

لقد كان لهذا الباب دور شر على أمتنا في عدم تحقيق مقاصد الشريعة بل وقوع الضد وهو تحقيق مصالح أعداء الله تعالى. فما من تجربة وقعت

فيها التحالفات على غير الهدى والحق إلا وكـانت هـذه التحالفـات السـبب الماحق لكل المكاسب التي يحاول أهل الإسلام تحقيقها.

لقد أعمل فينا فرعـون عمله حين قسم المسـلمين إلى طوائف وشـيع حسب بلـداننا وقرانا واستجبنا له بفعل الجاهلية الـتي أعملت فينا عملهـا. فتفـرقت أوصـالنا على أسس الجاهلية المقيتة فسـهل على الشـيطان أن يبث فينا شره.

وهــذا وقع أشد منه وقوعا بين المســلمين وأوضح معلمــا. أي تفــرق المسلمين شيعا على أسـاس الباطل (الجاهليـة) واجتمـاعهم على أسـاس باطل (الجاهلية).

هذه الوطنية المقيتة متى يعلو أهل الإسلام عن خبثها ونتنها؟: جماعـات مسلمة تتحد مع جماعات كافرة على أساس الوطنية، وتعرض عن أخواتها لأنها ليست من بلدها ووطنها، فكيف يتحقق النصر حينئذ؟!!.

كيف نخطــو إلى أهــدافنا والشــيطان يعمل فينا عمله ولم نســتطع أن نتجــاوز ما اســتمرأنا عليه من نتن الاجتمــاع على القبيلة الواحــدة والبلد الواحد والدولة الواحدة؟!!.

نحن لا نـذيع سـرا حين نقـول إن هـذا المـرض ما زال يعمل عمله بين المسلمين وهو موجود بكل ثقله ووطأته بين الفرق والجماعات.

لقد أعطانا الله تعالى عمقا جغرافيا نستطيع أن نستخدمه باتباع ســبيل المؤمنين لتحقيق أهـداف الإسـلام العظيمـة، ولكننا قلبنا هـذه النعمة نقمة وحولنا بقبــول ذاتي ورضوخ نفسي عوامل النصر إلى ســبب الهزيمــة، ثم والأعجب من ذلك كله صــرنا نتمتع بلعق هــذه الــدماء النازفة منا دمــارا وتفتيتا، وأقصد بهـذا التمتع هو ما نـراه بين الشـباب المسـلم من اسـتكبار وغــرور في تعــداده لمنــاقب أهل بلــده، وظلمه وحيفه وهو يعــدد مثــالب وأخطاء بلد غيره.

أتمــنى أن يكتشف كل أهل بلــدة أخطــاءهم ومثــالبهم وســوءاتهم مثل قدرتهم على اكتشاف سيئات وأخطاء الآخرين!!.

إن الجرح في الكـف، بل إن الجـرح تحـول إلى مـرض سـار في البـدن كله، فإن لم نتداركه باتباع الشرع الحنيف هلكنا واستزلنا الشـيطان بقبولنا أن نكون شيعا.

إيثار الحق على الخلق (نصر):

اعلم يا عبد الله أن هذا الدين لا يعطى ثماره في الخلق حـتى يثقـوا به تمام الثقة، وتمتلئ قلوبهم به، ويسـتغنوا به عمن سـواه، لأن صـاحب هـذا الأمر هو الله سبحانه وتعالى، والله جل وعلا كامل قدوس لا يعتريه النقص والضعف {**لا تأخذه سنة ولا نوم**}، فلما كان صاحب هذا الأمر كـاملا لا يحتـاج إلى غـيره، علومه كاملـة، وعطايـاه كاملـة، فـإن تخلف شـيء من العطــاء إنما هو لضــعف في الخلــق، وعــدم اســتحقاقهم لكامل العطــاء والمنح.

واعلم حفظك الله وهـداك أن هـذا الحق ليس بحاجة إلى رضا أحد من البشر، ولا يجـوز للمسـلم الواثق بكمـال هـذا الـدين أن يطلب من الأغيـار أعداء هذا الدين الرضا والقبول على هذا الدين، فإنه إن فعل ذلك دل على أنه مهـزوم في نفسـه، لا يثق الثقة الكاملة بهـذا الـدين. وهـذه هي حقيقة

الهزيمة، لأن الهزيمة ليست خسارة أرض وبلدان، ولا ضياع أولاد وخلان، ولا ذهاب أموال وأعراض وعمران، بل الهزيمة تخلي المسلم عن دينه، وإصابته في نفسيته من جهة ثقته بهذا الدين، ولذلك سيبقى السؤال قائما للتفريق بين إعلامين ودعوتين: هل علينا أن نسعى لإقناع الأغيار بوجودنا وحقنا في إثبات مواقفنا؟ وهل سيكون دور إعلامنا وكلماتنا ودعوتنا أن نقنع الأغيار (من كفرة ومبتدعة وضلال) بأنفسنا؟ فلعلنا ننال منهم نظرة رضا أو كلمة إعجاب، وقبول الوجود.

هل هذا هو دور الإعلام والنشرات والدوريات؟ أن نرتق الكلمات، ونخفي شيئا ونظهر شيئا، فنضع أيدينا على آيات ساطعة، وكلمات مضيئة حتى يرضى عنا الأغيار.

أم أن هذه القضايا لا تهمنا، بل همنا أن نظهر دين الله تعالى كما هو في نفسه من غير تقية ولا مناورة ولا جمجمة؟.

على أي حساب وضعنا هذه المقارنة فسيكون خيار أهل الثقة بهذا الدين هو خيار الذين باعوا أنفسهم لله وارتقبوا في كل لحظة التخطف من الأرض، واللحوق بالصادقين من هذه الأمة، هناك فرق بين التاجر مع الله والتاجر مع المال والدينار، وهناك فرق بين الحكمة المزعومة المكذوبة وبين الحكمة التي تحمل في طياتها أول ما تحمل كلمة الحق لأن الحق هو الحكمة، والحكمة هي الحق. هي قاعدة يعرفها أهل الإسلام، {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم}. أليست هذه آية محكمة وهي قاعدة في حصول الصراع بين الحق والباطل، وأن هذا الصراع سيبقى قائما مادمت مفارقا لباطلهم، ولن يسكتوا عنك حتى تكون مثلهم.

إن خوف حصول البلاء معناه ترك سبيل الله، وإن سلوك سبيل الله معناه وقوع البلاء، أما أن تسلك سبيل الله ثم تطلب حصول الأمان والرضا والاستقرار فهذا لعمري في القياس عجيب.

إن قاعدة التبرير بعد التقصير يتقنها كل الناس. وهذا القرآن الكريم مليء بحجج المنافقين وبحجج تاركي الحق، لكنها وإن تقنعت بقناع الحكمة والتروي والتبصر، فإنها مكشوفة عند أصحابها وعند أهل البصيرة وقبل ذلك عند علام الغيوب.

بل البلاء كل البلاء ومعاناة الأمة من صنوف العذاب والهوان والذل والضعف المبين، إنما يكون بالإعراض عن هذا الدين وترك الجهاد {**إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير**} واعلم أن البلاء سنة كونية شرعية وهو واقع بالعبد لا محالة، فاختر لنفسك يا عبد الله أقوم السبيلين وأهدى الطريقين، واصبر على البلاء كي تؤجر فبلاء في طاعة الله وفي سبيله وابتغاء مرضاته خير من بلاء في معصية الله وإخلادا إلى الحياة الدنيا الفانية السريعة الزوال. وحياة في عز طاعة الله تفضي إلى رضوانه ونعيمه خير من حياة في الذلة والشقاء تفضي بالعبد إلى سخط الله وعقوبته {**وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**}.

واعلم أن سعادة المسلم في الدنيا والآخرة إنما تكون بابتغاء مرضاة الله وباتباع هدي رسوله:

{**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيــاة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**}.

وتأمل عبد الله قول الحق جل وعلا، ثم كن على يقين وثقة من موعــود الله {**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الــذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبــدلنهم من بعد خــوفهم أمنا يعبــدونني لا يشروكون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاســقون**} النور.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصــلى الله على نبيه وعلى آله وصحبه.